قصص القرآن

القرآني

بقلم

عمرو الشاعر

إهداء

إلى الأخ العزيز الفاضل: المهندس محمد حافظ

الذي كان له الفضل الكبير والرئيس في لفت انتباهي إلى الجغرافية القرآنية

ودورها في فهم النص القرآني، وإسقاطه على الواقع وربطه به!

جزاك الله خيرا كثيرا ونفع بك!

وهداك وإيانا والمسلمين لما فيه خير الصواب!

كلمة الغلاف الخلفي

كثيرةٌ هي الكتب التي تحدثت عن قصص القرآن، والتي سُميت بهذا الاسم! إلا أن محتواها لم يكن مطابقاً لاسمها، فالجزء الأكبر من هذه الكتب لم يكن ما قصّه القرآن وإنما روايات القصاصين والإسرائيليات والقصص التوراتي، بحيث يقتصر دور المؤلف على أن يقوم بإكمال "قصص القرآن" *وتفسير* أحسن القصص! بوضعه في الإطار التوراتي! وهكذا تعومل مع قصص القرآن باعتباره مجموعة من القِصص أو ككتاب تاريخ .. خاضع للتوراة! ولم نجد بين هذه الكتب كتاباً واحداً يكتفي بقصص القرآن، فيعرضه هو فقط .. كما قصّه مُنزِّله!

وكتابنا هذا يعرض لقصص القرآن لأول مرة في التاريخ الإسلامي مكتفياً به فلا يضيف إليه ولا يفسره، فيقوم بتقديم تأصيلٍ له، مستخرج منه كاملاً، مُبْرزاً النقطة الحاسمة في كونه أحسن القصص، والتي ينبغي أن يكون بها التناول الأساسي له، ثم تكون المعالجات الأخرى الجانبية في أي توجه.

كما يقوم بتقديم نصيب كبير من قصص القرآن كما قصّه ربه وليس كما اختلقه المختلقون، مبيّنا بذلك بطلان التصور المشهور حول منهج الرحمن في مخاطبة الإنسان. كما يستعمل قصص القرآن –باعتباره حاكمٌ على الكتب السابقة وعلى التاريخ ومهيمنٌ عليهما– في نقد كثيرٍ من التصورات التاريخية التوراتية التي انتشرت بين المسلمين ونُسبت إلى كتاب الله، فجعلت فيه تصوراتٍ خرافية وتعارضات تاريخية .. ليبين كيف أن القرآن منها براء.

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الرب السميع المجيب القريب .. أحمده حمد الشاكرين الراضين، وألجأ إليه لجوء الراغبين الخاضعين، وأتوكل عليه توكل المؤمنين المنيبين، وأثني عليه ثناء الذاكرين المحبين .. سبحانه .. نعم المولى المعين! أرسل الرسل وأنزل الكتب ليخرج الناس من الظلمات إلى نور الحق المبين! فصلّ اللهم عليهم وعلى من اقتدى بهديهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين، ثم أما بعد: ليلاً ونهاراً يُتلى القرآن في بلاد المسلمين، وفي غير بلادهم، وإلى جُل ألسنة البشر تُرجم الكتاب العزيز، وعلى الرغم من ذلك فإن الحال التي ذكر القرآن شكوى الرسول إياها لا تزال هي السائدة! ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝٣٠﴾]سورة الفرقان , ٣٠[، فحتى يومنا هذا لا يزال القرآن مهجورا.

نعم، كثُر ولله الحمد من يتلوه ومن يسمعه، ولكن لا يزال من يتبعونه ويستمعون إليه قلة! وأقل هم من يتلونه حق تلاوته، فيتدبرونه ويستخرجون منه منهاج حياتهم بتعرفهم على كلمة ربهم!! وليس الهجر لكل أقسام القرآن بنفس الدرجة، فهناك ما له وجود وتأثير في حياتنا، مثل ما يتعلق بالإيمانيات "العقيدة"، والذي أخذناه توارثاً وليس تعلماً من كلام ربنا، وهناك ما لا يظهر تأثيره جلياً في حياتنا، مثل الجزء المتعلق بأحكام المعاملات، إلا أنه ثمة كثيرون يجاهدون من أجل تطبيقه في واقعنا، لصبغة المجتمع بصبغة إسلامية صحيحة، وهي لن تتحقق إذا كانت أحكام الشريعة مغيبة، وأحكام الغرب، ذي المرجعية المختلفة، هي السائدة!!

وهناك ما لم يعد له وجود أو أثرٌ مذكور في حياتنا، وهجره كثيرٌ من المسلمين، سواء أرباب الثقافة أو معدوموها، فما عادوا يلقون له بالاً، بل وأصبحوا يستثقلون سماعه أو الحديث عنه، وذلك لظنهم أن محتواه لم يعد مناسباً لخطاب إنسان هذا العصر، وأنه غير ذي جدوى بالنسبة لمجتمعاتنا!!

والنموذج الأبرز لهذا الجزء المهمل هو "قصص القرآن"! فعلى الرغم من كثرة الكتابات المنتشرة حوله، إلا أن كثيراً من القرّاء يعدها كتابات خفيفة، تُقدَّم إلى الشباب والأطفال من أجل استخراج العبرة والعظة، ولتكوين ثقافة إسلامية عامة! ومن ثم فلا يقدم على اقتناءها، ظناً منه أنها غير مناسبة له في هذه المرحلة الفكرية أو الثقافية التي وصلها، فما هي إلا "قصص"!! ناهيك عن ظنه أنه قد عرف مضمون ومحتوى هذه القصص، ومن ثم فلن تقدم له هذه الكتابات أي جديد!

يضاف إلى الأسباب التي دفعت –وتدفع– الكثيرين إلى الإعراض عن "قصص القرآن" الظن بأن هذه القصص تحكي تجارب وأحداث غير التي نعايشها!! وذلك بسبب الصبغة اللاعقلانية التي قدمها السابقون عند معالجتهم لهذه القصص، والتي جعلت الطابع الظاهر لهذه القصص ولذلك الزمان هو "المعجزات"! والتي تحدث بوفرة، تجعل الإنسان يتحسر على زماننا هذا والذي لم تعد "المعجزات" تحدث فيه بأي شكل من الأشكال، ومن ثم يُخرج هذه القصص من معادلاته في تعامله مع واقعه، فسبل النجاة فيها لن توجد في هذا العصر، ومن ثم فعليه إيجاد تصورات خاصة به صالحة لزمانه!!

وهناك من جعلته هذه "المعجزات" الغامرة الوفيرة لا يتجنب هذه القصص أو يهجرها، وإنما يشك في حدوثها أصلا، فإذا كانت "المعجزات" تحدث بقدر ما، فلم لم يعد لها أي وجود؟!! فالأسباب الداعية لوجودها في زماننا هذا هي مثل أو أقوى من تلك التي وُجدت من أجلها في ذلك الزمان!! ومن ثم يحكم على هذه القصص –والكتاب الذي يحتويها تبعا– بالخرافة!!

إلا أن "المعجزات" لا تمثل أي إشكالية عند طائفة كبيرة من المسلمين، ولا تثير لديهم أي تساؤلات، بينما يدفعهم سكوت التاريخ عن قصص القرآن للتساؤل والتفكر، فالملاحظ أن القرآن يتحدث عن وقائع وشخصيات لا يجد المرء لها ذكرا في الآثار ولا مدونات التاريخ! بل يشعر القارئ أنها خارجة عن الزمان والمكان، ومن

ثم يتساءل: أين وكيف ومتى وُجدت هذه الشخصيات وحدثت هذه الوقائع؟! ثم ينهي الأكثرون هذه التساؤلات المحيرة بالحكم أن هذه الأحداث قد وقعت في مكان ما وزمان ما، ولسبب ما لم يذكرها التاريخ، ثم يتجنبون الخوض في هذه الأسئلة التي لا يجدون لها إجابة مقنعة، ويعرضون –بلا وعي– عن القصص الذي أثارها! ولهذه الأسباب، ولغيرها، وجدنا كثيراً من المسلمين –في عصرنا الحديث– يهجرون القرآن عموما، وقصصه بشكل مخصوص وبدرجة ملحوظة.

ولا يعني هذا أن هجر القرآن مسألة حديثة، نشأت لأن الاكتشافات العلمية أو التاريخية قد أوجدت إشكاليات بالنسبة للنص القرآني، وإنما هو رد فعل قديم، نشأ مع القول بمنهج غير صحيح في التعامل مع القرآن، وهو القول بحاجة القرآن إلى "التفسير"، والذي جعل القرآن نصاً غير مبين يحتاج إلى إبانة، وهكذا أصبح القرآن خاضعا للمفسرين، يوجهه كلٌ منهم كما يبدو له، بدلاً من أن يخضع له!! ومع خضوع القرآن ل "مباضع المفسرين" وبجعله تابعا لغيره من الكتب، بدلاً من أن يكون مهيمناً عليها، لم يعد القرآن مؤثراً كما كان سابقاً! ولقد عرضنا لهذه الأسباب، والتي أدت إلى هجر القرآن في كتابنا الأول "لماذا فسروا القرآن: القرآن بين التفسير والهجران"[1]، وقدمنا تصورنا للمنهج القويم الذي ينبغي أن يُتعامل به مع كتاب الله العليم، وعرضنا فيه لقصص القرآن كذلك!

وفي كتابنا هذا نتوقف مجددا مع "قصص القرآن" متناولين إياه باستفاضة وبتفصيل أكبر، لنظهر كيف أنه قد ظُلم ظلماً بيناً أكثر من غيره من محاور القرآن، فلم يقتصر الأمر على الصبغة الخرافية التي صبغه السابقون بها، وذلك لأنهم لم يقولوا بما يقول به القرآن، إما لخطئهم في تفسيره، أو لقولهم بما جاءت به الإسرائيليات!! –وسيذهل القارئ الكريم أثناء قراءته لهذا الكتاب من كمّ المخالفات الكبير، الذي ابتعد فيه المفسرون عن النص القرآني!! لدرجة تجعل المرء أحيانا يظن أنهم يتحدثون عن قصص غير الوارد في النص القرآني!!–

[1] يمكن للقارئ الكريم تحميل الكتاب من موقعنا الخاص: www.amrallah.com

وإنما تعدى الجور إلى جوانب كثيرة، أهمها أن المعاصرين الذين كتبوا عن قصص القرآن، كنوعية محددة من آيات الذكر الحكيم، لم يحاولوا أن يستخرجوا تأصيلاً قرآنياً له! وإنما اعتمدوا ما قاله القرآن أحياناً وأضافوا تصورات من عند أنفسهم، متأثرين بالتفسيرات التي قدمها السابقون، والتي أخذوها بدون فحص وتمحيص كافيين للتأكد من موافقتها القرآن من عدمه، ومن ثم خرجوا باستنتاجات خاطئة تماما، وقالوا بمعان وأهداف لم يلق لها القرآن بالاً ولم يعرض لها أصلاً!! كما تسببوا في ظهور إشكاليات، أخذوا يحاولون القضاء عليها!

لذا نعرض لقصص القرآن قاعدين منه مقعد المتعلم الطالب، نستخرج منه جميع أركانه وموضوعاته، لنبين أن قصص القرآن –والقرآن كذلك– لا يحتاج أن يضيف المتعامل معه من عند نفسه، وإنما عليه أن يستخرج ما فيه، بشرط الالتزام بما قال، وفهمه كما قال، عارضين بالنقد للقواعد والتعريفات التي قدمها الآخرون بلا مستند من كتاب الله، مبينين كيف أن فهم كلام الله على غير ما قال يؤدي إلى إنشاء صرح كبيرٍ من الوهم لا أساس له، يُنسب زوراً إلى الله.

ولا يقتصر النقد على القواعد وإنما يتعداه إلى كيفية عرض قصص القرآن! فنبين أن التعامل المألوف القائم على تجميع قصص القرآن وتقديمه كقصص، منهج غير صحيح، ونقدم الطريقة التي ينبغي بها عرض قصص القرآن!

وبعد تقديمنا التأصيل القرآني للقصص نعرض القصص القرآني بشكل لا يعتمد السرد المألوف المتتبع للأحداث بالترتيب، وإنما بطريقة قريبة من تلك التي قص بها القرآن، فنتحدث مثلاً عن الرسول مركزين على الأحداث التي وقعت منه وله، ثم قد نعرض له مرة أخرى مُركزين على شخصيته، وهكذا! وسيكون محور عرضنا للقصص من هذه الزوايا هو التركيز على محاوره الأساسية، مثل الحدث، والذي يمثل منهج الدعوة والإقناع أبرز معالمه بالنسبة للأنبياء، وكذلك الشخصية، ثم الطبيعة والمكان! ونهدف بهذا إلى غايتين اثنتين: أولهما تقديم ما قاله القرآن، وثانيهما نقض دعوى أخذ القرآن

من الكتب السابقة، بحيث يظهر للقارئ البون الشاسع بين القصص القرآني وغيره، ومن ثم يجزم بأن القول بأن القرآن أخذ بأي شكل من التوراة أو الإنجيل ضرب من الخبل!

وإجمالاً نقول: استناداً إلى منهجنا، الذي يقوم على الالتزام بالنص القرآني التزاما تاماً، يرمي هذا الكتاب إلى تعديل المنظور الذي ينظر منه وبه عامة المسلمين إلى قصص القرآن .. وإلى القرآن كله، والذي سيؤدي تباعاً إلى عودة قصص القرآن إلى مكانته المفترضة في عقول المسلمين وقلوبهم .. ومن ثم ظهور آثاره في حياتهم! وذلك كنتيجة منطقية لسقوط أكثر الشبهات والاعتراضات التي تسبب المفسرون في وجودها!! والتي كانت تحجبه عنهم وتحجبهم عنه!

ندعو الله أن يجعله خالصا لوجهه الكريم، وأن يعيننا على إخراجه في أفضل صورة، وأن يجعله في ميزان حسناتنا يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

العبد الفقير إلى عفو ربه: عمرو الشاعر.

الباب الأول

التأصيل القرآني

الفصل الأول: مناقشة التعريفات!

تمهيد

قديما قال الأصوليون "الحكم على الشيء فرع عن تصوره"، فإذا كان تصور الإنسان للشيء غير صحيح أو دقيقٍ، فمن البديهي أن الحكم الذي سيخرج به سيتراوح بين النقص والبهتان! فإذا نظرنا في التصورات المقدمة لقصص القرآن، والمعالجات التي تتخذه موضوعا لها، وجدنا أن جلها –إن لم يكن كلها– لم يخضع للقرآن في تصوره ولا في عرضه، بدءً من كتابات السابقين الذين عرضوا قصص القرآن كمجموعة من القصص، وانتهاءً بكتابات المحدثين، والتي يجذب كلٌ منها قصص القرآن إلى مجال تخصصه، ويقدمها على الهيئة التي عرفها وأتقنها.

والناظر في المكتبة الإسلامية يجد أن هناك الكثير من الكتب التي تتحدث عن قصص القرآن أو عن قصص الأنبياء خاصة، وهناك من أفرد الحديث عن "قصة" معينة من قصص القرآن، أو عن "القصة" في القرآن كلون من ألوان الأدب، وهناك من قدّم قصص القرآن للأطفال، وهناك من قارن بين الأحداث المذكورة في القرآن وطريقة عرض القرآن ل "القصة" وبين المذكور في الكتب الأخرى كالتوراة والإنجيل ... الخ أشكال المعالجات.

ويعيب هذه المعالجات المختلفة، أنها اتخذت "التأصيل" الذي قدّمه السابقون منطلقاً لهم، فلم ينظر جلهم فيه ليتثبتوا صحته، وإنما اكتفوا بالتأكيد عليه، وبإعادة صياغته، ثم الانطلاق في الطريق الذي يختاره كلٌ منهم لتناول القصص!

لذا سنتوقف في هذا الباب مع التصورات والتعريفات التي يُمهد بها للحديث عن قصص القرآن، ننظر هل أتت على وجه الإحكام، أم أنها قد جانبها الصواب أو الدقة في بعض الأحيان، محاولين أن نقدم "تأصيلاً" أكثر صلابة، يخلو من نقاط الضعف،

ومن أوجه الاختلاف، ويبرز قدر المستطاع الجوانب التي غفل السابقون عن معالجتها أو الإشارة إليها أثناء عرضهم (ل) قصص القرآن.

إشكالية المصطلح المعاصر

تعد إشكالية استخدام المصطلح في عصرنا الحديث من أبرز الإشكاليات التي يقابلها جل المتعاملين مع النص القرآني، لأنها تتطلب تمكناً لغويا من الباحث، يجعله قادراً على الفصل بين الاستعمال العربي القديم للكلمة والاستعمال القرآني لها، وبين المعاني التي طرأت لها بعد العهد النبوي وبين الاستعمال الاصطلاحي لها، الطارئ في عصرنا الحديث، والمستخدم في ثقافتنا المعاصرة!

وقليلٌ هم من يفلحون في التملص من ربقة محاولة إسقاط المدلول الاصطلاحي على الكلمة القرآنية، أما الأكثرون فيجهدون أنفسهم من أجل إثبات أنه من الممكن قبول هذا المعنى مع القرآن، وأنه من أوجه "الإعجاز" البلاغي البياني للقرآن! وتظهر هذه الإشكالية كأبرز ما يكون في كتابات أرباب "الإعجاز" العلمي في القرآن، والذين غالباً ما يكونون من المتخصصين في المجالات العلمية، بينما يعانون من عجز حاد قبالة اللسان العربي، ومن ثم يأتون بالعجائب، التي تُشمت الأعداء وتضحكهم، وتقدم لهم مطاعن جاهزة في الكتاب العزيز!!

ولا تقتصر هذه الإشكالية على أفراد طائفة بعينها وإنما تلقي بظلالها على كل أفراد المجتمع الحديث، والذين دأبوا على استعمال كلمة بمدلول محدد، حيث يظل هذا التصور أو بعضاً منه مرافقا لهذه الكلمة في مؤخرة عقولهم أثناء تعاملهم مع الكلمة!!

ونضرب لذلك مثلا بكلمة "أسطورة/أساطير"، والتي هي من الكلمات كثيرة الاستعمال في المجال الأدبي بل وفي الحياة اليومية. فإذا نظرنا في تعريفات أهل الاختصاص لها، وجدنا أنهم لم يختلفوا عن العوام بشأنها، فقسموها إلى أنواع وأصناف عدة، وقدموا

لكل صنف تعريف باعتبار المنظور الذي يُنظر به إليها، حتى أننا نجد أن الدكتور كارم محمود عزيز يسود في كتابه "أساطير العالم القديم" قرابة الخمس عشرة صفحة حول تعريفات الأسطورة! فيقدم لها تعريفات بالنظر إلى أصلها وبالنظر إلى مضمونها وبالنظر إلى سماتها وبالنظر إلى وظائفها!! مؤكداً أنه من الصعب تقديم تعريفٍ محدد للأسطورة، ويقدم لهذه التعريفات كلها بمقولة سانت أوغسطين: "إنني اعرف جيداً ما هي الأسطورة بشرط ألاّ يسألني أحد عنها، ولكن إذا ما سُئلت، وأردت الجواب، فسوف يعتريني التلكؤ[2]" اهـ

إلا أننا –كغير متخصصين– نفهم أن المقصود بالأسطورة هو قصة تحكي أحداثا غير معقولة (خرافية) من المفترض أنها حصلت في الأزمنة الغابرة. فهل استعمل القرآن الكلمة بهذا المعنى؟! القارئ لعامة الكاتبين حول الكلمة يجد أنهم يؤيدون هذا القول، وذلك لأنهم وجدوا هذا المعنى في المعاجم اللغوية، فمما ذكره ابن فارس حول الكلمة: "أمَّا الأساطير فكأنها أشياءُ كُتبت من الباطل فصار ذلك اسماً لها، مخصوصاً بها. يقال سَطَّر فلانٌ علينا تسطيراً، إذا جاء بالأباطيل.[3]" اهـ

والسؤال هنا: هل ما قاله ابن فارس يتفق مع ما ذكره القرآن؟ إذا نظرنا في القرآن وجدنا أنه لا يؤيدهم فيما يقولون به، فأول ما يلحظه الناظر أن كلمة "أسطورة" لم تأت مفردة في الكتاب، وإنما أتت في تسع مواطن جمعاً ومضافة إلى "الأولين"، فإذا نظرنا في هذه المواطن وجدنا الرب يقول حاكيا قول الكافرين: ﴿... حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٥﴾ [سورة الأنعام, ٢٥]، ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣١﴾ [سورة الأنفال, ٣١]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤﴾ [سورة النحل, ٢٤]، ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ

[2] كارم محمود عزيز، أساطير العالم القديم، ص.19.

[3] أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، الجزء الثالث، ص. 72–73.

أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾] سورة المؤمنون ,٨٣[، ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾] سورة الفرقان ,٥[

والتخصيص بالإضافة إلى "الأولين" هو من أجل تمييزها عن "أساطير الآخرين"، والأساطير جمع أسطورة، وهي الشيء المسطور، ولقد رمى المشركون الرسول بأنه كان يكتتب هذه الأساطير، فهم كانوا يريدون القول أن محمد وجد كتبا من كتب السابقين وهو ينقل عنها، فهم لا يعيبون في المحتوى ولا يرمونه بالباطل أو الخرافة ولا أنه مجموعة أكاذيب، وإنما ينفون عنه الأصالة، ويقولون أن هذا ليس بالجديد وإنما هو مأخوذ من كتابات السابقين الأولين! لهذا جاءت الكلمة مضافة دوما إلى "الأولين" ولو كان المراد من الأساطير الخرافة لرد الله مبيناً أنه لا تشابه بين الاثنين، فشتان الفارق بينهما، وهذا ما لم نجده وإنما وجدنا الرد يقول أنه ليس من عند محمد ولا غيره: ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٦﴾]سورة الفرقان ,٦[، فالقرآن كتاب أصيل من عند رب العالمين!

إذا وكما رأينا فالقرآن استعمل الكلمة بالمعنى الأصلي لها وهو "الكتابات المسطورة" ثم جاء اللاحقون فأسقطوا عليها معنى إضافياً ارتبط بها وأصبح هو الفهم المعتمد للمفردة القرآنية!! وكذلك لاقت الكلمة الرئيسة لموضوعنا "قصص" معاملة لا تليق بها ولا تتناسب مع محتواها، وذلك لأن الإنسان المعاصر فهم "القَصص" على أنه جمع قِصة، والقصة عمل أدبي، يختلف تصوره من شخص لآخر، إلا أنه يكاد ينحصر في عقول القراء في نقطتين: أنه عمل خيالي، فإن لم يكن خياليا، فهو عمل للعبرة والعظة أو ... الترفيه!!

وعلى الرغم من أن القرآن لم يستعمل كلمة "قِصص" وإنما "قَصص"، وكذلك لم يستعمل كلمة "قصة" قط، فإن ظلال ومتتبعات هذه الكلمة ستظل عالقة بذهن القارئ، حيث سينظر إلى قصص القرآن كما ينظر إلى أنماط القصص الأدبي، ثم يبدأ في تقسيمه إلى "القصة والرواية والحكاية والأقصوصة" والتعامل معه على هذا

الأساس!! وعلى الرغم من أن القرآن نص سابق لهذه التقسيمات، إلا أنه يُفترض فيه أنه نص مطلق، فهل يمكن قبول هذه التصورات بشأنه؟!

القص

إذا أردنا أن نستخرج أدق تصور للكلمة، نرجع إلى المرجعين الأمينين: اللسان العربي والبيان القرآني، لننظر كيف جاءت الكلمة فيهما: "القصص" مأخوذ من "القص"، فما هو القص؟! إذا نظرنا في معجم "لسان العرب" لابن منظور، وجدنا أنه قد ذكر معان عدة للقص ومشتقاته، من أهمها: "قَصَّ الشعر والصوف والظفر يقُصُّه قَصّاً وقَصّصَه وقَصّاه على التحويل: قَطعَه. (...) والقَصُّ: أَخذ الشعر بالمِقَصّ، وأَصل القَصِّ القَطْعُ. يقال: قصَصْت ما بينهما أَي قطعت. والمِقَصُّ: ما قصَصْت به أَي قطعت. قال أَبو منصور: القِصاص في الجِراح مأْخوذ من هذا إِذا اقْتُصَّ له منه بِجرحِه مثلَ جَرْحِه إِيّاه أَو قتْله به. الليث: القَصُّ فعل القاصّ إِذا قَصَّ القِصَصَ، والقصّة معروفة. ويقال: في رأْسه قِصّةٌ يعني الجملة من الكلام، ونحوُه قوله تعالى: نحن نَقُصُّ عليك أَحسنَ القصص؛ أَي نُبَيّن لك أَحسن البيان. والقاصّ: الذي يأْتي بالقِصّة من فَصِّها. ويقال: قَصَصْت الشيء إِذا تتبّعْت أَثره شيئاً بعد شيء؛ (...) القِصّة: الخبر وهو القَصَصُ. وقصّ عليّ خبَره يقُصُّه قَصّاً وقَصَصاً: أَوْرَدَه. والقَصَصُ الخبرُ المَقْصوص، بالفتح، وضع موضع المصدر حتى صار أَغْلَبَ عليه. والقِصَص، بكسر القاف: جمع القِصّة التي تكتب. وفي حديث غَسْل دَمِ الحيض: فتقُصُّه بريقها أَي تعَضُّ موضعه من الثوب بأَسْنانها وريقها ليذهب أَثره كأَنه من القَصّ القطع أَو تتبُّع الأَثر؛ ومنه الحديث: فجاء واقْتصّ أَثَرَ الدم. وتقَصّصَ كلامَه: حَفِظَه. وتقَصّصَ الخبر: تتبّعه. والقِصّة: الأَمرُ والحديثُ. واقْتَصَصْت الحديث: رَوَيْته على وجهه، وقَصَّ عليه الخبَرَ قصصاً. وفي حديث الرؤيا: لا تقُصَّها إِلا على وادٍّ. يقال: قَصَصْت الرؤيا على فلان إِذا أَخبرته بها، أَقُصُّها قَصّاً. والقَصُّ: البيان، والقَصَصُ، بالفتح: الاسم. والقاصُّ: الذي يأْتي بالقِصّة

على وجهها كأَنه يَتَتَبّع معانيَها وأَلفاظَها. (...) قال الأَزهري: القصُّ إتّباع الأَثر. ويقال: خرج فلان قَصَصاً في أَثر فلان وقَصّاً، وذلك إِذا اقْتَصَّ أَثره. وقيل: القاصُّ يَقُصُّ القَصَصَ لإِتْباعه خبراً بعد خبر وسَوْقِه الكلامَ سوقاً. وقال أَبو زيد: تقَصّصْت الكلامَ حَفِظته. ...[4]" اهـ

وإذا نظرنا في معجم مقاييس اللغة لابن فارس ألفيناه يقول: "القاف والصاد أصلٌ صحيح يدلُّ على تتبُّع الشَّيء. من ذلك قولهم: اقتصَصْتُ الأثَر، إذا تتبَّعتَه. ومن ذلك اشتقاقُ القِصاص في الجِراح، وذلك أنَّه يُفعَل بهِ مثلُ فِعلهِ بالأوّل، فكأنَّه اقتصَّ أثره. ..[5]" اهـ

وكما رأينا فابن فارس يرجع معاني "القص" إلى التتبع، بينما جعلها ابن منظور راجعة إلى "القطع أو الإتباع"! فإذا نظرنا في الكتابات التي تعالج قصص القرآن وجدناها تتبنى هذا التوجه، فتقول أن أصل القصص هو تتبع أثر الشيء، ومن ثم سُمي القصص قصصا لأنه يتتبع أنباء الأحداث!! ويستدلون على هذا الفهم بقوله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ٦٤﴾ [سورة الكهف, ٦٤]، فيقولون أن موسى والعبد الصالح ارتدا يقصان آثارهما، أي يتتبعانها حتى يصلا إلى المكان الذي كانا فيه!! ولو كان معنى القص هو "تتبع الأثر" لما كان هناك حاجة إلى قوله "على آثارهما" ولقيل "فارتدا قصصا"! (ناهيك عن أن المراد من "الأثر أو الآثار" في القرآن ليس آثار الأقدام!) كما يستدلون بقوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١١﴾ [سورة القصص, ١١]، على أن المراد من القص هو تتبع الأثر، ولست أدري كيف يكون تتبعا للأثر وهي تراه بعينها!!

فإذا نظرنا في القرآن لنبصر كيف استعمل القرآن كلمة "القصص"، وجدنا أنه استعملها بشكل أوسع من الذي نقول نحن به، فبخلاف التصور المألوف للقصص والمأخوذ من

[4] جمال الدين بن منظور، لسان العرب، الجزء الخامس ، ص3650.

[5] أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، الجزء الخامس، ص.11.

مثل قوله: ﴿... فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥﴾ [سورة القصص, ٢٥]، نجد أن الله تعالى يقول: ﴿قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبۡتُم بِهِۦۚ مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ ٥٧﴾ [سورة الأنعام, ٥٧]، ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ ... ١٣٠﴾ [سورة الأنعام, ١٣٠]، ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي ... ٣٥﴾ [سورة الأعراف, ٣٥]، ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ٧﴾ [سورة الأعراف, ٧]

فكما رأينا فالله تعالى يقص الحق، والرسل يقصون الآيات، والملائكة ستخبر الناس بما عملوا في اليوم الآخر، ولا يقتصر الأمر على هذا وإنما يتعداه إلى اتجاه آخر، وهو "القصاص"، فنجد الرب العليم يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ ... ١٧٨﴾ [سورة البقرة, ١٧٨]، ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ ... ١٩٤﴾ [سورة البقرة, ١٩٤]

فما هو الرباط الجامع الذي يربط هذه المعاني تحته؟! إذا نظرنا في ما ذكره ابن فارس بأعلى، وجدنا أنه قد اقترب من المعنى الصحيح كثيرا عندما قال في توجيهه لاندراج القصاص تحت القص: "وذلك أنَّه يُفعَل بهِ مثلُ فِعلهِ بالأوّل"، وهذا هو محور معنى القص أو القصص، فليس المقصود بالقص التتبع، وإنما الأخذ من الشيء ما يماثله أو ما يدل عليه ويعرف به!

وظهر هذا الأخذ بالشكل المادي في القصاص بفعل نفس الشيء في الفاعل، وظهر بشكل مجرد في اللسان بأن يأتي الإنسان بما يشير إلى ما حدث ويعرف به، فكأن الإنسان بنعته الشيء قد أخذ صورة له، وبهذا فالله يقص الحق، والأنبياء يقصون آيات

الله، أي أنهم يحدثون الناس عن آيات الله فيعرفونهم ويذكرونهم بها، والملائكة تقص على الناس في اليوم الآخر أي تذكر لهم ما صدر منهم، ولهذا قال الرب العليم: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ ... ﴿١١﴾﴾ [سورة القصص, ١١]، ولم يقل "فتبعته عن قرب" لأن مراد الأم من الابنة أن تأتيها بخبر ابنها، وهذا يحتاج مراقبة ومشاهدة، وهي كانت تفعل هذا عن جنب.

إذا وكما رأينا فالقص هو *قطع مخصوص من الشيء دال عليه*، ومن ثم فمن اللازم وجود أصل حقيق "تُقتص" منه القصة!! ومن ثم يمكننا إسقاط الجانب الافتراضي الخيالي من القصص القرآني، والحكم بأن استعمال كلمة "قصة" كدال على أحداث مختلقة منشأة إنشاءً، استعمال غير صحيح، وسنبين لاحقا الكلمة التي ينبغي استعمالها كدال على هذا المدلول، ولأنواع القصة وهل يمكن إسقاطها على القصص القرآني.

أنواع قصص القرآن

بعد أن عرفنا دلالة القص، ننتقل إلى النقطة التالية له وهي معرفة المدلول، الذي سماه القرآن "قصصا"، فما هي أنواع قصص القرآن —من حيث المحتوى–؟! الناظر في الكتابات التي عرضت لهذه القضية يجد أن هناك من يقسم قصص القرآن إلى قصص أنبياء وقصص عن أشخاص ليسوا بأنبياء، عرض القرآن طرفاً من ما فعلوه أو حدث لهم! وهناك من يزيد على هذا فيجعل الأحداث التي وقعت في زمن النبي من القصص، ومن ثم فيجعلون قصص القرآن على ثلاثة أنواع، ومن أنصار هذا التوجه الأستاذ مناع القطان، فنجده يقول: "والقصص في القرآن ثلاثة أنواع:

النوع الأول: قصص الأنبياء، وقد تضمن دعوتهم إلى قومهم، والمعجزات التي أيدهم الله بها، وموقف المعاندين منهم، ومراحل الدعوة وتطورها وعاقبة المؤمنين والمكذبين،

كقصة نوح وإبراهيم وموسى وهارون وعيسى *ومحمد*، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين، عليهم جميعًا أفضل الصلاة والسلام.

النوع الثاني: قصص قرآني يتعلق بحوادث غابرة، وأشخاص لم تثبت ثبوتهم، كقصة الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت وطالوت وجالوت، وابني آدم وأهل الكهف وذي القرنين وقارون وأصحاب السبت ومريم *وأصحاب الأخدود، وأصحاب الفيل* ونحوهم.

النوع الثالث: قصص يتعلق بالحوادث التي وقعت في زمن رسول الله كغزوة بدر وأُحد في سورة آل عمران، وغزوة حنين وتبوك في التوبة، وغزوة الأحزاب في سورة الأحزاب، والهجرة والإسراء، ونحو ذلك.[6]" اهـ

والمتدبر لهذين التوجهين يجد أن كليهما لم يجعل القرآن مرجعاً له في استخراجه التصنيف الذي يقول به، وإنما اجتهد في إيجاد تصنيف جامع لقصص القرآن، فإذا نظرنا في القرآن وجدنا أن القرآن يربط قصّه بالأنباء، فنجده يقول: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ... فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [سورة الأعراف, ١٧٥-١٧٦]، ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ... ﴿١٠١﴾﴾ [سورة الأعراف, ١٠١]، ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾ [سورة هود, ١٠٠]، ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [سورة هود, ١٢٠]، ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾ [سورة طه, ٩٩]

[6] مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، ص.301.

فقصُ القرآن مرتبط بأنباء القرى والرسل السابقين، أما الأحداث المتعلقة بالرسول وبأفعال المعاصرين له مؤمنين وغير مؤمنين، فلم يعتبرها القرآن قصّاً بأي حال من الأحوال لأنها لم تكن بالنسبة لهم أنباء وإنما واقع مشاهد، والإنباء لا يكون إلا بإظهار المخبَر على ما لا يعلم!! ولا يعني هذا أننا نشترط في "القص" الارتباط بالأحداث الغابرة السابقة كما قال بعضهم،[7] -فلقد استعمل القرآن مفردة القصص مع وقائع حديثة معاصرة غائبة عن المتلقي-، وذلك في مثل قوله: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ ... ٥﴾ [سورة يوسف ,٥]، وقوله: ﴿... فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥﴾ [سورة القصص ,٢٥]- وإنما نقول أن القرآن حصر قصه في أنباء السابقين ومن ثم فلا نعتبر ما سماه القرآن "ذِكراً": ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠﴾ [سورة الأنبياء ,١٠] لا نعتبره قصصا من عند أنفسنا. فإذا أردنا أن نخلص إلى أنواع القصص في القرآن استنادا إلى التسمية القرآنية، نجد أنها:

1- من أنباء القرى.

2- من أنباء الرسل.

3- من أنباء ما قد سبق.

كما يمكن تقسيم القصص من زاوية أخرى إلى صنفين آخرين، هما: قصص أقوال وقصص أحداث، فنجد أن الله تعالى يقص أحيانا أقوالاً لأشخاص أو حوارات، كما قص الحوار الذي دار في أول الخليقة بينه وبين الملائكة بشأن جعل الخليفة، أو

---

[7] مثل الدكتور أنور إبراهيم، والذي قال في بحث منشور له على ملتقى أهل التفسير: "ومن خلال الاشتقاق اللغوي للكلمة نرى أنها تدور حول الكشف عن آثار ماضية نسيها الناس أو تغافلوا عنها وإعادة عرضها من جديد للتذكير بها لتكون لهم عبرة وآية. والمراد من القصص القرآني: إخباره عن أحوال الأمم الماضية والأنبياء السابقين والحوادث والكائنات الواقعة فيما مضى من الزمن، وبناء على هذا التعريف: يشترط أن تكون قصة غابرة في الماضي، ونزل القرآن متحدثا عنها، أما المناسبات الحاضرة في زمن النبوة فلا تسمى قصصا، وذلك كالغزوات التي تحدث عنها القرآن والحوادث التي وقعت فى هذا الزمن كحديث الإفك والظهار وما شابه هذه الأمور بحجة أن هذه الأحداث عايشها من شهدوا الوحي والتنزيل فلا تعد بالنسبة لهم قصصا. " اهـ

المحاجة التي حاجها الرجل لإبراهيم في ربه، وأحيانا أخرى أكثر يقص أحداث قد تشتمل حوارات وأقوال، إلا أن العنصر الأول هو الأحداث نفسها.

لماذا قصَّ القرآن؟

قد يجول في خاطر بعض البشر هذا السؤال، فلماذا يقص الإله في الكتاب الذي يوحي به إلى البشر؟! وما الحكمة التي تجعل للقصص هذا النصيب الكبير في الكتاب الخاتم للبشر؟! ونحن إذ نتحدث عن القصص، فإننا لا نقصد سبب ورود كل قصة بمفردها، -فسنعرض لهذا في عنصر لاحق- وإنما نتحدث عن علة ورود القصص ك"جنس" في الوحي.

والواقع أن هذا السؤال لم يغب عن أذهان السابقين، فتطوعوا وقدموا له إجابة، إلا أنها كانت من السوء بمكان كبير، فطعنت في الصحابة وحطت من شأن القصص وأساءت إلى الرب العليم! فإذا نظرنا في الروايات التي ذكرها الإمام الطبري عند تأويله لآية: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ... ۝٣﴾ [سورة يوسف ,٣] نجده يورد روايات تقول: "... عن ابن عباس قال: قالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا؟ قال: فنزلت: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ... ۝٣﴾ [سورة يوسف ,٣]. (...) عن عون بن عبد الله، قال: ملَّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ملّةً، فقالوا: يا رسول الله حدثنا! فأنزل الله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ... ۝٢٣ ﴾ [سورة الزمر ,٢٣]. ثم ملوا مَلَّةً أخرى فقالوا: يا رسول الله حدثنا فوق الحديث ودون القرآن! يعنون القصَص، فأنزل الله: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ

وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [سورة يوسف ,١-٣]، فأرادوا الحديث فدَّلهم على أحسن الحديث، وأرادوا القصصَ فدلهم على أحسن القصص.[8]" اهـ

وكما رأينا فلقد جعلت بعض الروايات أن سبب ورود جنس القصص في القرآن هو طلب الصحابة، وزادت بعض الروايات الطين بلة، فقالت أن الصحابة ملّوا!! وهذا يعني أن القرآن لم يعد مغنياً ولا شافيا كافياً لهم، فأرادوا التسلية، فجعل الله لها نصيباً في كتابه!! والأسوأ أن عون بن عبد الله هذا جعل قصص القرآن ليس على نفس مرتبة القرآن!! فجعل القرآن (والذي ليس فيه حديث ولا قصص) مرتبة، وجعل الحديث مرتبة دنيا!! ثم جعل القصص مرتبة أعلى من الحديث وأدنى من القرآن!! ولست أدري كيف نزع صبغة القرآنية عن هذه الأقسام من الكتاب؟!!

وهذا القول الوارد في الروايات قول ساقط لا ينبغي الالتفات إليه، فلقد ذكر لنا الله العليم في كتابه لماذا قص، فلماذا نرضى بغير كتاب الله بديلا، سواءً كان من السابقين أم اللاحقين؟! فإذا نظرنا في الكتاب العزيز وجدنا أن الأسباب التي ذكرها علة لقصه، هي:

"1- أن يأخذ الناس منها عبرة! ولكن لن يعتبر إلا أولو الألباب، أما عامة الناس فسيرونها قصة مسلية!: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ ... ۝١١١﴾ [سورة يوسف ,١١١]

2- التفكر، فليس القصص للتسلية: ﴿... فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٧٦﴾ [سورة الأعراف ,١٧٦]

3- تثبت فؤاد المؤمن، عندما يعلم أن من سبقه تعرضوا لما يتعرض له ونصرهم الله في نهاية المطاف: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ ... ۝١٢٠﴾ [سورة هود ,١٢٠]

[8] محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الجزء 15، ص.552.

4- الازدجار بمعرفة سوء عاقبة المكذبين: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ۝٤﴾ [سورة الـقمـر, ٤]

5- معرفة سنن الله تعالى الجارية على عباده، مثل أن الله تعالى يداول الأيام بين الناس: ﴿... وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ ... ۝١٤٠﴾ [سورة آل عمران, ١٤٠]، وأن الأمم تزول بانتشار الظلم والفسق والفساد، وأن سنن الله لا تتحول ولا تتبدل: ﴿... وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ۝٤٣﴾ [سورة فاطر, ٤٣]، وأن الأمم لها أجل في هلاكها، وأن أي أمة لا بد أن تُهلك أو تُعذب قبل يوم القيامة –بسبب أعمالها!-

6- هدى ورحمة للمؤمنين بتأكيد الحقائق الإيمانية عندهم، بتذكيرهم بحقيقة الإنسان وبالغاية التي خُلق من أجلها وأن البشرية بدأت بالإيمان ثم كفرت، وأن الأصل في الإنسان التوحيد. ﴿... وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝١١١﴾ [سورة يوسف, ١١١]

7- تصحيح الأخطاء الواردة في الكتب السابقة، وتصديق الصحيح منها: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ۝٧٦﴾ [سورة النمل, ٧٦][9]اهـ

فلهذه الأسباب المذكورة في الكتاب كان القصص .. وكان القص!

القصص والتاريخ

على الرغم من اتفاق قصص القرآن والتاريخ في عدد كبير من النقاط، إلا أنهما يختلفان في مسألتين رئيستين، تجعلها يتمايزان تمام التمايز:

---

[9] عمرو الشاعر، عائشة أم المؤمنين، العبقرية المفترى عليها، ص.38-39!

الأولى: الدور المنوط به، فالدور الأول للتاريخ أن يعي ويدون ويسجل الأحداث، ويذكرها صراحة، ثم تختلف المعالجات الإنسانية لها، تبعاً للغاية التي يريد الإنسان أن يوظف التاريخ لها!! بينما لم يأت قصص القرآن ليكون ذاكرة البشرية، وإنما أتى ليدلل بأكثر النماذج بياناً على صدق دعواه، –والذي سماها "أحسن القصص"–، ولهذا لم يذكر أزمنة وقوع الأحداث التي يقصها، ولم يعرض لكل الأحداث البشرية ولم يذكر حتى كل الأنبياء، وإنما اكتفى بإشارات، تُعين البشر على معرفة هويتهم وتحديد وجهتهم. (وسنبين للقارئ الكريم على صفحات الكتاب، ضرورة قصص القرآن لمعرفة أصل الهوية) وللعجب وجدنا من يعتبر هذا إبهاما فيقول: "والناظر في القرآن الكريم يجد أن القرآن في عرضه للقصص لم يهتم بجانب التفاصيل للأحداث أو أسماء الأشخاص، أو سرد كل الوقائع أو بيان الأمكنة والأزمنة، إنما كان اهتمام القرآن بإبراز المواقف التي تحوي الدروس والعبر والدلالات في حاضر الناس ومستقبلهم. لذا نجد القرآن لا يعرض إلا أقل القليل من أحداث القصة، ويترك الكثير من التفاصيل التي لا تفيد في التماس العظة والعبرة. لذا عرف الكاتبون في علوم القرآن لونا من ألوان هذه العلوم *سُمي (مبهمات القرآن)* ذكره السيوطي (911هـ) في النوع السبعين من إتقانه. وذكره الزركشي (794هـ) في النوع السادس من برهانه.[10]" اهـ

ولست أدري بأي حق يعتبرون هذا من المبهمات، فهل قال لهم القرآن أنه كتاب تاريخ؟! وهل أمرهم أن يعرفوا ما لم يقله؟!

الثانية: اليقينية، فالتاريخ والتأريخ البشريان ظنيان، يعتريهما الكثير من العوامل التي تؤدي لا محالة إلى تراجع نسبة اليقينية والصدق فيهما، بينما "يختلف القصص القرآني عن التاريخ القائم على الظن في ثبوت الحدث، وعلى احتمال عدم وصوله كاملا للمؤرخ، واحتمال الخطأ في فهم المؤرخ، وعلى احتمال الهوى في عرضه، فيُعرض مدَلسا أو يُخفى بعضه ويُذكر بعضه، وعلى عدم دقة القنوات الإخبارية الناقلة للخبر، لما يعرض للبشر الناقلين من سهو أو نسيان أو لبس أو خلط أو هوى!

(10) همام حسن يوسف، سليمان في القرآن، –رسالة ماجيستر– ص.50.

يختلف القصص القرآني عن هذا كله في أنه قصص يقيني، قصص حق: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ... ﴿٦٢﴾﴾ [سورة آل عمران ,٦٢]، وهو قصص حق لأنه قُصَّ بالحق: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ... ﴿١٣﴾﴾ [سورة الكهف ,١٣]، وكونه قُص بالحق راجع إلى مزية لا يمكن أن تتوفر بحال لأي مؤرخ على وجه الأرض في أي زمان، – مهما حاز من الوسائل والأدوات– وهي أن القاص كان شاهداً، وهو عالم بالأسباب والمبررات والدوافع: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍۢ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾ [سورة الأعراف ,٧]، فحتى لو كان المؤرخ شاهداً للحدث فهو شاهدٌ غير عالم! فلن يمكن لأي مؤرخ مهما كان أن يطلع على بواطن الأمور، وعلى ما يدور في نفوس الناس وعلى ما يحدث في اجتماعاتهم السرية! والقرآن العظيم في قصِّه بيّن كيف قص، فلقد قص بالعلم والحق والشهادة، وبيّن ماذا قص، فلقد قصّ حقا ولم يقص افتراء[11]" اهـ

وعلى الرغم من اختلاف غاية قصص القرآن عن التاريخ، فقد أبى أكثر الكاتبين حوله إلا أن يجعلوه كتاب تاريخ، اقتداءً بوهب بن مُنَبه، والذي سن لهم سنة سيئة، بتأليفه كتاب "قصص الأنبياء"، فنزع القصص من سياقه وأغفل غايته! وقضى على استعلاءه على التوراة، فجعله تابعا لها! وأخذ يبين للناس، اعتماداً على التوراة، ما لم يذكره القرآن!! فسار من جاء بعده على الدرب، فوجدنا أن أوائل كتب التاريخ، التي ألفها المسلمون، أصبحت خليطاً من الدين والتاريخ! فتداخل قصص القرآن مع التاريخ، كما وجدنا مثلا في تاريخ الطبري "تاريخ *الرسل* والملوك" وغيره من كتب التاريخ[12]!!

واستمر الحال على هذا المنوال، إلى أن جاء المتأخرون فلم يعجبهم هذا التداخل، فرأوا أن يفضوا هذا التداخل، لا ليعيدوا القصص القرآني ليُقرأ في سياقه وإنما ليفردوا

---

[11] عمرو الشاعر، عائشة أم المؤمنين، العقبرية المفترى عليها، ص.37–38!

[12] ولا يعني هذا أننا نعيب على المؤرخ أن يجعل القرآن منطلقاً له في كتابته للتاريخ وتحليله لأحداثه، ولكننا نرفض أن يكون المستند هو التوراة ثم يُنسب المحتوى إلى القرآن، والذي جاء حاكما بخطئه أو مصححا له، فيسمى بقصص القرآن وهو منه براء!! كما نرفض أن يُعامل القرآن ككتاب تاريخ، محكوم عليه بالنقص والعوز، ومن ثم يُجعل تابعا لغيره! والذي يكمل ما لم يذكره!!

الكتابة حوله في كتب مستقلة، تحمل اسم قصص القرآن أو قصص الأنبياء، حيث الهدف منها هو تقديم القصص كقصة!

وهكذا اكتفوا باستبعاد التاريخ، وأخذوا يعيدون صياغة قصص التوراة تحت اسم "قصص القرآن" بحجة أنه لا يمكن عرض قصص القرآن بدون التفاصيل التي تقدمها التوراة!! ولست أدري من قال لهم أنه من الواجب عليهم، أو حتى من المستحب، أن يعرضوا قصص القرآن كقصة!! ولست أدري كيف غفلوا عن قول الرب العليم: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٣٤﴾ [سورة البقرة, ١٣٤]

وبسبب إصرارهم على عرض قصص القرآن كقصة، تقدم بعض المعاصرين خطوة ... إلى الخلف!! فقال أن قصص القرآن لم يقع أصلاً!!

القصص والاختلاق

رأينا كيف أن التعامل مع قصص القرآن كنص تاريخي أدى إلى تحويلها إلى "قصص تاريخية"، واستمر الحال على هذا الوضع قرونا طويلة، بدون أي بادرة شك في أن القرآن كان يقص عن أحداث جرت في أزمنة سابقة، وعلى المؤلف أو الكاتب أن يكمل عناصر الصورة التي لم يذكرها القرآن، فيضع القصة القرآنية في الإطار التوراتي!!

إلا أن الحال اختلف مع بزوغ نجم العصر الحديث، الذي تأثرت فيه الدول الإسلامية بمناهج الفكر الغربي المستعمر! فوجدنا في منتصف القرن العشرين من يشكك في هذه المسلمة البديهية، ويقول أن قصص القرآن ما هو إلا قِصص، لا يُشترط فيها

وقوعها بالشكل الذي رواه القرآن، ولا حتى وقوعها أصلا، لأنها لا تزيد عن كونها قِصص وعظية تعليمية، ومن ثم فلن يقدم وقوعها أو عدمه قليلاً أو كثيراً!

وصاحب هذا الرأي هو الدكتور محمد خلف الله، تلميذ الأستاذ أمين الخولي، صاحب مدرسة التفسير الأدبي للقرآن، ومن ثم فليس ثمة كبير عجب أن يخرج الدكتور خلف الله بهذا التوجه! فصاحب كل علم يريد أن يجذب القرآن إلى علمه ويخضعه لقواعده ويفهمه تبعاً له، ومن ثم يصبح هو صاحب الريادة في تقديم منهج جديد في التعامل مع القرآن!! ولو صدر هذا التصور من غير أهل اختصاص لكان له صدى أكبر عندي، لأنه يعني أنه هناك من رأى بحيادية وعدم تعصب أن المنهج الفلاني هو الأصح في تناول القرآن!! وهذا الرأي نموذج حديث طيب على أن قصور المعالجة لموضوع ما يؤدي إلى الخروج بنتائج عجيبة!!

فأول انتقاد يُوجه إلى الدكتور خلف الله هو فهمه "القصة" تبعا للاصطلاح الأدبي المعاصر، فنجده يقول: "ونحن مع احترامنا لكل من اللغويين والمفسرين لا نستطيع ونحن ندرس القصص الفني أن نقف عند هذه الحدود لأنا حين نذكر قصة إنما نقصد شيئاً آخر أهم من متابعة الخبر أو الحديث. ***نقصد ذلك العمل الأدبي الذي يكون نتيجة تخيُّل القاص*** لحوادث وقعت من بطل لا وجود له أو لبطل له وجود ولكن الأحداث التي دارت حوله في القصة لم تقع أو وقعت للبطل ولكنها نظمت في القصة على أساس فني بلاغي فقدم بعضها وأُخّر آخر وذُكر بعضها وحُذف آخر أو أُضيف إلى الواقع بعض لم يقع أو بولغ في التصوير إلى الحد الذي يخرج بالشخصية التاريخية عن أن تكون من الحقائق العادية والمألوفة ويجعلها من الأشخاص الخياليين.[13]" اهـ

وبذلك يكون الدكتور خلف الله قد أغفل المعنى اللساني للكلمة والذي كان مستعملاً لها في زمان النزول، فكما قلنا فإن القصص لا بد أن يكون "مقطوعا/مأخوذا" من

[13] محمد أحمد خلف الله، الفن القصصي في القرآن الكريم، ص.152.

الواقع، وإلا لا يكون قصصا، والعرب لم تكن تعرف القصاصين قبل الإسلام، وحتى بعد ظهورهم لم يكن يُنظر إليهم على أنهم يؤلفون حوادث لا أصل لها، وإنما باعتبار حصولهم على علم غير متوفر عند غيرهم!! ومن ثم فلا يعني طروء معنى إضافيا له أن نجعله المعنى الأصلي! فإذا أراد الدكتور خلف الله أو المؤمنين بنظريته فهم الكلمة تبعاً للمصطلح المعاصر، فعليهم أولاً أن يثبتوا أنها كانت تُستعمل بهذا المدلول في ذلك الزمان .. وأنّى لهم هذا!!

فإذا غضضنا الطرف عن المصطلح وجدنا أن القول بأن قصص القرآن تخيلي افتراضي سيؤدي إلى ضياع جزء كبير من التأثير الذي ينزله بالسامع وخفوت قوة تأثيره، فشتان بين من يدلل على قوله بما وقع وبين من يفترض!! ولقد لاحظ الأستاذ محمود البستاني فارق التأثير هذا فقال: "وبالرغم من أنّ هناك نمطاً من القصة يُسمّى بـ (القصة التأريخية) فيما تعني بنسخ الوقائع التأريخية دون إخضاعها لما هو مصطنعٌ من الوقائع، أي: دون إخضاعها لظاهرة (الاحتمال) أو (الإمكان)، إلاّ أنها في –الواقع– تخضع بدورها لعناصر مصطنعة قد تشكّل (حبكة) القصة التي تحوم الوقائع عليها أو تشكل بعض المواقف أو الأحداث أو الأبطال أو البيئات منها،... وهذا على الضدّ تماماً من القصة القرآنية الكريمة التي يصحّ أن نطلق عليها مصطلح (القصة العملية) فيما تُعنى بنقل الأحداث الحقيقية: ولكن وفق (اصطفاء) هادف للعناصر التي تُضيء (الأفكار) المستهدفة في النصّ القرآني الكريم. إن الفارق بين القصة العملية والقصة المصطنعة يكمن في طبيعة الإثارة التي يتضخم حجمها –دون أدنى شك– في القصة العملية بالقياس إلى القصة المصطنعة التي يضؤل حجم الإثارة فيها: نظراً لما نعرفه تماماً من أنّ القارئ حين يتابع قراءة قصة (مصطنعة) بما تنطوي عليه من عناصر الإثارة: تشويقاً ومماطلة ونحوهما، يظل انفعاله (فنّياً) أكثر منه (وجدانياً)، ما دام سلفاً على إحاطة كاملة بأنه حيال أحداث وهمية يفتعلها القاص، بخلاف ما لو علم بأنه حيال حدثٍ واقعي: حينئذٍ فان انفعاله بالحدث سيكتسب سمة (الواقع) أيضاً. من هنا

تمكن أهمية القصة القرآنية التي تتعامل مع (الواقع) بدلاً من (المحتمل)، محققةً بذلك عنصر (الاقتناع) عملياً، وليس مجرّد (إقناع) لما هو محتمل الوقوع.[14]"اهـ

فإذا نظرنا في الأسباب التي دفعت الدكتور خلف الله إلى القول بهذا الرأي لم نجده قد استخرج واحداً منها من القرآن، وإنما لأنه لم يتدبر النص القرآني ولم يدرسه بما يكفي، وإنما أخذ التراث المقدم حوله، سواء كان أقوال علماء أو روايات ... أو حتى شبهات! أخذه كمسلمة، ثم حاول أن يقدم مبرراً يقضي على نقاط الضعف هذه –من وجهة نظره– فكان أن خرج بهذا الرأي، فكل ما فعله هو أن سلّم بتناقضات وتعارض بين النصوص وبعضها وبينها وبين الواقع، ثم برر ذلك بأن هذا راجع إلى أن هذا قصص أدبي!!

وهذا القول الذي أتى به ليس بدعاً من القول، وإنما هو منهج غربي سائد في التعامل مع النصوص الدينية الموجودة في التوراة والإنجيل عامة، وليس القصص منها، فلا يهم الانسجام الداخلي ولا التوافق الخارجي، فهي نصوص أدبية غائية، فعلينا الانشغال بالغاية ليس أكثر!!! فما كان من الدكتور خلف الله إلا أن حاول أن يدلل على صحة هذا المنهج وحتمية تطبيقه على القرآن كحل أمثل للقضاء على الإشكاليات التي تواجهه!! والعجب كل العجب أن يتخذ من لم ير، عدم رؤيته دليلاً ضد من رأى، ويريد منهم أن يتبعوه!

إن أكبر مبطل لهذا المنهج هو عدم استدلاله بآية واحدة على قوله وما هي إلا أفهام يحاول أن يدلل بها على صحته، واعتماده مستندات تخالف القرآن أحياناً! فمن ذلك قوله: "وذكر محمد بن إسحاق سبب نزول هذه القصة –قصة أصحاب الكهف– مشروحا، فقال: وكان النضر من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك فارس، وأحاديث رستم وأسفندباذ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس مجلساً يذكر

[14] محمود البستاني، دراسات فنية في قصص القرآن، ص.9.

فيه بالله ويحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلفه في مجلسه إذا قام، ثم يقول: إنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه، فهلموا فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس.

ثم إن قريشا بعثوه وبعثوا معه عقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة فقالوا لهما: سلوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى قدما المدينة فسألا أحبار يهود عن أحوال محمد، فقالت لهم أحبار اليهود: سلوه عن ثلاثة: عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ماذا كان من أمرهم فإن حديثهم عجب، وعن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ماذا كان نبؤه، وسلوه عن الروح ما هو فإن أخبركم فهو نبي، وإلا فهو متقول متقول..." فإن هذا النص كما ترى، يدلنا على أن اليهود هم الذين كانت بأيديهم المقاييس التي يفرقون بها بين الصادق والكاذب من النبيين والمتنبئين، ثم هو يدلنا على أن معرفة أخبار السابقين من هذه المقاييس.[15]" اهـ

ولست أدري كيف تكون هذه الرواية –على فرض صحتها– دليلاً على أن المقاييس كانت بيد اليهود، لو كان محمد هو من قال للمشركين اسألوا اليهود هل أنا صادق أم كاذب لكان هذا مقبولاً، أمّا أن يفعل المشركون شيئاً فلا نزن الدين به!! ولو تدبر الدكتور خلف الله النص القرآني الموجود بين يديه لاكتشف أن هذه الرواية مكذوبة لا تتفق مع النص القرآني بحال، ولا كتشف أن الأمثلة التي قدمها لأنواع القصص بالنسبة لمعرفة العرب غير دقيقة[16]!

---

[15] محمد أحمد خلف الله، الفن القصصي في القرآن، ص.52.

[16] ذكر الدكتور خلف الله في كتابه الفن القصصي في القرآن، ص.256،255 أنواع القصص بالنسبة لمعرفة العرب وعدم معرفتهم! *فقال:* " نوع نستطيع أن نسلم منذ اللحظة الأولى بأنه كان مجهولا في البيئة المكية جهلا يكاد يكون تاما وذلك هو النوع الذي نزل ليثبت نبوة النبي عليه السلام والذي جاء إجابة عن تلك الأسئلة التي يتوجه بها المشركون من أهل مكة إلى النبي ليعرفوا صدق رسالته وصحة نبوّته، ومن أمثلته قصص أصحاب الكهف وذي القرنين. (...) ونوع نستطيع أن نسلم أيضا منذ اللحظة الأولى بأنه كان معروفا في البيئة العربية وذلك من أمثال هذه الأقاصيص التي وردت إشارات عنها في الشعر الجاهلي كقصص أحمر عاد وأحمر ثمود وقصص الجن مع سليمان أو تلك التي بدأت بالتعبير القصصي "ألم تر" كما يقول المفسرون...

فلو نظر في أول قصة أصحاب الكهف لوجد أنها لم تبدأ بقوله: "ويسألونك" وإنما تبدأ بقوله: ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ٩﴾]سورة الكهف, ٩[، والإنسان لا يقال له: "أم حسبت كذا"، إلا إذا كان يعلم المسؤول عنه، فسؤال القرآن للرسول عن أصحاب الكهف وعن حسبانه أنهم كانوا من آيات الله عجبا، دليل على أن القصة كانت من المعروف بين العرب، وهو مثل قولي لشخص: سأهزم فلانا بسهولة، أم أنك حسبت أن انتصاراتي كانت حالة استثنائية؟! فالله يعتب على النبي أنه لم ينتبه إلى هذه الحادثة ويقول له هل ظننت أن هذه الآية عجب، ومن ثم فلن يتكرر مثلها؟! ثم قال له أنه سيقص عليه نبأ أصحابها بالحق، -لأن ما تنوقل عنهم فيه حق وباطل-! أما ذو القرنين فالعرب كانت تعرفه، لأنه يمني منهم، وكان معروفاً أنه مؤمن، ولم يكونوا بحاجة أن يُعرفهم اليهود به، فرد القرآن عليهم بأنه سيتلو عليهم منه ذكراً، فهو سيذكر لهم جانب بسيط يذكرهم!! لا أنه سيعطيهم نبأه!!

إذا وكما رأينا فالدكتور خلف الله لم ينطلق من النص ولم ينظر فيه بما فيه الكفاية، ليحكم هل يتفق مع ما قيل حوله أم ينافيه!!

فإذا تركنا هذه النقطة وانتقلنا إلى مستند آخر من مستنداته في القول بأن قصص القرآن قصص أدبي بالدرجة الأولى، وجدنا أن مستنده هو تطابق قصص القرآن مع ما في الكتب السابقة، فنجده يقول: "والظاهرة التي يحسن بنا الالتفات إليها في هذا المقام هي أن القرآن حين جعل هذه الأخبار من آيات النبوة وعلامات الرسالة جعلها أيضا مطابقة لما في الكتب السابقة أو لما يعرفه أهل الكتاب من أخبار، حتى ليخيَّل إلينا أن مقياس صدقها وصحَّتها من الوجهة التاريخية ومن وجهة دلالتها على النبوة والرسالة أن تكون مطابقة لما يعرفه أهل الكتاب من أخبار[17]" اهـ

نوع ثالث وهو الكثرة قد يشتبه فيه القارئ، فلا يدري أهو من النوع الأول أم هو من النوع الثاني، وأمثلته أقاصيص آدم مع إبليس وقصة الخلق وقصص لوط ونوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وداود وأيوب وغيرهم." اهـ

[17] المرجع السابق، ص.53.

ولست أدري كيف يفترض الدكتور خلف الله هذه الافتراضية والقرآن يقول صراحة: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ٧٦﴾ [سورة النمل, ٧٦]، فإذا كان القرآن يعتبر نفسه مهيمنا على الكتب السابقة، ومرجعاً لبني إسرائيل يحتكمون إليه بشأن الأقوال المختلف فيها بينهم، فكيف يصبح تابعاً لهم! وحكم الدكتور خلف الله بتطابق النص القرآني لما في كتب السابقين يدل على أنه لم يكن ينظر في النص وإنما يأخذ بما قاله السابقون كتفصيل معتمد له، وسنقدم للقارئ على صفحات هذا الكتاب الكثير من الأمثلة التي تبين كيف أن التشابه بين القرآن والكتب السابقة هو تشابه ظاهري سطحي، يقع فيه المتعجل، أما المتدبر فيرى بجلاء افتراقاً كبيرا!!

ومن مستنداته كذلك بعض الشبهات المثارة حول بعض الأخطاء العلمية في النص القرآني مثل القول بغروب الشمس في العين الحمئة!! ولست أدري أين قال القرآن أن الشمس تغرب في عين حمئة، لقد قال: ﴿... وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ... ٨٦﴾]سورة الكهف, ٨٦]، ومن يقف أمام البحر في ساعة الغروب يجد الشمس تنزل في البحر!! فالقرآن كان ينعت المشهد الذي وجده/شاهده ذو القرنين، وليس أكثر!!

كما استند إلى بعض أفهام عجيبة لآيات حكم من خلالها بالتناقض وعدم المنطقية، فنجده يقول: "إسناده بعض الأحداث لأناس بأعيانهم في موطن ثم إسناده الأحداث نفسها لغير الأشخاص في موطن آخر، ومن ذلك قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ١٠٩﴾] سورة الأعراف, ١٠٩]، إذ نراه في سورة الشعراء مقولاً على لسان فرعون نفسه: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾] سورة الشعراء, ٣٤]. وكذلك تجد في قصة إبراهيم من سورة هود أن البشرى

بالغلام كانت لامرأته بينما نجد البشرى لإبراهيم نفسه في سورة الحجر وفي سورة الذاريات.[18]" اهـ

ولست أدري كيف ضاقت قريحة الدكتور خلف عن تصور مثل هذا المواقف كما هي! ثم الحكم الجائر بتضادها! فلو أخذنا آيتي فرعون والسحرة مثلاً لوجدنا أنه لا مانع أبداً ولا استحالة منطقية من أن يكون أحدهما سبق الآخر، فقال الثاني كلامه، وأرجح أن يكون فرعون هو من قالها، فكرر السحرة كلامه تأكيدا له، وحكى القرآن مرة قول فرعون ومرة قول التابعين "الإمعات" الذين يؤَمّنون على كلام سيدهم حقاً كان أم باطلا!!

واعتمد الدكتور خلف الله على غير هذه المستندات، إلا أنها مثل سابقتها، مستندات واهية يكفي المرء أن ينظر فيها نظرة ثاقبة ليكتشف نقاط ضعفها وبطلانها، ويمكن القول أن مستنده الوحيد القوي، -والذي لا يكفي كذلك للقول بهذا الرأي- هو تكرار القصص بألفاظ مختلفة، وسنعرض لهذه المسألة في عنصر مستقل.

القصة والحكاية

بعد أن بيّنا أن استعمال كلمة "القصة" لا يكون صحيحا لغويا إلا مع أحداث واقعية جرت، يقتص القاص بعضها ليخبر بها غيره، نتساءل: ما هو الاسم الذي يمكن إطلاقه على ال"قصة" المختلقة؟! إذا نظرنا في أدبنا المعاصر وجدنا أنه لا يفرق بين الواقعي والمختلق، فيسمي كلاهما نفس الاسم، وتكاد تنحصر هذه الأسماء في "القصة"! فهناك القصة القصيرة، وهناك الأقصوصة وهناك القصة!

فإذا تركنا القصة وجدنا أن هناك "الرواية" والتي يمكن تعريفها بأنها قصة طويلة متداخلة الأحداث!! وهذا مدلول حديث مخالف تماما للمدلول الذي اشتهرت به بعد

[18] المرجع السابق، ص.82.

الإسلام، حيث كانت مرتبطة بنقل الأحاديث والأخبار! وهناك ما لا يمكن اعتباره "قصة" وهو ما يُعرف ب الخواطر. وهناك صنف آخر يعده الأدباء أقل منزلة من القصة وهو "الحكاية"، وهي تلك القصص السردية البسيطة، التي لا تتوفر فيها الحبكة الدرامية، ولا تظهر فيها بوضوح شروط القصة الأدبية!

فما هو الاسم الذي يمكن إطلاقه على القصص المختلق إذن؟! نقول: الاسم الذي يدل على هذا الصنف من الأدب من حيث المعنى الأصلي له –بغض النظر عن الاصطلاحات الأدبية، التي لا تراعي المعاني الأصلية للكلمة!– هو: الحكاية! وذلك لأن الحكاية مأخوذة من المحاكاة، وهو التقليد! فإذا نظرنا في لسان العرب وجدنا ابن منظور يقول: "الحِكايةُ: كقولك حكَيْت فلاناً وحاكَيْته فَعلْتُ مثل فِعْله أَو قُلْتُ مثل قَوْله سواءً لم أُجاوزه، وحكيت عنه الحديث حكاية. ابن سيده: وحَكَوْت عنه حديثاً في معنى حَكَيته. وفي الحديث: ما سَرَّني أَنِّي حَكَيْت إنساناً وأَنَّ لي كذا وكذا أَي فعلت مثل فعله. يقال: حَكَاه وحاكَاه، وأَكثر ما يستعمل في القبيح المُحاكاةُ، والمحاكاة المشابهة، تقول: فلان يَحْكي الشمسَ حُسناً ويُحاكِيها بمعنًى.[19]" اهـ

فالمحاكاة قائمة على التقليد والإتيان بمثيل للشيء، وهذا هو العنصر الرئيس للقصة في أدبنا المعاصر، فهي قائمة على إنشاء أحداث افتراضية مماثلة لما يحدث في الواقع، تقع في نفس المجتمعات التي نحيى فيها! فإذا نظرنا في القرآن وجدنا أنه لم يستعمل مفردة الحكاية أو أياً من مشتقاتها وإنما استعمل "القص" والإنباء، وهو ما يدل على الوقوع حقيقة لا افتراضا أو محاكاة!!

[19] جمال الدين بن منظور، لسان العرب، الجزء الثاني، ص. 954.

العنصر المفقود

اتفق أنصار المدرسة الأدبية المتناولون لقصص القرآن، على اختلاف قصص القرآن عن القصص التقليدي، فقالوا بوجود سمات فيه تختلف عن القصص التقليدي، إلا أن هذا لم يمنعهم المقارنة بين "القصص" القرآني وبين أصناف الكتابات الأدبية، محاولين إيجاد تصنيفات للقصص القرآني يندرج تحتها بحجة أنه نص أدبي، فقالوا بوجود أصناف من "القصص" في القرآن ليس لها وجود في القصص الأدبي، وقاموا بتصنيف عدد آخر تحت التصنيفات المقدمة للقصص الأدبية!! وينسى هؤلاء جميعا الاختلافات الكبيرة بين القصص القرآني وبين القصة الأدبية! التي تجعل من غير المقبول اعتبار القصص القرآني قصة أدبية!

أول هذه الاختلافات هو أن مؤلف الكتاب كاملا، بما يحتويه من القصص، ليس بشرياً، ومن ثم فمن غير المنتظر أن تأتي المؤلَف على مثل كتابات البشر، أو أن يأتي البشر بمثل ما جاء به!! والطرف البشري هو طرف ملقَّن، ولقد صرح المؤلف في بعض الأحيان أنه أعلم المستقبِل البشري "محمد" أنه أنبأه بأنباء لم يكن يعلمها لا هو ولا قومه. والإصرار على المقارنة والإدراج يعني أن النص بشري! ولا يعني بهذا أننا نمنع البحث في خصائص القصص القرآني وسماته، فهذا مطلوب، وإنما نرفض إدراجه تحت صنف لا يطابقه ولا يشمله!

فإذا تركنا مسألة المؤلِف وجدنا أن المادة المقدَّمة غير متفقة، فالقصص القرآني وقائع حقيقة حدثت في زمن من الأزمان، نُقلت كما وقعت، فهو قص بالحق! ومن المعلوم أن محتوى القصص خيالي مائة بالمائة، فإن كانت القصة الأدبية تستند إلى أحداث واقعية، فإن هذه الأحداث لا تكاد تُشكل إلا الإطار العام للقصة، بينما يكون الجزء الأكبر من الأحداث من خيال المؤلف!

وهذا ما لا نجده في القصة القرآنية، فالقصص القرآني اقتطاع نعتي لأحداث سابقة. فالقصص القرآني أقرب إلى التاريخ منه إلى الأدب –مع تذكيرنا بأن القصص القرآني ليس تأريخاً–، فهو قائم أصلاً على اقتطاع أحداث بعينها وعرضها للتدليل على صدق دعواه! ناهيك على أن هناك ما اعتبره القرآن "قصاً" ولا يمكن اعتباره بحال قصة أدبياً، فمن ذلك: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ... ١١٨﴾ [سورة النحل ,١١٨]، فهل يمكن اعتبار سرد أصناف المطعومات المحرمة قصة بأي شكل من الأشكال؟!

فإذا غضضنا الطرف عن هذه النقطة وجدنا أن القصة تقدم كقصة، طويلة كانت أم قصيرة، بناء مستقل له أهداف محددة أو حتى غير محددة، بينما يأتي القصص القرآني متخللاً آيات أخرى تتحدث عن الإيمانيات "العقائد" أو الأحكام الشرعية أو أنباء غيبية، أو يتخلله هو ذلك! فهل وُجدت قصة على مر الزمان يتخللها أي شيء آخر؟! من الممكن أن تحتوي القصة بداخلها قصة، أم أن تتداخل مع أجناس أخرى، فهذا ما لم يكن بحال!!

ولا يقتصر الأمر على التداخل وإنما يتعداه إلى التفريق، فنجد أن القصص القرآني يقص وقائع في أكثر من موطن، فيجمل أحيانا ويفصل أخرى، حسبما يقتضيه المقام والحال والموضوع المتناول في السورة، ولا يكفي المشهد الواحد المعروض في سورة من السور لأن يخرج الإنسان بتصور كامل عن هذه الوقائع، وإنما عليه أن يضع كل المشاهد بجوار بعضها حتى يكون ما يمكن تسميته بالقصة المترابطة الأحداث!!

وغني عن الذكر أنه حتمٌ على من يُجمع المشاهد المنثورة في السور، لكي يُقدم ما يمكن تسميته بالقصة، أن يلتزم بالترتيب القرآني للأحداث، وأن يمعن النظر للوصول

إلى الترتيب القرآني لها، ولا يكتفي بالعرض المألوف للقصة! لأنه ربما يكون قيل به تأثراً بروايات إسرائيلية أو بدون تمحيص كافٍ![20]

إلا أن هذا لا يكفي كذلك، فقد لا يؤدي وضع المشاهد المنتقاة من السور المختلفة والمتعلقة بموضوع واحد إلى تكوين قصة مكتملة الأركان! لأسباب عدة، منها أن القرآن لا يصرح أحيانا بترتيب وقوع حدث من الأحداث، وليس ثمة مرجح حاسم لزمان وقوعها! فهل تسمى مجموعة المشاهد التي قد (لا) تؤدي إلى تصورٍ ما، ولا يُجزم بترتيب وقوع بعضها، بقصة؟!

إن أقصى ما يفعله أرباب القصة عند قصّهم أحداثاً واقعية هو أن يغيروا من ترتيب عرض الأحداث، فيحدثون تداخلاً في أزمنة وقوع الأحداث، مقدمين إطاراً عاماً تدور فيه هذه الأحداث. ولم يحدث أن أدخلوا في القصة ما ليس من جنسها، ولا أن اكتفوا بعرض مشاهد غير مرتبطة، فهذا لا يسمى قصة بحال! وهذا ما قدمه القرآن، فلقد قص وقائع موجَّهة لغايات محدودة، وأبينا إلا أن نفهمها كقصص!!

---

[20] فمن ذلك مثلاً أقوال المفسرين التي ذكرها الإمام الفخر الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب، الجزء الثالث، ص. 78–79.، عند تناوله لقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥﴾ [سورة البقرة ,٥٥]، والتي جعلت طلب رؤية الله جهرة بعد عبادة العجل! إلا أنها اختلفت في تحديد زمان الواقع!، فنجده يقول: "للمفسرين في هذه الواقعة قولان، الأول: أن هذه الواقعة كانت بعد أن كلف الله عبدة العجل بالقتل، قال محمد بن إسحاق: لما رجع موسى عليه السلام من الطور إلى قومه فرأى ما هم عليه من عبادة العجل وقال لأخيه والسامري ما قال، وحرق العجل وألقاه في البحر، اختار من قومه سبعين رجلاً من خيارهم فلما خرجوا إلى الطور قالوا لموسى: سل ربك حتى يسمعنا كلامه، فسأل موسى عليه السلام ذلك فأجابه الله إليه (...) فقال القوم بعد ذلك: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، فأخذتهم الصاعقة وماتوا جميعاً (...) القول الثاني: أن هذه الواقعة كانت بعد القتل، قال السدي: لما تاب بنو إسرائيل من عبادة العجل بأن قتلوا أنفسهم أمر الله تعالى أن يأتيهم موسى في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادتهم العجل، فاختار موسى سبعين رجلاً، فلما أتوا الطور قالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة وماتوا (...) واعلم أنه ليس في الآية ما يدل على ترجيح أحد القولين على الآخر وكذلك ليس فيها ما يدل على أن الذين سألوا الرؤية هم الذين عبدوا العجل أو غيرهم." اهـ

والقولان المجمعان على أن الحادثة كانت بعد عبادة العجل مخالفة لقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ۝١٥٣﴾ [سورة النساء ,١٥٣]، والذي يصرح أن اتخاذ العجل كان بعد الأخذ بالصاعقة وليس قبله!

القصص والأحكام الفقهية

لم يقتصر السابقون في تعاملهم مع قصص القرآن على اعتباره مجرد قصص، وإنما أخذوا يستخرجون منه الأحكام الفقهية و*العقائدية*، وهو منهج سليم يُفعِّل آيات الله ولا يحصرها في زاوية واحدة، فوجدنا بعض العلماء يستدلون بطلب موسى رؤية الله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ [سورة الأعراف, ١٤٣]**، على استحالة رؤية الله في الدنيا، وقال بعضهم باستحالتها في الدنيا والآخرة.**

واستدل آخرون بقوله تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٤﴾ [سورة الممتحنة, ٤]**، على عقيدة الولاء والبراء، واستدل غيرهم بأن التوحيد كان الأصل في حياة الإنسان ثم طرأ عليه الشرك، على العكس مما تقوله عامة الأبحاث عن الدين، والتي تدعي أن الدين بدأ بالتعدد ثم تطور إلى التوحيد، وهذا ما أثبتته الأبحاث الأخيرة[21]. كما استدل بعض الباحثين بقصة أصحاب الكهف على أن الكلب حيوان غير نجس ولا مذموم ولا حرج في اقتنائه!**

[21] وفي هذا يقول باحثو جمعية التجديد الثقافية، في كتاب التوحيد عقيدة الأمة منذ آدم، ص48–49: "أما العلماء الملحدون فزعموا أن الإنسان منذ البداية يعتقد بتعدد الآلهة، وبقيت هذه النظرية سائدة لدى الكثيرين إلى أن دحضها الدكتور س. هربرت. وهو أحد أعلام الحفريات وأستاذ الدراسات الأشورية في جامعة أكسفورد، فقد قال هذا العلامة إن عقيدة التوحيد في الديانات "السامية (!) والسومرية قد سبقت العقيدة بتعدد الآلهة" ا.هـ

وكما قلنا فهو مسلك طيب، إلا أنه يعيب بعض الآخذين به أنهم يستدلون بالآيات متى وافقت رأيهم، فإذا خالفت ما يقولون به ابتدأ التساؤل: هل شرع من قبلنا ملزمٌ لنا؟! لذا نقول: الأصل أنه كذلك ما لم يقم دليل على النسخ، والعبرة بما جاء في القرآن وليس ما ذكر في كتبهم، ومن ثم يجب العمل به ما لم يدل الدليل على أننا لسنا مخاطبين به.

فمن ذلك مثلاً ما قصّه الله عن الخليل في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ[22] ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [سورة هود, ٦٩-٧٣] فهنا نجد أن امرأة الخليل قائمة على خدمة ضيوفها ويكلمونها وتكلمهم بل وضحكت أمامهم، ولم يعب الله عليها ذلك! ومن ثم يمكن القول أنه يجوز للمرأة خدمة أضياف زوجها والحديث معهم بدون أي حرج.

والمشكلة أن الفقهاء لم يقتصروا على استخراج الأحكام من القصص، وإنما تعدوا ذلك إلى إيجاد أصل ل "الحيل الفقهية" في كتاب الله! فاستدلوا على جواز التحايل في دين الله بما قصّه الله عن سيدنا أيوب، وتحديداً قوله: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة ص, ٤٤] فقالوا بجواز التحايل في دين الله، فالله الحكيم احتال لأيوب عليه السلام! ومن ثم يجوز التحايل حتى لا يُخالَف الحكم الشرعي ويُعمل به ظاهرا فقط! ولست أدري أين قالت الآية بهذا؟!

[22] الحنيذ كما جاء في تفسير مفاتيح الغيب للرازي: "أما الحنيذ: فهو الذي يشوى في حفرة من الأرض بالحجارة المحماة، وهو من فعل أهل البادية معروف، وهو محنوذ في الأصل كما قيل: طبيخ ومطبوخ، وقيل: الحنيذ الذي يقطر دسمه. يقال: حنذت الفرس إذا ألقيت عليه الجل حتى تقطر عرقاً."

وقولهم هذا راجع إلى جعل الرواية تفسيراً معتمداً لكلام الله، ومن ثم اعتبار ما جاء في الرواية هو المذكور في الآيات! فإذا نظرنا فيما أضافوه من عند أنفسهم ليصلوا في نهاية المطاف إلى هذه النتيجة وجدناهم يقولون: مضمون الآية أن يأخذ سيدنا أيوب حزمة من نبات ما ويضرب بها زوجه حتى لا يحنث، أما لماذا يضربها فاختلفوا في سبب الضرب، ونورد ما ذكره الإمام الفخر الرازي تعليقا على ما ساقه المفسرون في تفسير! هذه الآية: "واعلم أن هذا الكلام يدل على تقدم يمين منه، (ولست أدري كيف يدل هذا الكلام على تقدم يمين منه، فليس هناك أي إشارة إلى مسألة اليمين هذه! –عمرو–) وفي الخبر أنه حلف على أهله، ثم اختلفوا في السبب الذي لأجله حلف عليها، ويبعد ما قيل إنها رغّبته في طاعة الشيطان، ويبعد أيضاً ما روي أنها قطعت الذوائب عن رأسها لأن المضطر إلى الطعام يباح له ذلك بل الأقرب أنها خالفته في بعض المهمات، وذلك أنها ذهبت في بعض المهمات فأبطأت فحلف في مرضه ليضربنها مائة إذا برأ، ولما كانت حسنة الخدمة له لا جرم حلل الله يمينه بأهون شيء عليه وعليها، وهذه الرخصة باقية..[23]" ا.هـ

وليس في الآيات أي مستند لما يقولون، إلا إذا كانت التوراة تفسر القرآن، فهي التي قالت بهذا! أما الناظر في الآيات فيجد أن تطبيق الأمر بالأخذ والضرب أمر يتطلب الجلد والصبر، لذلك عقب الله تعالى بقوله "إنا وجدناه صابرا"، فهل ضرب المرأة بحزمة من النبات يحتاج صبرا؟! ومن يتتبع السياق يجد أنه أُمَر أولا بالركض في قوله تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝٤٢﴾ [سورة ص, ٤٢]ثم جاءت جملة خبرية اعتراضية هي قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٤٣﴾ [سورة ص, ٤٣] ثم استُكمل الأمر الذي يوضح له نهوضه من النصب وهو: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ... ۝٤٤﴾ [سورة ص, ٤٤].

[23] فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، الجزء السادس والعشرون، ص. 188.

ولا خلاف في أن المراد من الضغث هو حزمة النبات، ونقطة الخلاف هي كلمة الضرب، حيث قالوا: طالما أنه أمره بالضرب فلا بد من وجود مضروب. ثم أخذوا يبحثون عمن ضُرب بهذا الضغث! مع أن الآية وضحت أن المفعول به هو الضغث المأخوذ ولم تذكر أي مفعول آخر. وبما أنه لم يُذكر في الآية مفعول فلا يمكن أن نضع نحن مفعولا من عند أنفسنا، لذا نبحث عن معنى آخر من معاني الضرب يتناسب مع الضغث، فنجد أنه التجارة والحركة، وهذا المعنى لا يحتاج إلى مفعول فيمكنني القول "ضربت في الأرض" –وهذا استعمال صحيح وارد في القرآن– ولا أحتاج إلى مفعول مقدر، فالأمر أمر بالتجارة بشيء بسيط يبدأ به ثم يفتح له الله بعد ذلك. أما قوله تعالى "ولا تحنث" فليس المراد من الحنث هو عدم الوفاء بالقسم، فليس هذا هو المعنى الوحيد للحنث، فأصل الحنث ليس عدم الوفاء، فالحنث كما جاء في المقاييس: حنث: الحاءُ والنون والثاء أصلٌ واحد، وهو الإثْم والحَرَج. يقال حَنِثَ فلانٌ في كذا، أي أثِمَ.[24]" اهـ

وكما رأينا فالمعنى الأصلي للكلمة هو التحرج والإثم، وهو ينهى عن التحرج من الضرب بهذا الشيء البسيط. ويبدو والله أعلم أنه نفذ الأمر لذا قال إنا وجدناه صابرا على قضاء الله كله وعلى الأمر فنفذه. وفي الأمر بالتجارة لكي يعود الإنسان إلى سابق حاله إرشاد إلى إعادة بناء الإنسان نفسه بنفسه، لكي ينهض بنفسه من كبواته. إذا فليس في الآيات إقرار للتحايل ولا تعليم له، وإنما إرشادٌ للإنسان لما ينهض به من كبواته وينفض به عن نفسه ركام الماضي .. والمرض. لذا فعلى من ينظر ليستخرج أحكاماً فقهية أو عقائدية أن يدقق فيما قالته الآيات لا أن يأخذ بالتصورات الموجودة لديه مسبقاً!

[24] أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، الجزء الثاني، ص. 108.

الفصل الثاني: البدائل الناقصة

الإسرائيليات .. البديلة!

لا يستطيع أي كاتب عن التعامل مع القرآن أن يغفل الحديث عن الإسرائيليات، لاسيما إذا كان الحديث عن "قصص القرآن" والذي حاز النصيب الأكبر من هذه الإسرائيليات، لذا نعرج عليها لنشير إلى نقطة هامة يغفل عنها أكثر الذين يكتبون عن الإسرائيليات! وحتى يدرك القارئ غير المتخصص المقصود بهذا المصطلح نبدأ بتعريف الإسرائيليات: "لفظ الإسرائيليات –كما هو ظاهر– جمع، مفرده إسرائيلية، وهي قصة أو حادثة تُروى عن مصدر إسرائيلي، والنسبة فيها إلى إسرائيل، (...) ولفظ الإسرائيليات –وإن كان يدل بظاهره على القصص الذي يُروى أصلاً عن مصادر يهودية– يستعمله علماء التفسير والحديث ويطلقونه على ما هو أوسع وأشمل من القصص اليهودي، فهو في اصطلاحهم يدل على كل ما تطرف إلى التفسير والحديث من أساطير قديمة منسوبة في أصل روايتها إلى مصدر يهودي أو نصراني أو غيرهما، ..[25]" اهـ

والإسرائيليات كأخبار مروية يقسمها علماء الشريعة إلى أقسام عدة، فتقسم باعتبار الصحة والضعف، فهناك إسرائيليات صحيحة سنداً وهناك أخرى ضعيفة وموضوعة!! وهناك من يقسمها باعتبارات أخرى، مثل موافقتها للإسلام ومخالفتها، "وتنقسم الإسرائيليات ثانياً باعتبار موافقتها لما في شريعتنا ومخالفتها له إلى ثلاثة أقسام: موافق لما في شريعتنا، ومخالف له، ومسكوت عنه: ليس في شرعنا ما يؤيده ولا ما يفنده."[26]اهـ

---

[25] محمد حسين الذهبي، الإسرائيليات في التفسير والحديث، ص.13.

[26] المرجع السابق، ص.36.

والناظر في كتابات الإسلاميين يجدها مختلفة بشأن التحديث عن بني إسرائيل وعدم التحديث عنهم، فهل تقبل هذه الروايات أم لا تقبل! وعلى الرغم من هذا الاختلاف فإن الملاحظ أن كل كتب التفسير –بما فيها كتب الذين انتقدوا الإسرائيليات– لم تخل من إسرائيليات، والاختلاف في كمّ هذه الإسرائيليات، هل هي كثيرة بارزة في الكتاب، مثل كتاب ابن جرير الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، وكتاب الدر المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطي، أم أنها قليلة نادرة تُذكر عرضا!

ولقد لعبت هذه الإسرائيليات دورا كبيرا في صبغة الإسلام بصبغة يهودية .. خرافية، حتى ليحق القارئ المثقف في عصرنا هذا الجزم بأن قصص القرآن تابع للتوراة ولكتب الشروح اليهودية! وأن كلاهما كتب مليئة بالخرافات، لا يمكن أن تكون إلهية المصدر!! بينما لا يجد كثير من العوام في عصرنا هذا –وفي العصور السابقة من باب أولى!– حرجاً في قبولها، واعتمادها كتفسير وتفصيل لما جاء في القرآن، على الرغم من طفح الخرافة منها!!

وفي عصرنا الحديث بدأت محاولات مضنية من أجل تنقية كتب التفسير والأحاديث من الإسرائيليات، فكلّف شيخُ الأزهر الأسبق الشيخ عبد الحليم محمود الدكتورَ محمدَ أبو شهبة باستخراج الإسرائيليات في كتب التفاسير والأحاديث، وبالفعل أتى الدكتور أبو شهبة بعمل يُحسب له أسماه "الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفاسير"، ثم تراجعت الجهود الرسمية بهذا الشأن مرة أخرى، ومن حين لآخر تظهر على السطح محاولات للتنقية مثل المشروع الذي اقترحه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية في عام 2000 بعد الميلاد، لتنقية كتب التفاسير من الإسرائيليات إلا أن المشروع لم يُكتب له الإثمار!!

والجهود المبذولة في هذه المجال هي جهود فردية يقوم بها أتباع التيار السلفي، من أجل تنقية التراث والسنة النبوية، أو الباحثون المستقلون أو الذين يرنون إلى نيل درجة علمية! ومن أشهر الكتب عن الإسرائيليات في عصرنا هذا، كتاب:

"الإسرائيليات في تفسير الطبري"، والذي تقدمت به الباحثة آمال ربيع للحصول على درجة الدكتوراه، وتميز هذا الكتاب باحتوائه النصوص العبرية المقابلة للنصوص الموجودة في تفسير الطبري، ولله الحمد فلقد نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية هذه الرسالة، التي أوصت فيها مؤلفتها، بسحب كتاب الطبري من الأسواق وتشكيل لجان لتنقيته من الإسرائيليات!!

وعلى الرغم من هذه الجهود المضنية الكبيرة المبذولة والأضرار الكثيرة التي سببتها هذه الإسرائيليات في عقول المسلمين لم نجد من يحاول أن يتجنب الإسرائيليات كلية، فيحاول أن يتعامل مع قصص القرآن بدون الرجوع إلى هذه الإسرائيليات، وذلك للعقيدة الراسخة لديهم هو أن القرآن يحتاج إلى "تفسير"، وأنهم سيجدون في هذه الأخبار ما يبين ما أجمله القرآن!! كما أنهم يتعاملون مع قصص القرآن كقصة، ومن ثم فإن هذه الإسرائيليات ضرورية لإكمال الصورة!!

والإشكالية الكبرى التي لا يلتفت إليها الناقدون للإسرائيليات، والذين لا يمانعون من قبولها قبولاً جزئياً هي أنها أصبحت البديل للتاريخ الديني من المنظور العربي، ومن ثم اختلفت الخلفية المعرفية لكل من أتى بعد جيل التابعين وتابعيهم، فلقد ضاع ما كان معروفاً عند العرب في زمان النبي الكريم والصحابة، ومن ثم فلم نعد نعلم ما كانوا يعلمون عن الأقوام السابقة، وأصبحت معلوماتنا حولهم ضبابية، مستقاة من روايات متناثرة، وذلك لأن الروايات الإسرائيلية أخذت الحيز الأكبر في التراث الإسلامي، سواءً كان متعلقا بالتاريخ الديني أو الدنيوي، وجاء بجوارها على استحياء روايات تتحدث عن هذه الأحداث من منظور عربي!!

ولم يُلتفت إلى هذه الروايات العربية القليلة، الفقيرة المحتوى، والتي لا تقدم تصوراً نافعاً بشأن هؤلاء الأنبياء ولا بشأن الأقوام السابقين، وحتى لو ذُكرت فلن تُقدم على روايات أهل الكتاب ذات الأصل السماوي! ومن ثم هُجرت الروايات التأريخية العربية، ولم تجد من يهتم بنقلها، فأُعرض عنها، وأصبحت الروايات الإسرائيلية هي

المعتمدة!! وبدلاً من أن يقدم العرب للعالم التاريخ الديني المعروف لديهم، توارى هذا التاريخ، لأنه تاريخ جاهلي!! منقول عن الكافرين!

واعتُمد تاريخ أهل الكتاب لأنهم الأقرب إلى الإسلام!! وبسبب اعتماد هذا التاريخ وقع كلُ باحث في قصص القرآن في حيرة كبرى، وهي شعوره بأن القرآن نص خارج عن الزمان والمكان، فيجده يتحدث عن وقائع وأحداث من منظور مختلف تمام الاختلاف، لا يتطابق مع المذكور في التوراة ولا حتى مع التاريخ المعروف، فيتساءل: أين ومتى كان هذا المقصوص؟!

ولو نُقل التاريخ العربي الجاهلي!! بدلاً من التاريخ الإسرائيلي لعرفنا لماذا تحدث القرآن بهذه الطريقة ولجزمنا أنه يذكر وقائع حقيقة وليست خيالية! ونحن نقر أن تأثير قصص القرآن سيختلف لا محالة بين من كان لديه تصورات شبه كاملة عن أمم سابقة وحوادث ماضية وخاطبه القرآن على أساسها، وبين من يأخذ تصوراته من مصادر أخرى، أو ليس لديه تصورات بشأنها أصلاً، ومن ثم يكون قصص القرآن بالنسبة له أقرب إلى قواعد عامة!!

أحسن القصص والتفسير!!

تعامل المفسرون مع قصص القرآن باعتباره قصة! ولكن ليس كأي قصة، فهو "أحسن القصص"، وأخذوا يقدمون العلل والأسباب ويظهرون المحاسن الأدبية والجمالات البلاغية، التي تميز بها القرآن وتفرد! والتي تحتم أن يكون قصص القرآن أحسن القصص. وهي مُسلّمة لا يجادل فيها مسلم!

ولا حرج في فعلهم هذا، فهو تأصيل مطلوب، ولكنهم لم ينتبهوا إلى تناقض كبير سقطوا فيه جميعاً وهو قولهم بأن أحسن القصص يحتاج إلى تفسير .. وإكمال!! فالقصة لكي تكون حسنة لا بد أن يتوفر فيها عدة شروط من أهمها الوضوح والبيان،

فإذا كانت القصة عسيرة الفهم في كثير من المواطن فمن غير المقبول أن تكون حسنة، ناهيك أن تكون "الحسنى"!

ولكن لأنهم كانوا قد وقعوا مسبقا في نفس المأزق عند تناولهم للقرآن، عندما قالوا بالتفسير، وخالفوا المنهج المذكور في القرآن "التأويل"، كان من المنطقي أن يكملوا المسيرة ويتقبلوا حاجة أحسن القصص إلى تفسير! ولم يقتصر الأمر على قولهم بوجود غوامض كثيرة في القصص، وإنما أقروا بنقص القصص في مواطن كثيرة، تحتاج إلى إكمال من التوراة ومن الروايات!! وهم لم يقولوا هذا بألسنتهم ولكن ما خطّوه بأقلامهم أكبر إشارة لهذا، فنجد أن دور كل المتناولين لقصص القرآن هو إكماله! من الروايات والتوراة!! وهذه شهادة صريحة أنه بمفرده غير كامل!!

ورأينا كتباً كثيرة مسماة بقصص القرآن، ولا يظهر فيها من قصص القرآن إلا الآيات المتعلقة بالموضوع الذي يتناوله الكاتب، كجزء بسيط ضروري لإصباغ الشرعية على الشروح والتفسيرات المقدمة، والتي لا علاقة لها في كثير من الأحيان بالنص المعروض، لأنها لم تُستخرج منه!!

فلم نجد من يعمل على تحليل النص القرآني المتعلق بالموضوع ويستخرج منه التصور المقدم في الآيات إلا في أولئك النفر الذين يقارنون بين موضوع ما في القرآن وبين شبيه له في التوراة أو في التراث الإنساني عامة!!

فنظرا لمحدودية عدد الآيات المتناولة لا يجدون جهداً كبيراً في تحليلها بخلاف من يعرض لقصص القرآن كله! –ولست أدري لماذا يعرض من لا يقدر على استقراء القرآن!– وكذلك يعملون على تحليل النص القرآني بسبب التشابه –إن لم يكن التوافق– بين المذكور في الروايات وما في تراث الحضارات السابقة، فيُضطرون اضطراراً إلى العودة إلى النص لتحليله! لينظروا ماذا قال القرآن تحديدا، فتُكتشف وجوه اختلاف بينها وبين القرآن، فيقال أن القرآن لم يقل بما قاله الآخرون!!

ونظرا لطغيان الروايات المتعلقة بقصص القرآن، والتي عرضت لكل صغيرة وكبيرة في القصص، ومن ثم أدت إلى تواري النص الأصلي نفسه، رأينا بعض المتناولين لقصص القرآن يقولون أنه من الأفضل عدم العروض لما لا فائدة فيه! فلا فائدة من معرفة لون كلب أصحاب الكهف وكم كان عددهم وأصناف الطيور التي قطعها الخليل إبراهيم ... الخ التفاصيل المذكورة في الروايات، والتي لا تقدم أو تؤخر في فهم الآيات.

وحسناً فعل هؤلاء وقالوا، وهذا أقصى ما يُنتظر منهم، فلن يقدم أحدهم على المطالبة بتجريد القصص القرآني من كل المرويات المتعلقة به، لأنهم ممن يقولون بالتفسير، ومن ثم فلا حرج من وجود بعضها .. أو كثيراً منها!! نعم، نجح المفسرون وغيرهم من أتباع المدرسة الأدبية في استخراج عناصر حسن القصة في القرآن، إلا أنهم نسفوا العنصرين الرئيسين الأولين: البيان والكمال، فأتوا بنيانهما من القواعد فهدموه على أنفسهم!! لذا فمن الواجب البديهي على المتعامل مع القصص القرآني أن يقدمه كنص متكامل بيّن لا يحتاج إلى تفسير أو إكمال! فيأخذ في تحليل النص والنظر فيما قال، ويستخرج من كلماته العبرة والعظة!!

وقد يسأل بعض القراء مستغرباً: وما الحرج في ذكر الروايات استئناساً؟! -وهو لا يسأل هذا السؤال إلا لألفته وجود الروايات البشرية بجانب كلام الله، ولو تفكر قليلاً لوجد أن كلام الله أحسن القصص، والروايات المنقولة بشرية الصياغة، ولو احتاج الكامل إلى الناقص لكان ناقصاً ولكانت الروايات أفضل منه!-

وقد يرى آخرون أن هذه الروايات تعطي القارئ الخلفية المناسبة للآيات، والتي كانت موجودة لدى المتلقي الأول من العرب أو من أهل الكتاب! فنقول: بيّنا أن التصورات المعروضة في الكتب هي غالباً مأخوذة عن أهل الكتاب وليس عن العرب، ومن ثم فلقد توارت الخلفية المعرفية عند العرب، ولا سبيل أمامنا إلا الحفريات والأثريات، التي قد تكشف القليل منها! أما إذا كان القصص عن أحداث وقعت للسابقين من

أهل الكتاب، فالقرآن جاء ليبين لهم الذي اختلفوا فيه! فلا ننظر ما عندهم لنجعله تفسيراً لما عندنا!

ومن ثم فلا حاجة لعرض ما عندهم أثناء الحديث عن ما في قصص القرآن!! إن هذه المقارنات نافعة لدارسي مقارنة الأديان، ومن ثم فتقدم لهم فقط، لحاجتهم إليها، أما أن نقدمها هكذا لكل المسلمين –كتفسير– فكل ما نفعله أننا نقوم طواعية بالحفاظ على تراث بني إسرائيل وإبقائه في ذاكرة المسلمين وتعريف أجيالنا الناشئة به كأنه تراثنا!!

وكذلك الروايات الواردة عن القصص تُذكر بالنسبة لدارسي التاريخ والأديان، فنَزِنها بالقرآن، فإذا وجدنا خضوعا وانسجاما مع النص وتبعية له، حكمنا بصحتها وقبولها! ولا يعني هذا في عين الوقت أن تُقدم كتفسير له! وإنما تُذكر في معرض الحديث عن الثقافة التاريخية الدينية المتاحة في ذلك الزمان!! فيقال أن العرب أو الصحابة كانوا يعلمون عن هذه الوقائع كذا وكذا!

صورة الرسل

رأينا من قبل أن القرآن في معرض قصه قال للنبي أنه قص عليه من أنباء القرى وما قد سبق، وأنباء الرسل!! وعلى الرغم من ذلك وجدنا أن الاسم الذي اشتهرت به الكتب التي تعرض لهذه القصص ب: "قصص الأنبياء"! مع أن الله لم يربط القص في كتابه بالأنبياء وإنما بالرسل، فقال: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ... ﴿١٢٠﴾﴾ [سورة هود, ١٢٠]، وقال في آخر سورة يوسف: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ... ﴿١١١﴾﴾ [سورة يوسف, ١١٠-١١١]

ولم تأت كلمة "الأنبياء" في القرآن إلا مع القتل! وذلك في ثلاثة مواطن هي: ﴿... ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [سورة آل عمران, ١١٢]، ﴿... وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [سورة آل عمران, ١٨١]، ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ... ﴿١٥٥﴾﴾ [سورة النساء, ١٥٥]، ولكن لأنهم يرون أن الأنبياء أكثر من الرسل، وأن النبي أعم من الرسول، فكل رسول نبي وليس كل نبي رسول، رأوا أن يسموا كتبهم ب "قصص الأنبياء"! إذا فأول تصحيح عن القصص المختص بالمرسلين أن نسميه: "قصص الرسل" وليس قصص الأنبياء!!

فإذا تركنا مسألة الاسم وانتقلنا إلى النقطة التالية لها وهي تصور الرسل، وجدنا أن الصورة التي قدّمها القرآن تختلف كثيراً عن الصورة التي قدمها العلماء لهم، فنجد أن الرسل في القرآن بشر على درجة عالية من التقوى، إلا أنهم في نهاية المطاف بشر، يسري عليهم جل ما يسري على البشر، فنجدهم يخطئون ويتسرعون، ويخافون ويغضبون ويُلامون ... الخ التصرفات والانفعالات البشرية! فإذا نظرنا في الصورة التي قدمها المفسرون والإخباريون لهم! نجد صورة مغايرة تماما، تكاد تخرجهم من حيز البشرية، وتجعلهم بشراً ليسوا كالبشر!! حتى أن "عصمة الأنبياء" أصبحت من المسلّمات المشهورة والمتعارف عليها بين المسلمين!!

والعجيب أنهم تركوا كل الآيات التي عرضت الأنبياء كبشر يتصرف مثل باقي البشر، وتمسكوا بجملة قيلت في سياق آخر وهي قول الله العظيم لرسوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ... ﴿٦٧﴾﴾ [سورة المائدة, ٦٧]، فالله يقول للرسول أنه يعصمه من الناس، أي أن الناس لن يقدروا على منعه تبليغ الرسالة أو إيذاءه، إلا أن الكلمة اقتُطعت من سياقها واستُعملت كدالٍ على شكل فريد من الحماية "العقلية القلبية" يُدرِّع الله بها أنبيائه فلا ينسون الوحي المنزل إليهم، ولا يأتون المعاصي الكبيرة، ولا الصغيرة التي تسمهم

بالطبع الخسيس وتؤدي إلى نُفرة الناس منهم!! أما الذنوب الصغيرة التي لا تنفر ولا تؤثر على مسيرة الدعوة فمن الممكن وقوعها، وسرعان ما يُعاتبون عليها وينبهون إليها!

والعجيب هو قول بعضهم أن الحكمة من "جواز" وقوع المعاصي الصغيرة منهم، هو ألا يُحرموا واحدة من أعظم العبادات وهي التوبة والإنابة إلى الله الرحيم!! وهكذا جعلوا الأنبياء مسيرين غير مخيرين، يوجههم الله حيث يشاء، فلم تعد لهم نفس الجبلة البشرية! وإنما أصبحوا بشراً من نوع آخر!! ومن ثم فلم يأت البشرَ واحدٌ منهم، وإنما واحد مشابهٌ لهم في التكوين الجسدي فقط!!

وعلى الرغم من هذا التوسع الشديد في تصور العصمة والذي لا مستند واحد لهم فيه من كتاب الله!! فإن رأي أهل السنة بهذا الشأن يظل أفضل من الشيعة، الذين لم يجوزوا صدور المعصية منهم –ولا من الأئمة كذلك!!– قبل النبوة أو بعدها!!

ويُجمل الشريف المرتضى الأقوال التي طُرحت حول عصمة الأنبياء، فيقول: "اختلف الناس في الأنبياء عليهم السلام؛ فقالت الشيعة الإمامية: لا يجوز عليهم شيء من المعاصي والذنوب كبيرا كان أو صغيرا، لا قبل النبوة ولا بعدها، ويقولون في الأئمة مثل ذلك، وجوّز أصحاب الحديث والحشوية على الأنبياء الكبائر قبل النبوّة، ومنهم من جوّزها في حال النبوّة سوى الكذب فيما يتعلّق بأداء الشريعة، ومنهم من جوّزها كذلك –في حال النبوّة– بشرط الاستسرار دون الإعلان، ومنهم من جوّزها على الأحوال كلها. ومنعت المعتزلة من وقوع الكبائر والصغائر المستخفة من الأنبياء عليهم السلام قبل النبوّة وفي حالها، وجوّزت في الحالين وقوع ما لا يستخف من الصغائر، ثم اختلفوا؛ فمنهم من جوّز على النبي صلّى الله عليه وآله الإقدام على المعصية الصغيرة على سبيل العمد، ومنهم من منع ذلك وقال إنّهم لا يقدمون على الذنوب التي يعلمونها ذنوباً بل على سبيل التأويل، وحكي عن النظّام وجعفر بن مبشر وجماعة

ممّن تبعهما أنّ ذنوبهم لا تكون إلاّ على سبيل السهو والغفلة، وأنّهم مؤاخذون بذلك وإن كان موضوعاً عن أممهم بقوّة معرفتهم وعلوّ مرتبتهم.[27]" اهـ

ولأن القول بالعصمة يخالف آيات كثيرة من القرآن، ذكرت صراحة عدداً من المواقف التي ليم فيها الأنبياء، بما فيهم النبي الخاتم محمد، وذكرت المعصية صراحة مع آدم –الذي يقولون بنبوته– اضطرت الشيعة لتأويل كل هذه الآية وحملها على غير وجه المخالفة أو المعصية، وجعلها من إتيان غير الأفضل أو ما شابه!!

ويكفي في الرد على الفريقين، أن نذكر مشهداً من مشاهد سورة الإسراء، وهو إن لم يكن مندرجاً تحت قصص القرآن، إلا أنه كاف لإبطال هذه "*العقيدة*" التي ابتُدعت ابتداعا، وهو قول الرب العزيز: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۝٧٣ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝٧٥﴾ [سورة الإسراء, ٧٣-٧٥]

فالآيات تقول أن المشركين كادوا أن يفتنوا الرسول ليفتري على الله غير الذي أوحى الله إليه، فيتوعده الله بأنه لو كان فعل لأذيق ضعف الحياة وضعف الممات! وهذا يعني أن هذه الكبيرة المضيعة للرسالة والمبطلة لها ممكنة في حق الرسول، فكيف يكون ما تحتها غير ممكن!! وحتى لا يقال أن الأمر استنتاج نذكر الأمر الصريح الذي أوحي إلى النبي ومن سبقه، فليس لهم فقط وتميز هو عنهم، وإنما جميعهم فيه سواء: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٥﴾ [سورة الزمر, ٦٥]

[27] الشريف المرتضي، تنزيه الأنبياء، ص. 15،16.

فالله أوحى إلى الرسول وإلى إخوته السابقين أنهم لو أشركوا لكانوا من الخاسرين، وإذا كان من الممكن أن يشركوا! فمن الممكن أن تصدر عنهم الكبائر والصغائر، ولو كان هذا غير ممكن لما كان هناك فائدة من هذا الوحي!!

ونختم بالآيات الصريحات التي تبطل كل ما يدندنون حوله وهي قول الرب العليم: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝﴾ [سورة الأعراف, ١٧٥-١٧٦]

فالنبي يؤمر بأن يتلو نبأ شخص آتاه الله آياته فانسلخ منها! فهل هناك دليل أوضح من هذا على عدم وجود هذا الدرع الواقي الذي يتميز به الأنبياء عن باقي البشر؟! ولكن لأن المتعاملين مع القرآن يقرءونه بأفكار مسبقة ويفهمونه بقواعد مؤصلة غير مستخرجة من القرآن، فيحملونه عليها، وافقها أم خالفها!! والآيات التي نستدل بها كلها يحملونها على غير منطوقها لمخالفتها قواعدهم!!

بل إننا نجد من يسخر من التوراة مثلاً ويتهمها بالافتراء على الأنبياء في بعض المواطن، بحجة أنها مخالفة للقرآن، وذلك مثل ما قاله نضال دويكات: "موسى متردداً في قبول التكليف: تصور التوراة موسى عندما تلقى الأمر الإلهي بالذهاب إلى فرعون، وتبليغ الرسالة بالخوف الشديد والتردد في قبول الأمر فهو يعيش لحظات من الخوف والرهبة، فقد جاء في نصوص التوراة: (هلم أرسلك إلى فرعون، وتخرج شعبي بني إسرائيل من مصر، فيرد عليه موسى مستهجنا: ومن أنا حتى أذهب إلى فرعون وحتى أخرج بني إسرائيل من مصر؟). أقول: وليست هذه الصفات والمطاعن المحرفة الوحيدة التي تجرأ بها اليهود على نبي الله موسى في التوراة فقط، ...[28]" اهـ

[28] نضال دويكات، موسى مع فرعون بين القرآن والتوراة، دراسة مقارنة، ص.27.

ولست أدري أين الاختلاف الذي أتت به التوراة في هذا الموطن إلا الاختلاف في الكلمات المستخدمة، بينما المحتوى المقدم واحد، فإذا نظرنا في القرآن وجدناه يقص عن حال موسى قائلا: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٢٤ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ۝٢٦ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ۝٢٨ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ۝٣٢﴾ [سورة طه, ٢٤-٣٢]، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝٣٣ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝٣٤ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ۝٣٥﴾ [سورة القصص, ٣٣-٣٥]

فيقول أن سيدنا موسى استثقل الرسالة وطلب من الله أن يجعل له معينا، مبديا خوفه من هذا العبء الجسيم! فهنا نرى أن النبي له مطالب بشأن تحمل الرسالة!! فتأتي الطمأنة من الله أنه سيجعل لهما سلطانا فلا يصلون إليهما، -كما قال للنبي: "والله يعصمك من الناس"، فهي عصمة من أن يصل إليهما الأذى، حتى يتمكنا من تبليغ الرسالة!!، فجُعلت في عدم الوقوع في المعاصي!-

وكما رأينا لم يختلف المشهد عما في التوراة، ولكنها التصورات المسبقة التي تجعل من يقرأها يفهمها كما يظن وليس كما تقول!!

الشمولية والحصر

يعرفنا القرآن بأن الله أرسل الرسل لئلا يكون للناس عليه حجة بعدهم: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ... ۝١٦٥﴾ [سورة النساء, ١٦٥]، ولكي تقام الحجة على الناس فلا بد أن يصل إليهم من يعرفهم

ويبشرهم وينذرهم، ولقد قال الرب العليم: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا ... ۝٣٦﴾]سورة النحل, ٣٦[، ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ۝٢٤﴾] سورة فاطر, ٢٤[

وهذا هو المقبول والمتوقع عقلاً، أن يقيم الله الحجة على عباده بإرسال الرسل إليهم، والتي تعرفهم بربهم وبسبل الهدى والرشاد، إلا أن الناظر في القرآن يقابل بآيات أخرى تقول أن الله حصر النبوة والكتاب في نسل معين، وهو نسل نوح وإبراهيم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ... ۝٢٧﴾] سورة العنكبوت, ٢٧[، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ... ۝٢٦﴾] سورة الحـديد, ٢٦[، فكيف تتفق الشمولية مع الحصر في نسل معين؟! نقول: ليس في هذا أي تعارض، فلقد قال الله تعالى أن كل أمة خلا فيها نذير، والنذير من الممكن أن يكون رسولاً أو غير رسول، فقد يكون تابعاً لرسول ممن جاءوا في جزيرة العرب! أو يكون رسولاً من نسل نوح قبل إبراهيم، وسيدنا نوح أقدم من إبراهيم بآلاف السنين، فلا مانع أبداً أن تنتشر ذريته في مناطق شاسعة في أنحاء البسيطة!!

ناهيك عن أن الله تعالى عرّف بأن الرسالة التي وصلت لجميع البشر هي الرسالة الأصل البسيطة: عبادة الله واجتناب الطاغوت ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ... ۝٣٦﴾] سورة النحل, ٣٦[بينما أتت الرسالات المفصلة لأجناس معينة عليها حمل الرسالة وتبليغها للآخرين!!

والله تعالى لا يرسل أي إنسان هكذا، وإنما يصطفي ويختار الأنسب والأقدر على تحملها وتبليغها، والأنبياء في القرآن مصطفون من نسل مبارك، والناظر في القرآن يرى أن الله تعالى اصطفى منذ أول البشرية ذرية بعينها وحملها الرسالة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٣ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ... ۝٣٤﴾]سورة آل عمران, ٣٣-٣٤[بينما تكون هناك ذرية أو ذُريات أخر –أقل درجة– تتلقى

الرسالة من الأنبياء وتبلغه غيرها، كما كان بنو إسرائيل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [سورة الجاثية ,١٦]

ولقد حافظ الله على نقاء هذا النسل، فلم يختلط بغيره من الأجناس! كما حافظ على نقاء أصل الجنس العربي كله فلم يعْلُه غيره، فكان هو من يلقح غيره ولا يتلقى من غيره، وهذه مزية تفردت بها جزيرة العرب على مر التاريخ، فالملاحظ أن جزيرة العرب، وخاصة قلبها، لم تحتل يوما واحداً من أي جنس آخر، بينما احتُلت معظم دول العالم من أجناس أخرى، سواء في العصور الغابرة كما حدث مع أجدادنا الأقباط، الذين خضعوا لاحتلال الفرس والرومان، أو في العصور الحديثة، والتي خضعت فيه قارات بأكملها تقريباً للاحتلال البريطاني أو الفرنسي أو البرتغالي، أو تعرض سكانها الأصليون لإبادة منظمة، حتى أصبح الجنس الحال هو السائد المنتشر، كما حدث في الأمريكتين!! أما جزيرة العرب فلا تزال تحافظ على نقاءها وعلى بيت الله الموجود بها!!

وقد يرى عامة القراء أن الإشكالية ليست في القرآن بالدرجة الأولى وإنما في الواقع، الذي يقول أن ظاهرة الأنبياء ظاهرة تفردت بها جزيرة العرب، فلماذا لم يظهر أنبياء في مناطق أخرى من العالم القديم، والذي وُجدت فيه حضارات كبيرة؟ فنقول: هذه الإشكالية موجودة في عقول المتأثرين بالتصور التوراتي للرسول وللرسل!! فلا يشترط أن يأتي كل الأنبياء في جميع أنحاء العالم، بنفس الشكل الذي كان عليه أنبياء بني إسرائيل!! فالأنبياء الذين أرسلوا إلى هؤلاء الأقوام السابقين لموسى وإبراهيم، كانوا يحملون رسالة بسيطة وبالتأكيد لن يحملوا التقاليد الإسرائيلية! وإنما سيأتون بما يتفق مع عادات واحتياجات هذه الأقوام!

والعنصر الرئيس لإشكالية التصور هذه راجع إلى الاسم، فلقد استعمل اللسان العربي –والعبري التابع له– كلمة "نبي"، المأخوذة من النبأ والنبو، وتابعتها على ذلك

الحضارات اللاحقة الظهور، مثل الحضارة الغربية، والتي أسست بنيانها على خليط من اليهودية واليونانية!! فهل نتوقع أن تستعمل كل الألسنة نفس الأصل اللساني المساوي له؟!!

بالطبع لا، لذا فمن المقبول أن يكون الأنبياء في المناطق الأخرى قد حملوا أسماء غير اللفظ الذي يدل على النبوة، وأميل إلى أنهم كانوا يسمون أنفسهم بالرسل!! ولا نتوقع أن نجد في تاريخ الأمم الوثنية المشركة ما يشير إلى هؤلاء صراحة أو بحيادية!!

ناهيك عن التحريف الذي أصاب الديانات السابقة!! والذي حول مجراها بدرجة كبيرة!! وأنا أرى أن زرادشت وبودا كانا نبيين مرسلين، إلا أن رسالتهما دخلها التحريف والإضافات، وبودا نفسه صرّح أنه ليس البودا الأول، وإنما سبقه أكثر من بودا[29]!

وبالإضافة إلى بودا وزرادشت المشهورين، والذين كتب لأديانهما الانتشار، فإن هناك أدلة تاريخية على وجود غيرهم، ممن لم تُكتب لدعوتهم الانتشار، فمثلا هناك إشارات تاريخية على ظهور نبي في الصين في القرن الأول قبل الميلاد، عُرف باسم: Gan Zhongke، وقدّم نفسه باعتباره رسول من رب السماوات!! كما أن هناك آثار ديانة توحيدية في الأمم الأصلية لسكان الولايات المتحدة الأصليين، والذين كانوا يعرفون ب the Iroquois Nation.

وهناك غيرها العديد والعديد من الأدلة التي تقول بمعرفة البشر بالأديان السماوية، ولا يتوقع القارئ أن تظهر آثار الأديان بوضوح في الآثار المكتشفة، فالأديان في جميع العصور عنصر مُهمّش، حتى لو كان هو العلامة المميزة للشعب، فانظر في المنتجات التي تنتجها الدول الإسلامية في زماننا هذا –وفي الأزمنة السابقة– هل تجد فيها ما

[29] قد يرفض بعض القراء القول بأن بودا كان نبياً بحجة أن ديانته أصلا ديانة غير إلهية، إلا أنه ليس ثمة دليلٌ على هذا أصلا، فلم يترك بودا تعاليم مكتوبة أو مدونة، ولم تنتشر ديانته انتشارا كبيرا أثناء حياته، وإنما خلف بودا تعاليم كانت تُنقل شفهيا، إلى أن قام أتباعه بجمع هذه التعاليم وشرحها. ومن بين آلاف المواعظ الواردة في كتابات السوترا والذي يُنسب إلى بوذا، يصعب التفريق بين المواعظ التي ترجع إليه وتلك التي وضعها أتباعه بعد وفاته!

يدل على أننا مسلمون أو مؤمنون بالله؟! لن تجد في الأكثرية الساحقة ما يشير إلى ذلك، وإنما ستجد ذلك في كتب الدين، فإن لم توجد انعدم الدليل!!

لذا فإنه من الحمق البحث عن آثار للدين في آثار الأقدمين خاصة، لأنه لن يجد إلا ما كانت تتبناه الحكومات، أما المخالف فكان يُعدم، ناهيك عن أن آثار الأديان تظهر في النفوس بالدرجة الأولى، أكثر مما تظهر في الأبنية.

عدد الرسل

لا خلاف بين المسلمين في أن الله العليم لم يذكر لرسوله الكريم في القرآن كل الأنبياء والرسل الذين أرسلهم إلى عباده، وإنما ذكر له بعضهم وأحسن قصصهم، ودليلهم في هذا قول العليم: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ... ﴿١٦٤﴾﴾ [سورة النساء, ١٦٤]

ولقد ذكر القرآن عدداً من الشخصيات، اتفق العلماء على كون بعضها من الرسل واختلفوا في الآخرين، فاشتهر بين المسلمين أن الأنبياء المذكورين في القرآن بالاسم خمسٌ وعشرون نبياً هم: "آدم، نوح، هود، صالح، إبراهيم، لوط، إسماعيل، إسحاق، يعقوب، يوسف، اليسع، ذو الكفل، أيوب، إلياس، يونس، شعيب، موسى، هارون، داود، سليمان، إدريس، زكريا، يحيى،، عيسى، محمد."

والناظر في القرآن يجد أنه أثبت النبوة أو الرسالة لكل هؤلاء صراحة، إلا آدم، فلم يسمه يوماً نبياً أو رسولاً، ولم يذكر له رسالة إلى أي قوم!!

والناظر في الأدلة التي استدل بها القائلون بنبوته يجد أنها آيات لا تختلف عن تلك الآيات التي رأوا أنها لا تنهض للحكم الجازم بالنبوة، فاستدلوا بأن الله تعالى أوحى إليه، ويرد عليهم بأنه أُوحي كذلك إلى ذي القرنين وإلى العبد الصالح مع موسى –

المعروف بالخضر- ولم يكن هذا كافياً عندهم للحكم بالنبوة، ولقد وردت رواية عن النبي عند الحاكم تقول: "ما أدري تبع أنبيا كان أم لا وما أدري ذا القرنين أنبيا كان أم لا وما أدري الحدود كفارات لأهلها أم لا[30]"

والدليل الذي جعلهم يقولون بنبوة آدم جازمين بذلك، مخالفين كل آيات الكتاب، هو الرواية التي رواها الطبراني، والتي تقول: "حدثنا معاوية بن سلام عن أخيه زيد بن سلام قال: سمعتُ أبا سلام قال: سمعتُ أبا أمامة أن رجلا قال: "يا رسول الله، أنبيّ كان آدم؟" قال: "نعم"، قال: كم كان بينه وبين نوح وإبراهيم؟" قال: "عشرة قرون". قال: "كم كان بين نوح وإبراهيم؟" قال: "عشرة قرون". قال: "يا رسول الله كم كانت الرسل؟" قال: "ثلاث مئة وثلاثة عشر".[31] ا.هـ

ولست أدري كيف قُبلت مثل هذه الرواية —المصدقة لما في التوراة!- المخالفة للقرآن، والذي يقول: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ ... ١٦٣﴾ [سورة النساء, ١٦٣]، فجعل نوحا أول الأنبياء وكل الأنبياء بعده!

كما أنها مخالفة لأحاديث أقوى سنداً من هذه، فنجد أن البخاري يروي في حديث الشفاعة الطويل: "... فَيَأْتُونَ آدَمَ (عليه السلام) فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَمَرَ الْمَلائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ! وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ. نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ. فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا ..[32]" اهـ

[30] محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، الجزء الأول، 92.
[31] سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الكبير، الجزء الثامن، ص.118.
[32] محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح، الجزء السادس، ص.84.

فكما رأينا، لم يقل له الناس في هذه الرواية: أنت أول أنبياء الله، أو حتى: أنت نبي، وإنما خاطبوه بأنه أبو البشر، وعندما ذهبوا إلى نوح يخاطبونه بأنه أول الرسل، فكيف تُجعل مثل هذه الروايات الضعيفة السند، المخالفة للقرآن في مواطن كثيرة[33]، دليلاً على مثل هذا القول!

فإذا تركنا عدد الرسل المذكورين بالاسم في القرآن، وأردنا أن نعرف عدد الرسل بشكل عام، نجد أن القرآن لم يذكر لهم عدد، وقال أنه قص على النبي منهم ولم يقص آخرين، فإذا نظرنا في السنة وجدنا بعض الروايات قد أخبرت بعدد الرسل، فنجد الإمام أحمد يروي في مسنده: "عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله ، كم المرسلون ؟ قال : ثلاثمائة وبضعة عشر ، جما غفيرا.[34]"

فنجد أن هذه الرواية قد ذكرت عدد المرسلين وحددته بأنه ثلاثمائة وبضعة عشر ، وهو عدد مقبول عقلاً ولا إشكال فيه، إلا أننا نجد رواية أخرى ذكرت عدد الأنبياء، جاء فيها: "قال أبو ذر: قلت يا رسول الله: كم وفاء عدة الأنبياء؟ قال: مائة ألف، وأربعة وعشرون ألفا، والرسل من ذلك: ثلاثمائة وخمسة عشر ، جما غفيرا"[35]

فجعلت عدد الأنبياء عدداً مهولاً، ولست أدري لمن أرسل هؤلاء كلهم في الأزمنة الغابرة، والتي كان عدد البشر فيها أقل بكثيرٍ من الآن؟! وكيف غفل التاريخ عن كل هؤلاء فلم نجد لهم أي أثر؟! إن هذا العدد المذكور مبالغٌ فيه بشكل كبير، ولكنه يتفق مع التصور التوراتي للأنبياء، والذي يجعل سبعين منهم يقتلون في يوم واحد، ويجتمع

---

[33] العجيب أنهم يقولون بنبوة آدم على الرغم من أنهم يقولون بعدم وجود بشر معه، ولست أدري لمن كان نبيا؟! ولقد عرضنا في كتابنا السابق "نشأة الإنسان" الأدلة التي تؤكد أن آدم لم يكن نبياً وإنما كان إنساناً معلمَاً معلِماً! فمن أراد الاستزادة فليرجع إلى الكتاب! ونزيد هنا دليلاً لم نذكره في الكتاب السابق، وهو قوله تعالى في سورة طه، بعد أن حكى معصية آدم: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾ [سورة طه ,٩٩]، ولم يقل الله: "كذلك نقص عليك من أنباء الرسل ..."، ولو كان رسولاً أو نبياً لقيل كذلك!

[34] أحمد بن حنبل، المسند، الجزء الخامس، 178.

[35] المرجع السابق، ص. 265.

منهم أربعون في مكان واحد!! كما أنه يتفق مع الرقم الوارد في التراث اليهودي، والذي يرى أن الأنبياء كذلك 124000 نبي!!

وبغض النظر عن ضعف هذه الأحاديث[36]، فلقد قال الله: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ... ﴿١٦٤﴾﴾ [سورة النساء, ١٦٤]، وهذا يشير إلى كثرة الأنبياء، دون تحديد بعدد، وهذا مما لا فائدة في معرفته!!

الرسل والزبر

إذا سألت أي مسلم: من هو النبي الذي أتاه الله زبورا؟ ستأتيك الإجابة أنه نبي الله داود، فلقد قالها الله تعالى في كتابه مرتين: ﴿... وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [سورة النساء, ١٦٣]. فإذا سألت: ما هو الزبور؟ ستأتي الإجابة بأنه هو المزامير الموجودة في كتب اليهود والمسيحيين، والمنسوبة إلى داود عليه السلام. فإذا تساءلنا: هل لهذه الإجابة مستند في القرآن؟! وجدنا أن القرآن لم يقل أن الله آتى داود الزبور، وإنما آتاه زبورا، كما قال أنه هناك غيره من الأنبياء جاءت بالزبر، –وهذا يعني أن كل واحد منهم أوتي زبوراً أو أكثر– كما في قوله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ [سورة آل عمران, ١٨٤]، ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة فاطر, ٢٥]

فهل يمكن أن يكون زبور داود مزامير؟! نقول: هذا من المستبعد، فالزبور الذي أوتاه داود كان وحياً من الله، بينما المزامير هي مجموعة من الابتهالات والأشعار، كان

[36] الأحاديث الواردة في عدد الأنبياء تتراوح بين الضعف والضعف الشديد، ولا يوجد فيها حديث صحيح واحد! ولم نرد أن نعرض للقارئ المطاعن الموجودة في الأسانيد خشية الإطالة، ونكتفي بالقول أن كبار علماء السلفية في عصرنا الحديث، مثل ابن باز وابن جبرين يقولون أنه لم يصح فيه حديث واحد، ومن ثم فإنه لا يعلم عددهم إلا الله!

يناجي بها داود ربه! والله لن يعطي نبياً أذكاراً، وإنما يعطيه كتابا محكما ذي قوة، وهذا ليس ثمة كتاب ابتهالات[37]!!

وعلى الرغم من أن القرآن لم يبين لنا المحتوى الذي كان في الزبر، إلا أننا يمكننا استنتاج محتواه استناداً إلى اللسان، فإذا نظرنا في الكلمة وجدنا أن "زبور" على وزن فعول، وهي وزن يفيد المبالغة مثل صبور وشكور، ومن ثم فإنه من المفترض في هذا الكتاب أن يكون كثير الزَبر، فإذا تركنا المدلولات المادية للكلمة وجدنا أن المدلول المعنوي الرئيس لها هو النهر والزجر الشديدان، كما جاء في لسان العرب: "وزَبَرَه يَزْبُرُه، بالضم، عن الأَمر زَبْراً: نهاه وانتهره. وفي الحديث: إِذا رَدَدْتَ على السائل ثلاثاً فلا عليك أين تَزْبُرَه، أَي تَنْهَرَهُ وتُغْلِظ له في القول والرَّدِّ والزِّبْرُ، بالفتح: الزَّجْرُ والمنع لأَن من زَبَرْتَه عن الغيّ فقد أَحْكَمْتَهُ كَزَبْرِ البئر بالطي[38]" اهـ

ومن ثم يمكننا القول أن الزبور أو الزبر هي كتب لا تحتوي أحكاما وإنما "مواعظ"، فالتعريف بالرب الخلاق العليم وأفعاله والتذكير بالآخرة والتعريف بما فيها من الثواب والعقاب والتذكير بأحوال السابقين، وضرب الأمثل، هو أكبر مزبر للإنسان، يرده عن غيه وعن أفعال السوء!

---

[37] قال بعض الباحثين المعاصرين أن الزبور مأخوذ من الزبر والذي بمعنى القطع! ومن ثم فإن القرآن كان في زبر الأولين، وزبر الأولين من القرآن، أي أنه اقتطع منه بعض التعاليم ووُضعت في هذه الزبر، وبهذا يكون القرآن في زبر الأولين، ويكون الزبور زبوراً! واستدل على هذا بقوله تعالى: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِ ... ﴿٩٦﴾﴾ [سورة الكهف ,٩٦]، وقوله: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [سورة المؤمنون ,٥٣]، وهو استدلال غير قويم، تاركٌ لاستعمالات الكلمة في اللسان، فإنه من الممجوج أن يقال: فتقطعوا أمرهم بينهم قطعا! ناهيك عن أن الله استعمل كلمة أخرى غير القطع، وهي تدل على الإحكام والشدة، ولو نظرنا في لسان العرب لوجدنا ابن منظور يقول في الجزء الثالث، ص.1804: "زبر: الزَّبْرُ: الحجارة. وزَبَرَهُ بالحجارة: رماه بها. والزَّبْرُ: طَيُّ البئر بالحجارة، يقال: بئر مَزْبُورَةٌ. وزبَرَ البئر زَبْراً: طواها بالحجارة؛ ... وزُبْرَةُ الحديد: القطعة الضخمة منه، والجمع زُبَرٌ. قال الله تعالى: آتوني زُبَرَ الحديد، وزُبُرٌ، ... والزِّبِيرُ: الشديد من الرجال. أَبو عمرو: الزِّبِرُّ، بالكسر والتشديد، من الرجال الشديد القوي؛ قال أَبو محمد الفقعسي: أَكون ثَمَّ أَسداً زِبِرا" ا.هـ، فليس أي قطعة من الحديد زبورا، وإنما القطعة الضخمة الشديدة، وأما الذين تقطعوا أمرهم فالمقصود أنهم تقطعوا أمرهم بينهم بشكل كبير شديد.

[38] جمال الدين بن منظور، لسان العرب، الجزء الثالث، ص.1804.

بعد أن بيّنا أن الزبور ليس ابتهالات، ننتقل إلى نقطة أخرى وهي من أوتي زبورا، وعلى الرغم من إقرار المفسرين أن هناك آخرين أوتوا زبُرا، نجد تعاملاً عجيباً مع الآية التي تقولها صراحة، أن الله آتى رسلاً غير داود زبوراً، فإذا نظرنا في الآية الشهيرة التي يستدل بها على عدم تحديد عدد الرسل في القرآن وجدنا أنها تُنزع من سياقها، فيكون الاستدلال بها غير قويم، فإذا عرضناها في سياقها وجدنا الرب العليم يقول:

﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ ... ١٦٤﴾ [سورة النساء, ١٦٣-١٦٤]

فإذا نظرنا في تعامل المفسرين معها وجدنا أنهم قد اختلفوا في مبرر نصب قوله "ورسلا"، فنجد أنهم قد قدموا عدداً من المبررات الافتراضية، التي تستبعد النص، فإذا نظرنا في توجيه الإمام الألوسي مثلاً للآية وجدناه يقول: ﴿وَرُسُلاً﴾ نصب بمضمر أي أرسلنا رسلاً؛ والقرينة عليه قوله سبحانه: ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ [سورة النساء, ١٦٣] السابق لاستلزامه الإرسال، وهو معطوف عليه داخل معه في حكم التشبيه، وقيل: القرينة قوله تعالى: ﴿قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ﴾ لا أنه منصوب بقصصنا بحذف مضاف أي قصصنا أخبار رسل، ولا أنه منصوب بنزع الخافض أي كما أوحينا إلى نوح وإلى رسل كما قيل لخلوه عما في الوجه الأول من تحقيق المماثلة بين شأنه صلى الله عليه وسلم وبين شؤون من يعترفون بنبوته من الأنبياء عليهم السلام في مطلق الإيحاء، ثم في إيتاء الكتاب، ثم في الإرسال، فإن قوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ... ١٦٣﴾ [سورة النساء, ١٦٣] منتظم لمعنى ﴿... ءَاتَيۡنَٰكَ ... ٩٩﴾ [سورة طه, ٩٩] و﴿... أَرۡسَلۡنَٰكَ ... ١١٩﴾ [سورة البقرة, ١١٩] حتماً فكأنه قيل: إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى فلان وفلان، وآتيناك مثل ما آتينا فلاناً، وأرسلناك مثل ما أرسلنا الرسل الذي قصصناهم وغيرهم ولا تفاوت بينك وبينهم في حقيقة الإيحاء[39]" اهـ

(39) محمود الألوسي، روح المعاني، الجزء السادس، ص17.

ولست أدري ما الذي يجعل الإمام الألوسي وغيره لا يقولون بعطف "ورسلاً" على "داود"! فيكون الله قد آتى داود زبورا، وآتى رسلاً قد قصهم على النبي من قبل ورسلاً لم يقصصهم عليهم "زبرا"، وهذا يعني أن الزبر التي أنزلها الله على رسله كثيرة، بينما لم ينزل إلا عدداً قليلاً من الكتب!!

تشويه أم قتل؟!

من البشر اختار الرب العليم بشراً ليكون رسله إلى جنسهم، ليقدموا لهم طريق الهدى والرشد، وليكونوا خير دليلٍ على واقعية المنهج المقدم وعدم مثاليته، فإذا صلح مع هؤلاء، فهو حتماً صالح لباقي البشر!

والرسل في التصور القرآني بشر من البشر، إلا أنهم يمثلون القدوة الحسنة والنموذج الأعلى للبشر، الذي يجب عليهم الاقتداء به والسعي للوصول لدرجته، إلا أنهم يبقون في نهاية المطاف بشراً[40]، تسري عليهم كل العوارض البشرية. وعلى النقيض من هذا تماماً كانت المسيحية واليهودية، فلقد أعلت المسيحية مقام النبي حتى جعلته إلها، ونزلت بهم اليهودية إلى درجة سفلة العوام، الذين لا يتورعون في كثير من الأحايين عن إتيان المعاصي والذنوب كبيرها وصغيرها، بينما يكونون في مواقف أخرى على درجة كبيرة من التقى والتورع! تدفع الإنسان إلى الظن أن هؤلاء الأنبياء يعانون من انفصام حاد في الشخصية!

والناظر في كتابات الإسلاميين حول التوراة يجد أنها تركز تركيزا كبيراً على هذه المسألة، ليبرزوا الاختلاف الشاسع بين القرآن والتوراة في تصور الأنبياء، -ولهم كل

[40] عرضنا في كتابنا "السوبرمان بين نيتشه والقرآن" للتصور الخرافي للإنسان الأعلى "السوبرمان" وبيّنا أن الأنبياء والرسل هم المثل الأعلى للبشر، الذين تفردوا بدرجة من الكمال البشري قبل البعثة، ويزدادون كمالاً بعد البعثة!

الحق في هذا– وكيف أن القرآن أتى ليُطهر هؤلاء الأنبياء من التهم والأوصاف الشنيعة التي أُلصقت بهم!

وهنا قد يتساءل متدبر: إذا كان هذا فعلاً من أغراض القصص، فلماذا لم يشر القرآن إلى ذلك، أو حتى لماذا لم يلم اليهود على فعلهم هذا، حتى نعلم أنه كان يقصد هذه الغاية فعلاً، وليس أنه اجتهاد من المسلمين لإكساب النص مزيداً من الرفعة وسمو الغاية؟! فنقول: لم يغفل القرآن هذه النقطة، فلقد ذكرها في أكثر من موطن، ولكنها لم تُفهم فهماً صحيحا، مما جعل بعض المتأخرين يظن أنها من التوجيهات العقلية للمسلمين لقصص القرآن! ولكن القرآن لم يستعمل نفس المصطلح الذي نستعمله في أيامنا هذه "تشويه سيرة الأنبياء"، وإنما استعمل مفردة أخرى، تحمل معنى أكثر ملائمة ومطابقة للفعلة، وهي: "قتل الأنبياء"!

وهذا النعت مما اشتهر به اليهود عند المسلمين، فنحن نسميهم: "قتلة الأنبياء" وذلك لأنهم قتلوا كثيرا من الأنبياء الذين أرسلهم الله إليهم، إلا أن الناظر في القرآن يجد أن النعت القرآني لهم يقول أنهم لا يزالون يقتلون الأنبياء! وذلك كما جاء في قوله: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ٧٠﴾ [سورة المائدة, ٧٠]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾ [سورة آل عمران, ٢١]

فنلاحظ أن الله العليم استعمل الفعل الماضي مع التكذيب "فريقا كذبوا" واستعمل المضارع مع القتل في الآيتين، فكيف يكون اليهود لا يزالون يقتلون الأنبياء، الذين يفترض أنهم لم يكذبوهم[41]؟! نقول: إن الفهم الجزئي للفظة "قتل" هو الذي أدى إلى

[41] لاحظ أنهم كذبوا فريقا، وقتلوا فريقاً، ومن ثم فمن المفترض أن الفريق الذي قُتل غير الذي كُذب، ومن ثم فهم قتلوا أنبياء لم يكذبوهم، وقولهم بأن القتل يعني الإماتة يظهر نقطة لا منطقية، وهي أنه من المفترض أن يقتلوا الذين كذبوهم وليس الذين لم يكذبوهم، أما على قولنا الذي سنبينه للقارئ بعد سطور فلا إشكال!

هذا الفهم! فبعض المفسرين أوّل المضارع في قوله تعالى "يقتلون" في سورة المائدة وقال أنه بمعنى "قتل" ومنهم من أوّل "النبيين" في سورة آل عمران وقال: ليس المراد حتما كل النبيين، فاليهود أو بنو إسرائيل لم يقتلوهم كلهم وإنما قتلوا بعضهم أو قليلا منهم! لذا نحاول أن نستخرج المعنى العام للكلمة لنبصر ماذا تعني:

إذا نظرنا في المقاييس وجدنا ابن فارس يقول: "القاف والتاء واللام أصلٌ صحيح يدلُّ على إذلالٍ وإماتةٍ. يقال: قتَلَهُ قَتْلاً. (...) «ويقال: تقتَّلت الجاريةُ للرّجُل حتَّى عَشِقَها، كأنَّها خَضَعَتْ له. قال»: تقَتَّلتِ لي حتَّى إذا ما قتلِتني تنسَّكْتِ، ما هذا بفعل النواسِكِ. وأقتَلتُ فلاناً: عرَّضْته للقَتل. وقلبٌ مُقَتَّلٌ، إذا قَتَّلَهُ العِشْق. قال امرؤ القيس:

وما ذَرَفَتْ عيناك إلاّ لتَضربِي بسهميكِ في أعشارِ قلبٍ مقتَّلِ.

قال أهلُ اللُّغة: يقال قتِلَ الرّجل، فإنْ كان من عشقٍ قيل: اقْتُتِل، (...) وقُتِلت الخمرُ بالماء، إذا مُزِجَت؛ ..[42]" اهـ

وكما رأينا فهناك معنيان أصليان للكلمة، وليس معنىً واحدا، ونلاحظ أن ابن فارس جعل "الإماتة" المدلول الثاني لها وليس الأول، لذا ننظر في كتاب الله لنر، هل استعمل الرب العليم الكلمة بالمعنى الأول لها!

بالنظر في كتاب الله نجد مجموعة من الآيات استُعملت فيها كلمة "القتل" بغير معنى الإماتة، ويقر المفسرون جميعاً بذلك وإن كانوا يقولون أن المراد من القتل هو اللعن، نبدأها بقوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠﴾ [سورة الذاريات ,١٠] والآيات التالية لها تقول: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٢﴾ [سورة الذاريات ,١١-١٢] فالخرَّاصون الذين قُتلوا هم في غمرة ساهون، فيستحيل حمل القتل هنا على المعنى الأخير وهو الإماتة ويجب حمله على الإهانة واللعن!

[42] أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، الجزء الخامس، ص56-57.

فإذا انتقلنا إلى سورة المدثر وجدنا الرب الخبير يقول: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ۝٢٠﴾ [سورة المدثر, ١٨-٢٠] فهل من الممكن أن يقتل الإنسان مرتين؟ ثم إن هذا الشخص يقوم بأفعال تالية بعد قتله مرتين متباعدتين: "ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر .." فهذا يدل على أن القتل هنا حتما بمعنى الإذلال واللعن.

ونجد نفس المعنى في سورة عبس، ففيها يقول الله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ۝١٧﴾ [سورة عبس, ١٧] أي لعن الإنسان لعنا شديدا وأهين إهانة بالغة ما أكفره!

وفي سورة البروج نفس المعنى: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ۝٤﴾ [سورة البروج, ٤] فلقد لعن أصحاب الأخدود، وهم الذين ألقوا المؤمنين فيها، ويدلل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ۝٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ۝٧﴾ [سورة البروج, ٦-٧] فهنا دليل على كون القتل بمعنى الإذلال واللعن!

والعجيب أن السادة المفسرين فهموا هذه الآيات على هذا الفهم ولكنهم عند تعاملهم مع آيات قتل بني إسرائيل الأنبياءَ، فهموها كلها على أنها في المعنى الأخير مما اضطرهم إلى القول بالمجاز! فإذا نحن نظرنا في هذه الآيات وجدنا الله تعالى يقول: ﴿... وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٦١﴾ [سورة البقرة, ٦١]

والناظر في هذه الآية والآيات التاليات يجد أن الله تعالى يُتبع قتل الأنبياء دوما ب "بغير الحق" أو ب "غير حق" وهذا من المفترض أنه معلوم بداهة، لهذا نجد أن الإمام الرازي قد توقف عند هذه النقطة فقال: "لم قال: "بِغَيْرِ الحق" وقتل الأنبياء لا يكون إلا على هذا الوجه؟ الجواب من وجهين: الأول: أن الإتيان بالباطل قد يكون حقاً لأن الآتي به اعتقده حقاً لشبهة وقعت في قلبه وقد يأتي به مع علمه بكونه باطلاً، ولا شك أن الثاني أقبح فقوله: ﴿... وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ... ۝٦١﴾ [سورة البقرة, ٦١]

أي أنهم قتلوهم من غير أن كان ذلك القتل حقاً في اعتقادهم وخيالهم بل كانوا عالمين بقبحه ومع ذلك فقد فعلوه. وثانيها: أن هذا التكرير لأجل التأكيد كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ... ﴾ [سورة المؤمنون, ١١٧] ويستحيل أن يكون لمدعي الإله الثاني برهان. وثالثها: أن الله تعالى لو ذمهم على مجرد القتل لقالوا: أليس أن الله يقتلهم ولكنه تعالى قال: القتل الصادر من الله قتل بحق ومن غير الله قتل بغير حق[43]" اهـ

أما نحن فنقول أن قتل الأنبياء كان بغير الحق[44]! فكما يقتل إنسان آخر بالسكين، فكذلك هم كانوا ولا يزالون يقتلونهم بالباطل وبما ينسبونه إليهم من الكذب والزور والبهتان، فهذا هو القتل بغير الحق الذي قتل به اليهود الأنبياء ولا يزالون! وباقي الآيات تؤكد هذا المعنى، فنجد المولى يقول: ﴿... قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [سورة البقرة, ٩١]، فالآية تلوم عليهم قتلهم الأنبياء وهو فعل بدأ من زمن طويل ولا يزال مستمرا![45]

فالله تعالى يلوم عليهم فعلا بدأ ولا يزال مستمراً وهو قتلهم الأنبياء بإهانتهم ووصفهم بما لم يقوموا به وما لم يصدر عنهم، وهذا ما فعله اليهود مع الأنبياء ولا يزالون يفعلون! فالناظر في صورة أنبياء بني إسرائيل في كتبهم يجدها قبيحة بشعة، فلقد شوه اليهود صور أنبيائهم كلهم تقريبا، فلم يتركوا نبياً إلا وناله من الوصف القبيح المشين ما يستحق من أجله اللعن والاحتقار والذم. -وحاشاهم أن يصدر ذلك منهم!- فنوح سكر وتعرى ولعن ذريته من أجل تفاهات وإبراهيم رجل لا غيرة له ويغامر بزوجه -معاذ

---

[43] فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، الجزء الثالث، ص95-96.

[44] يختلف الحال مع الآيات التي تكلمت عن قتل الأنبياء ب "غير حق"، كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [سورة آل عمران, ٢١]، فهناك في البقرة كان يتكلم عن أداة القتل وهي القتل بغير الحق وهو الكذب والبهتان، أما هنا فالحديث على انعدام أي وجه للحق في قتل الأنبياء!

[45] قد يستغرب القارئ تركيبة الآية، إلا أنه لا عجب فيها، فهي مثل قولي معاتبا من يكثر مشاهدة المرئية: لم تشاهد المرئية منذ البارحة؟! قم فذاكر!

الله– ولوط يسكر وتخدعه بناته حتى يواقعهما –وهذا يعني أنه كان في حالة سكر شديدة لا يميز فيها!– وداود يغش ويقتل ويزني وسليمان يعبد الأصنام! وهارون يصنع العجل، ... وسيل الاتهامات طويل لا ينقضي وما ذُكر هو غيض من فيض!

وبفعلهم هذا وتدوينهم هذا في كتبهم فلقد قتلوا الأنبياء، وكل جيل يأتي ويؤمن بهذا الكلام المدون في الكتب فهو يقتل الأنبياء ويصد عن سبيل الله الحكيم، لأنه بهذا يحقر وينزع النموذجية والمثلية العليا المتمثلة في المصطفين من الله العليم وينزع الحكمة من فعل الله العلي، وحاشا لله أن يخلو فعل له من الحكمة، ولكن اليهود يقبلون بذلك في مسلسل إرسال الله للأنبياء وليس في نبي واحد[46]!

ونخلص من هذا بأن الله العليم تكلم في كتابه الكريم عند إخباره عن قتل اليهود للأنبياء عن نوعين من القتل: قتل ولى وانقضى ومضى، وهو الإماتة والتي حدثت من بني إسرائيل تجاه بعض الأنبياء، وقتل آخر مستمر إلى أن يشاء الله تعالى وهو متعلق بكل الأنبياء تقريبا فلم ينج منه نبي، لأنهم شوهوا صورتهم كلهم فلم يعد لهم أثر يذكر!! وهي عملية قتل مستمرة تقوم بها كل الأجيال اليهودية –والمسيحية تباعا– بإيمانهم بالشين المدون في كتبهم والمنسوب إلى رسلهم! ودفاعهم عنه ومحاولة إيجادهم تبريرات منطقية لهذا الكذب والبهتان، ومن ثم فهم مستحقون وبجدارة لقب: قتلة الأنبياء.

إذا فمحاولة المسلمين تبرئة الأنبياء من الأوصاف الشنيعة التي ألصقت بهم هي نزول على الآيات، التي عاب الله فيها على اليهود فعلتهم، وإتباع لها، وليس ابتكاراً من عند أنفسهم.

[46] واليهود بفعلهم هذا حاولوا ويحاولون أن يبرروا لأنفسهم أفعالهم المشينة التي صدرت ولا تزال تصدر عنهم، فإذا كان الأنبياء الذين اختارهم الله عز وجل يفعلون هذا فليس عليهم حرج!

ترتيب الرسل

عددٌ محدود من الرسل هم من ذكرهم الذكر الحكيم، ولأن القرآن لم يقدم نفسه ككتاب تاريخ، لم يُعنى كثيراً بتقديم ترتيب عام شامل لكل الرسل الذين تحدث عنهم، وإنما اكتفى بذكر الترتيب أحياناً عندما كان يتكلم عن توالي الرسل وخلف بعضهم بعضاً، ومن ثم يمكن لقارئ القرآن أن يعرف من القرآن أول الأنبياء والرسل، وترتيب بعضهم بالنسبة للآخرين، إلا أن بعضاً آخر لا يستطيع المسلم أن يحدد موقعه بالنسبة للترتيب الزماني لهؤلاء الأنبياء.

ومما يؤسى له أن المتعاملين مع قصص القرآن لم يكتفوا بأن يأخذوا من التوراة ما ذكرته بشأن ما سكت عنه القرآن، وإنما تعدوا ذلك إلى اعتماد تواريخ التوراة وترتيب الأنبياء فيها، حتى أصبح التصور التوراتي هو الحاكم على القرآن! ومن ثم وجدنا ترتيباً زمنياً للأحداث والأنبياء، ابتداءً بآدم وانتهاءً بالرسول محمد!! فنجد أن المتناول لقصص الأنبياء غالباً ما يبدأ بذكر آدم ونسله، تبعاً للمخطوط في التوراة، معلقاً عليه، وقد يكتفي بعضهم بالعرض بدون تعليق، وقد يتقدم آخرون خطوة إلى الأمام فينقدون المحتوى، فنجد مثلاً أن الإمام ابن كثير يشكك في التواريخ المذكورة للأحداث وفي أعمار هذه الشخصيات، رافضاً أن تكون وحياً، فيقول: "وفي كون هذه التواريخ محفوظة فيما نزل من السماء نظر، كما ذكره غير واحد من العلماء طاعنين عليهم في ذلك. والظاهر أنها مقحمة فيها، ذكرها بعضهم على سبيل الزيادة والتفسير.[47]" ا.هـ

وقد ينتكس آخرون فيقدمون الإسرائيليات المدسوسة في التراث الإسلامي، والتي ما جاء بها القرآن ولا قالت بها التوراة!! فإذا نظرنا في الأدبيات الإسلامية بشأن قصص الأنبياء نجدها تقول أن أول الأنبياء هو آدم عليه السلام، ثم بعده ابنه شيت ثم إدريس وهو أخنوخ المذكور في التوراة، ثم نوح عليه السلام!!

[47] إسماعيل بن كثير، قصص الأنبياء، ص.62.

ونتوقف أمام هذا الترتيب متسائلين من أين جاءوا به؟!! فلا التوراة قالت أن آدم كان نبياً ولا القرآن، ولم يذكر القرآن "شيت" هذا، ولا قالت التوراة أنه كان نبياً! وإنما قالت أن الدعوة إلى الله ابتدأت في ابنه "أنوش" –غير المعروف في الأدبيات الإسلامية– وفي هذا يقول حسني يوسف الأطير: "يقرر سفر التكوين أن الدعوة الإلهية ابتدأت في نسل شيت، في جيل ولده "أنوش"، أي في الجيل الثاني بعد آدم، (...) "ولشيت أيضا ولد ابن، فدعا اسمه "أنوش" حينئذ ابتدئ أن يُدعى باسم الرب" 4: 25–26، ثم يمضي تسلسل الدعاة الإلهيين حسب التسلسل التوراتي (...) واضح إذن أن التسلسل في الدعوة الإلهية منذ "أنوش" أول الدعاة حتى نوح والطوفان قد مضى هكذ: 1– أنوش 2– قينان 3– مهللئيل 4– يارد 5– أخنوخ 6– متوشالح 7– لامك 8– نوح.

ولو أننا أضفنا إلى هذا السلسلة كلاً من هابيل وشيت، السابقين على أول الدعاة أنوش، لبلغ العدد بعد آدم إلى نوح عشرة أجيال، ومن هنا جاء الحديث المنحول على رسول الإسلام بأنه ذكر أن ما بين آدم إلى نوح عشرة أجيال.[48]" اهـ

ثم يستمر هؤلاء على نهجهم البديع في مخالفة القرآن والتوراة بالقول بأن أخنوخ المذكور في التوراة هو إدريس عليه السلام، وأتساءل: ما دليل هؤلاء على هذا؟ فلا القرآن قال أن إدريس هو أخنوخ، ولا نُسب ذلك إلى الرسول، ولا التوراة ذكرت أي نبي باسم إدريس؟!! ولمجرد أن هذه المقولة الإسرائيلية رويت على لسان ابن عباس تسللت إلى الفكر الإسلامي ووجدت من يدافع عنها باستماتة!! وحتى لو صحت النسبة إليه فهي مما أخذه ابن عباس عن مسلمة أهل الكتاب، وليس عن نظر في الكتاب .. العزيز!

ولقد قيل بهذا الظن لأن الله تعالى قال في كتابه العزيز في حق إدريس: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ۝٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ [سورة مريم ,٥٦-

[48] حسني يوسف الأطير، ابن عباس وتحريف منهج القرآن في مبتدأ الدعوات الإلهية، ص.24–25.

٥٧]، ولأن التوراة قالت في سفر التكوين في حق أخنوخ: "5:24 وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد، لأن الله أخذه"! والعجيب أن هذا القول لا مستند له حتى عند النسابين، فهم يرون أنهما ليسا شخصاً واحداً، وأن إدريس ليس جد نوح، وفي هذا يقول حسني الأطير: "ويعود ابن خلدون إلى ذكر تلك المطابقة عند ابن إسحاق بين إدريس وأخنوخ، منبّها إلى تشكيك أكثر علماء الأنساب في تلك المطابقة بينهما وأنها لا تجوز: ونقل ابن إسحاق أن أخنوخ الواقع اسمه في هذا النسب (يعني نسب نوح) هو إدريس النبي صلوات الله عليه، وهو بخلاف ما عليه أكثر النسابين، فإن إدريس عندهم ليس بجد لنوح، ولا في عمود نسبه. وواضح من تعليق ابن خلدون على هذا النحو أن القضية اجتهادية، أي مجرد ظن أو وجهة نظر، من جهة القائلين بتلك المطابقة بين إدريس وأخنوخ، وأنها لا أساس لها من أصول نقلية صحيحة.[49]" ا.هـ

ولم يُلتفت إلى هذا كله واعتُبر هذا التشابه أكثر من كافٍ للقول بأن كلا الشخصين واحد، ثم بدأت الأساطير تُحاك حول إدريس، فأصبح هرمس الهرامس، وهو أول من خاط ومن علم بالقلم .. وأصبح الرائد في علوم كثيرة!! والعجيب أنه يقال أنه سُمي إدريس لكثرة الدراسة، ولست أدري كيف يكون كثير الدراسة وهو أول من خط بالقلم، فمن كتب هذه الكتب السابقة، وكيف تُنسب الريادة إليه مع وجود سابقين؟!!

وليس الإشكال الأكبر في التناقض الداخلي للمضمون ولا في مخالفة النسابين، وإنما في مخالفة النصوص القرآنية الصريحة، التي قالت أن نوح كان أول الأنبياء –حتى لا يقال أنه أول الرسل وليس الأنبياء!–، مثل قوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ ... ١٦٣﴾ [سورة النساء, ١٦٣]، ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ ... ٢٦﴾ [سورة الحديد, ٢٦]، فالله يقول للنبي أن الوحي إليه كما كان لنوح والنبيين من بعده، ويقول أنه جعل النبوة في ذرية نوح وإبراهيم، ومن ثم فلو كان هناك سابق لنوح لما كان القول صحيحاً، ثم إن الناظر

[49] المرجع السابق، 102–103.

في القرآن يجد أنه عندما يذكر السابقين الموغلين في القدم في آية واحدة يبدأهم بنوح، ثم يختلف الترتيب بعد ذلك، فنجده يقول: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ... ﴿٧٠﴾﴾ [سورة التوبة, ٧٠]، ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة الحج, ٤٢]، ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ... ﴿٥﴾﴾ [سورة غافر, ٥]

يضاف إلى هذا أن رد قوم نوح عليه يؤكد عدم وجود أنبياء سابقين من البشر: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة المؤمنون, ٢٤] فهم يتعجبون أن يرسل الله بشراً، ولم يحك القرآن هذا القول عن غيرهم، ولو كان هناك شيت وأنوش أو غيرهم لما كان هناك أي وجه للعجب، ولذكرهم بحال السابقين مع أنبياءهم، ولكن سيدنا نوح لم يقل لأنه ليس ثمة سابق له!!

إذا فالقرآن لم يغفل التعريف بأول الأنبياء –وخاتمهم–، وإنما كررها مراراً أنه نوح، كما بيّن من جاء بعده، فعرّف بأنه هود عليه السلام والذي قال لقومه: ﴿... وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [سورة الأعراف, ٦٩]، وكذلك بالنبي الذي جاء بعده وهو صالح عليه السلام، والذي قال لقومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ ... ﴿٧٤﴾﴾ [سورة الأعراف, ٧٤]

وكذلك قال القرآن أن إبراهيم جاء بعد صالح، ولكنه لم يعرض لمسألة الخلافة هذه، ولم يشر الخليل في دعوته إليه، ومن ثم ففي هذا إشارة إلى بعده الزماني والمكاني عنهم! وكان لوط عليه السلام في زمان إبراهيم وتابع له، ثم إن الخليل إبراهيم قد أنجب إسماعيل وإسحاق، وإسحاق أنجب يعقوب، ويعقوب أنجب يوسف، ثم قال الرب العليم على لسان شعيب: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ

أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾] سورة هود, ٨٩[

فقوم لوط غير بعيدين عنه زماناً، ومن ثم يمكننا القول أنه كان في زمن يوسف أو بعده، إلا أنه كان قريباً مكاناً من المنطقة التي وُجد فيها هؤلاء الأنبياء!! وبالطبع فهناك غير هؤلاء الرسل السابقين، إلا أن الله لم يذكرهم في كتابه: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ... ﴿٤٤﴾] سورة المؤمنون, ٤٤[

فتوالت رسل الله تترى، ثم انتهت هذه المرحلة وجاءت بعدهم مرحلة جديدة ابتُدأت بموسى عليه السلام: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ ... ﴿١٠٣﴾] سورة الأعراف, ١٠٣[، ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا ... ﴿٧٥﴾] سورة يونس, ٧٥[، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ ... ﴿٤٣﴾] سورة القصص, ٤٣[، ثم قُفي من بعد موسى بالرسل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ... ﴿٨٧﴾] سورة البقرة, ٨٧[ومن ثم فمن المفترض أن يكون باقي الأنبياء المذكورين في الكتاب –وإدريس منهم– بعد سيدنا موسى عليه السلام!

وعلى العكس من أنبياء المرحلة الأولى، الذين نجد لهم ترتيباً واضحاً في القرآن، فإن القرآن لم يهتم بإبراز ترتيب الأنبياء بعد موسى عليه السلام، وإنما كان يذكر النبي أو فعلاً له، بدون تحديد ترتيبه بالنسبة للأنبياء الآخرين بعد موسى! ولهذا وجدنا من يقول أن عيسى ظهر في زمان قريب من موسى، لأنه لا يوجد أي دليلٍ في القرآن على أنه كان بعيداً عن موسى كثيراً!!

الفصل الثالث: مخاطبة العقل

الدين .. والمعجزات

من العناصر المحورية في قصص القرآن، عنصر "الآيات" التي جاء بها الرسل، والتي كانت المعالجة الخاطئة لها سبباً لانتشار الخرافة وقبولها بشكل كبير بين المسلمين، كما أدت إلى ظهور العديد من المطاعن التي يطعن بها غير المسلمين في القرآن ويصفونه بالخرافة.

وتعد "المعجزات" من خير الأمثلة على خطورة الابتعاد عن المصطلحات المذكورة في القرآن، واستعمال مصطلحات بديلة من لدن المتناولين، تؤدي إلى إنشاء تصورات ما أنزل الله بها من سلطان، وإسقاطها على القرآن العظيم!!

فإذا نظرنا في كتاب الله وجدنا أن كلمة "معجزة" لم تُذكر فيه قط، بينما ذكر الرب كلمة "معجز" اثنتي عشرة مرة في أثناء كلامه عن عدم مقدرة المخالفين التفلّت من سلطانه، مثل: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ١٣٤﴾ [سورة الأنعام, ١٣٤]، ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ ... ٢﴾ [سورة التوبة, ٢]، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ... ٢٢﴾ [سورة العنكبوت, ٢٢]، وجاءت كلمة "مُعاجز" ثلاثة مرات في معرض الحديث عن الذين يحاولون تخطيء آيات الله، مثل: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ٥١﴾ [سورة الحج, ٥١]

ونلاحظ في هذه الآية وأخواتها أن الله توعد الذين يسعون في آياته معاجزين، فهل يمكن أن ينزل الله الرحيم معجزة؟! إن الله الرحيم لم ينزل الكتب ويرسل الرسل ليعجز الناس وإنما ليهديهم، ولم يقل في كتابه أنه أرسل بالمعجزات، وإنما قال أنه أرسل

الآيات وبيّن الآيات وصرّف الآيات وفصّل الآيات. وشتان بين الاثنين، فالآية أصلاً بمعنى الدليل والعلامة الجلية، وذلك كما في قوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ ... ﴿٢٤٨﴾﴾ [سورة البقرة, ٢٤٨]، ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةًۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ... ﴿٤١﴾﴾ [سورة آل عمران, ٤١]

ولغلبة استعمال "الآية" مع آيات القرآن، أُهمل ونسي استعمالها مع آيات الله الأصلية في خلقه، وهي آيات الله الكونية، وآيات الله *التأييدية* التي أرسلها مع الرسل، والتي غلب الإشارة إليها بلفظة "المعجزات"! على الرغم من أن الآية استعملت ابتداءً للدلائل في خلق الله التي يراها الإنسان، ثم استعملت فيما بعد كدال على جُمل القرآن، وذلك لأن جُمل القرآن في الإشارة للرحمن آيات بينات مثل خلقه الذي يشير دوما إليه ويدل عليه! ومما يؤسف له أن القارئ للقرآن عندما يقرأ كلمة "الآيات" فإنه غالبا ما ينصرف ذهنه إلى آيات القرآن فقط، وذلك لانتشار استعمالها معها! وبهذا غاب عن عقولنا التصور القرآني المقدم للدين، وسيطر التصور الخرافي المقدم من القائلين بالمعجزات!!

فتصور الدين عند أصحاب المعجزات هو أنه رسالة يوحي بها الله إلى واحدٍ من عباده، وهذه الرسالة في حد ذاتها ليس فيها دليلٌ كاف على أنها من عند الله، ومن ثم فإن الله العظيم يجري على يد هذا النبي أمر خارق "معجزة" لكي يتأكد المعارضون من أنه مرسلٌ من عند الله، ومن ثم فيجب عليهم الإيمان به!

ويظهر هذا في تعريفهم للمعجزة والذي يقولون فيه أنها: "الأمر الخارق للعادة، السالم من المعارضة يظهره الله تعالى على يد النبي، تصديقاً له في دعوى النبوة" وهذا التعريف يترتب عليه إشكالية كبرى –بخلاف وصف رسالات الله بعدم الكفاية– وهي أن القوم الذين لم يأت نبيهم ب "معجزة" لا حرج عليهم في عدم الإيمان، لأنه لم يقم الدليل القاطع على أنه مرسلٌ من عند الله!

أما نحن، المستندين إلى القرآن، فنقول أن كل الأنبياء سواسية، سواءٌ من صاحبت رسالته آيات حسية ومن لم تصاحبه، لأنهم جميعا جاءوا بالآيات، والتي هي الدين والرسالة لكل الناس، والتي هي محور الإيمان والكفر وليس الآية الحسية المصاحبة!!

ويظهر الفارق بين الرأيين في أننا نقول بأن رسالات الله قائمة على أن الله بث آياته في كونه وأراها الناس، إلا أنهم قد يغفلون عنها ولا ينتبهون إليها أو لا يتبعونها، ومن ثم يأتي الوحي لعرض وتقديم آيات الله المنظورة على هيئة نصوص مسموعة ومقروءة، تُتلى على الناس لتذكرهم بها! كما تعرفهم بكيفية عمل يد الله في كونه، ليتفكروا فيها وليتعقلوا بأن تكون أفعالهم قائمة على الخضوع لآيات الله في كونه وعدم الإعراض عنها، وكذلك ليتيقنوا من صدق الوحي وإلوهية مصدره من خلال التطابق بين المنظور والمقروء، ولهذا استحقت جُمل الوحي أن تكون آيات كذلك! لما فيها من الدلائل والعلامات:

﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ [سورة الجاثية, ٣-٦]، ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ۝٧١﴾ [سورة يونس, ٧١]، ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٢٦﴾ [سورة الأعراف, ٢٦]، ﴿... قَدْ بَيَّنَّا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝١١٨﴾ [سورة البقرة, ١١٨]، ﴿...كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ۝٢٦٦﴾ [سورة البقرة, ٢٦٦]، ﴿... قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ۝١١٨﴾ [سورة آل عمران, ١١٨]، ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ

إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ [سورة الأنعام ,٤٦]، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ [سورة الأنعام ,٥٥]

فإن اتبع الإنسان آيات الله صلُح حاله لتوافقه مع الكون حوله ولتبعيته لربه، وإن أعرض عنها وأصر على المضي في طريقه المصادم لآيات الله أهلك نفسه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ [سورة الأحقاف ,٢٦]

وهذا الإهلاك ناتج من أفعال الإنسان، لمصادمته آيات الله: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ [سورة الأنفال ,٥٢]، فالله أخذهم بذنوبهم، فهم سبب هلاك أنفسهم أصلاً!

وقد يتفق القارئ معنا في أن رسالات الله قائمة على الآيات، إلا أن سيقول الله قد أرسل معها في بعض الأحيان "آيات حسية"، والتي هي "المعجزات"! نقول: نعم، نحن نقر بوقوع هذه الآيات ولكن الفارق بيننا وبينهم هو في الغاية، فنحن نقول أن الله لم ينشأ "معجزات" ليقدم للناس دليلاً على صدق رسوله من خلال عجزهم عن الإتيان بمثلها، وإنما أنشأ الآيات الحسية لتقدم رسالة مبطنة تشير إلى أمر ما متعلق بالقوم المرسَل إليهم، أو تكون الآية تدخل استثنائي لينجي الله عباده المؤمنين!

ولو تتبع القارئ سيرة الأنبياء لوجد أن "الآية الحسية" استثناء مسبب، بينما الأصل أن تكون هناك الآيات فقط، فلو نظرنا في سيرة آدم –الذي لم يقل القرآن ولا حتى التوراة بنبوته– وجدنا أنه لم يكن له دعوة ولا آية، فإذا انتقلنا إلى نوح وجدنا أنه لم يأت بآية، ووجدنا أن قومه لم يطالبوا بآية وإنما طالبوا بإرسال الملائكة: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ

ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾] سورة المؤمنون ,٢٤[، وذلك لأنهم لم يسمعوا بهذا في آبائهم الأولين، فما سمعوا به هو أن الله كان يرسل ملائكة، فلماذا لم يرسل هذه المرة، كما كان يفعل مع السابقين[50]؟!!

ولم يختلف الحال مع سيدنا هود، فلم يأت قومه بآية حسية: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٣﴾] سورة هود ,٥٣[أما صالح فكانت آيته ناقة لم تخرج من الجبل! وأما إبراهيم فلم تكن له آيات حسية، نعم هو أُلقي في النار وخرج منها سليماً، وهذا كان إنجاءً له وليس آية لقومه، لأنه تركهم بعد ذلك! ولم يذكر الله العليم أي آية حسية ليوسف أو لإسحاق أو يعقوب أو يوسف أو لوط، وتسبيح الجبال مع داود والطير، لم يكن ليؤمن به قومه، ومع كان مع سليمان كان بطلب شخصي منه وليس من أجل الدعوة والرسالة! وما حدث مع سيدنا يونس كان إنجاءً له كذلك! ولم يذكر القرآن آية لأيوب أو لليسع أو لذي الكفل.

وأما موسى، والذي بنى العلماء تصورهم للمعجزة ودورها في الرسالة استناداً على ما حدث معه، فيمكننا القول أن آياته كانت اليد والعصا، لأن باقي الآيات كانت معلقة بتعذيب المكذبين، وهذا ما لا يمكن القول أنه "معجزة"، ناهيك عن كونها ظواهر طبيعية!! وعلى الرغم من تكذيب فرعون وملئه بموسى، إلا أنهم فهموا أن هذه العذابات آيات من الله عقاباً على فعلهم، والأهم من هذا أنهم فهموا الرسالة المبطنة في اليد والعصا! فلم يروا أنها دليلٌ على صدق دعواه، وإنما رأوا الرسالة واضحة في اليد البيضاء –والتي ليست منيرة– والعصا: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ﴿١١٠﴾] سورة الأعراف ,١٠٩-١١٠[، ففهموا الإشارة بالإخراج، إلا أنهم أرادوا أن يبطلوها بادعائهم أنها سحر،

[50] وتناسى هؤلاء أن هذه كانت في مرحلة بداية البشرية عندما كان الله يرسل الملائكة لتعليم الناس! وكانت الملائكة تظهر في شكل مختلف عن شكلها الأصلي، ولكنه شكل يدل على أنهم ليسوا بشرا، ولقد تأثرت البشرية كثيرة بهذه المرحلة وتناقلتها الأجيال، وسجلها بعضهم على الجدران، فأتى علماء الغرب وجعلوها رمزا للأسطورة!

بينما لم نفهم نحن ورأينا أنها مجرد دليل على صدق موسى، ومن ثم فكان من الممكن أن يرسل الله موسى بأي "معجزة" أخرى، لأنها مجرد دليل على صدقه!!

وبغض النظر عن هذا كله، فإن ذهاب موسى إلى فرعون وإتيانه بالآيات هذه كان من أجل أن يرسل معه بني إسرائيل! وليس من أجل الإيمان برسالته، لأنه لم تكن ثمة رسالة بعد قد أنزلت حتى يؤمن بها فرعون أو يكفر!! ومن ثم فإن الاستدلال بآيات موسى على دور "المعجزة" في تصديق الرسالة غير مناسب تماماً، لأنها كانت كلها – بما في ذلك انفلاق البحر لإنجاء بني إسرائيل– قبل نزول الرسالة!!

فإذا انتقلنا إلى سيدنا عيسى وجدنا أن آية تحدثه في المهد كانت له ولأمه، لتبرأها من تهمة الزنا، أما باقي الآيات مثل خلق الطير وإبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى فكانت بإذن الله، وذكر الله الغاية منها: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٤٩﴾ [سورة آل عمران, ٤٩]

فلم يعتبر سيدنا عيسى هذه الآيات دليلاً على صدقه، وإنما قال أنها آية لهم، –علامة ودليل– إن كانوا مؤمنين، فهذه الآيات كانت لأولئك الذين شكوا في قدرة الله العلي وفي البعث، فكان التأكيد أن كل ما يفعله بإذن الله، لتقول لهم أن الله قادر على كل شيء، وأن هناك إحياء للموتى ليحاسبوا على ما فعلوا!

إذا وكما رأينا فلم يقل الله مرة واحدة أن الآيات معجزات أو أنها جاءت لتصديق رسله، وإنما قال أنها آيات جاءت لتكون آيات، تكون فيها العبرة والعظة لمن رآها ولمن لم يرها!! لأنها دلائل وعلامات!! وسنزيد هذه المسألة توضيحا في أثناء حديثنا عن كل نبي بمفرده.

وقد يظن البعض أن القول بالمعجزة أمر هين، فالمراد أن الله تعالى أرسل رسله بما يعجز البشر عن الإتيان بمثله! أما نحن فلا نرضى إلا بما قال الله، ونرفض القول بالمعجزة لأسباب عدة، منها:

أولا: التعتيم على الهدف الأسمى للرسول وللرسالة وهي الهداية.

ثانيا: الإيحاء بوجود شبهة المقاربة بين الله تعالى وخلقه حتى يحدث التحدي.

ثالثا: الظن أن البشر كانوا قبل الرسالة قادرين، فلما أتت أصبحوا عاجزين، فالإعجاز لا يكون إلا لمن كان قادرا، والبشر قبل وبعد وأثناء الرسالة وإلى قيام الساعة لن يأتوا أبدا بمثل ما أتت به رسل الله تعالى.

رابعا: فقدان عنصر التحدي في كثير من الآيات التي أتى بها الرسل، فكثيرا ما أعطى الرسل آيات لأقوامهم وكانوا مؤمنين، فأين التحدي المزعوم؟!

إذا فعندما نطالب باستعمال "الآية" الدال الذي استعمله الله عز وجل، فإننا ندعو إلى استعمال الدال المنطبق على مدلوله تمام التطابق، المحقق لأهداف الآيات.

تبريرات للآيات الحسية

بيّن الله الحكيم لماذا أرسل الآيات، ولما قال الآخرون بالمعجزات، أسقطوا أنفسهم في مآزق عدة، حاولوا الخروج منها، مثل: لماذا أنزل الله المعجزات أصلا؟! فوجدنا من يقول أن الله تعالى أرسل الرسل بالآيات الحسية في مرحلة "طفولة الفكر البشري"! فلما نضج العقل البشري، حُبست الآيات الحسية واكتفي بالآيات والأدلة العقلية الواردة في القرآن!

وهذا من عجيب القول، فهل يعني هذا أن القرآن غير كاف لمخاطبة الإنسان البدائي الذي يعيش في مجاهل أفريقيا، وإنما لا بد من مرافقته بآية أو آيات حسية حتى يؤمن! وأعجب منه القول بطفولة الفكر البشري! والتي أسقطها السادة المفكرون! على الإنسان البدائي، فالإنسان في كل زمان ومكان هو الإنسان، بدائيا كان أو حتى من أبناء القرن الثلاثين! ولا فرق.

إن العقل البشري لم يمر بمرحلة طفولة إلا في مرحلة الخلق الأول، حيث كانت الملائكة وسيدنا آدم يعلمون البشر ما يحتاجون، ويعرفونهم أوليّات العالم، وبعد ذلك توارث البشر هذه العلوم وتناقلوها، ومهما تخلفوا تظل هذه البديهيات لديهم، ولو نزعت منهم لعاشوا عيشة الحيوان فعلا! وهذا ما لا نجده في أشد قبائل العالم تخلفا وانعزالا[51]! لأن آلاف السنين الماضية كفيلة بإكسابهم ما اكتسبه الأجداد العرب من الملائكة في سنين قلائل!

والناظر في القرآن يجد أن هذا القول مخالف تماما لسير الرسالات! فالناظر يجد أن الرسالات بدأت بلا آيات حسية وختمت بلا آيات حسية كذلك، فسيدنا نوح وكذلك هود لم يأتيا بآيات حسية إلى أقوامهما وإنما خاطبوهم بالأدلة العقلية فقط! ﴿قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ٥٣﴾ [سورة هود ,٥٣] وكذلك فعل الرسول محمد، فما خاطب قومه إلا بكتاب ربه المشتمل على الأدلة والبراهين القاطعة! بينما أتت الآيات الحسية مع باقي الرسل بين أول الرسالات وآخرها، وهذا دليل جازم على أن الآيات ليس لها أي علاقة بتطور العقل البشري المزعوم.

---

[51] ولا يعني هذا أننا لا نقول أن البشرية لا تمر بنفس المراحل التي يمر بها الإنسان في حياته، من طفولة وصبى وشباب وكهولة وموت، وإنما نقول أن الله عامل البشر في مبتدأ حياتهم بما يناسبهم، وعندما بلغت البشرية الرشد أرسل إليها الرسل، ولو كان الإنسان البدائي يحتاج إلى معجزة ليؤمن، فهذا يعني أن الله كلّف البشر ما لا يطيقون قبل أن يصبحوا قادرين على تحمل الرسالة، وحاشا له جل وعظم، فهو لا يكلف كل نفس إلا وسعها!

فالآيات كانت تأتي لغاية معينة يريدها الله الحكيم، وليست ارتباطا بتطور عقلي أو بمطالبة أقوام الرسل! كما ادّعت بعض الروايات التي قالت، أن الأقوام كانوا يطلبون من رسلهم آية بعينها، فيأتونهم بها!! فهذا تقوّل على الله العليم، الذي كان يختار من الآيات ما يناسب الأقوام!

وهناك من قال أنها إظهار لعجز القوم عن الإتيان بمثل القوم فيما اشتهروا به، فالشائع والمشتهر أن الله يرسل الرسل بالآيات الحسية في المجال الذي برع فيه القوم، فيبزونهم، فيعرفون أنهم مرسلون من عند الله الخلاق! وأتساءل: من أين للمدعين هذا القول؟! إن هذا القول مما تلوكه ألسنة الخطباء وأقلام الكاتبين بدون تدقيق أو تمحيص، فيدعون أن الله أرسل سيدنا موسى باليد والعصا لاشتهار أهل مصر بالسحر! وأرسل عيسى بالطب لاشتهار اليهود به، وأرسل الرسول بالقرآن لاشتهار العرب بالبلاغة والفصاحة!

وأعجب ثم أعجب وأتساءل: بما اشتهر أهل ثمود حتى أرسل الله عز وجل لهم ناقة، هل كانوا يخلقون نوقاً؟! ومن قال أن أهل مصر اشتهروا بالسحر؟ ثم من قال أن هناك حقيقة للسحر؟ إن السحر ما هو إلا تخييل وتوهم وقد يصل إلى مرحلة التأثير النفسي، وأكثر من ذلك لا وجود له. نعم، كان هناك سحرة في عهد فرعون، ولكنهم موجودون في كل الأزمنة وفي كل الأماكن والدول، فبما اختلفوا في زمن سيدنا موسى؟ فهل أرسل الله تعالى سيدنا موسى ليتحدى! ويعجز سحرة فرعون فقط؟ أم أنه أرسل إلى بني إسرائيل وإلى فرعون وأهل مصر؟!

ولست أدري متى اشتهر اليهود بالطب حتى يبعث إليهم عيسى بإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص؟! ما اشتهر اليهود إلا بالتعاملات المالية بأبرع الطرق وأخبثها! فلم لم يرسل لهم محاسباً أو تاجرا بأعلى الإمكانيات؟! وكانت الطامة الكبرى مع الرسول الأعظم والتي أضاعت آية القرآن البينة، عندما قالوا أن الله تعالى أرسل الرسول بالقرآن للعرب البلغاء، فهل يعني هذا أن الأوروبي أو الأمريكي الذي لا يتقن العربية،

بله عن أن يعرفها، ليس مخاطبا بالقرآن، وإذا قرأ القرآن مترجما مثلا ولم يؤمن فلا حرج عليه؟!

والآفة الكبرى أن التصورات الفاسدة يرتبط بعضها ببعض، ويُبنى عليها هيكل من الوهم، يحتاج إلى من يأتيه من الأساس، فهذا التصور الفاسد نابع عن قولهم أن الله تحدى البشر أن يأتوا بمثل معجزاته، ولست أدري أين أمر الله خلقه عندما أرسل لهم آية حسية أن يأتوا بمثلها؟!! إن سبب اشتهار هذا القول هو خلطهم بين مطالبة الله خلقه غير المؤمنين –في كل زمان ومكان– أن يأتوا بسورة أو سور مثل القرآن، فجعلوا هذا تحدياً من الله العظيم لخلقه، ثم أسقطوه على "المعجزات"، التي لم يقل الله للبشر مرة إتوا بمثلها أو لن تأتوا بمثلها!! ناهيك عن أن الآيات المذكورة ليست من باب التحدي وإنما إعلام للبشر أنهم لن يستطيعوا أن يأتوا، فعندما يطلب الله من البشر ذلك يتبعها مباشرة بالكلام على عدم فعلهم، فمثلا نجد الرب العليم يقول:
﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة البقرة, ٢٣-٢٤]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [سورة هود, ١٣-١٤]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة يونس, ٣٨-٣٩]

إن القول بتحدي الله خلقه فيه إساءة إلى الله! فهل يتحدى الله العاجز؟ أو هل يوجد من يتحدى من لا قدرة له؟ إن التحدي يتحقق عندما يكون هناك شبهة مقاربة بين

المتحدي والمتحدَى، فهل هناك تلك الشبهة بين الله وبين خلقه أو بين كلامه وكلام خلقه؟! بداهة لا شبهة ولا قرب، فشتان البعد!

إذا فالله الحكيم يرسل بالآيات، حسية كانت أو معنوية، ولكنه لا يرسل بالمعجزات أو الإعجاز. وعندما أنزل الله تعالى القرآن أنزله كله آية، آية في كل شيء، بما فيه من التشريع والنبوءات العلمية وبديع النظم هو آية على أنه من عند الله القدير. فهل عندما يكتشف الناس حقيقة علمية لها أصل في القرآن، يعجز الناس، أم أنها تكون "آية، دليل، علامة" على أنها وأنه من عند الله؟!

ليست تجربة فاشلة

عندما جاء الرسول الأعظم مطالباً قومه بالإيمان بالله واتّباعه، كرّر أهل مكة مطالب السابقين مثل مجيء الله والملائكة والآيات الحسية، ولا يزال الملاحدة والمشركون يكررونها حتى الآن كشرط لإيمانهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨﴾ [سورة البقرة, ١١٨]، ورفض الله تعالى طلبهم، لأن الإيمان لا يبنى على الآية الحسية، وإنما على الكتاب نفسه، ومن لم يؤمن بالقرآن لن يؤمن بأي آية: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ٦﴾ [سورة الجاثية, ٦]

إلا أن بعض غير المؤمنين عندما يُرد عليهم بهذا الرد يقولون إن القرآن قال: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ٥٩﴾ [سورة الإسراء, ٥٩] فإذا كان تكذيب الأولين بهذه الآيات الحسية هي السبب في منع الله أن يرسلها لمن بعدهم، فما هو ذنب اللاحقين

حتى لا يروا آيات؟! أم أنها كانت تجربة من الله، فلمّا رأى أنها قد فشلت ولم تفلح مع عباده، لم يعد يرسل بالآيات؟!! نقول: معاذ الله أن يكون هذا الفعل عن قلة علم، ولكن المشكلة هي قلة الفهم، فلقد أُلبست هذه الآية على كثير من المتناولين لها، فظنوا أن الحديث فيها عن الامتناع عن الآيات الحسية لعدم جدواها مع السابقين!

ومن ثم ظنوا الظن السقيم أنها كانت تجربة فاشلة!! والصحيح أنها واردة في سياق الحديث عن الإهلاك، فيكون معناها هو: الامتناع عن الإرسال بالآيات لعدم الإهلاك! لأنه إذا جاءت الآيات ولم يؤمن القوم فإنه لزام أن يهلكهم الله عز وجل! وهذه الآية مثال خطير لفهم الآية منزوعة من السياق! لأنه سيؤدي إلى ظهور أفهام لا يحتملها النص! ونضع الآية الكريمة في سياقها في السورة حتى يتضح التصور العام للقارئ:

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾ [سورة الإسراء, ٥٦-٦٠]

فالآيات تقول أن أي معبود غير الله لا يملك كشف الضر ولا العذاب عن الناس، وأن الله سبحانه فقط هو من يفعل هذا. *ثم تذكر الآية سنة من سنن الله مع البشر وهي سنة الإهلاك*[52]! فتقول أن أي قرية لا بد أن تُهلك قبل يوم القيامة أو تُعذب عذابا شديدا، ثم تبين الآية للمخاطبين بالقرآن أن الله لم يكتب عليهم الإهلاك في أثناء البعثة لذلك لم يرسل لهم بالآيات، ولو أرسل لكذبوا فيحق عليهم الإهلاك!

---

[52] عرضنا في موقعنا: www.amrallah.com لقضية "إهلاك الأمم" وبيّنا كيف أنه من رحمة الله بعباده أن يهلكهم!

ولأن الله العزيز لم يرسل بالآيات إلا ليخوف الأقوام المرسل إليهم من الإهلاك! وليكونوا عبرة لمن بعدهم! ثم تخاطب الآيات الرسول فتذكره بأنه قيل له أن الله أحاط بالناس (قريش أو المعاندين للدين عامة) وأن التخويف لا يزيدهم إلا طغيانا كبيرا! ولو نظرنا نظرة أوسع في السورة وجدناها تكرر هذا المعنى في أول السورة، فتقول: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ١٧﴾ [سورة الإسراء, ١٧] قد يقول قائل: هل علم الله أن الأقوام لن يؤمنوا على الرغم من إرسال الآيات؟ وإذا كانت الإجابة بنعم، فلماذا أرسل الله بالآيات إذا مع أقوام حتى يهلكهم ولم يرسل بها مع أقوام أخر؟! نقول: بداهة علم الله ذلك، وتكرر هذا المعنى في آيات كثيرة في سور القرآن، بل وأتت سورة لتؤكد هذا المعنى وهو أن الآية لا تفلح مع المعاند وأنها إذا جاءت ولم يؤمن يُهلك، وهي سورة القمر. إلا أن المسألة ليست أن الله يريد أن يهلك أولئك فيرسل لهم الآيات ولا يريد أن يهلك هؤلاء فلا يرسل حتى يطيل عمرهم! *وإنما الأمر متعلق بالدور الإلهي في المسيرة الإنسانية*! فالبشرية مرت وتمر بنفس المراحل التي يمر بها كل إنسان، من طفولة وصبا وبلوغ ونضج ورجولة وشيخوخة وهرم .. وفناء!

ففي مرحلة الطفولة البشرية أرسل الله عز وجل الملائكة لتعلم البشر، وبعد ذلك ظل البشر فترة بدون أي رسل لعدم حاجتهم إليهم، ثم ابتدأ إرسال الرسل إلى الناس، وكان الله عز وجل يتعهد رسله والمؤمنين بهم بالحماية ويقوم بإهلاك المعاندين لهم! واستمر الله عز وجل في تعهد البشرية بإرسال الرسل والكتب، يردونهم إلى جادة الصواب، إلى أن وصلت البشرية إلى مرحلة من النضج أعطاها الله فيها كلمته الأخيرة إليهم، وطلب إليهم أن يتصرفوا تبعا لها، ولم يعد هناك أي حاجة أن ترسل رسل أخر أو رسالات أخرى!

لذلك كان على البشر أن يدافعوا عن أنفسهم انطلاقا من المبادئ التي أعطاها الله الحكيم لهم في كتابه، لذلك لم يكن ليهلك هؤلاء لمجرد تكذيبهم، وإنما سيكون

هلاكهم بإكثارهم الفساد في الأرض، فيحق عليهم قانون الهلاك العام الذي ينزل بجميع الأمم والبشر!

ويمكن تشبيه الأمر بأب كان يتولى ابنه الصغير بالرعاية والحماية، فيحميه من الآخرين، ويعلمه في نفس الوقت ما يحتاجه، وبمرور الزمان تختلف درجة الحماية والرعاية التي يتلقاها الابن من أبيه، إلى أن يصل إلى مرحلةٍ لا بد أن يعتمد فيها على نفسه، فهنا يقول له الأب: لقد أصبحت الآن كبيرا، ولقد علمتك ما تحتاج وحميتك إلى أن وصلت إلى ما أنت عليه، فشق طريقك استنادا إلى ما علمتك، فلا تنتظر أن أحميك من الآخرين الآن، وإنما من المفترض أن تحمي نفسك بنفسك! وهكذا هو الدور الإلهي يُعد الإنسان لكي يعتمد على نفسه، لذا فمن المنطقي اختلاف طريقة الرعاية والحماية! لذا لا عجب أن ترسل الآيات لتكون مثالا واقعيا لمن يطلب آية، كبرهان للإيمان، فلقد طلبها الأقدمون ولم يؤمنوا وكذلك لن تؤمن أيها المحاج!

إذن فليس الأمر تجربة فاشلة أو نقص في علم الله –حاشا لله– وإنما الأمر اختلاف في العناية والرعاية بالإنسان تبعا لحاله، حتى يصل إلى المرحلة التي يعتمد فيها على نفسه. والله أعلى وأعلم!

تصورات باطلة!

على الرغم من أن قصص القرآن يُنظر إليه –لا شعورياً– نظرة تختلف عن باقي القرآن، قد تصل أحياناً إلى درجة الاستهانة، بسبب الظن أن تفاصيله قد عُرفت وخلاصته قد وُعيت وبسبب المعالجة الخرافية والتناول السطحي "الأدبي" المقدَم له! إلا أن هذا المستهان به هذا هو الذي كان –ولا يزال– له الدور الأكبر في تكوين تصور الإنسان عن الدين وعن ربه وعن الحياة بشكل عام، فهو الذي يقدم النماذج الواقعية على النظرية، فالدين طالما أنه مجموعة من المبادئ المجردة ومن القواعد، قد يُحكم

بطوباويتها، وأنها غير صالحة للتطبيق، أو يحكم عليها باستحالة النجاح، إلا أن الوضع يختلف كثيراً مع وجود الأمثلة من الأزمان السابقة، التي تقول أن النظرية صالحة للتطبيق، كما تعطي النموذج المثالي الواقعي، الذي ينبغي الاقتداء به، وتحذر من تكرار أفعال الفساد، حتى لا تهلك الأمم مثلما هلك السابقون.

ولأن لقصص القرآن هذا الدور العظيم في تكوين تصور الإنسان للحياة ولفعل الله فيها، فإنه من الأهمية بمكان التعامل مع القصص بالحرص الكافي –مثل كل القرآن– للتأكد من مطابقة ما يقال حول الآية لها، حتى لا يُنسب إلى الله ما لم يُنزل به سلطانا! ومن ثم فإن أي انحراف عن النص القرآني يؤدي إلى وجود بعض التناقضات التي لا أساس لها في القرآن، وإنما بسبب الأفهام التي أضافت إلى الكتاب ما ليس منه، وفهمته على غير ما قال!

ناهيك عن هيمنة وانتشار تصورات خرافية أو غير سليمة، تُنسب إلى القرآن أولاً وإلى الرب تباعا! ومن ثم يظن الناس أن الرب هكذا يتصرف، وأن على الإنسان أن يفعل كذا ليكون إنساناً صالحاً، يبتغي بفعله وجه ربه!! وبفهم واحد خاطئ تتكون عند الإنسان "عقيدة" مضللة عن ربه وعن دوره في الحياة!!

ونذكر للقارئ الكريم أربعة أمثلة لتصورات غير صحيحة، والتي ظهرت وانتشرت بين عوام المسلمين، نتيجة للنظر القاصر في كتاب الله العزيز!

1- خلافة الإنسان

القارئ لأدبيات الإسلاميين يجد أن كثيراً منها يقول أن الإنسان هو خليفة الله في الأرض! وبعضها يقول أنه ليس خليفة الله ولكنه خليفة الجن أو الملائكة! وأخرى تقول أن آدم أو الإنسان العاقل عامة هو خليفة البشر غير العاقل (أو الجنس) الذي كان قبله! فهل قال القرآن بأي من هذه الآراء؟! لم يقل الله تعالى في كتابه بأيٍ منها،

وإنما قال أن الناس خلفاء الأرض! إلا أنه يمكن القول أن الرأي الأخير فيه نصيب من الصحة والحياد عنها[53]! فإذا كان المقصود بذلك أنه ظهر بعدهم فهو صحيح، فظهور الإنسان العاقل تأخر عن غير المميِز، أما إذا كان المقصود أنه خليفته فغير صحيح! لأن عملية جعل الإنسان خليفة بدأت مع الجيل الأول غير المميز، والذي لم يكن قبله من يسبقه –إلا الأرض– حتى يكون خليفة له!

ويدل على هذا قول الرب العليم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ... ﴿٣٠﴾﴾ [سورة البقرة, ٣٠]، فنجد أن الله تعالى قد استخدم صيغة اسم الفاعل "جاعل" والذي يفيد البدء والاستمرار، فكان الاعتراض أو التعجب من الملائكة على كون من يُجعل هو مخلوق مفسد يسفك الدماء! فعملية جعل الإنسان خليفة بدأت مع الجيل الأول واستغرقت عدداً من الأجيال حتى حققت ما يمكن نعته بأنه الجيل الأول من الخلفاء! وهذه العملية لم تنقطع وهي مستمرة إلى قيام الساعة!

لذا يمكن القول أن الإنسان ليس خليفة أحد، لأنه لم يكن هناك قبله من أو ما يقوم مقامه! وإنما هو خليفة بمعنى أنه يقوم بدور المتحكم والمتسلط ليعمرها[54]، كما قال الرب: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ... ﴿١٠﴾﴾ [سورة الأعراف, ١٠]، والخلافة هي عملية جعل مستمرة تحدث مع كل جيل من أجيال البشرية ومع كل إنسان! –لا أنها حدثت مع جيل بعينه وانتهت–، بشرط أن يكون على قدر من التمكن! وبقدر تمكنه في الأرض تكون خلافته!

[53] يمكن للقارئ الإطلاع على كتابنا "نشأة الإنسان" لمعرفة تفاصيل تصورنا المستخرج من القرآن حول خلق الإنسان الأول.

[54] ويظهر هذا المعنى في التوراة، والتي جاء فيها في سفر التكوين: "1: 26 و قال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض. 1: 27 فخلق الله الإنسان على صورته على صورة الله خلقه ذكرا وأنثى خلقهم. 1: 28 وباركهم الله وقال لهم أثمروا واكثروا واملئوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض"

فإذا نظرنا في كتاب الله تعالى نجد أن عملية الاستخلاف مرتبطة دائما بالجَعْل: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ... ﴿٦٩﴾﴾ [سورة الأعراف, ٦٩]، فنلاحظ هنا أن عاد جُعلوا خلفاء من بعد قوم نوح! ولم يُجعلوا خلفاء لهم! أي أنهم جعلوا متسلطين على الأرض ومتحكمين فيها! وكذلك الحال مع قوم صالح: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ... ﴿٧٤﴾﴾ [سورة الأعراف, ٧٤]، فمعهم أيضا حدثت عملية جعل ليكونوا خلفاء، من بعد عاد –وليس خلفاء لهم!– أي ليستعمروها كما قص المولى قول صالح: ﴿... هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ... ﴿٦١﴾﴾ [سورة هود, ٦١]، ونلاحظ أن الله تعالى لم يستعمل "الخلف" في القرآن مع البشر! فلم يقل أبدا: "فخلفهم خلف! أو: جعلكم خلفاء قوم كذا، أو: جعلكم خلفاءهم!"، وإنما يقول: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ [سورة مريم, ٥٩]، أو يقول: ﴿... وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ ... ﴿٦٩﴾﴾ [سورة الأعراف, ٦٩] وإنما استعمل الخلف مع الأرض: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [سورة النمل, ٦٢]، ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ... ﴿١٦٥﴾﴾ [سورة الأنعام, ١٦٥]

فنحن خلفاء وخلائف الأرض، كما أننا خلائف فيها: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [سورة يونس, ١٤]، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ... ﴿٧٣﴾﴾ [سورة يونس, ٧٣]، ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ... ﴿٣٩﴾﴾ [سورة فاطر, ٣٩]، فنحن خلائف الأرض وفيها أي نخرج منها نتحكم فيها ونسيطر عليها! وبهذا نفهم قول الله تعالى لسيدنا داود: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ

ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ... ﴿٢٦﴾] سورة ص ,٢٦[، فالله تعالى يذكره بأنه مكن له في الأرض تمكينا شديدا حتى أنه صار ملكا حاكما، فتحقق فيه معنى الخلافة أكثر من غيره من الأفراد المحيطين به، فهم كلهم وإن كانوا خلفاء! إلا أنه هو أعلاهم مرتبة في الخلافة! إذاً فالإنسان خلق من الأرض ليتحكم فيها ويعمرها: ﴿... هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا ... ﴿٦١﴾] سورة هود ,٦١[، لا أنه جاء خليفة لمخلوقات لم يقل ربنا أنه مكنهم فيها، ولا له سبحانه ... فهو لا يخلفه أحد!!

2- سن الأنبياء عند البعثة

الرأي المشتهر في كثير من أدبيات الإسلاميين هو أن الله يبعث الأنبياء عند سن الأربعين، فما هو مستندهم في هذا؟! يعجب المرء أنه لم يكن لهم في هذا مستند من كتاب الله ولا من أحاديث الرسول، وإنما هي أفهام واجتهادات بشأن آيات، أُسقطت على موضوع آخر لا علاقة لها به! ومن قراءتنا لما قاله ابن كثير نعرف من أين أتى هذا الرأي، فنجده يقول: "فدلَّ على أن هذا كله كان وهو قبل بلوغ الأشد، وهو حد الأربعين *الذي يوحى الله فيه إلى عباده النبيين*،عليهم الصلاة والسلام من رب العالمين. وقد اختلفوا في مدة العمر الذي هو بلوغ الأشد: فقال مالك وربيعة وزيد بن أسلم والشعبي: هو الحلم. وقال سعيد بن جبير: ثماني عشرة سنة. وقال الضحاك: عشرون سنة. وقال عكرمة: خمس وعشرون سنة. وقال السدي: ثلاثون سنة. وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ثلاث وثلاثون سنة. وقال الحسن: أربعون سنة، ويشهد له قوله تعالى: " حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة[55]". اهـ

[55] إسماعيل بن كثير، قصص الأنبياء، الجزء الأول، ص.319.

فلأن الله ذكر الأربعين سنة بعد بلوغ الأشد –ولم يجعلها تفصيلاً له– جعلوا الأربعين هو الأشد وهو الحد الذي يلزم الرجل بلوغه حتى يصل درجة من النضج، تؤهله لأن يبعثه الله تعالى رسولا! وليس للأشد سنٌ معين يكون به الإنسان قد بلغ أشده، وإنما يختلف من إنسان لآخر، ولقد كان سيدنا موسى شاباً فتياً عندما وصل مدين، ومن ثم أُعجبت به ابنة الشيخ، ثم بُعث بعدها بعشر سنوات،–الفترة التي بقاها في مدين–.

ولأن الرسول محمد –كما يُروى– قد بُعث في سن الأربعين، قالوا أن الرسل تُبعث في سن الأربعين. وهو استنتاج مخالف لصريح القرآن، والذي لم يسكت عن هذه المسألة، وإنما ذكر ما يخالفها، فقال أن يحيى أوتي الكتاب صبياً: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢﴾ [سورة مريم, ١٢]، وكذلك عيسى جُعل نبياً وهو صبي –وليس رضيعاً!–: ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ٣٠﴾ [سورة مريم, ٢٩-٣٠]، كما أن الخليل إبراهيم بدأ دعوته إلى الله وهو فتى: ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ٦٠﴾ [سورة الأنبياء, ٦٠]، فكيف يقال بعد هذا كله أن الله يبعث أنبيائه على سن معين وهو الأربعين؟!!

3- الإهلاك البطيء!

يُعد إهلاك الأقوام المكذبة من الأركان الأساسية لقصص القرآن، فغالباً ما تكون النهاية أن القوم المكذبين قد أُهلكوا ونجّى الله المؤمنين. والناظر في إهلاك الأقوام يجده إهلاكاً طبيعياً، أي أن عنصر العذاب فيه هو الطبيعة، فيكون الهلاك بالطوفان أو الريح أو الزلزلة ... الخ. ويجب الانتباه إلى أن الطوفان أو الريح ليست هي سبب الهلاك الرئيس، فعناصر الهلاك تكون قد استشرت في القوم من فساد وظلم وطغيان، وتأتي الظواهر الطبيعية الجارفة لتكون بمثابة الضربة القاضية التي تنهي القوم جملة واحدة.

فالله لا يهلك الأقوام وإنما الأقوام هم من يهلكون أنفسهم والله يرفدهم من جنس أعمالهم: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ۝٤﴾ [سورة الأعراف, ٤]، فكما رأينا فالقرية كانت قد هلكت فجاءها البأس بياتاً أو هم قائلون.

ولن نتوقف لنناقش أو نعلل هذا الإهلاك السريع المباشر، لأنه ملحوظ ومعروض له بوفرة، وإنما نذكر نموذجاً من نماذج الإهلاك البطيء غير المباشر، ذكره الله الحكيم في كتابه وغُفل عنه بسبب التناول الخاطئ، وذلك النموذج هو نموذج قوم سبأ، والذي ذكره الرب العزيز في قوله: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ۝١٥ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ۝١٦ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ۝١٧ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ۝١٨ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ۝١٩﴾ [سورة سبإ, ١٥-١٩]

فالله يقول أن سبأ أُمروا بالأكل من رزق الرب والشكر له فأعرضوا فلم يشكروا، ولا يعني الشكر مجرد القول باللسان وإنما شكر النعمة إنفاقها في مظانها وعدم إضاعتها والمحافظة عليها وتنميتها. فلمّا كفروا النعمة أرسل عليهم سيل العرم –وهو سيل شهير في تاريخ العرب– وهكذا تبدل الحال فلم تعد الجنتان آية وإنما أصبحت أطلالا كما نعتتها الآية، وبيّن الله الجليل أن هذا كان جزاءً لكفرهم، وأنه لا يجازي إلا من كان كثير كفر النعمة: "كفور"!

وبعد هذا جعل بينهم وبين القرى التي بورك فيها، –والتي هي مكة وما حولها، وليس الشام– قرى ظاهرة، أي قرى قوية، ذات سيادة وعلو مكانة، وليس كما قال المفسرون أنها قرى قريبة من بعضها بحيث إذا خرج الإنسان من قرية رأى القرية التالية! أو أنها قرى عالية بحيث تُرى! فالله تعالى يقول أنه نزلت بهم سنة التداول ﴿... وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ

نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ... ﴿١٤٠﴾] سورة آل عمران, ١٤٠[، فبعد أن كانوا ظاهرين، لم تعد لهم نفس المكانة وأصبحت قرى أخرى هي الظاهرة، ولم يحدث هذا بداهة بين عشية وضحاها وإنما استغرق سنين طوال، وقدّر الله القدير فيها السير! *أي أنه أصبح حتما على من يريد السير أن يسير في هذه القرى*، أي أنها نشأت على طرق التجارة[56]! فلم يكن هناك بد للمسافر إلا أن يمر بها! وأمرهم الله أن يسيروا فيها ليالي وأياما آمنين! إلا أنهم لم يعجبوا هذا النمط الحياتي وأرادوا الاستمرار على ما كانوا عليه من الزراعة والإقامة بالأوطان! فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا![57] فسألوا مباعدة الأسفار فلا يخرجون إلا على فترات متباعدة، وظلموا أنفسهم بالكفر والكبر وعدم الشكر على النعمة البديلة التي أوجدها الله لهم بالتجارة على الرغم من عدم غناهم! فجعلهم الله أحاديث، وأنزل بهم عقابا أشد مما أنزله بسابقيهم، فهؤلاء رأوا عاقبة سابقيهم ولكنهم لم يتعظوا وخالفوا أمر الله بالرغم من ذلك، فمزقهم الله كل ممزق وجعلهم أحاديث، وفي ذلك آيات لكل صبار شكور!

وكما رأينا فلقد أشارت الآيات إلى أن الدول الكافرة بنعم الله تُهلك، ورأينا أنه من بين أشكال الكفر بنعمة الله التمسك بالقديم البالي الذي لم يعد ناجعاً، ورفض الجديد

---

[56] هل يمكن القول أن هذا تسجيل لتحول النمط الحضاري من النمط الزراعي إلى النمط التجاري الكبير، والذي تسير فيه القوافل بالبضائع بعد أن كان يُكتفى بتبادل المنتجات بين أبناء المنطقة الواحدة؟!

[57] الناظر في أقوال المفسرين عند تناولهم لهذه الجملة "فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا" يرى عجبا، فيجدهم يقولون: "لما بطروا وطغوا وسئموا الراحة ولم يصبروا على العافية تمنوا طول الأسفار والكدح في المعيشة كقول بني إسرائيل: ﴿... فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا ... ﴿٦١﴾] سورة البقرة, ٦١[. وكالنضر بن الحارث حين قال: ﴿... ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾] سورة الأنفال, ٣٢[فأجابه الله تبارك وتعالى، وقتل يوم بدر بالسيف صبرًا، فكذلك هؤلاء تبددوا في الدنيا ومزقوا كل ممزق، وجعل بينهم وبين الشام فلوات ومفاوز يركبون فيها الرواحل ويتزودون الأزواد." اهـ.

ومن الممكن قبول صدور هذا القول منهم لو كانت هذه الجملة قيلت قبل نزول العذاب بهم، أي أن من قالها أفراد الجيل الأول، ولكن هذه الجملة قالها خلف سبأ، أي الأجيال التي نشأت بعد ضياع مكانة مملكة سبأ ونزول العذاب بهم، وبعد نشوء قرى ظاهرة أصبح لها المكانة السياسية والاقتصادية العظيمة! والنقطة الأخرى التي لم ينتبه إليها المفسرون هي *أن الأسفار ليست بمعنى البلد المسافَر إليه*! فالمفسرون ظنوا أنهم تمنوا أن تبعد المسافات والبلدان التي يسافرون إليها! وليس الأمر كذلك! فالسفر يعني السفر، وعندما أقول: باعد بين أسفاري، يعني هذا أني أريد ألا أسافر إلا على فترات زمنية متباعدة وليس أني أريد طول المسافة نفسها!!

النافع، ومن ثم تحكم الأمة التي لا تواكب آليات التقدم على نفسها بالهلاك، ولا يحدث هذا الإهلاك بين عشية وضحاها وإنما يستغرق عشرات أو مئات السنين، فإما أن تُغير ما بها أو ينزل بها ما جلبته لنفسها!

4- التفضيل على العالمين

بعلمه وحكمته اصطفى الله الرسل، وبهما كذلك فضل بعض الأمم على بعض، ووصل هذا التفضيل إلى الحكم بأن جنس مفضل على العالمين، فنجد أن الله الحكيم قد أعلن في أكثر من آية أنه فضل بني إسرائيل على العالمين: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٧﴾ [سورة البقرة ,٤٧]، فهل يعني هذا أن الله فضلهم على كل خلقه في جميع الأزمنة؟! نقول: لأن كلمة "العالمين" من الكلمات الجديدة التي أنشأها الله تعالى إنشاء، فلم تأت في أي نص جاهلي قبل الإسلام، شعرا كان أو نثرا، اختُلف في معناها، وعرض الإمام الطبري الاختلاف في فهم الكلمة فقال: "والعالَمون جمع عالَم، والعالَم: جمعٌ لا واحدَ له من لفظه، كالأنام والرهط والجيش، ونحو ذلك من الأسماء التي هي موضوعات على جِمَاعٍ لا واحد له من لفظه. والعالم اسم لأصناف الأمم، وكل صنف منها عالَمٌ، وأهل كل قَرْن من كل صنف منها عالم ذلك القرن وذلك الزمان. فالإنس عالَم، وكل أهل زمان منهم عالمُ ذلك الزمان. والجنُّ عالم، وكذلك سائر أجناس الخلق، كلّ جنس منها عالمُ زمانه. ولذلك جُمع فقيل: عالمون، وواحده جمعٌ، لكون عالم كلّ زمان من ذلك عالم ذلك الزمان.[58]" اهـ

ثم بدأ بعد ذلك في إيراد الروايات المتعلقة بمعنى اللفظة، فقالت بعضها أنها بمعنى الخلق كله، وقالت أخرى أنها بمعنى الإنس والجن، وقالت غيرها أن كل صنف عالم.

[58] محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، الجزء الأول ، ص. 143.

إلا أن القول بأنها ما عدا الله اشتهر أكثر من غيره، وذلك لأن بعضهم عد هذا القول من تفسير القرآن بالقرآن، وذلك لما جاء في سورة الشعراء، لمّا سأل فرعون: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الشعراء ,٢٣]، رد موسى: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة الشعراء ,٢٤] فيكون هذا تفصيلا لذاك! إلا أنه تبعاً لقولهم هذا، يكون فرعون غير فاهم هو الآخر لمعنى كلمة: عالمين، فاحتاج إلى شرح المعنى من موسى! ولو كان هذا هو المراد لكان من الأولى أن يقول له: وما العالمون؟! ولكنه يسأل عن هذا الرب الذي يدعوه موسى إلى عبادته، فزاده موسى تعريفا بكمالاته، فقال له هو كذا وكذا! أي أنه يعطيه معلومات إضافية، لا أنه يفسر ما لديه[59]!

والناظر في الاجتهادات التي حاولت استخراج معناها من خلال القرآن، يجد أنها لم تُصبه تماماً، فلقد وسعت مدلولها فجعلته أعم بكثير مما وُضعت له، فاشتُهر في تفسير "العالمين" أنها ما سوى الله تعالى، فكل ما في الكون هو من العالمين. ومن ثم ظهرت إشكاليات كبرى مثل هل هم أفضل من كل الخلق حتى الملائكة! وكذلك الرسول محمد مثلاً؟!

والخطأ الذي وقع فيه المفسرون أنهم قد غفلوا عند تناولهم لهذه الكلمة عن أنها جمع مذكر سالم، وليست جمع تكسير! فلو جُمعت على "عوالم" لكانت بالمعنى الذي ذكره المفسرون، ولكن الله تعالى لم يجمعها على عوالم، وإنما جمعها على "عالمون"، وهو ما لا يكون إلا مع العاقل! فهذا دليلٌ على أن الحديث عن عوالم عاقلة! وبهذا يمكننا استبعاد الجمادات والدواب وكل ما عدا العاقل! ومن ثم يمكن القول أن العالمون هم الأمم أو الجماعات أو المجتمعات البشرية المختلفة.(في زمانٍ

[59] لو طبقنا هذا الطريقة لأمكننا أن نقول أن العالمين هم موسى وهارون! ألم يقل الله تعالى حاكيا قول السحرة: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾﴾ [سورة الأعراف ,١٢١] ثم قالوا في الآية التالية: "رب موسى وهارون"، فهل العالمون هم موسى وهارون؟ أم أن الحديث انتقل إلى أمر آخر، كما كان الحال بين موسى وفرعون؟

ما وليس مطلقا) وليس للكلمة أي علاقة بالجن ولا الملائكة ولا الجمادات ولا الحيوانات ولا أي شيء ما عدا الإنسان!

وحُدد هذا المعنى من خلال النعوت التي جاءت مع الكلمة في القرآن. وبهذا نفهم أن بني إسرائيل فُضلوا على باقي المجتمعات في زمانهم، وبهذا لا تظهر إشكالية في وجود بعض الفاسقين فيهم، لأنه تفضيل مجتمع على مجتمعات، وليس أفراد على أفراد. وبهذا القول يستقيم الفهم في باقي الآيات، فمثلا نفهم قوله: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة آل عمران, ٤٢]، فهنا نلاحظ أن العالمين لهم نساء! فهل لكل ما سوى الله نساء، أم أن النساء التي فُضلت مريم عليهن هن نساء المجتمعات البشرية في زمانها؟! ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [سورة آل عمران, ٩٦] فالبيت وضع للناس وهداية لكل المجتمعات والأمم، وليس للدواب والسماوات والأرض[60]؟!

إذا فالحديث في القرآن عن العالمين ليس حديثاً مطلقا عن كل الخلق، خارج عن الزمان والمكان، وإنما هو حديث عن التجمعات البشرية في زمانها، فإذا كان ثمة تفضيل أو اصطفاء فهو عليهم وليس على مر الزمان.

(60) عرضنا للآيات التي وردت فيها الكلمة في بحث طويل على موقعنا الخاص: www.amrallah.com/ar بيّنا فيه أن هذا هو المعنى الوحيد الملائم للكلمة.

الفصل الرابع: معالجة النص

التكرار

من المسائل التي يطرحها القارئ للقرآن مسألة التكرار، فيتساءل: لماذا كرر القرآن القصص، هل كان ذلك لنقص علم، وذلك لأن مؤلفه "محمد" لم يكن يعلم إلا هذه القصص فأخذ يعيده، أم أنه كان يريد التأكيد على نقاط معينة، فأعاد من أجلها القصص، أم لغير ذلك؟!

وقدّم الإسلاميون إجابات عديدة لهذا السؤال، منها ما قاله الأستاذ مناع القطان: "يشتمل القرآن الكريم على كثير من القصص الذي تكرر في غير موضع، فالقصة الواحدة يتعدد ذكرها في القرآن وتعرض في صور مختلفة في التقديم والتأخير، والإيجاز والإطناب، وما شابه ذلك، ومن حكمة هذا:

1– بيان بلاغة القرآن في أعلى مراتبها: فمن خصائص البلاغة إبراز المعنى الواحد في صور مختلفة، والقصة المتكررة ترد في كل موضع بأسلوب يتمايز عن الآخر، وتصاغ في قالب غير القالب، ولا يمل الإنسان من تكرارها، بل تتجدد في نفسه معان لا تحصل له بقراءتها في المواضع الأخرى.

2– قوة الإعجاز: فإيراد المعنى الواحد في صور متعددة مع عجز العرب عن الإتيان بصورة منها أبلغ في التحدي.

3– الاهتمام بشأن القصة لتمكين عبرها في النفس: فإن التكرار من طرق التأكيد وأمارات الاهتمام، كما هو الحال في قصة موسى مع فرعون، لأنها تمثل الصراع بين الحق والباطل أتم تمثيل –مع أن القصة لا تُكرر في السورة الواحدة مهما كثر تكرارها.

4- اختلاف الغاية التي تُساق من أجلها القصة: فتذكر بعض معانيها الوافية بالغرض في مقام، وتُبرز معان أخرى في سائر المقامات حسب اختلاف مقتضيات الأحوال.[61]" اهـ

والناظر في التعليلات الثلاثة الأوائل يجد أنها غير مستخرجة من القرآن، كما أنها قائمة على أن آية القرآن الأولى بلاغية، -مما يعني عدم تأثيرها في غير العرب!!-، ويمكن القول أن العنصر الرابع هو القول المقبول، فبحسب اختلاف الغاية يختلف العرض، فعندما أريد أن استخلص عبرة من أحداث ما، فسأعرضها بما يبرز هذه العبرة، وعندما تختلف الغاية يختلف العرض! إلا أنه على الرغم من ذلك لم يقل لماذا لم يقص القرآن قصصاً آخر تظهر فيه هذه الغاية بشكل واضح!

ولقد اتخذ الدكتور خلف الله هذه الذريعة متكئاً للقول بخيالية قصص القرآن فقال: "سؤال آخر سأله العقل الإسلامي نفسه فيما يخص هذا التكرار وهو أنه على فرض قدرته على الوقوف على الأسرار التي من أجلها كان التكرار فلماذا كان هذا الاختلاف؟ لماذا اختلف إيراد القصة الواحدة في موطن عنه في آخر؟ لماذا اختلف وصف القرآن لموقف موسى من ربه في سورة طه عنه في غيره من السور، مع أن الموقف واحد والحادثة واحدة؟! لماذا قال القرآن في سورة طه: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ۝١٢ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ۝١٦ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ۝١٨ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ۝٢٠ قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا

[61] مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، ص.302.

سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ... ﴿٢٥﴾﴾] سورة طه ,٩-٢٥[الخ، ولماذا قال في سورة النمل عن نفس الحادثة والموقف: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾] سورة النمل ,٧-١٢[الخ، وقال في سورة القصص غير هذين؟ إن الموقف واحد وإن الحادثة واحدة، ولكن الوصف يختلف والحوار غير الحوار وحديث الرب العلي مع موسى النبي في موطن غيره في آخر. لقد حاول العقل الإسلامي أن يجيب على أمثال هذه الأسئلة التي تخص تكرار القصص القرآني واختلاف الوصف والتصوير، ولكنه لم يهتد إلى رأي قاطع ومن هنا آثر الكثيرون عدّ القصص القرآني من الآيات المتشابهات. يقول الطبري: "والمتشابه هو ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم عند التكرار فقصة باتفاق الألفاظ واختلاف المعاني وقصة باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني" وكذلك يقول غيره من شيوخ المفسرين. ولو أن العقل الإسلامي أقام فهمه للقصص القرآني على أساس بلاغي أو أساس فني أدبي لما وقف هذه الوقفة ولعرف منذ اللحظة الأولى أن الذي عده من التكرار ليس من التكرار في شيء، لأن هذه المواد التاريخية غير مقصودة من القصص وأن مقاصد القرآن من مواعظ وعبَر ومن إنذارات وبشارات تختلف في موطن عنها في آخر، ومن هناك كان الاختلاف، لأن اختلاف المقاصد يدفع من غير شك إلى اختلاف الصورة الأدبية. مقصد القرآن من قصة موسى في سورة طه غيره من قصة موسى في سورة النمل وقصة موسى في سورة

طه قصة مستقلة، وقصته في سورة النمل قصة مستقلة ومن الوجهة الأدبية البلاغية، هذه قصة وتلك أخرى وعلى هذا فلا تكرار ولا اختلاف ولا تشابه.[62]" اهـ

وأنظر في النصوص التي ذكرها الدكتور خلف الله ليقول بالأدبية، فلا أجد فيها ضرورة جازمة تمنع أن يكون المذكور في السورتين قد وقع كما قال الرب، فلا يعني أن الله لم يذكر مشهداً من مشاهد الحدث وذكره في سورة أخرى أو أن الله عرض الكلام بشكل مختلف أنه لم يحدث بهذا الشكل! إن هذا التعليل من الممكن قبوله إذا كان المشهدان في السورتين متناقضان، وهما ليسا كذلك وإنما هما متكاملان، فما المانع من اختزل مشهداً لا حاجة لي به في سياق، وأذكره في سياق أخر، يكون له دور مؤثر في الغاية منه؟! ولا يوجد نصان من القصص –أو غيره– في القرآن متناقضان، مما يحتم حمله على التخيّل! وما قيل في المشهد يقال في الجُمل المذكورة، فلا يعني ذكر الله جملة ما على لسان شخص أنه لم يقل غيرها في هذا الموقف! المهم ألا يُقوّل الشخص كلاما غير متناسق!!

وبشكلٍ عام فإن تعليل الدكتور خلف الله التكرار بالأدبية لا يقدم ولا يؤخر، فهو وإن قدمه ليبرر اختلاف المفردات المستخدمة في القصة، إلا أنه لم يقل كذلك لماذا لم يأت القرآن بقِصص أخرى، هذا وإن كان قوله باختلاف طريقة العرض حسب الغاية التي ذُكر من أجلها، قول سليم، إلا أنه يعلل الاختلاف في العرض وليس التكرار نفسه!!

والمشكلة التي وقع فيها عامة المتناولين أنهم نظروا إلى قصص القرآن بالنسبة إلى المنزِّل فقط ولم ينظروا إليه من ناحية المتلقي، فعندما يختلف المخاطب لا يكون في الأمر أي تكرار، فالله تعالى كان يخاطب النبي بالقصص أحيانا: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣﴾ [سورة القصص ,٣]، فالمخاطب الأول بالقصص هو النبي ثم من يؤمن، وأحيانا لا يكون الخطاب للنبي، ففي كل الآيات التي

[62] محمد أحمد خلف الله، الفن القصصي في القرآن الكريم، ص.62–64.

قال الله فيها: "واتل عليهم" لم يكن المخاطب الأول هو النبي، ومن ثم فهذا خطاب موجه لأفراد لغاية، وهذا خطاب موجه لآخرين لغاية أخرى، ومن ثم فلا تكرار!

فإذا غضضنا الطرف عن مسألة اختلاف المخاطَب الأول بالقصص وانتقلنا إلى المخاطبين الأوُل به عامة، وجدنا أن القرآن في مخاطبته المشركين وأهل الكتاب، كان يخاطبهم بما هو معروف لديهم، على وجه الإجمال أو بتفصيل بسيط، فالأحداث الغابرة كانت معرفتهم بها بسيطة على وجه الإجمال، بينما كانت معرفتهم أكبر بالأحداث القريبة، فلقد كان لديهم مثلاً معرفة إجمالية عن نوح وعن الطوفان، فجاء القرآن وفصّل في هذه الأحداث، ولذلك نجده يقول في نهاية إحدى مرات القص: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة هود, ٤٩]، فهو يفصّل لهم ما يعرفون إجمالاً، ويخاطبهم بتفصيل أكبر فيما يعلمونه مفصلا، مصححاً لهم بعض الذي يتداول بينهم، أما ما لا معرفة لهم به ولا علاقة فلم يخاطبهم به!

ولهذا نفهم لماذا أكثر القرآن من ذكر موسى والأحداث التي وقعت له، لأنها أحداث قريبة منهم، يعرفونها بتفصيلٍ ما، فهم الأمة أصحاب الرسالة السابقة، ومن ثم فمن المنطقي الحديث عن السابق القريب المماثل بزيادة قدر أكثر من البعيد الموغل في القدم! بالإضافة إلى أن أتباع هذه الرسالة كانوا يشكلون قدراً لا بأس به من المخاطبين بها، فهو تذكير لهم بأفعالهم في سابق الأزمنة، بخلاف الأمم السابقة التي لم يبق منها أحد! كما أن المخاطبين الأصليين بالرسالة –المسلمين– كانوا يرونهم ويتعاملون معهم ويرون أحوالهم، فكان القرآن يعرفهم بما كان هؤلاء عليه، حتى لا يفعلوا فعلهم ويصيروا مثلهم! كما أن أحداث موسى وفرعون كانت مما تعرفه العرب، بخلاف باقي أحداث بني إسرائيل وما حدث لهم أثناء الأسر البابلي وبعده، فكان من المعلوم لبني إسرائيل فقط، كما أن محمد عليه السلام لم يكن كأي نبي من أنبياء بني إسرائيل وإنما كان كنبيهم الرأس: موسى عليه السلام، فكان قصص مؤسس الديانة هو محور القصص، ناهيك عن أنها أحداث ستبقى في ذاكرة التاريخ من خلال تخليد التوراة لها،

ففصل القرآن في هذه الأحداث، ليبطل الكثير من الافتراءات التي دُست في التوراة! ونختم بقولنا: ليس كل ما قيل فيه أنه تكرار هو من التكرار، فأحياناً تؤدي القراءة غير الدقيقة للآيات إلى إسقاطها على غير أصحابها ومن ثم يقال بالتكرار وهو غير حاصل، ومن ذلك الآيات المقصوصة في سورة المؤمنين: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٣١ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣٢ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۝٣٣ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝٣٤ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝٣٥ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝٣٦ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٣٧ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ۝٣٨ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ۝٣٩ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ۝٤٠ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤١﴾ [سورة المؤمنون, ٣١-٤١]**، والتي قيل أنها في قوم عاد، وهو قول لا دليل عليه، فعاد أهلكوا بالريح!**

ولذلك قيل أنهم قوم ثمود، لأنهم أهلكوا بالصيحة. *والذي أميل إليه أنهم لا عاد ولا ثمود، فالآيات لا تحتوي تشابها* مع قوم هود وصالح فقط، وإنما وكذلك مع نوح، فنجد أن نبيهم قال كما قال سيدنا نوح: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾**، ومن ثم فالنبي فيها غيرهم الثلاثة!! وهم قوم غير معروفي الاسم للعرب، لذا لم يُحددوا بالاسم! وكما تحدث عن شجرة تخرج من طور سيناء فكذلك تحدث عن قوم غير معروفين!!**

فواتح القصص وخواتمه

من النقاط التي لم تلق اهتماماً كبيرا من المتعاملين مع قصص القرآن مسألة فواتح القصص وخواتمه، فلم نجد تركيزاً كبيرا عليها، ولا انطلاقاً في فهم القصص منها ولا تعريفاً للقارئ بما افتتح الرب العليم به قصه. فإذا سئلنا: ما هي الفواتح التي ابتُدئ بها قصص القرآن؟ سنجد أن أكثر القارئين لا يعلمون أن هناك فواتح معينة افتتح القرآن به قصصه، كما أنهم وعامة المفسرين لا يهتمون بوجود اختلافات في بدايات القصص تحتم اختلاف طبيعة التعامل مع القصص، فيوضع كله في سلة واحدة! وهذا مسلك غير قويم، فما بُدئ بفاتحة معينة مثل: "وهل أتاك نبأ" لا ينبغي أن يُعامل معاملة ما بدأ بقوله "ولقد أرسلنا"، وما بدأ ب "واتل عليهم" يجب أن يختلف التعامل معه عن الذي يبدأ بقوله "نتلوا عليك"، فالمخاطب بالأول هم الآخرون، بينما المخاطب بالدرجة الأولى في الثاني هو النبي الكريم نفسه، ومن ثم فإن الغاية الأولى للقصص تختلف تبعاً للمخاطَب به! كما ينبغي أن تتشابه المعاملة التي تُنزل بالقصص الذي يُبدأ بنفس الفاتحة! فالله لم يبدأ بأي فاتحة اعتباطا، وإنما بفواتح معينة تعين القارئ على معرفة أي نوع من القصص هو والأطراف المخاطبين به أولا، وما هو المحور الرئيس له، فعندما يُبتدأ القص ب "كذبت" فإن هذا إشارة مباشرة إلى أن محور الحديث هو عن التكذيب وعن جرمه ... الخ، وإذا ابتدأ الرب القصص بقوله "إذ" فإن هذا إشارة إلى أن الموقف الفلاني هو نموذج طيب لما قيل سابقاً، وإذا بدأه ب "وإذ" فإن هذا إشارة إلى عطف هذا على المذكور سابقا!

وتبعاً للفاتحة التي يُبدأ بها القص، يمكن للمتعامل مع النص أن يحدد نوع العلاقة بين النص السابق والقصص اللاحق، ولأننا لم نجد من يعرف بفواتح قصص القرآن، نقدمها للقارئ الكريم لتكون له عوناً في تدبر كتاب ربه: إذا نظرنا في القرآن وجدنا أن أكثر القصص يبدأ بقوله تعالى "إذ" أو "وإذ" —وخاصة في قصص الأقوال والحوارات، ونجد هذا مثلاً في أول ما قصه الكتاب العزيز: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ

فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ... ﴿٣٠﴾] سورة البقرة, ٣٠[، وفي قوله: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ ... ﴿٤٩﴾] سورة البقرة, ٤٩[، و﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ ... ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾] سورة المائدة, ١١٠-١١١[.

وكذلك كثيراً ما يبدأ بقوله "لقد" و"ولقد"، –وفي هذا تأكيد للمحتوى المعروض[63]–، والذي غالباً ما يُتبع بقوله "أرسلنا" ليؤكد *رسولية* الشخص الذي يقص من نبأه، مثل قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ ... لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ ... ﴿٥٩﴾] سورة الأعراف, ١١-٥٩[، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾] سورة هود, ٩٦[، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ... ﴿٤٥﴾] سورة النمل, ٤٥[، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾] سورة الحجر, ١٠[

ونجد أحياناً أن الله تعالى يفتتح القص عن بعض الأنبياء بقوله: ﴿وَإِلَىٰ ... أَخَاهُمْ ...﴾، مثل قوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ... ﴿٦٥﴾] سورة الأعراف, ٦٥[، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ... ﴿٧٣﴾] سورة الأعراف, ٧٣[، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ... ﴿٨٤﴾] سورة هود, ٨٤[، إلا أن هذه الفواتح لا تُعتبر فاتحة مستقلة، وإنما هي تابعة لقوله "لقد أرسلنا" السابق لها في السورة، فنجد أن الله افتتح القص عن الأنبياء في سورة الأعراف بالحديث عن سيدنا نوح عليه السلام، فقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ... ﴿٥٩﴾] سورة الأعراف, ٥٩[، ثم عطف بوادئ باقي القصص على هذه البداية، ولهذا جاءت كلمة أخوهم منصوبة "أخاهم"، لأنه لا حاجة لتكرار "ولقد أرسلنا" في كل مرة، ومن ثم فهي بادئة غير مستقلة وإنما تابعة.

[63] بل ونجد أن أول ذكر ل "إذ" و"وإذ" و"لقد" و"ولقد" جاء في قصص القرآن، ومواطن ذكر "وإذ" في آيات القصص هو أكثر من غيرها!

كما افتتح الله القص في عشر مواطن بقوله "كذبت"، جاء منها في الشعراء أربعة، وذلك في قوله: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ... كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ ... كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٤١﴾ ... كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ [سورة الشعراء, ١٠٥-١٦٠]، وفي القمر أربعة كذلك بنفس الترتيب والأفراد، هي قوله: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٍ ... كَذَّبَتۡ عَادٌ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ ... كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ ... كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة الـقمـر, ٩-٣٣]، والموطنان الآخران في الحاقة والشمس.

كما افتتح الله قصّه ثمان مرات بقوله"واذكر"، خمسٌ منها في سورة مريم جاءت على صيغة ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ ...﴾، ومرتان في ص جاءت بصيغة: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ ...﴾ ومرة في الأحقاف جاءت بقوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ ... ﴿٢١﴾﴾ [سورة الأحقاف, ٢١]

وبغير هذه البوادئ ابتدأ الله العليم قصصاً بفواتح أخرى، مثل فاتحة "واتل عليهم نبأ"، والتي جاءت أربع مرات في القرآن العزيز، هي: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانًا ... ﴿٢٧﴾﴾ [سورة المائدة, ٢٧]، ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا ... ﴿١٧٥﴾﴾ [سورة الأعراف, ١٧٥]، ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ ... ﴿٧١﴾﴾ [سورة يونس, ٧١]، ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [سورة الشعراء, ٦٩]

وكذلك نجد أن الله افتتح بفاتحة "هل أتاك حديث" أربعة مواطن قص، هي: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة الذاريات, ٢٤]، ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ [سورة الـنازعات, ١٥]، ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ﴿١٧﴾﴾ [سورة البروج, ١٧]، ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ﴿١﴾﴾ [سورة الغاشـيـة, ١].

بينما جاءت فاتحة "وهل أتاك" مرتين، هما: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾﴾ [سورة طه, ٩]، ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ﴿٢١﴾﴾ [سورة ص, ٢١]

وجاءت الفاتحة: "نتلوا عليك من نبأ" مرة واحدة في سورة القصص، وهي: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾﴾ [سورة القصص, ٣].

وكذلك جاءت الفاتحة "أم حسبت" مرة واحدة وهي قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾ [سورة الكهف, ٩]

كما افتتح الله كذلك بقوله: "ألم تر" أو "ألم تر إلى" في مواطن عدة، وذلك مثل قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ... ﴿٢٤٣﴾﴾ [سورة البقرة, ٢٤٣]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ ... ﴿٢٥٨﴾﴾ [سورة البقرة, ٢٥٨]

فإذا تركنا الفواتح وانتقلنا إلى الخواتم وجدنا أن الرب العليم قد يقص القصص ثم ينتقل بعده مباشرة إلى صنف آخر من أصناف آيات القرآن، بدون الحديث عن نوعه أو كيفية عرضه أو عن الغاية منه أو الدعوة إلى التفكر فيه، وأحيانا يفعل، فنجد أنه عظم وجل قدره يُعرف بنوعه وكيفيته في قوله بعد حديثه عن الملأ بعد موسى وطالوت وداود: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ... ﴿٢٥٢﴾﴾ [سورة البقرة, ٢٥٢]، فهذا القصص من آيات الله والله يتلوه بالحق. وبعد أن يتحدث عن مولد عيسى ودعاء زكريا بالولد وأحوال عيسى مع قومه يقول: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ... إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ... ﴿٦٢﴾﴾ [سورة آل عمران, ٥٨-٦٢]، وبعد حديثه عن القرى في سورة الأعراف يقول له: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ... ﴿١٠١﴾﴾ [سورة الأعراف, ١٠١]، وفي سورة هود يقول: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾ [سورة هود, ١٠٠]. وقال له في ثلاثة مواطن أنه يوحي إليه من أنباء الغيب، منها قوله في سورة يوسف: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [سورة يوسف, ١٠٢].

ونعود فنقول إن هذه الفواتح والخواتم مفيدة نافعة لمن يبحث عن الغاية التي من أجلها ذُكرت كل قصة بعينها في موضعها، وهذا ما لا نجده من عامة المفسرين، فلم نجد أكثرهم يهتمون بإيجاد علة لوجود قصص بعينه في السورة، ناهيك عن ذكر السبب الذي من أجله كان المقصوص بهذا الشكل! وذلك لأن الوحدة الموضوعية لسور القرآن لم تكن من ضمن أولوياتهم في التعامل مع النص المعالَج، مع أنها هي العنصر الحاسم في فهم علة الذكر والعرض بشكل مخصوص.

الوحدة الموضوعية والسبب

على الرغم من أن كل المفسرين يقولون بأن قصص القرآن أحسن القصص، إلا أنهم لم يبينوا هذا في تناولهم القصص بشكل فردي بداخل كل سورة، فلقد قالوا بحكم عام، وأخذوا يستخرجون أسباباً توجب أن يكون قصص القرآن ككل أحسن القصص، فإذا أخذناه كأفراد مجزئة، لم نجد لديهم من الأسباب الكافية التي تثبت أنه أحسن القصص حقا!

بغض النظر عن تفسيرهم له وبحثهم عما يكمله، والذي يبطل كل قول *بالحسنية*!! وهذا المسلك هو المنتظر ممن يتعاملون مع سور القرآن بشكل تقطيعي، فلا يتعاملون مع السورة كوحدة واحدة، وإنما كمجموعة من الآيات، فتُتناول كل آية بمفردها، فيعرض المفسر كمّا كبيرا من الأقوال، ثم يبدأ في الترجيح بينها، تبعاً لمذهبه! أو لما يرجح عنده عقلاً، وقليلاً ما يُرى لباقي النص دوراً في ترجيح قول من الأقوال وإبطال الأخرى!

ومن ثم فإن أقصى ما يفعله المفسر أن يظهر المناسبة بين هذه القصة والآيات السابقة لها، أما أن يبيّن لماذا ذُكرت القصة بهذا الشكل، فيبين لماذا عُرضت مُجملة في آيات لا تتجاوز أصابع اليد، أو لماذا فُصلت فأخذت الحيز الأكبر من السورة، أو أن

يذكر العلة التي من أجلها ذُكرت مجموعة من القصص بعينها وراء بعضها، والحكمة من عرضها بهذا الترتيب، فهذا ما لا نجده من عامة المفسرين، وذلك لأن مسألة الوحدة الموضوعية للسور والتناسق بين الآيات مما لا يعولون عليه كبير تعويل! بل إننا وجدنا من يقول أن آيات القرآن قائمة على القطع وليس الاتصال!! ومن ثم فلا تناسب بين الآيات، لأنها نزلت في مناسبات مختلفة!

أما نحن فنقول –استناداً إلى كتاب الله– بالوحدة الموضوعية لكل سورة في القرآن، ونجزم بأن سور القرآن كاملة تشكل مع بعضها سورة كبيرة، متصلة الأجزاء والمعاني. وقولنا بالوحدة الموضوعية للسور لا يعني أننا نقول فقط بأن السورة تعرض عدداً من الموضوعات المتناسبة المتناسقة، وإنما نتقدم خطوة إلى الأمام فنقول بأن كل سور القرآن تتناول موضوعا واحدا يندرج تحته عدد من العناصر، فالموضوعات المختلفة في السورة هي عناصر الموضوع الأكبر الذي تدور السورة في فلكه، وبداية كل سورة متناسبة مع آخرها، وآخر السورة متناسب مع بداية السورة التالية لها، وأن كل سورة تفصل في عنصر أجملته السورة السابقة لها[64]!

وبغض النظر عن فائدة طريقة التناول هذه في تحديد معاني المفردات المختلف فيها، فإن هذه الطريقة تحتم على المتناول أن يستخرج المحور الرئيس الذي تدور في فلكه السورة، وباكتشاف هذا المحور يكتشف المتناول الحكمة في ذكر قصة ما بعينها على هيئة التفصيل أو الإجمال، وكذلك الحكمة في ذكر عدد من القصص تركز على مسألة بعينها، تؤكد هذا المحور الرئيس للسورة وتبرهن عليه بوقائع سابقة، كما تكون معرفة الوحدة الموضوعية للسورة السابقة والعناصر المذكورة تحت الموضوع العام، سبب في معرفة علة ذكر القصص بهذه الهيئة، فقد يكون القصص تأكيداً لعنصر في سورة سابقة، أو تفصيلٍ لقصص مجمل في سورة سابقة، يزيد محتواه بياناً!

---

(64) يمكن للقارئ معرفة مزيد من التفاصيل بخصوص منهجنا في التناول الموضوعي لسور القرآن من خلال قراءة كتابنا: القرآن سورة واحدة، جزء عم نموذجا، والموجود على صفحات موقعنا الشخصي: www.amrallah.com/ar

وبدون معرفة المحور الرئيس للسورة لا يمكن اكتشاف الغاية الكبرى التي من أجلها ذُكر هذا القصص تحديدا وعلى هذه الهيئة خاصة! وحتى لا يظل الأمر مبهما ومجرد قواعد تنظيرية عامة، نقدم للقارئ بعض الأمثلة التي تبين كيف تثبت الوحدة الموضوعية حُسنية قصص القرآن.

الآلهة الباطلة

قرأنا كلنا سورة الأنبياء، ويعلم الجميع أن سورة الأنبياء سُميت بهذا الاسم لأنه ذكر فيها قصص عدد من الأنبياء، فإذا سألنا القارئ الذي غالباً ما قرأها عشرات المرات: ما هو الرابط الذي من أجله ذُكر موسى وهارون وإبراهيم ولوط ونوح وداود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذو الكفل وزكريا ومريم في هذه السورة؟! وما هو السبب الذي من أجله تكون هذه القصص –كقصص– أحسن القصص؟!

وندعو القارئ لأن يقرأ السورة ويتدبرها، فإن وجد الرابط والعلة فبها ونعمت، وإن لم يجده نقدمه له قائلين: الناظر في السورة يجد أن محورها الرئيس هو الله الرب الحق والآلهة الباطلة! فالرب الحق هو من يرسل الرسل هداية لخلقه وهو من يؤتيهم الكتاب والحكمة، وإذا قضى فلا راد لقضائه، وما دونه فلا يستحق أن يكون إلها، وما عُبد دونه إلا آلهة مفتراة، لا وجود لها ولا تنفع ولا تضر، فالرب هو من يهلك ويحاسب، وهو من ينصر عباده ويجيب نداء من ناداه أما الآلهة الباطلة فتحتاج من ينصرها.

ونقدم للقارئ التصور العام للسورة: تبدأ السورة بالحديث عن فعل من أفعال الرب وهو إرسال الرسل وكيف أن الناس يقابلون الرسالة بالإنكار والإعراض، فينكر الله عليهم هذا لأنه لن يوجد من ينصرهم: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ٢١ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ٢٣ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن

مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٤﴾ ... أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَا ... ﴿٤٣﴾﴾ [سورة الأنبياء, ٢١-٤٣]

وبعد أن قص الرب موقف المخالفين من الرسالة والوحي يبدأ بذكر مثال على حمق من يتخذ آلهة من دون الله وهو موقف الخليل مع قومه، وكيف حاور قومه وبين لهم سبب غفلتهم ثم كسر لهم آلهتهم، وانتقد عليهم عبادة ما لا ينطق: ﴿قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [سورة الأنبياء, ٦٦-٦٩]، فهذه الآلهة الباطلة تحتاج من ينصرها، أما الله الرب الحق، فلقد كف النار عن إبراهيم ونجاه ونصره! وبعد أن نجاه الله بزمن وهب له البنين استجابة لدعائه.

وكذلك أنجى الله لوطاً فلم يتركه في القوم الفاسقين، وكذلك نوحاً من قبل: ﴿وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [سورة الأنبياء, ٧٦-٧٧]

فمن ينادي الله يجيبه وينجيه وينصره، وكذلك داود وسليمان فإن الله هو من آتاهما علماً وحكماً وسخر لهم ما سخر فمكن لهم في الأرض، ثم يذكر الله نداءات عدد من الأنبياء ربهم وكيف أن الله أجابهم: ﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا

تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ ... ﴿٩٠﴾﴾ [سورة الأنبياء, ٨٣-٩٠]

فهذا هو الرب الحق، أما الآلهة الكاذبة ومن عبدوها فهم في النار: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [سورة الأنبياء, ٩٨-١٠١] أما الذين سبقت لهم الحسنى من الله، مثل الأنبياء الذين عُبدوا، بدون رضاهم مثل عيسى، فهم مبعدون عنها!!

وندعو القارئ أن يقرأ السورة مجدداً بعد أن ظهر له محورها الرئيس وعرف الحكمة من ذكر هذه المواقف من حياة هؤلاء الأنبياء، وكيف أنهم مذكورون كأدلة على صدق وعد الله ووعيده وإجابته لدعاء من يناديه، وسيجد –بإذن الرب القدير– خضوعا كبيرا في قلبه.

إتباع المُنزَل

إذا تركنا سورة الأنبياء وانتقلنا إلى سورة الأعراف وجدنا أنها كلها تدور في فلك موضوع واحد وهو: الأمر بإتباع المنزَل والنهي عن اتخاذ أولياء من دون الله. والناظر في السورة يجدها تؤكد أن من يتخذ ولياً من دون الله يضل أو يهلك، ويظهر هذا المعنى من أول آيات السورة، فنجد الرب يقول: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ ... ﴿٣﴾﴾ [سورة الأعراف, ٣]

وأول من يذكره كمثال لمن أعرض عن أمر الله المنزل هو إبليس، عندما رفض بهواه السجود لآدم مع الملائكة، ثم يثني بآدم وزوجه نفسهما عند خالفا أمر الله: "...

ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾] سورة الأعراف, ١٩]، واتبعا الشيطان فكان جزاءهما الخروج من جنتهما! ثم يأمر بني آدم بالإتباع وعدم الابتداع، فلا يزيدوا على ما أمر الله به وينسبونه إليه ولا يتكلموا عنه بغير علم، وإنما عليهم أن يتبعوا ما أنزل إليهم مع الرسل، فإن افتروا فلهم العذاب الشديد، ثم يذكر الرب العليم نوحا وهودا وصالحا ولوطا وشعيبا!

والقارئ لقصصهم يلاحظ أن الله تعالى ركز على مسألة تبليغ الرسالة والنصح، وكيف أن كلاً منهم كان يقول أنه يبلغهم أو أبلغهم: ﴿... وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ ... ﴿٦٢﴾] سورة الأعراف, ٦١-٦٢]، ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾] سورة الأعراف, ٧٩]

وهذا هو دور الرسول أن يبلغ وعلى القوم القبول أو الإعراض، فإن فعلوا أفلحوا وإن لم أُهلكوا، ثم بعد ذلك يتكلم الرب العليم بتفصيل عن موسى وإرساله، وكيف أن الله فصّل له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء، وأن المعرض عنها يحبط عمله، ثم يضرب مثلاً بأهل القرية التي كانت حاضرة البحر، وكيف أن مخالفتهم لأمر الله أدت إلى إهلاكهم، ثم تحدث عن الممسكين بالكتاب وعن الإشهاد الذي أشهده ذرية بني آدم، ثم تُختم السورة بما بُدأت به وهو الحديث عن الولي: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾] سورة الأعراف, ١٩٦-٢٠٠] فعلى الإنسان أن يتخذ الله وليا وأن يستعيذ بالله من نزغ الشيطان.

إذا فالقصص الذي ذُكر في السورة كلها هو ليُذكر الناس بعاقبة اتخاذ أولياء من دون الله، وكيف أن من يفعل هذا يهلكه الله، ومن ثم فعلى الناس الاحتماء بالله واللجوء إليه والاستعاذة به.

زيادة الجزاء

ونترك سورة الأعراف وننتقل إلى سورة أخرى لنبين أن القصص لم يُذكر فيها هكذا اعتباطا وإنما لغاية السورة، وهي سورة سبأ، فإذا نظرنا في السورة وجدنا أنها تدور في فلك تأكيد ثنائية الجزاء وأنه في الدنيا قبل الآخرة، وأنه يزيد مع الخلف أكثر منه مع السلف، وأن الشكر يزيد النعمة وأن كفر النعمة يضيعها.

ونقدم للقارئ تصورنا للسورة فنقول: إذا نظرنا في السورة وجدنا أنها –بعد حمد الله– تعرج على موقف الذين كفروا المكذبين بالساعة وترد عليهم مبينة الحكمة منها، وأن الجزاء والعقاب يقع في الدنيا قبل الآخرة، فتقدم نموذجين مختلفين للناس تجاه آيات الله، موقف الذين أوتوا العلم، وموقف الكافرين والذي يعتمد على الشوشرة والسخرية وتشويه سمعة الداعي إلى الله، على الرغم من وضوح الصدق: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧﴾ [سورة سبإ, ٦-٧]، وبعد أن ترد على المستهزئين، بالآيات تقدم السورة نموذجين على الجزاء والعذاب، فنموذج الذين أوتوا العلم المُجازَى هو داود وابنه (نموذجان في آن واحد)، لأنهم شكروا الله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ

ٱلسَّعِيرِ ⑫ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ⑬﴾ [سورة سبإ, ١٠-١٣][65]"

فلقد أنعم الله على داود بنعم كثيرة، واستمرت النعمة مع ابنه الشاكر وزيدت أكثر مما كانت مع الأب. وأما نموذج المعاقب فهو لسبأ وخلفهم (نموذجان كذلك)، فلأن سبأ لم تشكر عوقبت، ولكن كان العقاب مخففا، فلم يُقض عليهم تماماً، ولكن لما استمر الخلَف على المعصية ولم يتعظ بما فعله السابقون عوقبوا أشد العقاب، فمُزقوا كل ممزق، حتى أصبحوا مجرد أحاديث يتناقلها الناس: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ⑮ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ⑯ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ⑰ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ⑱ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ⑲﴾ [سورة سبإ, ١٥-١٩]
وفي هذا العبرة والعظة لمن يكثر الصبر والشكر. وتستمر السورة على نفس المنوال في الثنائية، إلا أننا نكتفي بما له تعلقٌ بالقصص!

نموذج قصير

إذا نظرنا في سورة النازعات وجدنا أن الله العليم ذكر قصة سيدنا موسى إجمالاً في آيات معدودات، هي: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ⑮ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ

[65] نجد أن سيدنا سليمان كان حريصا على شكر ربه في كل المواقف وينبه على ذلك، حتى يزيده الله على ذلك: ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ⑳﴾ [سورة النمل, ٤٠]

طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾] سورة النازعات, ١٥-٢٦ [

فلماذا ذكرها الله مجملة هكذا، ولماذا ذكرها الله أصلاً في هذه السورة؟!

لا يستطيع القارئ أن يجد عند المفسرين إجابة لهذا السؤال، لأنهم لا يجزمون بما هي النازعات، لأن المشهد الأول في السورة مبهم لديهم، يتأرجح بين احتمالات عدة، ومن ثم فلا يمكن الجزم بمناسبة قاطعة بين هذه الآيات التي أوجزت قصة موسى، وبين السورة، ولا التعريف بالعلة التي من أجلها جاءت مختصرة، ولقد حاول الإمام الفخر الرازي أن يقدم علة لها فقال أنها تسلية للنبي وتثبيت له. وليس الأمر كذلك، فبفضل منهج التناول الموضوعي للسورة استطعنا تحديد مدلولات الآيات الأولى للسورة، وقلنا أنها تقدم مشهد نزول العذاب بالمكذبين المعاندين[66]، وسورة النازعات من أولها إلى آخرها تدور في فلك الإنذار بالعذاب الذي ينزل بالكافرين المنكرين المعاندين، فهي تبدأ بمشهد نزول العذاب بالكافرين ثم تصف حال الكافرين عند نزول العذاب ثم تضرب لنا نموذجا معروفا لمن نزل بهم العذاب وهم فرعون وقومه ثم توضح للإنسان مقداره الحقير وفضل الله عليه وقدرة الله على إنزال العذاب به في أي وقت شاء ولكن العذاب لا ينزل هكذا عبثا أو اعتباطا بل هو مرتبط بأسبابه فإذا توفرت استحق الإنسان العذاب والذي لا يعرف الإنسان ميعاده فلا يعرفه إلا الله تعالى.

ولأن هذا هو الموضوع ناسب أن يكون القص على هذا الحال، فإذا كانت السورة من أولها تتحدث عن العذاب الذي ينزل بالكافرين بواسطة الملائكة نتيجة تكذيبهم وعنتهم ومحاربتهم واضطهادهم للرسل وللرسالة ناسب أن يذكر الله عز وجل هنا

[66] يمكن للقارئ الكريم الرجوع إلى كتابنا: "قراءة لسور الطعن" والذي بيّنا فيه كيف قلنا بهذا القول!

للرسول قصة نزول العذاب بفرعون وقومه فهو يذكّره بأن فرعون لما جاءه موسى ودعاه إلى عبادة الله العظيم، طغى وتجبر وادعى الإلوهية والربوبية فأخذه الله هو وجيشه، ونزل بهم العذاب بأن فُلق البحر استدراجا له فأغرق هو وجيشه. وهذا قانون عام يسري على من يناطحه، وكان فرعون أحد من سقطوا فيه! وفي هذا عبرة لمن يخشى، فهل يعتبر أحد! وكما رأينا فإن الموضوع لا يحتاج أكثر من مثال قصير، وهو ما قدمته السورة.

سورة الفيل

سورة الفيل من قصار السور، فإذا تساءلنا: إن سورة الفيل ما هي إلا "قصة"، فما وجه *الحسنية* فيها؟! فستأتي الإجابة بالحديث عن الأوجه البلاغية الكثيرة فيها، وكيف أن الرب حمى بيته ممن أرادوا إهلاكه ... الخ

أما نحن فنقول أن وجه حسنها هو تصديقها لآية في سورة الهمزة السابقة لها، والتي تقول: ﴿كَلَّآ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦﴾ [سورة الـهمزة, ٤-٦] والحطمة كما قال الرب العليم هي النار. ومن المستغرب أن تكون النار كثيرة التحطيم، فالنار تحرق ولا تحطم!! ولم يوضح المفسرون العلاقة بين النار والتحطيم[67]!! فكيف تكون النار حُطمة؟! فنقول: كون النار حطمة شيء غير مستغرب بالنظر إلى طبيعة المادة الموضوعة فيها، فالمواد إذا وضعت في النار إما أن تنصهر –مثل الزجاج– أو تيبس مثل الفخار أو تتآكل مثل الورق!

[67] هناك فارق كبير بين الحطم والكسر، فالكسر معروف وهو مثل قولنا: كسرت المائدة، أما التحطيم فهو التكسير إلى قطع صغيرة وذلك مثل قولنا: حطمت الزجاج أو الخبز الجاف، وتصور الفارق بين الهيئتين في المائدة والزجاج تعرف الفارق بين المعنيين. وإذا نظر القارئ في أول السورة فسيجد أن الرب العليم قد توعد من يكون همزة لمزة، والإنسان الهمزة اللمزة هو كثير الهمز واللمز، و"همزة لمزة"، على وزن فُعلة، والذي يفيد الشدة والمبالغة في التوصيف، وهنا استعمل الله عز وجل نفس النعت مع النار، أي أنها تكسر تكسيرا شديدا، فيتحول الكفار من هذا التحطيم إلى فتات!

ونحن إذا وضعنا في النار أي مادة قابلة للتيبس في النار، مثل الطين فإنها من شدة الحرارة تتحجر، ومع ازدياد الحرارة فإنها لا تتوقف عند التحجر وإنما تصل إلى مرحلة التفتت والتحول إلى تراب حار مرة أخرى. وهذا ما سيحدث مع هذا الصنف من الكفار، فهؤلاء ستوقد عليهم النار في أماكن مخصوصة حتى تصل أجسادهم إلى درجة عظيمة من التيبس، ومع استمرار الإيقاد، فإن أجسادهم اليابسة لا بد أن تتفتت "تتحطم".

والقول بأن أجساد الكافرين ستتحطم قول غريب، لذا جاءت سورة الفيل التي يقول الرب فيها: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ① أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ② وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ③ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ④ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ⑤﴾ [سورة الفيل, ١-٥]

فجاءت السورة كتأكيد واقعي من القرآن للغيبيات التي ذكرها في سورة الهمزة، كما هي عادة القرآن أنه إذا ذكر غيبا أن يذكر نموذجا مبسطا مصغرا له في الدنيا، يُعرف القارئ أنه قد رأى وعرف عينة منه في الدنيا فما باله بما في الآخرة! فالله تعالى ذكر الحطم الذي سيتعرض له الهُمزة اللمزة، ولما كان حطم النار غريبا على الأذن، قال الله تعالى للرسول ولكل إنسان: ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل .. فجعلهم كعصف مأكول!

فقدم بذلك المثال من الدنيا على الحطم، فهؤلاء أرسل الله عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلتهم هذه الحجارة الملتهبة المنصبة المتتابعة كعصف مأكول، فصيرتهم فتاتاً صغيرا وهذا التصيير هو نوع من الحطم! فإذا كانت حجارة السجيل قد فعلت هذا في أصحاب الفيل، ألا تفعل النار الكبرى أشد من هذا في من فيها؟! إذا فالسورة كاملة جاءت كتصديق واقعي على أمر غيبي، ولهذا بدأت بالسؤال: "ألم تر"، فهي تأكيد لما قيل في السورة الماضية.

الفصل الخامس: منظور مختلف

بيّنا سابقا كيف أن السابقين قد أساءوا إلى قصص القرآن الأحسن بإقدامهم على تفسيره، وكيف أدى هذا إلى تراكم قدر كبير من الخرافات على القصص القرآني، حتى أنه أصبح من العسير فهمه أو تصوره بعيداً عن هذه الخرافات، مما أدى إلى إلصاقها بالنص القرآني نفسه!

إلا أن المعالجات الحديثة لقصص القرآن لم تستمر على نفس المنوال، فعلى الرغم من أن النصيب الأكبر منها سار على الدرب بتقديم النص القرآني مغلفا بالروايات الإسرائيلية التوراتية، إلا أنه ثمة توجه –آخذ في الانتشار– بدأ يظهر في السنوات الأخيرة، أصبح يتعامل مع القصص القرآني بشكل مختلف، فلم يعد يُعنى بتقديم تفسير له أو مقارنته بما جاء في التوراة وكتب الأقدمين، وإنما يتعامل معه بشكل عام، فيستخرج من القصص المُفرق في سور القرآن تصورات عامة إجمالية، –وهو ما يمكن اعتباره نوع من"التأويل الموضوعي"، يقوم على تتبع الآيات المتعلقة بمسألة ما في السور المختلفة– أو يعتمد على آيات بعينها داخل مشهد من المشاهد للتدليل على صحة نظرية أو استخراج تصور، بغض النظر عن باقي الأحداث. فيحاول بعض أرباب العلم أن يستخرجوا من القرآن ما يعتمدون عليه في أبحاثهم، لأنهم رأوا أن كلام الرب مليء بالإشارات ويمكم فهمه على مستويات عدة، بما يحقق مزيداً من الهداية لبني البشر، فنجد مثلاً من أرباب التاريخ من يحاول أن يستخرج "صورة تاريخية" لرحلة بني الإنسان على سطح الأرض، و"تطور" الرسالة الإلهية إلى البشر، من خلال النظر في قصص الأنبياء وأحوال أقوامهم، واختلاف طرق دعوتهم وترغيبهم في الإيمان، ونجد أن أرباب علم الاجتماع يحاولون دراسة سلوك المجتمعات البشرية للأمم السابقة وطرق حياتهم وتركيبة مجتمعاتهم، من خلال ما قُص عنهم، وكذلك يحاول أرباب علم النفس أن يحللوا نفسية السابقين كذلك، اعتماداً على ما قُص من أقوالهم وأفعالهم! بل ووصل الأمر إلى أن بعض الفقهاء أصبحوا يبنون أحكامهم على

ما جاء في قصص القرآن، باعتبار أن شريعة من قبلنا شريعة لنا، وأن الله لم يذكره لنا من باب العظة والاعتبار فقط، وإنما لأهداف أسمى.

وهذا توجه لا غبار عليه، فهو يعمل على إيجاد تأصيلات قرآنية للعلوم البشرية المختلفة، وهو أمر لازم لإنشاء قاعدة معرفية قرآنية في شتى نواحي الحياة، يُعتمد عليها في إقامة المجتمع المسلم، الذي يمتلك منظوره الخاص للحياة والمأخوذ من كتاب ربه، وليس منقولاً من غيره. والنقطة الفاصلة في مثل هذا التوجه أن تكون التصورات مستخرجة من النص القرآني نفسه، وليس من الروايات الملصقة به، لأنها لن تؤدي إلا إلى استخراج تصورات ما أنزل الله بها من سلطان، ومن ثم فستكون النتائج كارثية إذا ما صُبغت هذه التصورات القاصرة المحدودة "المتطرفة" بصبغة علمية وعُممت على المسلمين وعُلِّمت كحقائق علمية اجتماعية أو تاريخية أو نفسية ... الخ مستقاة من كلام الخلاق العليم!

وهذه التصورات المستخرجة المستنتجة لن يُحكم عليها بالصحة الكاملة، إلا أنها ستظل في جميع الأحوال أفضل من المذكور في الروايات الخرافية، لأنها تصورات مستخرجة من علماء أصحاب تخصص، أكثر دراية بالواقع والمجتمع وحاجات البشر في زماننا هذا وفي الأزمنة السابقة.

ونقدم للقارئ الكريم نموذجين لما استخرجناه من قصص القرآن، من خلال التناول الموضوعي، القائم على تتبع قضية بعينها في سور القرآن.

1- تطور الأمم

قلنا سابقا أن القرآن ليس كتاب تاريخ، وعلى الرغم من ذلك يمكننا استخراج الخطوط العريضة لتطور الأمم من خلال استخراج الملامح العامة لدعوة الأنبياء. الناظر في تسلسل الأنبياء الذين عرضهم القرآن، يجد أنه قد قسمهم إلى مرحلتين حاسمتين:

الأولى: النبوات الأوائل أو القرون الأولى، والذين بيّن القرآن ترتيبهم، والثانية: موسى ومن بعده، وهؤلاء لم يُعن القرآن بذكر ترتيبهم، وذُكر هذا التقسيم صراحة في قول الرب العليم: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ ... ﴿٤٣﴾﴾]سورة القصص ,٤٣[

ويمكن تقسيم مرحلة القرون الأولى إلى مرحلتين: الأنبياء القدامى، والذين جاءوا متعاقبين في فترات زمنية متقاربة، ويمكن تمثيلهم ب: نوح وهود وصالح، الذين كان النبي يذكر قومه بحال السابق لهم، ومرحلة الأنبياء المتوسطين، والذين يمكننا تمثيلهما بالخليل وأولاده وأحفاده ولوط وشعيب.

ومن ثم يمكننا القول أن القرآن اعتنى بذكر ترتيب أنبياء المرحلة الأولى لغاية أو لغايات، بينما لم تكن هذه الغاية موجودة مع الأنبياء بعد موسى، لذا لم يعرض لها! ومن ثم يمكن القول أن إحدى هذه الغايات التي من أجلها بيّن القرآن هذا الترتيب هي تقديم تصور عن تطور البشرية، وما سنقوم به هو محاولة استخراج سمات عامة لكل مرحلة، مُسمّين المرحلة باسم الرسول الذي جاء فيها.

ولن نبدأ حديثنا عن سلسلة التطور هذه بالحديث عن آدم وما قبله، فلقد عرضنا لها في كتاب سابق بتفصيل كبير، وإنما سنبدأها بمرحلة التميّز الأولى وهي حدوث الاختلاف والذي من أجله بُعث النبيون:

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ ... ﴿٢١٣﴾﴾ [سورة البقرة ,٢١٣]

مرحلة نوح

السمْت المميز الذي تفردت به هذه المرحلة هو ظهور الشرك وابتداء إرسال الرسل من البشر! والشرك وإن كان آفة عقلية، إلا أنه دليل على نضج العقل وبلوغه مرحلة يمكنه بعدها أن يصاب بهذه الآفة! وبهذا يكون البشر قد وصلوا إلى مرحلة من النضج ينبغي معها أن تختلف طريقة المعاملة، ففي مرحلة ما قبل نوح كانت الملائكة ترعى البشر وتعلمهم أمور حياتهم وتعرفهم بأوامر ربهم. ولمّا خطت البشرية خطواتها الأولى معتمدة على نفسها رُفعت هذه المساعدات وانقطع نزول الملائكة، –إلا أن هذا الأمر ظل في الذاكرة تتناقله الأجيال– فلم يعد الإنسان ساذجا عاجزاً كما كان في بداية حياته، وأصبح عليه أن يعتمد على نفسه، واستمر الحال على هذا المنوال قروناً ثم بدأ ظهور الانحرافات الإيمانية، التي أدت إلى ظهور الشرك في نهاية المطاف، ومن ثم بعث الله نوحا إلى قومه لينذرهم.

ويدلل على هذا التصور عديد آيات مثل قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة المؤمنون, ٢٤]، ومثل قوله تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ ... ﴿١٤﴾﴾ [سورة فصّلت, ١٤]، هي دليل صريح على أن الملائكة كانت تأتي البشر الأوائل، إلا أنها لم تكن تأتيهم على الهيئة الملائكية، لأن البشر لا يتحملون الصورة الملائكية الأصلية وإنما كانت تأتي في صورة بشرية أو قريبة منها[68]، ومعهم ما يدل على أنهم ملائكة، ويدلل على هذا قول سيدنا نوح لقومه: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ

---

[68] لو تفكر القارئ مرة في آية المؤمنون لعرف أن الملائكة كانت تُنزل على البشر قبل نوح لتعلمهم وتعرفهم بربهم، وتنجيهم من المهالك، وعلى الرغم من قولنا بأن الملائكة قامت بدور المربيين للبشر حتى يصلوا إلى درجة معينة من التطور يستطيعون فيها الاعتماد على أنفسهم، إلا أن هذا لا يعني أن الملائكة كانت تعيش مع البشر، وإنما كانت تُنزل في مواطن الحاجة لمساعدة البشر فيما لا يمكنهم فيه الاعتماد على أنفسهم أو عقولهم!!

عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ... ﴿٣١﴾] سورة هود, ٣١[، ففي قوله إشارة إلى أن الملائكة كانت تظهر في هيئة بشرية أو شبه بشرية، لذلك نفى أن يكون منهم، والله أعلم بالشكل الذي كانت تظهر به للبشر.[69]

ولما كان البشر قد اعتادوا أن من يكلمهم باسم الله لا يكون إلا ملَكا، فقد استنكروا كون الآتي ليس بملك، وترفّعوا أن يؤمنوا لغير ملَك، حتى لو أتى بملء الأرض أدلة وآيات! وترسخ هذا الاعتقاد حتى عند الأجيال التي لم تر الملائكة، فلقد تناقله الآباء بيقينية تامة!

وهذه الآيات دليل كذلك على تأخر حدوث الشرك وعلى كون الأجيال بين نوح وآدم أكثر من عشر أجيال، فالملاحظ أن قوم نوح يتكلمون عن "آبائهم الأولين" وهذا يعني أن آبائهم هؤلاء كانوا موغلين في القدم، لا أنهم كان بينهم وبين آدم عشر قرون —كما قالت التوراة وكما جاء في الحديث المنسوب إلى الرسول زوراً وبهتاناً—، ومن ثم فإن البشرية كانت على الإيمان بالله وحده لفترة طويلة، ثم ظهر الشرك أول ما ظهر في قوم نوح، فالأصل في البشرية كان الإيمان والتوحيد ثم ظهر الشرك والتعديد.

ولا يعني قولنا بوجود فارق زمني كبير بين آدم ونوح أن البشرية كانت قد أنجزت في هذه الفترة الطويلة "تقدما" كبيراً، فعجلة التقدم البشري كانت جد بطيئة، وكان المجتمع لا يزال بسيطاً[70]، فكونه أصبح "قوما" أو جماعة، من النقاط التي تحسب له، بينما هي من الأمور البديهية في أعرافنا! ومما يشير إلى حداثة تكون الأقوام هو عدم وجود اسم لقوم نوح! فالنظام الاجتماعي السياسي كان قد ظهر، إلا أنه لم يكن قد اكتسب الاسم المميز بعد.

[69] وهذا يفسر الكثير من الرسومات التي وجدت ورسمت على أنها للملائكة والمنتشرة في جميع أنحاء العالم، ونحن نرى أن هذه الصور رسمت من الوصف الذي كان يحكيه الآباء لأبنائهم عن الملائكة لا من المشاهدة، فهذا يبرر الاختلافات الشديدة بين الرسوم.

[70] عجلة التقدم البشري يدفعها الله دوماً إلى الأمام، ولكن سرعتها تختلف تبعاً للمرحلة التي تمر بها البشرية، ففي أول المسيرة كانت تسير بسرعة جد بطيئة، نظراً لبساطة الحياة وبدأها، ثم أخذت في الإسراع تدريجيا، إلى أن تلقت الدفعة الأكبر بالرسالة الخاتمة، والتي بفضلها تزداد كل يوم سرعة عن السابق له.

وقولنا بأن قوم نوح لم يكن لهم اسم ليس قولاً جازماً لأن القرآن لم يقل به وإنما هو استنتاج من عند أنفسنا، لأن الآيات التي تعرض لسيدنا نوح، يجدها تقول دوما: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ... ﴿٥٩﴾﴾ [سورة الأعراف, ٥٩]، ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ... ﴿١﴾﴾ [سورة نوح, ١]، وكذلك تحكي على لسان غيره –سيدنا هود–: ﴿... وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ... ﴿٦٩﴾﴾ [سورة الأعراف, ٦٩]

فنلاحظ دوما أن الله لم يذكر في أي موضع من القرآن اسم قوم نوح، بخلاف باقي الرسل، والذين ذكر أسماء أقوامهم: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ... ﴿٦٥﴾﴾ [سورة الأعراف, ٦٥]، ويقول: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ... ﴿٧٣﴾﴾ [سورة الأعراف, ٧٣]، ويقول: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ... ﴿٨٥﴾﴾ [سورة الأعراف, ٨٥]، ومن ثم فإن هذا فارق كبير بين نوح ومن بعده، ومن ثم نتساءل: لماذا لم يذكر الله اسم قوم نوح قط؟! لقد تفكرت في هذه النقطة كثيراً، ولم يظهر لي فيها وجه شاف، إلى أن اهتديت ذات مرة إلى أنه من الممكن أن لا يكون لقوم نوح اسم!

فمن المعروف أن قوم نوح هم أول قوم أرسل إليهم رسول، وهم كانوا قريبي عهد ببدء تكون الأقوام، فبعد ظهور الناس وكثرتهم حدث التفرق، فسكنت كل جماعة في مكان ما، ولما لم يكن الناس كثيرين بدرجة كبيرة ولم تظهر تعقيدات الحياة فلم يكن الأقوام في حاجة إلى تخصيص وتمييز أنفسهم عن الغير، هذا بالإضافة إلى أن اللغة لم تكن متطورة كما هي الآن أو بعد سيدنا نوح، فمن المقبول جدا أن تكون هناك حقبة تاريخية في بداية البشرية لم يظهر فيها أسماء للقبائل أو الأقوام بل كانت كل قبيلة تعيش متجمعة في مكانها فقط، ولأنهم لم يكن لهم اسم مميز نُسبوا إلى نوح عليه السلام وعُرفوا به! وهذا القول وإن كان استنتاجاً إلا أنه خاضع للقرآن لم يزد عليه، فقدّم فارقاً لما فرق بينه القرآن، ولم يفعل مثلما فعل الآخرون الذين ألغوا الفارق بين قوم نوح ومن بعدهم من الأقوام فأخبرونا باسم قبيلة نوح!!

ومن المسائل التي يمكن استنتاجها كذلك من النظر في الآيات مسألة ظهور الأموال، والتي يدلل عليها قول الرب العليم على لسان نوح: ﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ﴿١٢﴾﴾ [سورة نوح, ١٢]، كما أنها تدل على ظهور الملكية الفردية عند البشر منذ قديم الأزل، فالأموال لم تكن مشاعا، بدليل ترغيب سيدنا نوح لقومه بها، فلو كانت مشاعا كما يدعي الماركسيون، لما كان لهذه الآية معنى، فيُرد قولهم بشيوعية المال عند الإنسان الأول. ولكن لا يُتصور أن الآية دليل على وجود المال بصيغته النقدية، لا فالمال يطلق على كل ما يتمول به من غير العقارات، فالبقر مال والحلي مال، أما الشجر والبيوت فعقارات.

وعلى الرغم من بساطة المجتمع إلا أن الملاحظ أنه كان قد انقسم منذ تلك العهود إلى طبقات: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ ... ﴿٢٧﴾﴾ [سورة هود, ٢٧]، وهذه النقطة أيضا في الرد على الماركسية، فها هو المجتمع ينقسم منذ بداياته الأولى إلى ملأ وأراذل، وهذا ما كان وسيظل دوما طبع البشر، أن يرضى أكثرهم بالتبعية ويقوى قلة منهم على القيادة!

وعلى الرغم من أن عاداً هم الذين اشتهروا بالبطش والتجبر والقوة، وهم فقط الذين قال الله في حقهم "كفروا ربهم" وليس "كفروا بربهم": ﴿... أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ﴿٦٠﴾﴾ [سورة هود, ٦٠]، إلا أن قوم نوح كانوا أشد ظلما وطغيانا: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ [سورة النجم, ٥٠-٥٢]، وعلى الرغم من ذلك لا نجد إشارة من الله إلى قوتهم أو إلى تقدمهم أو ما شابه! والله أعلم لماذا، ويمكننا إرجاع الأمر إلى أن قوم نوح كانوا في مبتدأ الحياة البشرية وكانوا لا يزالون حديثي عهد بهمجية، ومن ثم فما كانوا قد تخلوا عن تلك الطباع في التعامل، لذلك كان تعاملهم مميز

بالقسوة والطغيان بشكل عام، بخلاف الأمم التي أتت من بعدهم، فهم وإن ازدادوا قوة وتقدما، إلا أنهم ازدادوا في عين الوقت مدنية وإنسانية!

مرحلة هود

قبل أن نبدأ حديثنا عن قوم هود ننبه إلى نقطة يغفل عنها كثيرٌ من قارئي القرآن، وهي مسألة وجود فترة زمنية طويلة بين نوح وهود، حيث ثمة انطباع عند بعض القارئين – كنت أنا أحدهم– أنه لم يكن ثمة فارق كبير بين نوح وهود! وتكوّن هذا الانطباع بسبب الحديث عن استخلافهم بعد قوم نوح، إلا أن كونهم خلفاء من بعد قوم نوح لا يعني أن الشرك قد ظهر فيهم سريعاً! نعم، هم استُخلفوا من بعدهم مباشرة، إلا إن هذا الأمر احتاج أعواماً مديدة، بل مئات الأعوام حتى يصلوا إلى تلك الدرجة من التطور التي ترقى كثيراً عن حال قوم نوح، وحتى يتلاشى أثر حادثة الطوفان من ذهن هؤلاء الأقوام، ومن ثم يسقطون في الشرك كسابقيهم.

أول ما يلحظه الناظر في حال قوم هود هو أن القرآن يركز على حدوث طفرة في خلقة هؤلاء القوم، فالله الخلاق العليم يقول: ﴿... وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ... ﴿٦٩﴾﴾ [سورة الأعراف, ٦٩]، ويقول: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ... ﴿١٥﴾﴾ [سورة فصّلت, ١٥]
ومن ثم نتساءل: كيف زاد الله هؤلاء القوم بسطة في الخلق؟ هل جعلهم أقوى من غيرهم أم أطول، وما هو سبب هذه البسطة؟ هل أتى هؤلاء القوم من سلالة معينة من البشر كانت تمتاز بخصائص وراثية عالية الجودة؟ أم أنه بسبب حدوث هذه الطفرة في خلقة هؤلاء القوم اكتسبوا هذه القوة؟! أم أن ظهورهم ازدادت اعتدالا، بخلاف الأقوام السابقة والتي كان فيها نسبة طفيفة من اعوجاج الظهر؟! لا نستطيع التحديد أو الجزم،

إلا أننا ندعو علمائنا الأفاضل أن يبحثوا في جنوب الجزيرة العربية وينظروا في آثار اليمن القديمة وتاريخها، ليروا متى وكيف ولم كانت هذه الطفرة في البشر!

ولا يتوقف الاختلاف عند الخلقة وإنما يتعداه إلى الصنعة، فنجد أن نبي الله هود يذكرهم بنعم الله عليهم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩﴾ [سورة الشعراء, ١٢٨-١٢٩][71]، كما يذكرهم بأن الله أنعم عليهم بما وعد به من يؤمن على لسان نوح: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢﴾ [سورة نوح ,١٢]، فزودهم الأنعام والتي لم تُذكر مع نوح فقال: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٣٤﴾ [سورة الشعراء, ١٣٣-١٣٤]، ومن ثم فمن غير المقبول أن يُقابل هذا بالكفر! وامتدت جوانب وآثار الرقي إلى جميع الجوانب الحياتية الاجتماعية، فلقد تشعبت الشعوب وتمايزت، ومن ثم أصبح اتخاذ كل قوم اسما مُميِّزاً أمرا ضروريا، بل ووصل الأمر إلى أن قوم عاد –لاغترارهم بقوتهم وبسطتهم– بدءوا يبطشون بغيرهم: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ[72] ۝١٣٠﴾ [سورة الشعراء, ١٣٠].

ويمكننا القول أن قوم عاد هم أول من سنّوا الاعتداءات على الغير للسلب والنهب وبسط النفوذ والسلطان، وبئس ما سنّوا لمن جاء بعدهم. وعلى الرغم من أن قوم نوح كانوا قبلهم، إلا أن الحضارة العربية الأولى كانت حضارة قوم عاد[73]، لأن قوم نوح لم يكونوا على مستوى من التقدم، يمكن أن يُسمى "حضارة"! وعن عاد أخذ كل من جاء بعدهم وقلّدوهم! حتى في *شركياتهم*!!

[71] ولا يعني هذا أننا نقول أن "مصانع" لها دلالة كلمة مصنع في حياتنا المعاصرة، ولكن تبعا لأي دلالة من دلالتها سواء كانت مآخذ المياه أو الحصون، فهي تشير إلى ظهور الصناعة كعلامة مميزة وظاهرة في قوم هود، وهذا ما لم نجده في قوم نوح.

[72] نلاحظ أن القرآن لم يتحدث عن قتال أو لقاء أو حرب، وذلك لأنه لم يكن ثمة طرف مقابل يقف لهم، وإنما كان الأمر بطشاً واعتداء! لذلك قال هؤلاء: ﴿... مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ...﴾.

[73] وهي الحضارة الأولى في العالم أيضا، والتي يحاول الغربيون التمويه عليها بحديثهم عن حضارة "أتلانتس" المفقودة، والتي ليس هناك أي دلائل على وجودها، ناهيك عن كونها بالشكل الذي ورد في محاورات أفلاطون.

مرحلة صالح

كما استخلف قوم عاد من بعد قوم نوح، استُخلف كذلك ثمود من بعد عاد، إلا أنه لا يوجد في النص ما يشير إلى كبر المسافة الزمنية الفاصلة بين عاد وثمود، إلا أنه يقول أن هؤلاء كانوا خلفا لأولئك، وثمود من القبائل العربية، ولقد أرسل الله إليهم صالحاً مدعوماً بالناقة: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [سورة الأعراف, ٧٣] والناقة من الأنعام المرتبطة بالعرب، ولقد ذكّر صالحاً قومه بعاقبة عاد، وهود ذكر قومه بقوم نوح، ومن ثم فإن نوحاً وهودا وصالحاً وأقوامهم عرب خُلص، وهذا دليل تأكيدي إضافي لأن بداية الحضارة البشرية ظهرت في الجزيرة العربية[74].

فإذا نظرنا في الآيات وجدناها تقول أن قوم صالح اتخذوا خطوة جديدة للأمان وهي اتخاذ القصور ونحت الجبال بيوتا: ﴿... تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ... ﴿٧٤﴾﴾ [سورة الأعراف, ٧٤]، فهل يمكننا القول أن هذه إشارة إلى بداية العصر الحجري، حيث بدأ استخدام الأحجار كمواد ومكان للبناء؟!

والسمة المميزِة لعهد صالح هو أنه بداية مرحلة الإرسال ب "الآيات الحسية"، فالقرآن لم يذكر آية لنوح، ونفى أن يكون هوداً أتى بواحدة: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ ... ﴿٥٣﴾﴾ [سورة هود, ٥٣] ومن ثم يظهر تساؤل في محله: لماذا لم يرسل الله بالآيات مع نوح وعاد بينما أرسل بها مع صالح؟! وكنت لم أجد إجابة لهذا السؤال فيما مضى، فقلت: "نجد أن هذا شيء محيرٌ، فمن المفترض

(74) ندعو علماء التاريخ والآثار أن يحفروا وينقبوا حتى يستخرجوا ما يثبت القدم الموغل للحضارة العربية وكونها أصل الحضارات، وأنها هي التي أخذ عنها الأبناء من الفينيقيين والسومريين حضارتهم، والتي نقل عنها اليونان حضارتهم، ومنها نشأت *الحضارة* في أوروبا كاملة.

أنه كلما تقدمت البشرية زاد اعتمادها على العقل، فيفترض أن يُلغى الإيمان *بالحسي* ويطالب بالإيمان العقلي، ولكن يبدو والله أعلم أن البشرية لما بعد عهدها بتعليم الملائكة حدثت انتكاسة ما للبشرية فأدى ذلك إلى ضرورة أن يعطوا آية حسية مثل أن تخرج الناقة كآية حتى يؤمن القوم.[75]" اهـ

ثم ظهر لي أنه ليس للأمر علاقة بالبعد عن عهد الملائكة أو بانتكاسة مفترضة، فلم يحدث أصلا قبلها أن طولب الناس بالإيمان بالحسي حتى يطالبوا بعدها بالإيمان عقلاً، فلم يكن هناك أي آيات حسية مع نوح أو هود! وإنما الإرسال بالآيات مرتبط بالرسالة وبفعل المخاطبين، الذين أُرسل إليهم الرسول ليرتدعوا عنه، ومن ثم كانت الناقة. (وسنفصل في هذه المسألة عند حديثنا عن قوم صالح).

فإذا نظرنا في ملمح آخر من ملامح الرسالة نجد أن الله لم يذكر أنه أنزل لصالح –ولا لنوح ولا لهود– كتاب، وكانت الرسالة تدور حول بعض التعاليم البسيطة المحدودة الرئيسة، التي كان يدعو قومه إليها، فكان النبي يكتفي بالدعوة إلى عبادة الله وترك ما يُعبد من دون الله، بالإضافة إلى ترك الخصال السيئة، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿... فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٧٤﴾ [سورة الأعراف, ٧٤]، وذلك لبدائية الحياة والمجتمع، ومن ثم ما كانوا في حاجة إلى كتاب كبير، وإنما كان يكفيهم وحي بسيط يذكرهم بالله وينبههم إلى أخطائهم، وحي يُصوِّب مسير المجتمع، ويدفعه إلى الأمام ويدفع عنه الهلاك!

[75] عمرو الشاعر، لماذا فسروا القرآن. –غير مطبوع–، وموجود على موقعنا الشخصي: www.amrallah.com/ar

خطوط عامة

بعد أن قدمنا ملامح عامة لتطور الأجيال الأولى للبشرية، نعطي القارئ الخطوط العامة للمرحلتين المتوسطة والمتأخرة، ونترك له إكمال التصور عن ملامح التطور الذي وصلت إليه الأمم في الأجيال التالية.

بعد قوم ثمود بفاصل زمني كبير أرسل الله الخبيرُ الخليلَ إبراهيم عليه السلام، والذي بدأت به المرحلة المتوسطة للأنبياء، وكذلك مرحلة الصحف والكتب: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾ [سورة الأعلى, ١٩]، ومن ثم يمكن القول أن بداية إنزال الكتب التشريعية كانت مع سيدنا إبراهيم عليه السلام.

وفي هذه الفترة الزمنية الطويلة تأسست الدول بالمعنى المتطور، فظهر الحديث عن "المُلك"، بينما كانت الأمم قبل الخليل أقرب إلى نظام القبائل والعشائر، والتي انقسمت إلى ملأ –عالة القوم– وأراذل وعامة، وكانت المعارضة للنبي دوما من الملأ، بدون ذكرا للملك أو للكبير، وفي هذا احتمال كبيرٌ أن السلطة لم يكن قد تم "مركزتها" بعد، بل كانت في أيد جماعات لهم أتباع، ومع مرور الزمان تطورت الأمم ومُركزت السلطة، وظهر النظام الملكي.

وليس ثمة اختلاف كبير بين حال الخليل وبين باقي أنبياء المرحلة المتوسطة، فهم أبناءه وأحفاده وأقاربه، وإن كانت السمة المميِّزة لتلك الفترة هي تلك الانتكاسة الكبرى التي وقع فيهم قوم لوط بفعلهم اللواط.

ومع سيدنا شعيب ظهر الحديث عن الكيل والميزان والتجارة وطرقها: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٨٥ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ

وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ... ﴿٨٦﴾] سورة الأعراف , ٨٥-٨٦]، فقد يكون في هذا إشارة إلى بدء حركة التجارة بين المجتمعات!

وبعد سيدنا شعيب، الذي انتهت به المرحلة المتوسطة للأنبياء، بفترة طويلة، جاء رأس أنبياء المرحلة المتأخرة، سيدنا موسى، بعد أن أهلكت القرون الأولى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ ... ﴿٤٣﴾] سورة القصص , ٤٣]،

جاء ليحرر أمة يُفترض فيها أن تحمل رسالة، فأتى بالآيات ليخرجهم لا ليؤمنوا بها! كما اختلف الدور الذي يأتي به الرسول، فلم يعد دوره الأول تحذير قومه الهلاك الطبيعي، وإنما تحذيرهم الهلاك الذي سيوقعون فيه أنفسهم بأيديهم. ولأول مرة ينزل الله تعالى على خلقه كتاباً تشريعيا متكاملاً، فيه موعظة وتفصيل لكل شيء.

واستمرت هذه المرحلة حتى بُعث النبي الخاتم محمد عليه السلام، وبه تمت الرسالات وخُتم النبيين. وانتقلت البشرية النقلة الكبرى مع مجيء النبي الخاتم، ووصلت مرحلة النضج، ولم تعد بحاجة إلى رسالات مؤقتة أو مرتبطة بمكانها.

2- السنن الكونية

بعد أن قدمنا نموذجا صغيراً لاستخراج صورة عامة للتطور التاريخي للأمم، نقدم للقارئ نموذجا آخر للتأويل الموضوعي العام، وهو استخراج سنن الله الكونية من خلال استقراء الأحداث المقصوصة، ويعتبر هذا التوجه من التوجهات الحديثة في تناول قصص القرآن، وبدأت تظهر فيه كتابات تبين سنن الله في كونه، وكيف ترقى الأمم وكيف تنحدر وكيف تنهار. ومن أبرز سنن الله المبثوثة في القصص:

السُّنة الأولى: تُهلك الأمم بذهاب الأخلاق.

وهذه السنة من السنن العامة الرئيسة، التي تندرج تحتها سننٌ أخرى. وقد يرى كثيرون أن الأخلاق وإن كانت هامة إلا أنها ليست العامل الأول لهلاك الأمم، فهناك عوامل أخرى اقتصادية وسياسية أهم. وكان لدي نفس الظن، إلى أن نظرت في هلاك الأمم في التاريخ الإنساني فوجدتها كلها قد هلكت بذهاب الأخلاق، ووجدت أن بيت الشعر القائل:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا.

وجدته صادقا تماما بدرجة مائة بالمائة، وتصور أخي كيف يكن حال أمة متقدمة اندثر فيها العفو أو الإيثار أو الشجاعة أو الاقتصاد أو العفاف والطهارة أو الصبر والثبات أو الصدق أو مُحقت فيها الشورى، كيف تظل متقدمة؟! حتما ستنهار، وتتبع عزيزي القارئ الممالك الكبرى التي اندثرت في أي مكان في العالم، وفي أي زمان، تابعة لأي دين كانت، تجد أن عوامل الهلاك واحدة، ويبدأ الهلاك بفساد المترفين، كما قال الرب العليم: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾ [سورة الإسراء, ١٦]. فالفساد يبدأ من المترفين، وإذا تبعهم العامة أو سكتوا عنهم فسيحيق العذاب بهم جميعا، والله تعالى يقول: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥﴾ [سورة الأنفال, ٢٥]، فالعذاب ينزل بفساد المترفين وسكوت العامة، فالأمة لن ينفعها أنها ذات تقدم علمي أو خلافه، فستنهار على يد حضارة ذات أخلاق.

وتتبع عزيزي القارئ الأمم التي انهارت، فكلها كانت أمم ذات تقدم وحضارة كبيرة ولكنها لفساد أخلاقها دب التحلل في أركانها، فاجتيحت على يد أمة ذات أخلاق وبداوة –خشونة–، فالإمبراطورية الرومانية مثلاً اجتيحت من قبائل الجرمان البربرية،

والفرس والروم تم اجتياحهم بواسطة المسلمين العرب، والدولة الإسلامية في الأندلس اجتاحها القشتاليون، وأي دولة ينخر فيها *دود الفساد* ستنهار لا محالة.

فها هي الدول العظمى تنهار بسبب الاستبداد وانتشار الفساد الناتج عن الرخاء المادي، بينما تظل الأمم البدوية لردح من الزمان بعيدة عن هذا الداء، حيث تعيش بأخلاقها الطبيعية في مرحلة يمكن تسميتها بمرحلة الطفولة إلى أن تعتنق مبدأ، وهنا تنتقل هذه الأمة إلى مرحلة جديدة وهي مرحلة الفتوة والشباب، وهنا تفرض هذه الأمة نفسها على الساحة المحيطة فتأخذ دورها في القيادة، فتنهض الأمم ذات الأخلاق التي تعيش على فطرتها.

وهذه هي دورة الحياة فالأمم التي تعيش من أجل مبدأ معين تظهر وبقدر تمسكها واجتماعها على هذا المبدأ تستمر حتى تصل إلى الهدف وإلى الغاية، وعندما تنسى هذا المبدأ والغاية التي تحي من أجله يبدأ دبيب الانهيار، وبقدر ما كانت الأمة قوية البنيان تستمر، ولكنها لن تستمر إلى الأبد فلا بد من ظهور حضارة أخرى بدوية على فطرتها لم يظهر فيها الشذوذ أو الفساد الأخلاقي[76] فتطيح بها عن الساحة وتأخذ مكانتها مهما كان دينها.

والأمم هي التي تنزل الهلاك والدمار بنفسها بأفعالها، فلم يفعل الله بهم هذا عبثا أو اعتباطاً – حاشا العليم الخبير-: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة الشورى, ٣٠]، ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الروم, ٤١]، ﴿... فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١١﴾﴾ [سورة آل عمران, ١١]، ﴿... فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ ... ﴿٥٤﴾﴾ [سورة الأنفال, ٥٤]، ﴿وَلَقَدۡ

---

[76] عندما يظهر الشذوذ الجنسي –وليس الزنا– في الأمم، فإن هذا يعد مؤشرا قويا على قرب انهيارها، ووُجد ذلك في المجتمع الأندلسي قبيل انهياره، وبدء ظهوره وانتشاره في المجتمعات الغربية حديثا، وللأسف تعاني أمتنا العربية من هذا الداء، لذا أرى أن سبب تأخر انهيار الحضارات الغربية هو عدم وجود البديل الذي يخلفها، فنحن في عدد من النقاط مثلهم أو أسوء.

أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ ... ﴿١٣﴾] سورة يونس ,١٣[، فبسبب أعمال الناس ينزل بهم الهلاك، ولو أحسنوا –بغض النظر عن دينهم– لما هلكوا، كما قال الإمام ابن تيمية "إن الله يقيم الدولة العادلة ولو كانت كافرة"، فالقيادة الحكيمة تقود الأمم إلى الفلاح والقيادة الفاسدة تقود قومها إلى الهلاك: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾] سورة الزخرف ,٥٤-٥٥[، ثم كان عاقبتهم جميعا رئيسا ومرؤوسا الخسران المبين: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ﴿٩٨﴾﴾] سورة هود ,٩٨[.

السنة الكونية الثانية: سنة التدافع.

وهذه السنة من السنن التابعة للسنة الأولى، فهي تتحرك محققة لها، فإذا نظرنا في كتاب الرب العليم وجدنا أن الله تعالى قد نسبها صراحة إلى نفسه، فيقول: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ ... ﴿٢٥١﴾﴾] سورة البقرة ,٢٥١[، ويقول أيضا: ﴿... وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾]سورة الحج ,٤٠[، فالله تعالى يوضح أن الناس لا يمكن أن يستمروا على حال واحد، بل لا بد من وجود ما يدفع الأمة إلى العمل وإلى الحركة، ولولا وجود الخصم لركن الناس إلى النوم، والأمة التي تتكبر وتفسد في الأرض تفسد هي نفسها، لذا يرسل الله عليها من يهلكها، ولو لم يهيئ الله من البشر من يتصدى لطغيان هؤلاء الظالمين لفسدت الأرض، ويضرب لنا نموذجا على ذلك بسيدنا داود وحربه ضد جالوت، فقوم جالوت كانوا يفسدون في الأرض، فأرسل الله عليهم من يردهم عن إفسادهم وهم طالوت وجنوده، ويحل الأخيار مكان الأشرار فيصلُح حال الناس.

السنة الثالثة: الإيمان والعمل الصالح ضمانة الاستخلاف في الأرض.

فإذا آمن الناس وعملوا صالحاً فهناك ضمانة من الله أن يُستخلفوا في الأرض ويصيروا الأعلين: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ ... ۝] سورة النّور, ٥٥]

وبسبب الفهم الخاطئ للاستخلاف وظني أن الإنسان خليفة الله في الأرض قلتُ سابقا: "قد يقول قائل: ولكن الدول الكافرة تستخلف في الأرض أيضا، ألم تصبح أمريكا هي سيدة العالم الآن؟ نقول: الذي فيه أمريكا الآن ليس استخلافا بل هو استدراج، فالدولة التي تستخلف هي التي تعمل بمنهج الله في الحياة فتصلح في الأرض، فتنشر العلم والخير والرخاء في الدنيا بدون انتظار أي مقابل من الناس، لذا نجد أن الدول الاستعمارية الوحيدة على مر تاريخ البشرية كانت الدول الإسلامية، أما باقي الدول فهو دول تخريبية محتلة، ونحن نقصد بالدول الاستعمارية التي تعمر الأرض لأهلها، وهذا ما فعله المسلمون في كل بلد فتحوه وانظر ذلك في كل الدول الإسلامية، أما الدول الغربية الهمجية فهي تخرب ولا تستعمر وتمتص الخيرات إلى بلادها، وأما أمريكا فهي تستعبد الناس ولا تعمل بمنهج الله، فهي تفسد ولا تصلح، فهذا ليس استخلافا بل استدراج سيؤدي بها في نهاية المطاف إلى هلاكها، والله أعلم.[77]" اهـ

أما الآن فأقول: نعم، الدول المؤمنة وغير المؤمنة تُستخلف، ولكن الفارق في طول الفترة الزمنية التي تظلها وفي الدور الذي تؤديه، وفي ضمانة الاستخلاف، فقد يتوفر لدى بعض الأمم عناصر التمكين إلا أنه لا يتهيأ لها عنصر التوفيق والتيسير الإلهي، فيظل غيرها مستخلفاً أو يستحوذ غيرها على المكانة، أما مع الإيمان والعمل الصالح فالاستخلاف والتمكين مضمونان بأمر الله.

---

[77] عمرو الشاعر، لماذا فسروا القرآن، غير مطبوع، موجود على موقعي الشخصي: www.amrallah.com

الباب الثاني

القصص

الفصل الأول: الأنبياء القدامى

تمهيد

بعد أن قدّمنا تأصيلنا في تناول قصص القرآن، والقائم على الاكتفاء بالقرآن وبما قال، والجزم بأن ما زاد عليه إما لا نفع فيه للقراءة الأساسية للنص لأنه لا يزيده وضوحا أو يبين مبهما، وإما ضار لأنه يجعل القارئ يفهم القصص بخلاف ما قال الله، ومن ثم يستنتج استنتاجات ويتصور تصورات عن الرب والإنسان والدين ما أنزل الله بها من سلطان، وإنما يمكن استخدامه في معالجات خاصة للقصص، تعتمد على المقارنة بين ما جاء في القصص والواقع أو الكتب المقدسة الأخرى ... الخ المعالجات المختلفة، ولكن ليس في القراءة المبدئية.

وقد يرى القارئ أن هذا توجه متطرف مبالغ فيه، لأن الروايات المصاحبة للقصص وإن كان فيها بعض الخرافات والإسرائيليات، إلا أنها نُقيت وتُنقى. فنقول: هذا المسلك هو الآخر مسلك غير قويم، لأنه لا يخضع للنص القرآني نفسه، وإنما لعقول المتعاملين ولتصحيح علماء الحديث، فهناك من سيرفض بعض الروايات لأنها لا تتفق مع عقله، وهناك من سيقبل أخرى –على الرغم من مخالفتها للقرآن قبل العقل– لأنها صحيحة سنداً، وكلا الطرفين همّش القرآن، وأخذ يتكلم "عنه" وليس "منه".

لذا سنقدم للقارئ الكريم ولأول مرة في التاريخ الإسلامي منذ بدْأ الكتابة عن قصص القرآن تناولاً له يخضع للنص خضوعاً تاماً، فيبين للقارئ كثيراً من مواطن الانحراف التي وقع فيها عامة المفسرين، وكثيراً من النقاط التي غفلوا عنها في تناولهم للقصص، ومن ثم قدّموا للمسلمين قصصاً غير الذي ذكره القرآن!

ولأن القصص المذكور في القرآن كبير الحجم عظيم المحتوى هائله، ولا يمكن احتواء كل ما قاله وتصحيح كل انحرافات المفسرين في كتاب واحد، مهما كبر حجمه، لذا

فإننا سنكتفي بعرض الخطوط العريضة لكل نبي أو لكل حدث، ليكتشف القارئ ويتأكد أن القصص لا يحتاج في فهمه إلى أي زيادة، وكيف أن الزيادات كان ضرها أعظم بكثير من نفعها!

وكان من المفترض أن نبدأ حديثنا بعرض ما قصّه القرآن عن آدم، إلا أننا قد عرضنا له بالتفصيل في كتاب سابق، ومن ثم فإننا سنبدأ حديثنا بأول الأنبياء نوح عليه السلام، ثم باقي الأنبياء تبعاً للترتيب الذي ذكره القرآن، وبعد أن ننتهي من عرض قصص الرسل، نبدأ بعرض قصص غير الرسل، الذين ذكرهم القرآن.

نوح عليه السلام

سيدنا نوح شيخ الأنبياء المرسلين، ذلك النبي الذي عمّر في قومه مئات الأعوام، نموذج الصبر العظيم، والذي يستحق أن يُضرب به المثل في الصبر قبل أيوب!

إذا تساءلنا: لماذا أرسله الله الحكيم؟! ستأتي الإجابة بأنه أُرسل ليدعو قومه إلى عبادة الله وترك الآلهة الأخرى. ولا خلاف حول هذه النقطة، ولكن هل كانت لرسالة نوح غاية أخرى غير دعوة قومه لعبادة الله وحده وترك ما هم عليه من الضلال؟! فستأتي الإجابة الحاسمة: ليس لنبي غاية في دعوته إلا هذه.

إلا أن الناظر في القرآن يجد أن هذه الإجابة غير صحيحة، فلقد كان لإرسال نوح غاية رئيسة ذكرها الرب في بداية سورة نوح: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤﴾ [سورة نوح ,١-٤]

فالله قال أن نوحاً أُرسل لينذر قومه من قبل أن يأتيهم عذاب أليم، إلا أن المفسرين فهموا الآية –وأنا كنت أفهمها كذلك أيضا–: "أن أنذر قومك لكي لا يأتيهم عذاب أليم"، ومن ثم قالوا أن نوحاً دعاهم للإيمان حتى لا ينزل بهم العذاب، ومن ثم فلو آمنوا لما نزل بهم العذاب، أما القرآن فقال أنه أُرسل لينذرهم من قبل أن يأتيهم العذاب، وليس لكي لا يأتيهم، أي أن العذاب كان قادماً قادما، وكان دوره هو إنذارهم قدوم هذا العذاب ليفروا منه! ومن ثم فلو آمنوا وأطاعوا لتركوا تلك المنطقة، وذهبوا إلى منطقة أخرى ليستقروا فيها.

وبهذا نفهم لماذا كان سيدنا نوح يقول لقومه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ⑩ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ⑪ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ⑫ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ⑬ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ⑭ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ⑮ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ⑯ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ⑰ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ⑱ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ⑲ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ⑳﴾ [سورة نوح, ١٠-٢٠]

فقومه يرفضون تصديق كونه مرسلٌ من الله، ومن ثم يرفضون الخروج من المكان، لأن المعلوم أفضل من المجهول، وبلد في اليد خير من أخرى لم تُنشأ! فكان يقول لهم أن الله سيرسل السماء عليهم مدرارا فلا يخشوا فقدان الماء، وسيجعل لهم جنات وأنهارا، ويدعوهم إلى النظر في السماء التي تحيط بكل الأرض، فالمكان الذي سينتقلون إليه ستظلهم نفس السماء والشمس والقمر، وكما أن الإنسان يُنبت من الأرض ويعود إليها، فكذلك سيُنشأ الموطن الجديد، والله لم يجعل للناس موطناً واحدا حتماً، وإنما جعلها بساطا، ليسلكوا فيها سبلاً، فامشوا وتحركوا ولا تثبتوا على مكانكم الذي سيأتيه الطوفان.

إذا فأول اختلاف هو أن نوح أُرسل لينذر قبل وقوع العذاب وليس ليمنع وقوع العذاب! ونلاحظ أن الله بعث نوحاً قبل الطوفان بفترة زمنية هائلة، بلغت قرابة الألف سنة، وهي التي حدثت فيها تلك التغيرات المناخية، إلا أن قومه لم يستجيبوا. لذا يمكننا القول أن نبوة نوح عليهم السلام كان فيها جانبٌ علميٌ، فلقد أراه الله الدلائل على قرب وقوع الطوفان وأمره أن ينذر قومه، ولذا أخذ نوح ينبه قومه إليها: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ... ﴿٧١﴾﴾ [سورة يونس, ٧١]، ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [سورة الأعراف, ٦٢] فهو كان يريهم الآيات الطبيعية حولهم، والمصدِّقة له، ويقول لهم أن هذا العلم ليس من عنده وإنما الله هو من يعلمه ما لا يعلمون.

إلا أنهم كبر عليهم أن يصدقوا نبوءاته، فلم يستجيبوا له فاستحقوا أن يغرقوا: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [سورة الأعراف, ٦٤]. وبهذا نفهم لماذا كان نوح هو الوحيدَ الذي نُعت في القرآن –بالإضافة إلى الرسول محمد– ب "نذير مبين"، ولماذا هم فقط من سماهم الله "قوما عمين".

والعجيب أنهم جعلوا دعاء سيدنا نوح على قومه هو السبب الذي من أجله نزل العذاب بهم، على الرغم من أنه ما دعاه إلا بعد نزول العذاب: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾ [سورة نوح, ٢٥-٢٨]، فسيدنا نوح دعا هذا الدعاء مع أو بعد الطوفان كما هو واضح من الآيات، ولست أدري كيف قلبوه وجعلوه قبل الطوفان، وكيف يوفقون بينه وبين قول الرب الحكيم: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى

ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٣٧﴾ [سورة هود ,٣٧]، فكيف يكون سيدنا نوح هو من دعا عليهم ثم ينهاه الله عن مخاطبته بشأنهم، لكي لا يتشفع لهم؟! هل أتشفع فيمن أردت إهلاككم؟! أمّا على قولنا فهو دعا الله بعد أن رأى هلاك الظالمين ألا يبقي الله منهم أحداً حتى لا يُضلوا المؤمنين.

إذا فقد أُرسل سيدنا نوح لينذر قومه واستمر في دعوته هذه صابراً مئات السنين، إلى أن شعر أنه مغلوب: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ١٠﴾ [سورة القمر ,١٠]، فلقد طلب النصر من الله، لا أنه طلب إهلاك القوم، وبعد فترة قصيرة أوحي إليه أنه لم تعد هناك فائدة من دعوته: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٣٧﴾ [سورة هود ,٣٦-٣٧]، ومن ثم أمر سيدنا نوح بصناعة الفلك، الذي سينجو به هو والذين معه، ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ٣٩ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠﴾ [سورة هود ,٣٨-٤٠]

ولأن التنور في عرف المفسرين وكثير من اللغويين هو "الفرن" الذي يخبز فيه، احتاروا كيف يفور، ومن ثم قالوا أن فوران التنور كان آية إضافية! على الرغم من أن الله لم يقل أن الفوران كان *آية*، وإنما علامة على وقوع الطوفان، ولقد خالف المفسرون قول الله فقالوا بخروج ماء من التنور، وليس بفورانه، فنجد الإمام الفخر الرازي يقول في تفسيره: "المسألة الثالثة: في التنور قولان: أحدهما: أنه التنور الذي يخبز فيه. والثاني: أنه غيره، (...)، وقيل: إن امرأته كانت تخبز في ذلك التنور فأخبرته *بخروج الماء* من ذلك التنور فاشتغل في الحال بوضع تلك الأشياء في السفينة. القول الثاني: ليس المراد من التنور تنور الخبز، وعلى هذا التقدير ففيه أقوال: الأول: أنه انفجر الماء من

وجه الأرض كما قال: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ۝١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ۝١٢﴾] سورة القمر ,١١-١٢[والعرب تسمي *وجه الأرض تنوراً*. الثاني: أن التنور أشرف موضع في الأرض وأعلى مكان فيها وقد أخرج إليه الماء من ذلك الموضع ليكون ذلك معجزة له، وأيضاً المعنى أنه لما نبع الماء من أعالي الأرض، ومن الأمكنة المرتفعة فشبهت لارتفاعها بالتنانير. الثالث: "فَارَ التنور" أي طلع الصبح وهو منقول عن علي رضي الله عنه. الرابع: "فَارَ التنور" يحتمل أن يكون معناه أشد الأمر كما يقال: حمي الوطيس ومعنى الآية إذا رأيت الأمر يشتد والماء يكثر فانج بنفسك ومن معك إلى السفينة. فإن قيل: فما الأصح من هذه الأقوال؟ قلنا: الأصل حمل الكلام على حقيقته ولفظ التنور حقيقة في الموضع الذي يخبز فيه فوجب حمل اللفظ عليه[78]" اهـ

وكما رأينا فلقد قال الإمام الرازي وغيره بخروج الماء من التنور، والله قال بفوران التنور، والتنور كما رأينا من أقوال السابقين هو وجه الأرض والمرتفع منها، وله علاقة بالصباح، لاحظ الاسم "تنور" "نور" "نار"! والرباط الوحيد الجامع لهذه الأشياء هو "البركان"، والذي فيه نار وأرض مرتفعة ... ويفور! وعلى شكله سميت "التنورة" التي ترتديها النساء بهذا الاسم، وكذلك سمي التنور الذي يخبز فيه! والتنور فرن فتحته إلى أعلى –وليس مثل المألوف عندنا في الريف المصري– ونقدم للقارئ صورة للتنور، يرى فيها التشابه الكبير، ويقارن في ذهنه بينهما:



[78] الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، الجزء السابع عشر، ص**180–181**. .

إذا فالله تعالى أعلمه أن علامة مجيء الأمر هي فوران التنور، فإذا جاء فعليه أن يسلك فيها من كلٍ زوجين اثنين: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ ... ﴿٢٧﴾﴾ [سورة المؤمنون ,٢٧]

ومسألة حمل أزواج الحيوانات من المسائل التي يسخر بها غير المؤمنين من المؤمنين ويتساءلون: كم حجم السفينة التي تحمل زوجين من كل الأصناف وكيف جمعها نوح من مختلف أنحاء العالم؟! فنقول: لن نقول كما قال البعض: إن حفص هو الوحيد الذي قرأ "من كلٍ" بتنوين اللام، أما باقي القراءات فقالت "من كلِ زوجين" بدون تنوين، ومن ثم نأخذ في هذه المسألة بالقراءات وليس بقراءة حفص، فهي أكثر وتتفق مع العقل. وإنما نقول: لا يكلف الله نفسا إلا وسعها والأمر على قدر الاستطاعة، فإذا أمره أن يأخذ من كل زوجين اثنين فهو يأمره أن يأخذ من كل ما يجده ومن كل ما هو حوله زوجين اثنين، فالمراد من ال "كل" هنا الكل الموجود والمتوفر وليس الكل المطلق لأن هذا مما لا يطيقه ولا يقدر عليه أحد، سواء سيدنا نوح أو غيره. يضاف إلى هذا أن سيدنا نوح بدء حمل وسلك الحيوانات بعد الفوران، و"بتمعن قليل في آيتي "حمل الزوجين" وهما: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾]سورة هود ,٤٠[، و﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة المؤمنون ,٢٧[، يتضح ببداهة لا غبار عليها، أن حمل (سلك) الحيوانات في الفلك جاء بتوصية تباشر توقيتا بعد فوران التنور لا قبله، ما يعني أن عليه أن يتخلى عن كل ما يملك من مواشي وأنعام وطيور ويحمل فقط "زوجين اثنين"، وبهذا يُفهم سر التأكيد على "اثنين"، فلا يحتمل الوقت

لإنجاء كل المتاع، وسرعة الحمل وتوقيته ترينا نوعية الحيوانات التي أمر بحملها معه في الفلك.[79]" اهـ

إذا فبدء تنفيذ الأمر كان بعد الفوران، وهذا يعني أن المحمول كان محدوداً وليس عاماً شاملاً، وهذا التصور راجع للقول بعالمية الطوفان وأنه غطى الأرض كلها، والذي قالت به التوراة، لأن كلمة الأرض، -والتي تفهم بمعنى البلد، كما في اللغات الأوروبية- تُرجمت بكوكب الأرضية، ومن ثم قالوا أن الطوفان عم الأرض كلها، وجاء المفسرون بعدهم فقالوا بقولهم مخالفين لكتاب الله، الذي قال أن الطوفان لم يعم الأرض وإنما كان محدوداً، ولا يعني قولنا هذا أنه كان في رقعة صغيرة من الأرض، فنحن نرى أنه أتى على مساحة لا بأس بها من جنوب جزيرة العرب، إلا أنه في نهاية المطاف لم يشملها كلها ولا كل الكرة الأرض، وأول ما نستدل به هو أن الله تعالى لم يقل بذلك، فإذا نظرنا في القرآن وجدنا أن القرآن ينفي مسألة عالمية رسالة نوح، فلقد قالها الرب العليم في خمس مواضع أنه أرسل نوح إلى قومه ولم يقل إلى الناس أو إلى العالمين، فلو لم يكن مرسلاً إلى قوم خاصة وكان هؤلاء هم الناس الموجودون على الأرض لكان الكلام عبثا.

وإذا قيل أنه أرسل إلى قومه ثم أغرق الله كل البشر، فما ذنب هؤلاء الأبرياء الذين لم تصلهم الدعوة؟ ولم تهلك الأرض كلها بذنب قوم كفرة؟ فهل ندم الله على خلقهم وأراد أن يبدهم؟! -كما ادعت التوراة!- بداهة لم يرد الله هذا ولم يقله، وإنما قال أن نوحا أُرسل إلى قومه فقط، وليس هذا القول استناداً إلى استنتاج وإنما هو مذكور صراحة، فالله تعالى يقول: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٨﴾ [سورة هود ,٤٨] فالآية صريحة في وجود أمم مع نوح.

[79] جمعية التجديد الثقافية، طوفان نوح بين الحقيقة والأوهام، ص.106.

ولأنها تخالف التصور التوراتي الذي أخذ به المفسرون اضطروا إلى تقديم تبريرات لها، فنجد الإمام الرازي يعرض التوجيهات المختلفة للآية، فيقول: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ واختلفوا في المراد منه على ثلاثة أقوال: منهم من حمله على أولئك الأقوام الذين نجوا معه وجعلهم أمماً وجماعات، لأنه ما كان في ذلك الوقت في جميع الأرض أحد من البشر إلّاهم، فلهذا السبب جعلهم أمماً، ومنهم من قال: بل المراد ممن معك نسلاً وتولداً، قالوا: ودليل ذلك أنه ما كان معه إلا الذين آمنوا وقد حكم الله تعالى عليهم بالقلة في قوله تعالى: ﴿... وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ۝٤٠﴾ [سورة هود ,٤٠] ومنهم من قال: المراد من ذلك مجموع الحاضرين مع الذين سيولدون بعد ذلك!!، والمختار هو القول الثاني: ومن في قوله: "مّمَّن مَّعَكَ" لابتداء الغاية، والمعنى: وعلى أمم ناشئة من الذين معك.[80]" اهـ

والأقوال التي ذكروها لا وزن لها لأنها لا مستند لها في القرآن، وإنما لتصديق قول التوراة، ولست أدري أين قال القرآن أنه لم يكن في الأرض غيرهم؟! فالله تعالى لم يقل أن الطوفان عم الأرض وإنما قال أنه جُعل آية لمن في الأرض، ونجد تصديق هذا أنه مما تناقله البشر ووعوه، على الرغم من انقضاء آلاف السنين عليه، وبهذا كان الطوفان عبرة وعظة لكل أهل الأرض، وليس السفينة: "إن حادثة الطوفان جُعلت آية من عدة أبعاد، فالمغرقون جُعلوا آية للناس: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ۝٣٧﴾ [سورة الفرقان ,٣٧]، والحادثة بتفاصيلها جُعلت آية، وعليه فإن الهاء في (وجعلناها آية للعالمين) في سورة العنكبوت هنا، (ولقد تركناها آية، فهل من مدكر) في سورة القمر، مع أنها آية معطوفة على ذكر "السفينة" في النص الأول، وعلى ذات الألواح التي جرت في النص الثاني، فضمير الهاء في "جعلناها" و"تركناها" لا يعني السفينة والجارية، بل الحادثة كانت آية، الواقعة كانت آية، العقوبة كانت آية، وليست السفينة آية للعالمين، إن حادثة الطوفان المرعبة جُعلت آية للعالمين وانتشرت وبقي ذكرها في كل الشعوب، لكل من

[80] الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، الجزء الثامن عشر، ص. 7.

أراد أن يذكر الله ويخاف عذابه "فهل من مدكر"، لذلك يقول الله تعالى في سورة الحاقة: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ۝١٢﴾ [سورة الحاقّة, ١١-١٢]، فالتي جُعلت تذكرة هي الحادثة نفسها، ذُكرت على كل الألسن ولدى معظم الشعوب، وهي التي تعيها أذن واعية[81]." اهـ

وكيفية حدوث الطوفان فصلها القرآن، فقال: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ۝١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ۝١٢﴾ [سورة القمر, ١١-١٢]، فلم يكن الماء نازلاً من السحب وإنما فُتحت به أبواب السماء، وهذا يعني أنه كان مطراً كونياً مصبوباً من الفضاء، والتقى الماء المنهمر من السماء مع الماء الخارج من الأرض التي فُجرت عيونا! وللأسف فهم المفسرون الآيات أن الله يقول أنه فجر عيون الأرض! أي أنه كانت هناك عيون ففجرها الله، بينما يقول الله أنه فجر الأرض عيوناً، أي أن الأرض تحولت إلى عيون، ومن ثم وقع هؤلاء بين الماء المصبوب من السماء والنابع من الأرض المفجرة، لذا فيمكن قبول نصف الرأي الذي قال به الأستاذ أحمد داود، والذي قال: "لم يكن الطوفان فيضانا للأنهار، ولم يكن بسبب الأمطار الغزيرة، وإنما بسبب ارتفاع منسوب المياه في الخليج العربي، والبحر الأحمر وازدياد الضغط على مخزون المياه الجوفية في شبه الجزيرة العربية، هذا الضغط تسبب في انفجار بركاني (مائي) مما أدى إلى اندفاع المياه من فوهة أحد قمم جبال السراة الممتدة في غرب الجزيرة العربية، مسببا المزيد من التشققات والتصدعات وبالتالي انفجارات مائية أخرى في نفس المنطقة.[82]" اهـ

فلا مانع من أن يكون ضغط المياه الجوفية هو السبب، ولكن أن نلغي دور المياه المصبوبة من السماء ونؤولها بأنها الماء النازل من فوهات الجبال فهو قول مردود. والقول بأن الطوفان كان نتيجة لتفجير الأرض عيونا مخالف لباقي الأساطير التي جعلت الطوفان ينتج بأمطار وفيضانات ناتجة عن زيادة مياه أنهار!

---

(81) جمعية التجديد الثقافية، طوفان نوح بين الحقيقة والأوهام، ص. 128.

(82) أحمد داود، العرب والساميون والعبرانيون، ص.166–167.

وتبقى نقطة واحدة نود الإشارة إليها وهي ما قالوه بشأن وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً، فلقد قال الإمام الطبري في تناوله إياها: "كان هؤلاء نفرًا من بني آدم فيما ذُكر عن آلهة القوم التي كانوا يعبدونها. وكان من خبرهم فيما بلغنا ما حدثنا ابن حميد، قال: ثنا مهران، عن سفيان، عن موسى، عن محمد بن قيس (وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) قال: كانوا قومًا صالحين من بنى آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صوّرناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوّروهم، فلما ماتوا، وجاء آخرون دبّ إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يُسقون المطر فعبدوهم.[83]" اهـ

وهذه المقولة التي رواه الطبري عن محمد بن قيس تلقفها المفسرون فلا تكاد تجد قولا غيره في هذه الآية، على الرغم من أن الناظر في الآيات يجدها تقول شيئا آخر: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾ [سورة نوح, ٢١-٢٤]

وكما قرأنا فسيدنا نوح يشكو لربه أنهم اتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا، ومفهوم أن هؤلاء هم الملأ المترفون، وهؤلاء يقولون للعامة لا تذرن آلهتكم ولا ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا، ومن ثم فإن هؤلاء حتما ليسوا آلهة، حتى ولو كانوا لأناس صالحين سابقين، لأنهم أصبحوا في نهاية المطاف آلهة! فماذا يكونون؟ الراجح من خلال النص أن هؤلاء أقرب ما يكونون إلى الكهنة المعارضين لدعوة نوح عليه السلام، فالملأ يقولون للعامة ألا يذروا الآلهة ولا هؤلاء النفر، ومن ثم فالأقرب أنهم "رجال دين" ينفرون الناس من دعوة نوح، ويؤكد هذا قول الله تعالى: ﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا... ﴿٢٤﴾﴾ [سورة نوح٢٤] فاستعمل الله جمع المذكر السالم، ولم يقل: وقد

[83] محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، الجزء 23، ص. 639.

أضلت أو أضللن كثيرا .. فيكون هذا مرجحا إضافيا لأنهم بشر، وذكرهم الله تعريفاً بأول رؤوس الشرك، الذين دافعوا عن الأديان المختلقة .. والله أعلم.

هود عليه السلام

بعد أن نجّى الله سيدنا نوحاً ومن معه بفترة زمنية طويلة نشأ قوم آخرون سُموا بقوم عاد، –وربما سُموا بهذا الاسم نسبة إلى العودة بعد الطوفان!– وبلغ هؤلاء القوم مبلغاً عظيما من القوة، إلا أنهم لبعدهم عن منهج الله أساءوا استخدام الهبة التي وهبهم الله إياها، لذا أرسل الله إليهم سيدنا هود ليذكرهم بضلالهم ويريهم صراط الله المستقيم. ومن مظاهر قوتهم التي ذكرها الله قول سيدنا هود لهم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝١٣٠ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٣١ وَاتَّقُواْ الَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٣٤﴾ [سورة الشعراء, ١٢٨-١٣٤]

ولقد قدم المفسرون تفسيرات لا تربط الآيات بالواقع، فنجد الإمام الفخر الرازي مثلاً يقول في تفسيره: "قوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨﴾ [سورة الشعراء, ١٢٨] بالكسر والفتح وهو المكان المرتفع، ومنه قوله: كم ريع أرضك؟ وهو ارتفاعها، والآية العلم، ثم فيه وجوه: أحدها: عن ابن عباس أنهم كانوا يبنون بكل ريع علماً يعبثون فيه بمن يمر في الطريق إلى هود عليه السلام. والثاني: أنهم كانوا يبنون في الأماكن المرتفعة ليعرف بذلك غناهم تفاخراً فنهوا عنه ونسبوا إلى العبث. والثالث: أنهم كانوا ممن يهتدون بالنجوم في أسفارهم فاتخذوا في طريقهم أعلاماً طوالاً فكان ذلك عبثاً لأنهم كانوا مستغنين عنها بالنجوم. الرابع: بنوا بكل ريع بروج الحمام. وثانيها: قوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩﴾ [سورة الشعراء, ١٢٩]

المصانع مآخذ الماء، وقيل القصور المشيدة والحصون ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ ترجون الخلد في الدنيا أو يشبه حالكم حال من يخلد[84]" اهـ

ولا أميل إلى المعاني التي ذكرها المفسرون، فاتخاذ آبار أو مجمعات للمياه ليس مما يُذم عليه الإنسان، وليس ما يضمن له الخلود! كما أن الحصون ليست هي التي تحقق الخلود للإنسان، فالحصون قد تحميه من الأعداء ولكنها لن تحميه من الموت بشكل طبيعي! وهناك من قال أن قوم هود اتخذوا هذه الأشياء لينجوا من المصير الذي آل إليه قوم نوح، إلا أن الآيات لم تقل بهذا، فبناؤهم على المرتفعات لم يكن للنجاة من الفيضانات وإنما كان عبثا! واتخاذهم المصانع كان سعياً وراء وهم الخلود، وليس وراء النجاة! فهل تكون المصانع هي مصانع لصنع أشياء لدفع الأمراض أو الموت! (إكسير الشباب مثلا!)، أو مصانع لإنتاج مواد التحنيط مثلا؟! الله أعلم!

ويقدّم الأستاذ خالد نبهان معنى مختلفاً للريع ولمصانع الخلود، إلا أنه معنى مباشر، فيقول: "يتضح ذلك من قوله تعالى على لسان هود وهو يوبخهم و يزجرهم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨﴾] سورة الشعراء ,١٢٨[، فالريع: هو دخل الدولة والأفراد، فريع الفرد: هو كل ما يحصل عليه من أجر مقابل ما يؤديه من عمل، وريع التاجر: ما يحصل عليه من أرباح نتيجة عملياته التجارية، وريع الدولة: ما تحصل عليه من دخل. وعاد كانوا يبنون بكل ريعهم آيات للعبث، وآيات العبث التي كانوا يبنونها بكل ريع يحصلون عليه: هي أماكن اللهو والترفيه واللعب والفكاهة والمرح والتسلية ...الخ. وشيدت عاد الأولى مصانع للخلد، أي: مصانع لإطالة أعمار البشر، مثل مصانع الأدوية التي تنتج أدوية أو مستحضرات كيماوية أو أعشاب طبية تدعي أنها تطيل حياة البشر، وينطبق على مصانع الخلد هذه أيضاً مصانع لتحنيط الجثث، أو أي شيء أخر من هذا القبيل. ويتضح ذلك من قوله تعالى على لسان هود: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩﴾] سورة الشعراء ,١٢٩[، ومثل هذه المصانع موجودة

[84] فخر الدين الرازي، تفسير مفاتيح الغيب، الجزء الرابع والعشرون، ص.135 .

ومنتشرة اليوم في أمريكا، فكل يوم تطلع علينا شركات الأدوية الأمريكية بإعلان عن منتج جديد تمكّن فريق علمائها من الوصول إليه، تدعى أنه يطيل العمر، أو يعيد الشباب إلى حيويته، أو يقضى على الشيخوخة ..الخ. ويوجد في أمريكا حالياً أيضاً ثلاجات لحفظ جثث الموتى من التحلل، نظير مبلغ يدفعه ورثة المتوفى صاحب الجثة المحفوظة على أمل أن يتقدم العلم بعد سنوات، فيستخرجون الجثة، ويعيدون إليها الحياة، ويعود صاحبها مُخلداً، وأحياناً يقوم الشخص قبل موته بدفع مبلغ لحفظ جثته، ويوصى القائمين على هذا العمل باستلام جثته وحفظها.[85]" اهـ

والناظر في نهج سيدنا هود ورسالته يجد أنهما مشابهان بشكل كبير لنهج ورسالة سيدنا نوح عليه السلام، فكما قال سيدنا نوح لقومه أنه يبلغهم رسالات ربه وينصح لهم قال سيدنا هود: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ۝٦٨﴾ [سورة الأعراف ,٦٨]، وكما وعد سيدنا نوح قومه بإرسال السماء كذلك وعد هود نفس الوعد: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ۝٥٢﴾ [سورة هود ,٥٢]، وكما أعلن سيدنا نوح توكله على الله مقابل كيد قومه: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ۝٧١﴾ [سورة يونس ,٧١]، قال سيدنا هود كذلك: ﴿... قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ... ۝٥٦﴾]سورة هود ,٥٤-٥٦]، وكما قيل لنوح أنه في ضلال مبين قيل لهود أنه في سفاهة: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦٦﴾ [سورة الأعراف ,٦٦]، ويذكر سيدنا هود مسألة حدثت مع قوم سيدنا نوح وهي البسط في الخلق: ﴿... وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى

[85] خالد نبهان، قوم عاد وإرم ذات العماد، ص. 33، 34.

ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ ... ﴿٦٩﴾] سورة الأعراف, ٦٩[، فهو يذكرهم بأن الله تعالى زادهم في الخلق بسطة! والله العليم لم يقل أنه بسط لهم في الخلق وإنما زادهم وهذا يعني أن هناك من أُعطي سابقا، ولكن بشكل أقل! ومن ثم فإن الله تعالى قد بسط لقوم نوح في الخلق، وزاد قوم عاد بسطة! وبداهة فقد تميز هود بأنه ذكّر قومه بنوح قبله، بينما لم يكن قبل نوح من يذكر قومه به.

وكما قوبل نوحٌ بمعارضة شديدة من الملأ قوبل هودٌ كذلك، ولكونهم قد عرفوا قصة نوح وما حدث لقومه، لم يكرروا نفس المطلب، وإنما احتجوا بأنه لم يأت ببينة على أنه مرسل من الله، ولا على أن المطر سينزل إذا هم فعلوا ذلك! وأن قوله وحده لا يكفي لترك آلهتهم، ثم رموه بأن بعض آلهتهم اعتراه بسوء، فأصبح مصابا في عقله (سفيه)!

وبغض النظر عن تشابه المنهج والمواقف التي تعرض لها سيدنا هود، فإن المسألة الرئيسة في التشابه والاختلاف هي: هل جاء سيدنا هود كذلك لينذر قومه "كارثة بيئية" بجوار دعوته لعبادة الله –كما فعل سيدنا نوح– أم أن ما نزل بهم كان جزاءً لتكذيبهم؟ طبقا لأدبيات الإسلاميين فإن ما نزل بهم كان جزاءً على كفرهم، أما تبعاً لما قاله الرب في كتابه فقد كانت هذه الكارثة واقعة متحققة وهو كان ينذرهم وقوعها إلا أنهم لم يصدقوا، وكانت هي محور إنذاره فلقد كان يُنذر قومه بالأحقاف! والآية الفاصلة التي تؤكد قولنا هذا هي قول الرب القدير في سورة الأحقاف: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾] سورة الأحقاف, ٢١-٢٢[

والتي قال المفسرون أن المراد من الأحقاف هي المنطقة التي أنذر هود قومه فيها، أي أنهم فهموا الآية هكذا: "إذ أنذر قومه في الأحقاف" ومن ثم فإن الآية لم تقل بما أنذر هود قومه! على الرغم من أنهم فهموا الباء في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ

﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ... ١٩﴾]سورة الأنعام, ١٩[، ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ٤٥﴾] سورة الأنبياء, ٤٥[، وفهموها في كل الآيات المتعلقة بالوحي على أنها بمعنى الباء وهو السببية والوسيلة، إلا أنهم فهموها هنا على أنها بمعنى حرف الجر "في"! ولقد فهموها بهذا الفهم، لأنهم رأوا أن "الأحقاف" شيء لا ينذر به! لأن الأحقاف هي: "الرمال العظام، في قول الخليل وغيره. والأحقاف جمع حقف، وهو ما استطال من الرمل العظيم وأعوج ولم يبلغ أن يكون جبلا (كما قال الماوردي)، والجمع حقاف وأحقاف وحقوف. قال ابن زيد: هي رمال مشرفة مستطيلة كهيئة الجبال، ولم تبلغ أن تكون جبالا. وقال قتادة: هي جبال مشرفة بالشحر، والشحر قريب من عدن، وهو ساحل البحر بين عمان وعدن. وقال مجاهد: هي أرض من حسمى تسمى بالأحقاف. وقال ابن عباس والضحاك: الأحقاف جبل بالشام. وعن ابن عباس أيضا: واد بين عمان ومهرة.[86]"

ونحن لا نعترض على مكان وجود قوم عاد، فنحن مقرون بالأقوال التي ذكرها الإخباريون بشأن مكانهم، وأنها حالياً اسم على مسمى! ولكن الاعتراض على قول المفسرين أن الباء بمعنى "في"، فنحن نرى أنه أنذرهم بالأحقاف وليس فيها! كما أنذر النبي الكريم الناس بالوحي!

واعتراضنا لسبب بديهي وهو أنهم حينها ما كانوا في "أحقاف"، فلقد كانوا يعيشون في جنات وعيون: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ١٣٣ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٣٤﴾] سورة الشعراء, ١٣٢-١٣٤[، ومن ثم فمن غير المنطقي أن

---

[86] يُطلق حاليا اسم "الأحقاف" على الأجزاء الشرقية من حضرموت اليمنية ومحافظتي المهرة وظفار العمانيتين. فإذا أخذنا الأقوال التي تقول بأنه ما استطال واعوج من الرمال العظيمة، يكون من المنطقي القول بأن منطقة الأحقاف في جنوب الربع الخالي، وذلك لأن بقية شبه الجزيرة العربية خالية من مثل هذه التضاريس المستطيلة والمعوجة. وتشكل منطقة الأحقاف جزءً كبيراً من الربع الخالي وهي كامل الجزء الجنوبي منه وتمتد من الغرب إلى الشرق على شكل شريط بطول يزيد عن ألف ومائتي كيلومتر وبعرض يتراوح بين خمسين وثلاثمائة كيلومتر.

يكون الحديث عما لم يكن بعد! وعلى قول المفسرين فقول الله تعالى مساو لوصف إنسان زار قوما في واحة جميلة، ثم أصبحت هذه الواحة بعد سنوات طوال صحراء جرداء! فقال عن زيارته لهؤلاء القوم: زرتهم في الصحراء الجرداء! فهذا نعت غير صحيح، لأنه لم يكن ثمة صحراء عند زيارته وإنما واحة!

والأبحاث الجيولوجية نفسها بيّنت أن المنطقة تعرضت لتغيرات مناخية كبيرة حولتها إلى صحاري، وقالت أنها كانت أرض خصبة مكسوة باللون الأخضر! ومن ثم فلا معنى لقول المفسرين أنه أنذر قومه في الأحقاف! ونحن نفهم الآية كما هي، فلقد أنذر سيدنا هود قومه بالأحقاف، فلقد أنذرهم أن تتحول بلادهم إلى أحقاف، أنذرهم أن تنزل هذه الأحقاف بهم، فلم يصدقه قومه وكذبوه، على الرغم من وجود الدلائل التي تشير إلى حدوث هذا التصحر الكبير! فدعاهم إلى عبادة الله حتى يحولهم عن هذا العذاب الهائل، فأصروا على موقفهم وطلبوا إليه أن يأتيهم بما وعدهم به من أن تصبح أرضهم أحقافا! فأخبرهم أن العلم عند الله، بكيفية وزمان وقوع هذا العذاب الأليم! وأنه فقط يبلغ ما أُرسل به، ولكنهم قوم يجهلون!

فلما رأوا العذاب الذي وُعدوه مستقبِلَ أوديتهم، ظنوا أنه شيء بسيط سينزل بهم بعض التراب أو الصخور، فقال الله أنه ليس كذلك، وإنما هو ما استعجلوا به، فهو ريح فيها عذاب أليم!: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الأحقاف ,٢٤-٢٥]

وقال المفسرون في توجيه رؤية قوم عاد للريح، أنهم ظنوا أن الرياح القادمة سحابة داكنة اللون ستنزل عليهم الماء فاستبشروا، فنزل بهم العذاب! أما أنا فأقول أنهم أدركوا أن هذا القادم شيء ضار، إلا أنهم نعتوه بالعارض، فهم يريدون القول أن هذا شيء حدث بالصدفة وليس مسببا، كما أنه لن يدوم! ومن ثم فسنتحمل ما يمطرنا به من رمال أو حجارة، فهو أمر عارض! (لاحظ أن القرآن لم يستعمل المطر إلا مع

الأذى أو الإهلاك)، فرد الله عليهم بأنه ليس كما يدعون، وإنما هي ريح فيها عذاب أليم، تدمر كل شيء بأمر ربها!

قد يقول قائل: إنك تقول أن هود أنذر قومه بالأحقاف، والله تعالى يقول أنه أهلكهم بريح عقيم، فهل الريح هي الأحقاف؟! فنقول: بداهة، ليست الريح أحقافاً، ولكن: متى يظن الإنسان أن الريح سحابة .. داكنة؟! لا يكون هذا إلا إذا كانت الريح محملة بشيء، أما لو كانت مجرد رياح فلن يرى الإنسان شيئا، وهذا ما نقول به! فنحن نقول أن هذا الريح كانت محملة بالرمال والأتربة التي قصفت بها قوم عاد، فلم تنفعهم حصونهم وأبنيتهم للنجاة منها، واستمر هذا القصف المكثف ثمانية أيام، كما قال الرب العزيز: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ۝٧ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ۝٨﴾ [سورة الحاقة, ٦-٨]، وبهذا نفهم لماذا استمر هبوب الريح أياما متتالية، فهي كانت تطمر المنطقة بالرمال، أما إهلاك القوم نفسهم فلا يحتاج إلى كل هذه الأيام، وهو كان قد حدث ابتداءً في أول يوم.

ويمكن للناظر في القرآن أن يعرف طبيعة هذه الريح، فالرب قال عنها: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ۝٢٠﴾ [سورة القمر, ٢٠]، ومن ثم يمكننا القول أن هذه الريح كانت في أول أمرها على شكل إعصار، تلك الريح التي تأخذ الشكل الحلزوني وتبدأ في الدوران حول نفسها، فتجذب الأشياء إليها ثم تقذف بها! فهذه هي الريح التي كانت تنزع الناس –الذين كانوا من القوة ما كانوا– وليس ما قاله المفسرون من أنها كانت تدخل في مناخرهم وتخرج من أدبارهم وتصرعهم على الأرض على وجوههم حتى صاروا كأعجاز نخل خاوية. وبعد أن قام الإعصار بدوره في القضاء على هؤلاء الناس، تحول إلى عاصفة، محملة بالرمال والأتربة، استمرت في فعلها هذا أياما وليال، حتى غُطت هذه البلد الظالمة، وهكذا طُمر قوم عاد فلم يبق لهم أثر.

وبهذا نفهم لماذا سخر الله ريحاً صرصرا عاتية على قوم هود لمدة سبع ليال وثمانية أيام حسوما، وذلك حتى تُردم وتطمر هذه الأودية فلا يبقى لهم باقية! وتصور هذا المشهد، ريح عاتية مستمرة الهبوب على منطقة ما، محملة بالرمال والأتربة، مستمرة لثمانية أيام، كيف يكون حالها؟! ولذا فإن التصحر الذي أصاب هذه المنطقة هو تصحر مفاجئ حدث مرة واحدة!

وحتى لا يقال إن هذا التصور القائل بالطمر لا يتفق مع قول الله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾]سورة الأحقاف, ٢٥[، نقول: هناك فارق بين المساكن والديار! فالديار لزام أن تكون مبنية –بأي شكل كانت– أما المساكن فهي محل نزول الأقوام واستقرارهم بها! سواءً بنوا فيها أم لم يبنوا! ونتذكر أن الرب العليم قال: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾] سورة إبراهيم, ٤٥[فليس المراد أنهم سكنوا في نفس المنازل التي بناها السابقون! فالمنازل غير موجودة أو مهدمة، وإنما المراد أنكم عشتم في نفس المنطقة التي عاش فيها الذين ظلموا أنفسهم، ونزل بهم العذاب! وبهذا يكون المراد من قول الحق أنه أصبح لا يُرى إلا المنطقة التي كانوا فيها، أما مبانيهم وكل ما أنتجوه فلم يعد ظاهراً للعيان بأي حال! وهذا يعني أنهم قد طُمروا بريح عاتية حملت في طيها الأحقاف!

ولقد قال الله أنها تدمر كل شيء، وقال في حقها في سورة الذاريات: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾]سورة الذاريات, ٤١-٤٢[، فهي ريح عقيم، لا تحمل أي خير، فهي لا تسوق سحابا ولا تلقح نباتا، تجعل الأشياء التي أتت عليها كالرميم فتبليها بلاء عظيما! –وليس المراد من "أتت عليها" مرت عليها، وإنما المراد الأشياء التي عالجتها معالجة شديدة، كما نقول: أتى عليه الدهر!– فإذا كانت الأبنية قد بقيت فماذا دمرته الرياح إذا؟!

إذا فكما جاء نوح ليدعوا قومه إلى عبادة الله ويحذرهم الطوفان، جاء كذلك هود ليدعو إلى عبادة الله ويحذرهم الأحقاف ولم يستجب كلا القومين فأهلكوا.

صالح والناقة

لم يكن مع نوح وهود في إنذارهما قومهما الكارثة البيئية وفي دعوتهما إلى عبادة الله آيات حسية، لأن الآيات الطبيعية حولهما كانت تؤكد قولهما، أما مع سيدنا صالح فقد اختلف الحال، فلقد جاء ليأمر قومه بعبادة الله وحده وشكره على نعمائه بترك آفتهم الكبرى وهي الإفساد في الأرض. (لاحظ أن الله أرسل "صالح" ليردهم عن "الفساد").

والملاحظ أن سيدنا صالح خالف السابقَيْن له، فلقد جاء قومه ب "ناقة"، ولأن الناقة ناقة! وليس فيها –من المنظور السطحي– أي آية، ولأن المفسرين لم يتدبروا ما قصّه الله عن سيدنا صالح في سورة الشعراء، قبلوا أقوال القصاصين التي ابتدعوها، ليسوغوا بها كون الناقة آية!

ونثبت للقارئ ما ذكره الإمام الفخر الرازي بشأن الناقة، والذي يبين حيرة المفسرين بشأنها، فيقول: "هذه ناقة الله لكم آية" وفيه مسائل: المسألة الأولى: ذكروا أنه تعالى لما أهلك عاداً قام ثمود مقامهم، وطال عمرهم وكثر تنعمهم، ثم عصوا الله، وعبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم صالحاً وكان منهم، فطالبوه *بالمعجزة*. فقال: ما تريدون؟ فقالوا: تخرج معنا في عيدنا، ونخرج أصنامنا وتسأل إلهك ونسأل أصنامنا، فإذا ظهر أثر دعائك اتبعناك، وإن ظهر أثر دعائنا اتبعتنا، فخرج معهم فسألوه أن يخرج لهم ناقة كبيرة من صخرة معينة، فأخذ مواثيقهم أنه إن فعل ذلك آمنوا فقبلوا، فصلى ركعتين ودعا الله فتمخضت تلك الصخرة كما تتمخض الحامل، ثم انفرجت وخرجت الناقة من وسطها، وكانت في غاية الكبر وكان الماء عندهم قليلاً فجعلوا ذلك الماء بالكلية شرباً لها في يوم، وفي اليوم الثاني شرباً لكل القوم. قال السدي: وكانت الناقة

في اليوم التي تشرب فيه الماء تمر بين الجبلين فتعلوهما ثم تأتي فتشرب فتحلب ما يكفي الكل، وكأنها كانت تصب اللبن صباً، وفي اليوم الذي يشربون الماء فيه لا تأتيهم وكان معها فصيل لها. فقال لهم صالح: يولد في شهركم هذا غلام يكون هلاككم على يديه، فذبح تسعة نفر منهم أبناءهم، ثم ولد العاشر فأبى أن يذبحه أبوه، فنبت نباتاً سريعاً، ولما كبر الغلام جلس مع قوم يصيبون من الشراب، فأرادوا ماء يمزجونه به، وكان يوم شرب الناقة فما وجدوا الماء، واشتد ذلك عليهم، فقال الغلام: هل لكم في أن أعقر هذه الناقة؟ فشد عليها، فلما بصرت به شدت عليه، فهرب منها إلى خلف صخرة فأحاشوها عليه، فلما مرت به تناولها فعقرها فسقطت. فذلك قوله: (فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر) وأظهروا حينئذ كفرهم وعتوا من أمر ربهم، فقال لهم صالح: إن آية العذاب أن تصبحوا غداً حمراً، واليوم الثاني صفراً، واليوم الثالث سوداً، فلما صبحهم العذاب تحنطوا واستعدوا. إذا عرفت هذا فنقول: اختلف العلماء في وجه كون الناقة آية فقال بعضهم: إنها كانت آية بسبب خروجها بكمالها من الصخرة. قال القاضي : هذا *إن صح* فهو معجز من جهات: أحدها: خروجها من الجبل، والثانية: كونها لا من ذكر وأنثى، والثالثة: كمال خلقها من غير تدريج. والقول الثاني: أنها إنما كانت آية لأجل أن لها شرب يوم، ولجميع ثمود شرب يوم، واستيفاء ناقة شرب أمة من الأمم عجيب، وكانت مع ذلك تأتي بما يليق بذلك الماء من الكلأ والحشيش. والقول الثالث: أن وجه الإعجاز فيها أنهم كانوا في يوم شربها يحلبون منها القدر الذي يقوم لهم مقام الماء في يوم شربهم. وقال الحسن بالعكس من ذلك، فقال إنها لم تحلب قطرة لبن قط، وهذا الكلام مناف لما تقدم. والقول الرابع: أن وجه الإعجاز فيها أن يوم مجيئها إلى الماء كان جميع الحيوانات تمتنع من الورود على الماء، وفي يوم امتناعها كانت الحيوانات تأتي. *واعلم أن القرآن قد دل على أن فيها آية*، فأما ذكر أنها كانت آية من أي الوجوه فهو غير مذكور والعلم حاصل بأنها كانت معجزة من وجه ما لا محالة والله أعلم.[87]" اهـ

---

[87] فخر الدين الرازي، تفسير مفاتيح الغيب، الجزء الرابع عشر، ص. 132.

وكما رأينا فكل هذا الكلام والتبريرات أقوال ما أنزل الله بها من سلطان، لا تكتفي بالزيادة عليه وإنما تخالفه، فإذا نظرنا في ما قصه الله في سورة الشعراء، وجدنا الرب العليم يقول: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [سورة الشعراء, ١٤١-١٥٥]

فأول إبطال لما قالوا هو قول الله أنهم لم يختاروا الآية، وإنما طلبوا آية فأرسل الله لهم ناقة، فالله هو من اختار وليس قوم صالح، وحتما اختارها عن حكمة ولعلة، كما أن الله تعالى قال أن الآية أنها ناقة، ومن ثم فلا آية فيها إلا أنها ناقة لها شِرب ولهم شرب، ولو كانت الآية خروجها من الصخر لقال الله هذا!

وعلى الرغم من أن الله قصّ عن سيدنا صالح في أكثر من سورة، إلا أن الآيات المذكورة هي أعمها وأشملها، والتي يمكن من خلالها الخروج بتصور صحيح للأحداث. فإذا نظرنا في الآيات وجدنا أن سيدنا صالح يحذر قومه من ألا تستمر النعمة التي هم فيها، من الجنات والعيون والزروع، ويعرفهم أن طريق بقاءها هو تقوى الله وطاعته، وأما طاعة المسرفين الذين كل عملهم فساد، وليس منهم أي صلاح، فلن تؤدي إلا إلى ضياع ما هم فيه من النعمة.

ومن هنا نفهم أن الآفة الأخلاقية التي كانت مستشرية في قوم صالح كانت هي الإفساد في الأرض، كما قال الرب العليم في سورة الأعراف: ﴿... وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [سورة الأعراف, ٧٤]، ولكي يقضي الله على هذا الإفساد أرسل "صالحا" مدعوما بناقة!

وهنا يجب علينا أن نتساءل: ما هو الإفساد الذي يمكن أن تكون ناقة لها شرب آية ضده؟! تأتينا الإجابة من اسم "ثمود" نفسه، فالناظر يجد أنه على وزن صيغة المبالغة "فعول" أي أنهم كانوا كثيري الثمد، حتى أنهم لذلك سموا ب "ثمود"، فإذا نظرنا في لسان العرب وجدنا ابن منظور يقول: "الثَّمْدُ والثَّمَدُ: الماء القليل الذي لا مادّ له، وقيل: هو القليل يبقى في الجَلَد، وقيل: هو الذي يظهر في الشتاء ويذهب في الصيف (...) وماءٌ مَثْمود: كثر عليه الناس حتى فني ونَفِدَ إلا أَقلَّه. ورجل مثمود: أُلِحَّ عليه في السؤَال فأَعطى حتى نَفِدَ ما عنده.[88]" اهـ

وابن فارس يقول في معجم مقاييس اللغة: "الثاء والميم والدال أصلٌ واحد، وهو القليل من الشيء، فالثَّمْدُ الماء القليل لا مادّةَ له. وثمَدتْ فلاناً النّساءُ إذا قطَعْنَ ماءَه.[89]" اهـ

إذا فالثمد هو التقليل والإفناء، وهو يدور حول الماء، فالماء الذي ليس له مصدر يرفده هو ثمد، والماء الذي يكثر عليه الناس مثمود وهم ثمود! إذا فآفة هؤلاء القوم كانت إفناء الماء وإضاعته. وكما قرءنا في الآيات السابقة فلقد كانت مصدر المياه لديهم هي العيون، وهم كانوا مسرفين مفسدين، ومن ثم يمكننا القول أن هؤلاء القوم كانوا يستخدمون أكبر وأهم نعمة "الماء" بإسراف فيما لا نفع فيه، حتى تنفد العيون، ثم ينتقلون إلى غيره وهكذا، ولهذا سموا بثمود! وما كانوا يهتمون بمثل هذا النفاد ولا بعاقبة هذا الإسراف، لأنهم ظنوا –مثل كل ثري مترف– أن ما عندهم لن ينفد وسيكفيهم أبد الدهر. فأرسل الله إليهم صالحا لينهاهم عن هذا الإفساد، وأرسل معه ناقة، والتي احتار المفسرون في كونها آية!

ولو نظروا في آيات قصص صالح لوجدوا أن سيدنا صالح لم يذكر في نعم الله عليهم الأنعام وإنما كان حديثه عن النبات والجبال: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٤٧ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ

[88] جمال الدين بن منظور، لسان العرب، الجزء الأول ، ص. 503 .

[89] أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، الجزء الأول، ص. 387–388.

طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ﴿١٤٨﴾ وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [سورة الشعراء, ١٤٧-١٤٩]، ولم يأت أي ذكر للأنعام في كل قصص سيدنا صالح، ومن هنا نتساءل: هل كانت آية الناقة أنها دابة لم تر ثمود مثلها من قبل؟ لقد افترض المفسرون أن الناقة كانت حيواناً معروفا مألوفا لثمود، كما رأوه في جزيرة العرب، بينما لم يذكر الله أي صنف من الأنعام مع قوم صالح قط، وهذه نقطة لا ينبغي أن نغفل النظر عنها، فابتداء استئناس الإنسان لهذه الدابة لم يكن منذ الأبد وإنما كان منذ فترة زمنية تقدر بآلاف السنين، وأول موطن استُأنست فيه ورُكبت كان جزيرة العرب، فهل كانت ناقة صالح هي "ناقة الله" لأنها دابة لم يروا مثلها سابقا، بينما لديهم دواب أخرى مثل البقر والضأن أو كان لهم دواب ولم يكن لهم أنعام أصلا؟!

وبهذا تكون الناقة قد ظهرت لأول مرة في قوم صالح؟ احتمالٌ يمكننا به فهم قول سيدنا صالح لقومه: ﴿... فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ ... ﴿٦٤﴾﴾ [سورة هود, ٦٤]، فهي كانت مخلاة تتحرك بنفسها بدون قائد وهو كان يطلب إليهم ألا ينفروا منها ويصدوها عن مراعيهم لأنها دابة غير مألوفة بالنسبة لهم. وبغض النظر عن كون ثمود لم يروا ناقة قبل ذلك، فما الآية التي فيها وتؤكد دعوة سيدنا صالح؟ فلا يعني أن صالحاً أتى بحيوان لم يروا مثله قط أنه صادق، فربما وجده في أي مكان وأتى به؟ فنقول: على الرغم من أن الناقة تتميز بسمات خلقية فريدة، جمعت الجمال والكمال (لاحظ أن الجمال مأخوذ من الجمل، والأناقة مأخوذة من النوق)، إلا أن العلامة المميزة لهذه الدابة هي مسألة شربه كميات هائلة من المياه وتخزينه إياها، فهي وإن كانت يمكنها شرب مائتي لتر في ثلاث دقائق، إلا أنها تستطيع أن تحتفظ به لفترة جد طويلة ويستخدمها حسب الحاجة.

وهذه كانت آية الناقة، فلقد لعبت الناقة على وترين هامين، أولهما: أنهما شاهدوا الماء يقل بسرعة كبيرة مرة واحدة، ومن ثم فإن استمرار الاستهلاك سيؤدي إلى النفاد. ثانيهما: أن الناقة تخزن الماء، وفي هذا الإشارة إلى أن تنظيم استهلاك الماء وتخزينه هو خير وسيلة للمحافظة عليه وإبقاءه، ومن ثم فإن الناقة قد شخصت المرض

وقدمت العلاج، فلقد أرتهم آفتهم بعيونهم وهي كثرة الاستهلاك، وقدمت لهم الحل وهو التنظيم والاستهلاك بحسب الحاجة، فالناقة وإن كانت تشرب كثيرا من الماء إلا أنها لا تأخذ إلا ما تحتاج بدون ذرة سرَف.

وقولنا بأن الناقة كانت دابة غير مألوفة بالنسبة لهم هو تبرير معقول لعلة تركهم إياها فترة ترد الماء قبل أن يعقروها، فلقد هابوها كدابة ضخمة، ثم بعد ذلك تجرأ أشقاهم فعقرها! أما قولهم بأنه كان لها يوم تشرب فيها، فإذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله، ويشربون في اليوم الذي لا تشرب هي! فلا دليل عليه يضاف إلى ذلك أنه من غير المنطقي أن يتركوها تشرب أصلا، فهم لم يؤمنوا بصالح، فلماذا يقبلون بالقسمة؟!

ولقد حاول الأخ صلاح الدين إبراهيم أبو عرفة توجيه تركهم الناقة تشرب، فقال أن الآية تقول أن الماء كان يكون لهم يوم ويكون للناقة في يوم، فإذا أرادوا أن يشربوا من العيون في يوم الناقة لم يجدوا!! وعلى الرغم من أنه يعيب على غيره اتباع غير كتاب الله وحديث رسوله، فلقد وقع فيما وقعوا فيه بقوله هذا وبقوله بأن الناقة كانت تعطي ما شربته سقاء خالصا، فلا دليل في الآيات على القولين، وهما زيادة عنها، أما قولنا فلم يزد عنها وإنما قدّم تبريرا لحدوثها على هذه الهيئة. إلا أن قوم صالح لم يسمعوا له، على الرغم من أنهم رأوا الآية البينة في الناقة: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾] سورة فصّلت ,١٧[، بل وحاولوا إغواء المؤمنين بصالح، فلمّا لم يستجب المؤمنون به لمحاولات إغوائهم عقروا الناقة وطالبوا بنزول العذاب: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾]سورة الأعراف ,٧٥-٧٧[وكما وعدهم سيدنا صالح نزل بهم العذاب بعد ثلاثة أيام، ويختلف سيدنا صالح عن سيدنا نوح وهود، الذين كانا يقولان لأقوامهما أنهما لا

يعلمان ميعاد الوقوع، بينما هنا العذاب مسبب ومرتبط بفعلهما وليس ظاهرة طبيعية عامة! والناظر في العذاب الذي نزل بهم يجده عذاباً شديدا متنوعاً، فلقد كان صاعقة ورجفة وصيحة: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾] سورة هود ,٦٧[، "فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾] سورة الأعراف ,٧٨[﴿فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾] سورة الذاريات ,٤٤-٤٥[، وقدّم الأستاذ عبد الوهاب النجار تصوراً جمع فيه هذه الظواهر كلها فقال: "وكان تدمير قوم صالح بالصاعقة وقد عبر الله تعالى عنها تارة بالرجفة وتارة بالطاغية وتارة بالصيحة، وكل صحيح، لأن الصاعقة تكون مصحوبة بصوت عظيم وقد تكون مصحوبة برجفة أشبه بالزلزال، وقد تكون في مكان ويطغى تأثيرها حتى يصل إلى مكان آخر. والصاعقة عبارة عن استفراغ كهربائي يحصل بين كهربائتين متخالفتين بالإيجاب والسلب. فإذا دنا جسم مكهرب كهربائية موجبة من جسم مكهرب كهربائية سالبة، اتحدت الكهربائيتان لما بينهما من التعاشق، فيحصل عن ذلك البرق الشديد ثم الرعد بسبب اضطراب الهواء وتدافع أجزائه في كل مكان الاستفراغ وذلك هو الصيحة.[90]" اهـ

وقال المفسرون أن المراد من أخذتهم الرجفة أن الأرض رجفت! وأنا أميل إلى أن الرجفة وقعت بهم هم وليس بالأرض، أي أنهم أصبحوا مرتجفين (مرضى) جاثمين في بيوتهم! فتولى عنهم سيدنا صالح –وهم أحياء وليسوا أمواتا– وأخذوا ينتظرون العذاب ونزلت بهم الصعقة بعد ثلاثة أيام!! فالرجفة غير الصعقة!!

وهكذا أهلك قوم ثمود عقاباً لهم على تكذيبهم بآيات الله على الرغم من معرفتهم أنها حق من الله، ورفضهم النعمة التي أنعم الله بها عليهم وعقرهم الناقة ومطالبتهم بنزول العذاب، وبعدها بدء استئناس الناقة واستعمالها من سيدنا صالح والناجين معه.

[90] عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء، ص.66.

الخليل إبراهيم

بالرسول صالح انتهت مرحلة الرسل الأوائل، وبالخليل إبراهيم بدأت المرحلة المتوسطة، والتي نلاحظ فيها اختلافا كبيراً عن المرحلة السابقة! ولقد أطال القرآن الكريم في قصّه عن الخليل إبراهيم الذي يتنازعه أتباع الديانات الثلاثة: الإسلام والمسيحية واليهودية، وإن كان القارئ للقرآن سيجد أن إبراهيم القرآن غير إبراهيم التوراة كلية، وسنبرز بعضاً من أوجه الاختلاف هذه لاحقا، بينما نكتفي هنا بتقديم تصور عام عن الخليل إبراهيم:

الناظر في القرآن يجد أن أول ذكر للخليل إبراهيم هو ثناء الرب العليم على إبراهيم في معرض الحديث عن علاقة الخليل بالكعبة ومكة والرسول: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ

يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾] سورة البقرة ,١٢٤-١٣٢][91]

وعلاقة الخليل بالكعبة من السمات المميزة له عند المسلمين، إلا أنهم غفلوا عن مسألة أخرى جد هامة وهي ارتباط الصلاة به، فالصلاة كذلك ظهرت أول ما ظهرت في القرآن مع الخليل إبراهيم، فالناظر في قصص الرسل قبل الخليل لا يجد فيها أي ذكر للصلاة، بينما ابتدأ الحديث عن الصلاة مع الخليل! فهل يكون الخليل هو أول من جعل "شكلاً أرقى" للتقرب إلى الله، وحدد له أركاناً ومواقيت وهيئات وحافظ عليه، بينما كان التقرب إلى الله قبل ذلك بالأدعية والقرابين فقط؟ الله أعلم. وإن كانت النفس تميل إلى هذا إلا أننا لا نجزم به!

واشتهر الخليل إبراهيم بأنه أبو الأنبياء، لكون كل الأنبياء الذين جاؤوا من بعده من نسله، وهي تسمية خاطئة، لأن هناك أنبياء قبله لم يكن أبا لهم، كما أن هناك أنبياء كاذبة وهو حتماً ليس أباهم، والأهم أنها ليست من القرآن فهم لم يشر إليها، وإنما أشار إلى مُعرِّفٍ آخر وهو: "أبو المسلمين"، فالخليل إبراهيم هو من ابتكر الاسم: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ ... ﴿٧٨﴾] سورة الحج ,٧٨]، فهو أول من استعمل الاسم وسمّى نفسه وأتباعه به: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ ... فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾] سورة البقرة ,١٢٨-١٣٢]، بينما لا يجد القارئ لقصص نوح وهود وصالح عليهم السلام أي ذكر لكلمة "الإسلام أو المسلمين" وإنما أمر بعبادة الله وترك الآلهة الأخرى وإتباع الرسل، فالحديث عن المضمون المُسمى بدون ذكر للاسم، وبهذا الاسم لزام أن يكون كل

[91] هذه الآيات لمخاطبة يهود أهل الكتاب الرافضين الإسلام وترك اليهودية، لما فيها من خسران الزعامة الدينية، فيبين الله لهم أن إبراهيم لم يحصل على الإمامة هكذا اعتباطاً وإنما لأنه أتم الكلمات التي ابتُلي بها، وأن الإمامة لا تورث للظالمين، وهم برفضهم هذا من الظالمين، فالخليل هو من رفع القواعد من البيت وهو من دعا لمكة ودعا أن يبعث الله فيها رسولاً منها، وهو كان مسلماً ووصى بها بنيه ويعقوب أن يموتوا على الإسلام، ومن ثم فعليهم أن يموتوا عليه.

نبي بعد الخليل نبياً للإسلام وليس لليهودية أو النصرانية أو أي اسم آخر حتى يكون الخليل أباه، أما قولهم أنه أبو الأنبياء فقد اعترف بأسماء الأديان المغايرة للإسلام.

وحقق الخليل إبراهيم في رحلته مع ربه النموذج الأمثل في العلاقة بين العبد والرب، فارتضى الله مثال إبراهيم ليكون قدوة للناس يتبعونها في عبادة ربهم، فجعله الله إماماً للناس، وألزمهم بإتباع ملته، وباتخاذ مقامه مصلى، ولذا نجد أن كل الأنبياء الذين جاءوا بعده اتخذوا ملة إبراهيم قاعدة لدعوتهم، مبينين أنهم جاءوا ليعيدوا الناس إلى ملة الخليل. ولا يعني قولنا بأن الخليل حقق النموذج الأمثل أنه لم تكن ثمة زيادات في الرسالات اللاحقة، فلقد زيدت الرسالات بعده وأصبحت أكبر حجما –في الجوانب التشريعية المرتبطة باختلاف الأزمنة– ولهذا نجد الرب يقول للرسول الكريم: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ... ﴿١٢٤﴾﴾ [سورة النحل, ١٢٠-١٢٤] فالله هدى الخليل إلى صراط مستقيم، أما "الصراط المستقيم" التام النهائي فلقد جاء به النبي محمد، الذي أمر بإتباع الملة الأصل ملة إبراهيم[92].

والخليل لم يصبح "أمة" هكذا بدون جهد عظيم جبار، وإنما ابتُلي ابتلاءات كثيرة حتى استحق أن يصبح "أمة"، ولم يبين الله الكلمات التي ابتلى إبراهيمَ ربُه بها، لذا وجدنا المفسرين قد ذكروا فيها احتمالات عديدة، فنجد الإمام الفخر الرازي يقول في تفسيره: "قال ابن عباس: هي عشر خصال كانت فرضاً في شرعه وهي سنة في شرعنا، خمس في الرأس وخمس في الجسد، أما التي في الرأس: فالمضمضة، والاستنشاق *وفرق الرأس*، وقص الشارب والسواك، وأما التي في البدن: فالختان، وحلق العانة، ونتف الإبط، وتقليم الأظفار والاستنجاء بالماء. وثانيها: قال بعضهم: ابتلاه بثلاثين

[92] هذه الآيات جاءت لتقول للنبي أنه ليس مأمورا باتباع تشريع السبت، وإنما مأمور باتباع ملة إبراهيم حنيفا، فالسبت على من اختلفوا فيه.

خصلة من خصال الإسلام، عشر منها في سورة براءة: "التائبون العابدون" إلى آخر الآية، وعشر منها في سورة الأحزاب: "إِنَّ المسلمين والمسلمات" إلى آخر الآية، وعشر منها في المؤمنون: "قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون" إلى قوله: "أولئك هُمُ الوارثون" وروى عشر في: "سَأَلَ سَائِلٌ" إلى قوله: "وَالَّذِينَ هُمْ على صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ"، فجعلها أربعين سهماً عن ابن عباس. وثالثها: أمره بمناسك الحج، كالطواف والسعي والرمي والإحرام وهو قول قتادة وابن عباس. ورابعها: ابتلاه بسبعة أشياء: بالشمس، والقمر، والكواكب، والختان على الكبر والنار وذبح الولد، والهجرة، فوفى بالكل فلهذا قال الله تعالى: "وإبراهيم الذي وفى" عن الحسن. وخامسها: أن المراد ما ذكره في قوله: "إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبّ العالمين". وسادسها: المناظرات الكثيرة في التوحيد مع أبيه وقومه ومع نمرود والصلاة والزكاة والصوم، وقسم الغنائم، والضيافة، والصبر عليها. قال القفّال رحمه الله: وجملة القول أن الابتلاء يتناول إلزام كل ما في فعله كلفة شدة ومشقة، فاللفظ يتناول مجموع هذه الأشياء ويتناول كل واحد منها، فلو ثبتت الرواية في الكل وجب القول بالكل، ولو ثبتت الرواية في البعض دون البعض فحينئذ يقع التعارض بين هذه الروايات، *فوجب التوقف والله أعلم*.[93]" اهـ

وهي كلها أقوال ما أنزل الله بها من سلطان ولا جاءت في حديث عن الرسول، ولا يتناسب بعضها مع كونها "كلمات" يُجعل الإنسان لإتمامها إماما، مثل القول بأنها الختان ونتف الإبط وحلق العانة ... الخ! وليس ثمة فائدة في معرفتنا إياها، ولو كانت لذكرها الله! وللقارئ الفضولي نقول: مدح الرحمن الرحيم سماتٍ لعباده في آخر سورة الفرقان فقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣ ... ﴾ [سورة الفرقان, ٦٣] الخ، فهذا المذكور نموذج مصغر، إذا أفلح الإنسان في تحقيقه يمكنه أن يدعو الله أن يجعله للمتقين إماما، فما فعله الخليل كان أعظم من هذا المذكور، ولهذا جُعل للناس إماما. ونلاحظ أن الله لم يقل للخليل أنه جعله إماما للناس، وإنما أعلمه ليقبل أو يرفض هذه الإمامة!

[93] فخر الدين الرازي، تفسير مفاتيح الغيب، الجزء الرابع، ص. 35.

وعلى الرغم من هذا التكريم الكبير والمنصب الجليل الذي ناله الخليل إبراهيم وجدنا من يقول أن إمام الناس أخفق في دعوته ولم يؤمن به أحد إلا أزواجه وأولاده ولوط،- استنادا إلى التوراة وظنا بأن القرآن لم يذكر مواقف لمن آمنوا به وإنما يقص عن أفعاله هو فقط- والناظر في القرآن يجد أن هذا قول مخالف لكتاب الله، الذي أشار إلى النجاح الباهر الذي حققه إبراهيم الخليل، فنجد أن الرب تقدس وتعالى يقول: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٦٨﴾]سورة آل عمران ,٦٨[، وهذه الآية دليل على وجود أتباع له غير أقرباؤه، وحتى لا يقال: وما المانع أن يكون الذين اتبعوه هم أقرباؤه؟ نقول: الدليل على ذلك قول الرب: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ٤﴾ [سورة الممتحنة ,٤] فالآية ذات دلالة واضحة على أن سيدنا إبراهيم كان له أتباع غير أزواجه وأبناءه، فهي تخاطب المؤمنين بأنه كان لهم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه الذين تبرؤا من قومهم من أجل الدين، والقدوة للناس العاديين تكون بالنبي وأتباعه الذين هم مثلهم لا بمجموعة أنبياء مثل إبراهيم وإسماعيل وإسحاق.

والذي يؤكد أن الذين معه ليسوا أبناءه هو آية التوبة: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ... ١١٤﴾ [سورة التوبة ,١١٤]، التي بيّنت أن استغفار إبراهيم لأبيه كان إلى موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، وكان هذا في أول البعثة فإذا كان الذين معه هم أولاده وليس أتباعه فهذا يعني أن المدة التي استمر إبراهيم يدعو فيها لأبيه قاربت خمسين عاما -فسيدنا إبراهيم أنجب على كبر وإسحاق ولد بعد إسماعيل بفترة من الزمان- ولو حسبنا الأعوام التي انقضت حتى كبروا ونضجوا ثم يتبرءون من أقوامهم مباشرة ولا

يزال الخليل يدعو لأبيه فإنه يكون غير مقبول بأي حال، أما إذا قلنا أن هذا الدعاء كان قبل ولادتهم وفي مقتبل حياة الخليل، وبعد ذلك بفترة قليلة عند انتهاء الموعدة وعندما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه فهذا ما ينسجم مع السياق، وبهذا يلزم أن يكون "والذين معه" هم أتباعه ممن آمنوا به وليسوا أولاده.

إن النقطة التي من أجلها قالت التوراة بهذا القول هو تحرجها من التصريح بجنس الذين آمنوا به واتبعوه وصدقوا دعوته، وهم أهل جزيرة العرب، على الرغم من أن كثيراً منهم آمن، ويدل على هذا أن الرب أمره بالنداء فيهم ليحجوا: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧﴾ [سورة الحج ,٢٧]، ولست أدري في أي أناس سيؤذن بالحج إذا كان لم يؤمن به أحد! ولست أدري كيف يقول المصدقون لما في التوراة بقولهم هذا على الرغم من وجود هذه الآية! إذا فالخليل لم يخفق وإنما دعا إلى الله على بصيرة واتبعه العرب أفواجا واتخذوه أباً لهم .. وقدّسوه!

ومِن أولى الناس الذين ينبغي التساؤل بشأنهم والدا الإنسان، فهل أسلم والدا الخليل أم لم يسلما؟! المشتهر بين عامة المسلمين أن أبا الخليل كان من المعاندين له ولم يؤمن! وكثيرٌ منهم يقول أن أباه آزر هذا لم يكن أباه وإنما عمه، ليس لإشارة في القرآن وإنما لأن المؤرخين والإخباريين قالوا أن أبا إبراهيم كان اسمه تارح، ومن ثم اعتمدوا على أن لسان القرآن والعرب يطلق الأب على الوالد وغيره، كما في جاء في قول الرب: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ۝١٣٣﴾ [سورة البقرة ,١٣٣]، فأطلق اسم الأب على الوالد والعم والجد، فاعتمدوا على ذلك في قولهم بأن آزر لم يكن والداً لإبراهيم، وهناك من تشدد في المقابل وقال أن القرآن سماه أباً ومن ثم فهو أبوه! ولا خلاف في أن آزر أبو إبراهيم، ولكن السؤال هو: هل هو والده أم أبوه؟! إن الناظر في القرآن يجد أنه ذكر مخاطبة إبراهيم لأبيه وقومه في ثمانية مواطن، ابتدأها بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ

أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ... ﴿٧٤﴾] سورة الأنعام, ٧٤[، فذكر اسم أبيه ثم اكتفى في باقي الآيات بقوله: "لأبيه" بدون ذكر الاسم، كما يجد أن القرآن قد شدد على تبرأ إبراهيم من أبيه في أكثر من موطن، مثل: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾] سورة التوبة, ١١٤[، فهل هناك إشارة تؤكد كون أبوه والدَه وليس عمه أو جده؟! نقول: الإشارات القرآنية التي تؤكد كون آزر ليس والد الخليل كثيرة، منها أولاً تحديد اسمه، ولو كان آزر والده لما كان هناك حاجة لتحديده بالاسم، كما نجد أن إبراهيم يدعو في آخر عمره قائلاً: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ... رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾] سورة إبراهيم, ٣٩-٤١[، ومن غير المقبول أن يدعو الخليل لمن تبين له أنه عدو لله، بينما من الممكن أن يدعو لمن مات في بداية دعوته أو قبل بدء دعوته، كما نجد أن أزر هذا على الرغم من مخاطبة إبراهيم له ب "يا أبت" في سورة مريم في أربع آيات متتاليات: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ ... ﴾] سورة مريم, ٤٢[نجد أن آزر لم يرد عليه بقوله: "يا بني" وإنما كان يخاطبه ب "يا إبراهيم"، بخلاف مخاطبة الخليل لابنه في موقف الذبح: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾] سورة الصّافّات, ١٠٢[، يضاف إلى ذلك أن القرآن لم يستعمل كلمة "جد" أو "جدة" وإنما مفردة "الأب والآباء"، ومن ثم فمن المقبول أن يكون آزر هذا جده وليس أباه، ويكون أباه مؤمناً.

هل كان الخليل مشركا؟!

النقطة التي تلفت الانتباه وتثير العجب في حديث القرآن عن الخليل هي أن الله عز وجل ينفي الشرك عنه في آيات عدة، على الرغم من أنه من المفترض بداهة أن يكون كذلك، وقد يكون هذا النفي راجع إلى الفرية التي افتراها اليهود والنصارى، الذين قال بعضهم أنه كان مشركا قبل أن يوحي الله إليه، وربما يكون هذا رداً على العرب الذين يدعون أنهم على ملة إبراهيم، ومن ثم فهم على صواب، فأكّد الله لهم أنه ما كان من المشركين! والعجيب أن بعض علماء المسلمين قال بقولهم!

على الرغم من أن الله نفى الشرك عنه في سبع آيات، مثل قوله: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [سورة البقرة, ١٣٥]، ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾]سورة النحل, ١٢٠[، ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [سورة الأنعام, ٧٩]، فنلاحظ أن الله تعالى نفى الشرك بجميع أشكاله وأنواعه عن سيدنا إبراهيم، فهو "ما كان من المشركين" و"لم يك من المشركين" و"وما أنا من المشركين" وهو حنيف مسلم قانت لله تعالى ليس يهوديا ولا نصرانيا، ولكن إذا كانوا قد ادعوا أنه منهم، بادعائهم أنهم الأصل، أفلا يقولون بهذا؟!: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [سورة آل عمران, ٦٥].

وهناك فريق آخر يرى أن الخليل لم يكن مشركا، وإنما كان مثل باقي الأنبياء معصوماً من الشرك ومن الكفر قبل البعثة وبعدها، ونقطة الخلاف الرئيس في قصة سيدنا إبراهيم هي الآيات الواردة في سورة الأنعام: ﴿وَكَذَٰلِكَ[94] نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ

[94] نرى والله أعلم أن "كذلك" معطوفة على قوله: "نصرف الآيات لعلهم يفقهون"، التي جاءت في قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ۝٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٧٨﴾] سورة الأنعام ,٧٥-٧٨[

حيث يقدم القائلون بأن إبراهيم كان على دين أبيه وقومه هذه الآيات دليلاً على دعواهم، ويرى النافون أن هذه الآيات كانت من باب الجدال والحوار والمراد منها إقامة الحجة على أقوامهم من أجل الدخول في دين الله تعالى!

والناظر في الآيات لا يجد أن هناك ما يشير إلى أنها من باب الجدال أو الاستدراج أو أن هناك استفهام محذوف! فهي تقول أن الخليل كان يتفكر في هذه المعبودات ثم وصل إلى بطلانها، ولما وصل إلى بطلانها بالدليل المنطقي حاجه قومه في مسألة بطلانها كما قال الله تعالى في الآية التالية "وحاجه قومه ..." وذكر القرآن محاجة قومه له دليل على أنه لم يكن يحاجهم أو يجادلهم بهذا الاستدلال حين حدوثه وإلا لكان هو البادئ وليس هم، ويكون فعلهم جدلا له وردا عليه وليس من باب المحاجة! فسيدنا إبراهيم لم يكن يحاج قومه وإنما كان ينظر في هذه الكواكب هل تصلح للإيمان أم لا، ووصل إلى أنها لا تصلح.

إذا فالقول الأول هو الصواب ولكن نتيجته خاطئة، فلا يترتب عليها أن الخليل كان مشركا، فالإنسان لا يكون مشركا إلا إذا آمن بشيء مع الله، والخليل لم يفعل، ونفصل فنقول: لا يُنعت المرء بالإيمان أو الكفر أو الشرك إلا في حالة بلوغه ونضجه، أما في حالة الطفولة فلا يُنعت بأحدها إلا بالتبعية لوالديه *وهذا التوصيف غير حقيقي لأنه لم*

ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ۝٦٥﴾] سورة الأنعام ,٦٥[... ﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧١﴾] سورة الأنعام ,٧١[... ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٧٤ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ ... ۝٧٥﴾] سورة الأنعام ,٧٤-٧٥[، أي وكما نصرف الآيات ليفقه المخاطب بها، نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض! ليفقه. وهذا دليل على أن الرؤية ليست رؤية بالعين وإنما إراءة قلبية عقلية (وربما في المنام) ليتفقه، و—من ثم— ليكون من الموقنين.

يتخذ أي موقف تجاه المسألة الإيمانية، لذا فلم يكن الخليل مشركا في طفولته لأن الأصل في الإنسان أنه يولد على الفطرة، فلما بلغ الخليل لم يتبع ملة أبيه وكفر بها وبأديان قومه بما أتاه الله من العقل والحكمة والرشد: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [سورة الأنبياء, ٥١]، فعندما بلغ الخليل وجد أباه وقومه يعبدون أصناما ومنهم من يعبد النجوم، فأخذ يقيس هذه المعبودات بمقياس العقل والفطرة، فوجدها لا تصلح أن تكون آلهة فأنكر على قومه عبادتها، فحاجه قومه، وأنكر عليهم عبادة الأصنام: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [سورة الأنبياء, ٥٢]، وبحث عن الإله وطلب العون منه –وهذا لا يُسمى شركاً– فهداه الله إليه ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [سورة الأنعام, ٧٩]

إذا لم يكن الخليل مشركا طرفة عين وإنما كان على الفطرة ومنها وصل إلى أعلى مراتب الإيمان، وانطلق في جميع مراحل حياته داعياً إلى الله ومذكراً به، مؤسسا لملكوت الله على الأرض.

والناظر في دعوة الخليل إبراهيم يجد أنها قامت على الحجة والإقناع والمجادلة بالتي هي أحسن، فلم يأت ب "آية" ليؤمن القوم، وإنما إظهار الحق وإزهاق الباطل. وعلى الرغم من ذلك نجد أنه اشتهر أنه كان للخليل آيتان، إحياء الطير والنجاة من النار، وقبل أن نتناول هاتين الآيتين لننظر ماذا قال القرآن فيهما وكيف عرضهما المفسرون، نُذكر بأنه لا إحياء الطير ولا النجاة من النار كانا موجهين إلى قومه، وإنما الأولى سؤال طلبه الخليل وأريه وحده! والثاني لإنجاءه من كيد قومه، ومن ثم لم يكن لهما أي دور في إقناع المخاطبين بالدعوة! ونبدأ بآية الطير لنبصر ما قال الرب فيها ثم نثني بالحديث عن النار.

الخليل والطير

ورد الحديث عن إحياء الطير في آية تتحدث عن موقف من الخليل في غير معرض القص عنه، تقول: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِيۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًاۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٦٠﴾ [سورة البقرة, ٢٦٠]

فإذا نظرنا في كتابات السادة المفسرين يجد أن هذه الآية *فُسرت* تفسيرا عجيبا شوّه صورة خليل الرحمن تشويها كبيرا، فنجد الإمام الطبري مثلاً يقول: "قال ابن جريج: *بلغني* أن إبراهيم بينا هو يسير على الطريق، إذا هو بجيفة حمار عليها السباع والطير قد تمزَّعت لحمها، وبقي عظامها. فلما ذهبت السِّباع، وطارت الطير على الجبال والآكام، فوقف وتعجب، ثم قال: ربّ قد علمتُ لتجمعنَّها من بطون هذه السباع والطير! ربّ أرني كيف تحيي الموتى! قال: أولم تؤمن، قال: بلى! ولكن ليس الخبر كالمعاينة[95]" اهـ

ولم يكتف الإمام الطبري بذكر السبب وإنما أخذ يذكر وصف الطيور وكيفية وضعها على الجبال، فقال: "حدثني حجاج: (قال فخذ أربعة من الطير) قال ابن جريج: *زعموا* أنه ديك، وغراب، وطاووس، وحمامة. ثم قال في تأويل "صرهن" فمعنى قوله: (فصُرْهن إليك) اضممهن إليك ووجِّههن نحوك، كما يقال: "صُرْ وجهك إليّ" أي أقبل به إليّ. ومن وَجَّه قوله: (فصرهن إليك) إلى هذا التأويل، كان في الكلام عنده متروك قد ترك ذكرُه استغناءً بدلالة الظاهر عليه. ويكون معناه حينئذ عنده، قال: (فخذ أربعةً من الطير فصرهن إليك)، ثم قطعهن، (ثم اجعل على كل جبل منهن جزءًا). وقد يحتمل أن يكون معنى ذلك إذا قرئ كذلك بضم "الصاد": قطِّعهن، (...) وإذا كان

---

[95] محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، الجزء الخامس، ص.486.

ذلك تأويل قوله: (فصرهن) كان في الكلام تقديم وتأخير ويكون معناه: فخذ أربعة من الطير إليك فصِرهن ويكون "إليك" من صلة "خذ". !! (...) *وزعم بعض نحويي الكوفة أنه لا يعرف لقوله: (فصُرهن) ولا لقراءة من قرأ: "فصرهن" بضم "الصاد" وكسرها، وجهًا في التقطيع*، إلا أن يكون "فصِرْهن إليك" في قراءة من قرأه بكسر "الصاد" من المقلوب، وذلك أن تكون "لام" فعله جعلت مكان عينه، وعينه مكان لامه، فيكون من "صَرَى يصري صَرْيًا"، فإن العرب تقول: "بات يَصْرِي في حوضه" إذا استقى (...) حدثنا سعيد عن قتادة: قال: أمر نبي الله أن يأخذ أربعة من الطير فيذبحهن ثم يخلط بين لحومهن وريشهن ودمائهن، ثم يجزئهن على أربعة أجبُل، *فذُكر* لنا أنه شكل على أجنحتهن، وأمسك برؤوسهن بيده، فجعل العظم يذهب إلى العظم، والريشة إلى الريشة، والبَضعة إلى البَضعة، وذلك بعين خليل الله إبراهيم صلى الله عليه وسلم. ثم دعاهن فأتينه سعيًا على أرجلهن، ويلقي كل طير برأسه وهذا مثل آتاه الله إبرهيم يقول كما بعث هذه الأطيار من هذه الأجبل الأربعة، كذلك يبعث الله الناسَ يوم القيامة من أرباع الأرض ونواحيها [96]" اهـ

وكما رأينا فإن هذه التفسيرات المأخوذة من الإسرائيليات، والتي لا يجد عامة المسلمين فيها أي حرج!، قالت أن خليل الرحمن شكّ، فطلب إلى الرحمن أن يريه كيف يحي الموتى ليطمئن قلبه، فأمره الله بأخذ طيور وتقطيعهن ووضعهن على عدة جبال ثم دعوتها فتأتيه سعيا، فيكون قد رأى بعينه وليس الخبر كالمشاهدة!!

ولست أدري ما الفارق بينه وبين أي إنسان عادي يطلب *معجزة* ليؤمن، فإذا كانت المعجزات لا تعطى للناس حتى يؤمنوا بعقولهم وقلوبهم، فما لنا رضينا للخليل ما لا نقبله على أنفسنا؟! والآية لم تقل بما قال به الإمام الطبري ومن تبعه، وإنما قالت شيئا آخر تماماً، فالفعل "صوَرَ" لا يعني التقطيع بحال! إلا أن الروايات الإسرائيلية قالت أنه قطع ومن ثم يجب أن يكون هذا معنى الكلمة!! ولكي يجعلها الإمام الطبري تقول

[96] المرجع السابق، ص. **495-506**.

بهذا قدّم وأخّر وغيّر بنية الكلمة فقلب حروف الكلمة، حتى يُقبل أن "صرهن إليك" تعني "قطعهن"، والقول بتقديم وتأخير ومحذوف بلا بيّنة افتراء وتقول على الله.

وأما المعنى الأصلي للفعل "صوَر"، والذي يفهم الآية كما هي، فقد ذكره الإمام الفخر الرازي في تفسيره، –وهو للعلامة أبي مسلم الأصفهاني–، فيقول: "إن إبراهيم عليه السلام لما طلب إحياء الميت من الله تعالى أراه الله تعالى مثالا قرب به الأمر عليه، والمراد بصرهن إليك الإمالة والتمرين على الإجابة،[97] أي فعوّد الطيور الأربعة أن تصير بحيث إذا دعوتها أجابتك وأتتك، فإذا صارت كذلك، فاجعل على كل جبل واحداً حال حياته، ثم ادعهن يأتينك سعياً، والغرض منه ذكر مثال محسوس في عود الأرواح إلى الأجساد على سبيل السهولة[98]" اهـ

إذن فالله تعالى قد أمر الخليل أن يأخذ أربعة من الطير، والتي لا يهمنا نوعها، وأن يعودها عليه بأن يأمرها فتجيب، مثل ما نراه في تربية الصقور مثلا، فمربي الصقور يدعو الصقر فيجيبه، وأن يجعل على كل جبل[99] منهن جزءً، فتكون الجبال إما أربعة جبال أو ثلاثة أو اثنتين، ثم يدعو الطيور فتأتيه سعيا. والغرض من هذا الأمر واضح وهو ضرب المثل لإبراهيم عليه السلام، فإذا كان إبراهيم العبد المخلوق عوّد طيرا فإذا دعاها أجابته، فما بالنا بالرحمن، فسيدعونا يوم القيامة فنجيب: ﴿... ثُمَّ إِذَا

---

(97) والدليل على هذا الاستعمال من اللغة قولهم "عصفور صوار" للذي يجيب إذا دُعي.

(98) فخر الدين الرازي، تفسير مفاتيح الغيب، الجزء السابع، ص.37.

وحتى لا يرفض عامة القراء الذين لا يعرفون المعنى الأصلي للصور هذا المعنى نقدم لهم الردود التي ذكر الإمام الفخر من الإمام أبي مسلم للرافضين لهذا التوجيه، حيث قال: "وأنكر الإمام القول بأن المراد منه: فقطعهن، واحتج عليه بوجوه الأول: أن المشهور في اللغة في قوله "فَصُرْهُنَّ" أملهن وأما التقطيع والذبح فليس في الآية ما يدل عليه، فكان إدراجه في الآية إلحاقاً لزيادة بالآية لم يدل الدليل عليها وأنه لا يجوز. والثاني: أنه لو كان المراد بصرهن قطعهن لم يقل "إليك"، فإن ذلك لا يتعدى بإلي وإنما يتعدى بهذا الحرف إذا كان بمعنى الإمالة. فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: فخذ إليك أربعة من الطير فصرهن. قلنا: التزام التقديم والتأخير من غير دليل مُلجيء إلى التزامه خلاف الظاهر. والثالث: أن الضمير في قوله "ثُمَّ ادعهن" عائد إليها لا إلى أجزائها، وإذا كانت الأجزاء متفرقة متفاصلة وكان الموضوع على كل جبل بعض تلك الأجزاء يلزم أن يكون الضمير عائداً إلى تلك الأجزاء لا إليها، وهو خلاف الظاهر، وأيضاً الضمير في قوله "يَأْتِينَكَ سَعْيًا" عائداً إليها لا إلى أجزائها وعلى قولكم إذا سعى بعض الأجزاء إلى بعض كان الضمير في (يَأْتِينَكَ) عائداً إلى أجزائها لا إليها." اهـ

(99) والذي نراه أن المراد من الجبال هنا الجبال التي في مكة، وربما تكون جبال منطقة مجاورة لها، والله أعلم .

دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ [سورة الروم, ٢٥]، فيعلم أن إحياء الموتى يكون بالدعوة، فالله يدعو فنجيب، والقول بضرب المثل لسيدنا إبراهيم أولى من القول بأنه أراه عيانا جهارا لأنه شك. فهذا التفسير الذي يقولون به يعد سبة في حق خليل الرحمن.

وقد يُرفض هذا الفهم المطابق لمنطوق الآية، لأنه ليس فيه مزية للخليل، فنُذكر بأن الله يقدم آيات للناس وليس معجزات، يقدم لهم آية تفهمهم وتعرفهم وتدلل على قوله، وهذا ما حدث مع الخليل فلقد قدم الله له آية وليس معجزة، فإبراهيم عليه السلام لم يشك[100]، وإنما حصل له اضطراب في هذه المسألة، فطلب إلى الله أن يريه كيفية إحياء الموتى، فهو لم يكن يريد أن يتأكد، بل يريد الكيفية.

الإلقاء في النار

لا خلاف بين المسلمين أن قوم إبراهيم ألقوه في النار وأن الله نجاه منها! لكون الله العليم قد ذكر هذا في كتابه في أكثر من موطن، فقال: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ [سورة الأنبياء, ٦٨-٧٠]، ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ [سورة الصّافّات, ٩٧-٩٨]، ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ [سورة العنكبوت, ٢٤]، إلا أن السؤال: هل التفاصيل التي ذكرها المفسرون بشأن الإلقاء في النار هي ما قال به القرآن؟ للأسف البالغ يجد

---

[100] ثمة رواية مدسوسة على الرسول(ص) تقول: "نحن أحق بالشك من إبراهيم ..."!!، ولقد لُقناها أثناء دراستنا في الأزهر! والعجيب أنهم قالوا لنا إن معنى الرواية: بما أن إبراهيم لم يشك ، فإذا نحن لم ولن نشك أيضا، فالرواية تنفي الشك!! وبالله عليكم هل إذا قال الرسول هذا الكلام يفهم منه ما يدعون؟ ولِم يتكلم الرسول (ص) بهذه التركيبات المعقدة التي سيساء فهمها حتما، ولم لا يقول كلامهم الذي ذكروه في التفسير مباشرة؟!

المرء أنهم زادوا عن كلام الله ما لا حاجة به، وما يخالفه مخالفة صريحة، فإذا نظرنا فيما ذكره الإمام الألوسي في تفسيره لآيات سورة الأنبياء وجدناه يقول: "وروي أنهم حين هموا بإحراقه حبسوه ثم بنوا بيتاً كالحظيرة بكوثى قرية من قرى الأنباط في حدود بابل من العراق وذلك قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ۝﴾] سورة الصّافّات ,٩٧[فجمعوا له صلاب الحطب من أصناف الخشب مدة أربعين يوماً فأوقدوا ناراً عظيمة لا يكاد يمر عليها طائر في أقصى الجو لشدة وهجها فلم يعلموا كيف يلقونه عليه السلام فيها، فأتى إبليس وعلمهم عمل المنجنيق فعملوه، وقيل: صنعه الكردي الذي أشار بالتحريق ثم خُسف به، ثم عمدوا إلى إبراهيم عليه السلام فوضعوه في المنجنيق مقيداً مغلولاً فصاحت ملائكة السماء والأرض: إلهنا ما في أرضك أحد يعبدك غير إبراهيم عليه السلام وأنه يحرق فيك، فأذن لنا في نصرته! فقال جل وعلا: إن استغاث بأحد منكم فلينصره وأن لم يدع غيري فأنا أعلم به وأنا وليه فخلوا بيني وبينه فإنه خليلي ليس لي خليل غيره وأنا إلهه ليس له إله غيري. فأتاه خازن الرياح وخازن المياه يستأذنانه في إعدام النار. فقال عليه السلام: لا حاجة لي إليكم حسبي الله ونعم الوكيل[101]" اهـ

وكما رأينا فلقد فصّل الإمام الألوسي في كيفية جمع هؤلاء للحطب وإلقاء إبراهيم في النار –ناهيك عن تقوله على الله بذكر كلاما بينه وبين الملائكة بدون بيّنة!– وهو قول لم يقله القرآن، وإنما قال أنهم أرادوا أن يبنوا بنيانا ليلقوه في الجحيم، ومن ثم فإنهم لم يُعدّوا الجحيم وإنما هو موجود أصلاً وهم يحتاجون لبناء بنيان ليلقوه فيه! ولقد ذكر الإمام الرازي تصوراً أقرب إلى الآيات يقول: "واعلم أن كيفية ذلك البناء لا يدل عليها لفظ القرآن، قال ابن عباس: بنو حائطاً من حجر طوله في السماء ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً وملئوه ناراً فطرحوه فيها، وذلك هو قوله تعالى: (فَأَلْقُوهُ فِى الجحيم) وهي النار العظيمة، قال الزجاج: كل نار بعضها فوق بعض فهي جحيم،

[101] محمود الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، الجزء السابع عشر، ص. 68.

والألف واللام في الجحيم يدل على النهاية والمعنى في جحيمه، أي في جحيم ذلك البنيان.[102]" اهـ

إلا أن هذا التصور لا يتطابق مع الآيات فهو يفهمها هكذا: "ابنوا له بنيانا فألقوه في جحيمه" فنسب الجحيم إلى البنيان وهذا ليس مما يُفهم بداهة من الآية! أما المفهوم بداهة من الآية هو أنهم سيبنون بنيانا ليلقوه في الجحيم، ومن ثم فإن الجحيم شيء موجود أصلاً، وهم في حاجة إلى بنيان ليلقوا إبراهيم فيه، فما هو الشيء الذي يُحتاج إلى بنيان ليلقى الإنسان فيه؟!

يبدو –والله أعلم– أنه كان حمم بركانية[103]، وكان قوم إبراهيم يريدون أن يلقوا بإبراهيم فيها، ولكن يبدو أن البركان كان يثور أو ما شابه ومن ثم فاحتاجوا لبنيان حتى يستطيعوا أن يلقوا إبراهيم فيه. وأرادوا أن يثبتوا بفعلهم هذا أن ينصروا آلهتهم ويثبتوا أنها تضر وتنفع فجعلهم الله الأسفلين الأخسرين، فسقطوا هم في النار أو أحرقتهم هم، وليس كما قال المفسرون أنهم أصبحوا الأخسرين والأسفلين في الحجة والجدال، فما جُعلوا كذلك إلا بعد محاولة الإلقاء، ووقتها ليس ثمة جدال ولا حجج، وإنما محاولة إهلاك ثم إنجاء إلى الأرض المباركة مكة، فمن ثم فالأكثر قبولا أن يكون خسرانهم بانقلاب كيدهم عليهم وإحراقهم في النار.

أما كيف أنجاه الله من النار فهو سبحانه أعلم به، فلقد بنى المفسرون تصوراتهم وأقوالهم على أن النار كانت من إنشاء قوم إبراهيم أما نحن فنقول أنها كانت حمماً بركانية، فهل ألقي فعلا فيها وجعلها الله لا تحرق، أم أن الله كادهم بأن جعل إبراهيم يسقط في منطقة من البركان فيها حمم قد بردت فلم تعد ملتهبة –لاحظ أنهم لم يكونوا فوق البركان وإنما يلقون الخليل من بنيان بجواره– أو أن الله برّدها سريعا قبل سقوطه فيها؟! الله أعلم كيف كان، ولكن على أي حال فإن القول بأن الحمم البركانية

[102] فخر الدين الرازي، تفسير مفاتيح الغيب، الجزء السادس والعشرون، ص. 131.

[103] قولنا بأن الجحيم هو حمم البركان استناداً إلى أنها النار الطبيعية الموجودة، والله تعالى قال أنهم سيبنون بنيانا ليلقوه في الجحيم، ومن ثم فهم بنوا ولم يشعلوا، فإذا لم يكن الجحيم حمماً بركانية، فماذا يكون؟!

هي النارٌ والجحيم قد قضى على الإشكالية الكبرى التي قابلت المفسرين، وهي كيف تبرد النار! –والتي حاول الإمام الفخر الرازي مثلاً أن يوجد لها تخريجاً في قرابة الصفحة الكاملة– لأن الحمم قابلة لأن تصبح برداً، فعندما تبرد تتصلب وتجف، بخلاف النار العادية والتي إذا نزعت منها الحرارة اختفت وانطفأت! وأنا وإن كنت أميل إلى أن إبراهيم لم يسقط في نار أصلاً ثم منعها الله من إحراقه، وأن ما حدث واحد من الاحتمالين الآخرين، إلا أني لا أجزم به، والله أعلم كيف حدث الإنجاء، والشاهد أنه نُجي من النار، كرامة له وليس لإقناع قومه.

إبراهيم الملك

من الأسماء التي ارتبطت بالخليل اسم الملك النمرود، ذلك الملك الذي اشتُهر في الثقافة الإسلامية أنه كان من ضمن أربعة حكموا العالم، على الرغم من أنه لا وجود تاريخي لذلك النمرود –على الأقل في العراق– وليس ثمة دليل على أن واحد من هؤلاء الأربعة حكم العالم فعلا! فما هو السبب الذي من أجله ارتبط إبراهيم بذلك الملك؟ السبب هو المحاجة التي ذكرها بين إبراهيم وشخص آخر: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [سورة البقرة, ٢٥٨] فقال المفسرون أنه هو الملك النمرود، وأنه لما حاج إبراهيم فقال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت، أتى الملك برجلين فأمر بإعدام أحدهما وإطلاق الآخر وادعى بذلك أنه يحيي ويميت .. الخ الآية.

إلا أن السؤال المحوري الذي لم ينتبه إليه المفسرون هو: لماذا حاج الملك إبراهيم؟ أليس من المفترض أنه أعلى مكانة دنيوية، ومن المفترض أن إبراهيم هو الذي يسعى

ليقنعه بالدخول في دين الله؟ قد يرى القارئ أنه يمكن غض الطرف عن هذا السؤال فالملك قد حاوره لسبب من الأسباب. فنقول: وهل قال الله فعلاً بما قاله المفسرون أما قال شيئاً آخر؟! إذا نحن نظرنا في الآيات وجدنا الرب يقول أن هناك من حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك، والمفترض أن يكون الضمير في "آتاه" عائداً على الخليل إبراهيم لأنه أقرب مذكور، وهو الذي يعطي المحاجة شكلاً منطقيا، فالأقل منزلة يحاج الأعلى، فهذا الرجل يحاج إبراهيم في ربه الذي آتى إبراهيم الملك، ومن غير المعقول أن أحاج إنسان في ربه لأنه آتاني أنا الملك. إلا أن المفسرين أعرضوا عن هذا المنطق وعن كون الضمير يعود إلى أقرب مذكور وجعلوا الرجل الذي يحاج إبراهيم هو الملك، وذلك لأنهم جعلوا المحاجة عامة بشأن ربوبية الله لأن هذا الملك كان يدعي الإلوهية، وليس بشأن هذه المسألة تحديدا!

ونذكر للقارئ الكريم التبريرات التي تحجج بها المفسرون في قولهم هذا، والتي ذكرها الإمام الفخر الرازي في تفسيره، فقال: "أما قوله: (أَنْ آتاه الله الملك) فاعلم أن في الآية قولين الأول: أن الهاء في آتاه عائدة إلى إبراهيم، يعني أن الله تعالى آتى إبراهيم صلى الله عليه وسلم الملك، واحتجوا على هذا القول بوجوه، الأول: قوله تعالى: ﴿... فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾] سورة النساء, ٥٤[أي سلطاناً بالنبوّة، والقيام بدين الله تعالى، والثاني: أنه تعالى لا يجوز أن يؤتي الملك الكفار، ويدعي الربوبية لنفسه والثالث: أن عود الضمير إلى أقرب المذكورين واجب، وإبراهيم أقرب المذكورين إلى هذا الضمير، فوجب أن يكون هذا الضمير عائداً إليه. والقول الثاني وهو قول جمهور المفسرين: أن الضمير عائد إلى ذلك الإنسان الذي حاج إبراهيم. وأجابوا عن الحجة الأولى بأن هذه الآية دالة على حصول الملك لآل إبراهيم، وليس فيها دلالة على حصول الملك لإبراهيم عليه السلام. وعن الحجة الثانية بأن المراد من الملك هاهنا التمكن والقدرة والبسطة في الدنيا، والحس يدل على أنه تعالى قد يعطي الكافر هذا المعنى، وأيضاً فلم لا يجوز أن يقال: إنه تعالى أعطاه الملك حال ما كان مؤمناً، ثم أنه بعد ذلك كفر بالله تعالى.

وعن الحجة الثالثة بأن إبراهيم عليه السلام وإن كان أقرب المذكورين إلا أن الروايات الكثيرة واردة بأن الذي حاج إبراهيم كان هو الملك، فعود الضمير إليه أولى من هذه الجهة[104]" اهـ

وكما رأينا فليس في أقوالهم ما يدفع وجوب عود الضمير على إبراهيم ولا ما يدل على أن الله لم يؤت إبراهيم الملك ومن ثم يجب القول به وعدم الالتفات إلى الروايات الخرافية![105] ولا يعني قولنا أن الله آتى إبراهيم الملك أنه أصبح ملكاً على دولة أو مملكة كبيرة، فيكفي كونه حاكما لمكة وما يجاورها أن يصبح ملكاً، ثم يتسع الملك بعده لآله فيصبح ملكاً عظيما. ولست أدري كيف غفل المفسرون عن كون إبراهيم هو السبب في نشوء مكة بفعله ودعاءه، فلماذا لا يكون قد مُلكها؟! نعم، ليس ثمة أدلة تاريخية ولكن يكفينا قول الله أنه آتاه الملك فنجزم بأنه كان ملكاً!

كذبات الخليل

على الرغم من أن عامة المسلمين يقولون بعصمة الأنبياء إلا أن كثيراً من أهل السنة لم يروا حرجاً في الإدعاء أن الخليل –الذي سمّاه الله صديقا: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾] سورة مريم ,٤١[– كذب ثلاث كذبات! وذلك

[104] المرجع السابق، الجزء السابع، ص.20 .

[105] بخصوص حديث الخليل عن الإحياء والإماتة فهو لم يكن يتكلم عن إحياء الأجساد وإنما يتكلم عن إحياء القلوب، ويدل على هذا الآية السابقة التي تقول: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾] سورة البقرة ,٢٥٧[فالخليل إبراهيم يقول للرجل أن ربه هو من يحيي الناس بالإيمان ويميتها بالكفر: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾] سورة الأنعام ,١٢٢[، –ولهذا جعله الله ملكاً ليمكن لدينه وينشر نوره– فتبجح الرجل وادعى أنه يحيي ويميت كذلك، ولهذا لم يرد الخليل عليه، ولو كان المقصود إحياء الأجساد لقال له أنت لم تحيي ولم تمت! فلمّا قال له الخليل إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب بهت الذي كفر.

لأن بعض الروايات قالت أن الخليل ما كذب إلا ثلاث كذبات: لما قال لقومه بل فعله كبيرهم هذا والثانية لمّا قال لهم: إني سقيم، والثالثة لما سأله الملك عن زوجه سارة، فقال له أنها أختي.

ونحن الذين لا نقول بعصمة الأنبياء، ونرى أنه من الممكن أن يصدر عنهم المعاصي أو الذنوب، نقول أن الخليل لم يكذب، لأنه لم يقم دليل على ذلك، فلا يعني قول التوراة أن إبراهيم قال أنها أخته أن نبحث لهم عن مبرر، ولا يلزم من قوله أني سقيم أنه لم يكن سقيم فعلاً، وأما قولهم بأن: "بل فعله كبيرهم هذا" كذب، فمن العجب العجاب، فلقد قيلت هذه الجملة في معرض حوار الخليل لقومه.

ونذكر للقارئ الكريم السياق الذي وردت فيه الجملة، وبعض الردود التي رد بها الإمام الفخر الرازي على من قال بهذا القول: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَـٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ۝٥٧ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ۝٥٨ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٥٩ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتًى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ۝٦٠ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ۝٦١ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَـٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ۝٦٣ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۝٦٤ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝٦٥﴾ [سورة الأنبياء ,٥٧-٦٥] قال الإمام الفخر الرازي في تفسيره: "فإن قيل قوله: بل فعله كبيرهم كذب. والجواب للناس فيه قولان: أحدهما: *وهو قول كافة المحققين أنه ليس بكذب*، وذكروا في الاعتذار عنه وجوهاً، أحدها: أن قصد إبراهيم عليه السلام لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم، إنما قصد تقرير لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم، وهذا كما لو قال لك صاحبك، وقد كتبت كتاباً بخط رشيق، وأنت شهير بحسن الخط: أأنت كتبت هذا؟ وصاحبك أمي لا يحسن الخط ولا يقدر إلا على خرمشة فاسدة، فقلت له: بل كتبته أنت. كأن قصدك بهذا الجواب تقرير ذلك مع الاستهزاء به لا نفيه عنك وإثباته للأمي أو المخرمش، لأن إثباته والأمر دائر بينهما للعاجز منهما استهزاء به وإثبات للقادر.

وثانيها: أن إبراهيم عليه السلام غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة مزينة، وكان غيظه من كبيرها أشد لما رأى من زيادة تعظيمهم له فأسند الفعل إليه لأنه هو السبب في استهانته بها وحطمه لها، والفعل كما يسند إلى مباشره يسد إلى الحامل عليه. وثالثها: أن يكون حكاية لما يلزم على مذهبهم كأنه قال لهم: ما تنكرون أن يفعله كبيرهم، فإن من حق من يعبد ويدعي إلهاً أن يقدر على هذا وأشد منه. وهذه الوجوه الثلاثة ذكرها صاحب «الكشاف». (...) وسادسها: أن يكون في الكلام تقديم وتأخير كأنه قال: بل فعله كبيرهم هذا إن كانوا ينطقون فاسألوهم، فتكون إضافة الفعل إلى كبيرهم مشروطاً بكونهم ناطقين فلما لم يكونوا ناطقين امتنع أن يكونوا فاعلين. (...) القول الثاني –وهو قول طائفة من أهل الحكايات– أن ذلك كذب، واحتجوا بما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات كلها في ذات الله تعالى، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا﴾ وقوله لسارة: «هي أختي» وفي خبر آخر: «أن أهل الموقف إذا سألوا إبراهيم الشفاعة قال: إني كذبت ثلاث كذبات» (...) واعلم أن هذا القول مرغوب عنه، أما الخبر الأول وهو الذي رووه فلأن يضاف الكذب إلى رواته أولى من أن يضاف إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والدليل القاطع عليه أنه لو جاز أن يكذبوا لمصلحة ويأذن الله تعالى فيه، فلنجوز هذا الاحتمال في كل ما أخبروا عنه، وفي كل ما أخبر الله تعالى عنه وذلك يبطل الوثوق بالشرائع وتطرق التهمة إلى كلها، ثم إن ذلك الخبر لو صح فهو محمول على المعاريض على ما قال عليه السلام «إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب» فأما قوله تعالى: ﴿إِنّى سَقِيمٌ﴾ فلعله كان به سقم قليل واستقصاء الكلام فيه يجيء في موضعه. وأما قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ فقد ظهر الجواب عنه. أما قوله لسارة: إنها أختي، فالمراد أنها أخته في الدين، وإذا أمكن حمل الكلام على ظاهره من غير نسبة الكذب إلى الأنبياء عليهم السلام فحينئذ لا يحكم بنسبة الكذب إليهم إلا زنديق[106]." اهـ

---

[106] المرجع السابق، الجزء الخامس والعشرون، ص.51.

إذا فالخليل إبراهيم لم يكذب هذه الكذبات الثلاثة، وما انتشار هذا القول إلا لمنطق عجيب عند كثير من المسلمين، يجعل بعضهم يتحرج من تكذيب الرواة ولا يتحرج من نسبة الكذب إلى الأنبياء!!

لوط عليه السلام

ذكرت التوراة أن لوطاً كان ابن هاران، أخو سيدنا إبراهيم، ولم يقل القرآن بهذا أو ينفه، وإنما قال أنه كان موجوداً في زمانه، بدليل قول العليم: "فَآَمَنَ لَهُ لُوطٌ"، والذي يستدل به عامة المفسرين على أن لوطاً آمن ب إبراهيم، وربما قيل أنه لم يؤمن من قوم إبراهيم إلا سيدنا لوط بسبب هذه الجملة، على الرغم من أن الله تعالى لم يقل: "فآمن به لوط" وإنما قال: "فآمن له لوط"، وأن تؤمن لشخص غير أن تؤمن به!

والناظر في القرآن يجد أنه لم يشر في آية واحدة إلى أن قوم لوط كانوا مشركين! فلم نجد أن سيدنا لوطاً قال لقومه مرة: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره. وإنما كان الحديث دوما عن الفاحشة التي كان قومه يأتونها!

ولقد انتبه الإمام الفخر الرازي لهذه النقطة وحاول أن يوجد لها تبريراً، فقال: "قال إبراهيم لقومه: (اعبدوا الله) وقال عن لوط هاهنا أنه قال لقومه (لَتَأْتُونَ الفاحشة). فنقول: لمّا ذكر الله لوطاً عند ذكر إبراهيم وكان لوط في زمان إبراهيم لم يذكر عن لوط أنه أمر قومه بالتوحيد، مع أن الرسول لا بد من أن يقول ذلك. فنقول: حكاية لوط وغيرها هاهنا ذكرها الله على سبيل الاختصار، فاقتصر على ما اختص به لوط وهو المنع من الفاحشة، ولم يذكر عنه الأمر بالتوحيد وإن كان قاله في موضع آخر حيث قال: ﴿... ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ... ﴿٥٩﴾﴾] سورة الأعراف ,٥٩[لأن ذلك كان قد أتى به إبراهيم وسبقه فصار كالمختص به ولوط يبلغ ذلك عن إبراهيم.

وأما المنع من عمل قوم لوط كان مختصاً بلوط، فإن إبراهيم لم يظهر ذلك (في زمنه) ولم يمنعهم منه فذكر كل واحد بما اختص به وسبق به غيره[107]" اهـ

أما نحن فلا نقول إلا بما قال به القرآن، وهو أن لوطاً أُرسل ليحذر قومه عاقبة هذه الآفة الخلقية، ومن ثم يمكننا القول أنه من الممكن أن يرسل الله رسولاً إلى قوم لا يشركون به وإنما يرتكبون آثاما معينة، لينهاهم عنها.

ولقد ذكر الله تعالى الآفات التي كان عليها هؤلاء القوم مفصلة في سورة العنكبوت، فقال: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٨ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٩﴾ [سورة العنكبوت, ٢٨-٢٩] فقوم لوط كانوا قد وصلوا إلى درجة كبيرة من الانحلال الخلقي، فأصبحوا يأتون الرجال –ولم يقل القرآن أن السحاق كان قد بدأ فيهم كذلك، ولو كان وُجد لذُكر، ولم يقل بذلك من قاله إلا استنتاجاً– ويقطعون السبيل ويفعلون المنكرات مجاهرة.

وقوم لوط أكبر رد على من يقول أن اشتهاء نفس الجنس أمر يولد به الإنسان، فليس من المعقول أن قوم لوط ولدوا كلهم –باستثناء آل لوط– بهذا الميل، وإنما كان فعلهم كما قال سيدنا لوط: إسرافا! فهم ما فعلوا هذا إلا بعد أن ملوا الفاحشة المألوفة ومن ثم انتقلوا إلى إتيان الذكور، ولهذا كانوا أول من فعل هذا الفعل في المجتمعات البشرية، وهذا يؤكد ما قلنا به من أن تحريم العلاقة الجنسية خارج الزواج هو لكي لا يظهر الشذوذ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝٨١﴾ [سورة الأعراف, ٨٠-٨١]، فهو يعيب عليهم هذه الفعلة، ثم يُضرب عن هذا بقوله "بل"، فكأنه يقول لهم: كيف تأتون الرجال شهوة! لا فأنتم لا تشتهون الرجال أصلا،

(107) المرجع السابق، ص.51.

فليس هذا في طباعكم، وإنما تفعلونه سرفا!! فلقد تلذذتم بكل اللذائذ حتى مللتم فالتفتم إلى هذا الصنف الشاذ تغييرا![108]

وقابل قوم لوط دعوته بمطالبته بنزول عذاب الله بهم، ثم وصل الأمر بهم بعد أن ضاقوا ذرعاً بدعوته أن طالبوا بإخراجه من قريتهم، بحجة أنهم من أرباب الفضيلة الزائفة: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [سورة الأعراف, ٨٢]

وهنا أعلن لوط كراهته لهذا المستنقع الآسن ورغبته في النجاة منه: ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [سورة الشعراء, ١٦٨-١٦٩]، **ولما سأل لوط ربه النصرة نزلت الملائكة من السماء، وكان نزول الملائكة لغايتين، الأولى: تبشير سيدنا إبراهيم بالولد والثانية إهلاك أهل هذه القرية، ولقد حاول إبراهيم الحليم الأواه أن يرد العذاب عنهم وجادل فيهم:** ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة العنكبوت, ٣١-٣٢]

ولما جاءت رسل الملائكة لوطاً ضاق بهم، فهو يعلم أن قومه سيحاولون أن يفعلوا بهم الفاحشة وهو لا يقدر على ردهم، وقصّت سورة هود هذا المشهد فقالت: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْيَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي

---

[108] وهذا ما نراه مع كثير من الشواذ الغربيين الذين بدأوا هذا الأمر كتجربة، بعد أن ملوا الممارسات الطبيعية، ففكروا في تجربة هذا الشكل، بخلاف الذين تعرضوا لحوادث في صغرهم فوجهتهم هذا التوجه.

بَنَاتِكَ[109] مِنۡ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ ... ﴿٨١﴾﴾ [سورة هود, ٧٧-٨١]

ولقد توقف المفسرون مع قول سيدنا لوط: "هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ"، فكيف يعرض نبي الله لوط بناته على القوم، وهذا سيكون زنا؟ فقال بعضهم أنه عرض عليهم نساء القرية وسماهم بناته باعتبار أن النبي لوط أب لهم! وهذا توجيه عجيب، فكيف يكون النبي أبا لهم وهم ينكرون نبوته وأبوته؟! وقال آخرون: عرض عليهم بناته على طريق الزواج لا عن طريق الزنا. إلا أن الآيات لم تُشر إلى الزواج، وإنما ذكرت العرض بدون إشارة إليه. ويمكننا القول أن هذا العرض من باب تعلق الغريق بالقشة، التي يعلم أنها لن تفعل شيئا! وإنما يحاول النجاة بأي حال، ولهذا قالوا له: لقد علمت ما لنا في بناتك من حق! فنحن لسنا أزواجاً لهن، ونحن لا نريدهن أصلا، وأنت تعلم ما نريد. وأمرت الملائكة لوطاً بالخروج من القرية هو وأهله حتى ينجو من العذاب: ﴿... فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾﴾ [سورة هود, ٨١]، ونهته عن التفكير في القرية والعودة إليها.

والتبس الاستثناء "إلا امرأتك" على بعض المفسرين فظنوا أن ظاهر الآية يفيد الأمر، فالملائكة تنهاهم عن الالتفات إلا المرأة التي يصيبها ما أصابهم. وهذا الالتباس والإشكال راجع إلى الفهم المتأثر بالتوراة والتي قالت في سفر التكوين أن امرأة لوط خرجت معهم إلا أنها "وَتَلَفَّتَتْ زَوْجَةُ لُوطٍ السَّائِرَةُ خَلْفَهُ وَرَاءَهَا، فَتَحَوَّلَتْ إِلَى عَمُودٍ مِنَ الْمِلْحِ"، أما القرآن فلم يقل أنها أُخرجت أصلا، وإنما قال أن سيدنا لوط أُمر بالخروج والإسراء بأهله إلا امرأته، فهي ممن سينزل بهم العذاب، فما فائدة الإخراج إذا كانت ستُهلك أصلا؟! ومن ثم فإن الاستثناء متعلق بالإسراء وليس بالالتفات، فلقد أسرى لوط بأهله وبقيت امرأته، والتي نزل بها وبقومه العذاب.

---

[109] قالت التوراة أنه كان للوط بنتان، بينما قالها القرآن في المواطن الثلاثة التي ذكرها فيها بصيغة الجمع "بنات" مما يرجح أنهن كن أكثر من اثنتين! كما أنها قالت أنه عرفهم، بينما قال القرآن أنه لم يعرفهم وظن أنهم بشر، لذلك ضاق بهم ذرعا.

والملاحظ أن هلاك قرية قوم لوط لم يكن هلاكا طبيعيا، وإنما أُنزل بهم العذاب عقاباً على أفعالهم، فأمطروا مطر السوء وجعل عاليها سافلها: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ۝﴾ [سورة هود, ٨٢-٨٣]

وهناك من قال أن المراد من السجيل هو حجارة ساقطة من بركان، إلا أننا أن هذا لا ينطبق مع سمة الإمطار، وأرى والله أعلم أنها إما أن تكون نيازك منزلة من الفضاء، فأمطرت القرية بمطر منها أو أنها حجارة من خارج كوننا كله. وأما قوله: ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ فلا يعني أنها انقلبت وإنما أن العالي صار سافلاً، فلقد تهدمت المباني وانهارت المرتفعات، كما نقول بالعامية: "هيجيب عاليها واطيها"، بمعنى أنه سيهدمها تماما.

ولا ينطبق قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ مع ما روي موقوفاً على محمد بن كعب القرظي أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت مدائن قوم لوط وقلعها وصعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نهيق الحمير ونباح الكلاب وصياح الديوك، ثم قلبها دفعة واحدة وضربها على الأرض، لأن الله قال: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝﴾ [سورة الحجر, ٧٤]، فكيف يمطر القوم بالحجارة وقد صاروا أسفلها؟!

والدليل القاطع على نفي هذا التصور الخرافي هو ما قاله الرب في سورة الحجر: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝﴾ [سورة الحجر, ٧٣-٧٤]، فجعل العالي سافلاً مترتب على الصيحة، فهي التي جعلت العالي سافلاً –وليس أسفلا–، ومن ثم فإن قوم لوط قد عُذبوا بعذابين اثنين وليس ثلاثة، هما: الصيحة، وهي التي هدّمت وجعلت العالي سافلا وأخذت القوم، والإمطار بالحجارة. فليس ثمة رفع إلى السماء وقلب في كلام الله، وإنما في

"حكاوي" الناس! ومسألة الإهلاك بالصيحة من المسائل التي تفرد بها القرآن، وفيها سبق علمي فريد، بإشارته إلى أن الصوت الشديد يكون سببا في تدمير المباني وإهلاك البشر.

أبناء إبراهيم

على العكس من الأب إبراهيم والذي ذكر له القرآن مواقف عديدة في مواطن كثيرة، فإن القرآن قد سكت تماما عن أبناء إبراهيم، فلا نجد أي تفاصيل تُذكر بالنسبة لهم ولدعوتهم، فلا نجد ذكراً لإسماعيل إلا مع أبيه في بناء البيت، كما في قوله: ﴿... وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾]سورة البقرة, ١٢٥[، ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾] سورة البقرة, ١٢٧[، وكذلك في معرض الحديث عن أمر الخليل بذبح ابنه، بينما لم يُذكر أي عمل لإسحاق عليه السلام، واختلف الحال مع يعقوب فلقد ذكر له بعض مواقف غير متعلقة بالدعوة مثل: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾] سورة البقرة, ١٣٣[، ومثل مواقفه في سورة يوسف.

نعم هناك عمومات تحدثت عنهم، مثل قول الرب العليم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾] سورة الأنبياء, ٧٢-٧٣[

إلا أنه ليس ثمة حديث مباشر عنهم، ويمتد الأمر مع يوسف نفسه، فلا نجد في السورة الكبيرة المسماة باسمه إلا موقفا دعوياً واحداً في السجن، بينما السورة تقص

أحداث حياته بشكل عام، وليس ثمة ذكر له في غير السورة إلا في قول الرب في غافر: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة غافر, ٣٤]، وهو حديث عن موقف الآخرين منه بالدرجة الأولى، وحديث عام عن يوسف بدون أي تفاصيل أو مواقف معينة. وأتساءل: لماذا هذا السكوت عن دعوة هؤلاء الأنبياء؟! هل لأن أقوامهم استجابوا لهم مثلاً، ومن ثم فليس قصصهم مناسب للعرض على المكذبين، أم لأن دعوتهم لم تقدم جديدا وكانت استمرارا لما أسسه الأب إبراهيم، وكان دورهم أقرب إلى "الكهانة" بالحفاظ على تراث الأب، أم لأن الغرض من ذكرها كان إظهار الفضل على إبراهيم بأن جُعل أبنائه أنبياء من بعده؟!

الله أعلم لماذا لم يذكر التفاصيل، وكل استنتاجاتنا لا تزيد عن الاحتمالات، ومن ثم لا نشغل أنفسنا بالبحث عن مزيد من التفاصيل بشأنهم.

الأسباط

كما لم يذكر القرآن تفاصيل دعوة أو نبوة أبناء إبراهيم، لم يذكر كذلك تفاصيل نبوة الأسباط وإنما اكتفى بذكرهم مع الأنبياء، فقال أنه أُوحي إليهم: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [سورة النساء, ١٦٣]، وقال أنه أُنزل إليهم: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [سورة البقرة, ١٣٦]، وكما أمرنا أن نؤمن بما أُنزل إليهم أمرنا بأن نؤمن بما أُنزل عليهم: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ

عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾] سورة آل عمران, ٨٤]، وبيّن أنهم كذلك كانوا مسلمين: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ... ﴿١٤٠﴾] سورة البقرة, ١٤٠]

ولقد لاحظ المفسرون أنهم في المرات الأربع التي ذُكروا فيها كانوا بعد يعقوب، ولهذا قال بعضهم أن المراد من الأسباط أبناء يعقوب عليه السلام! ولمّا قالوا بهذا القول احتاروا في نبوتهم! فكيف يكون من صدر عنهم مثل هذه الأفعال، مثل التخطيط لقتل يوسف، أنبياء؟! ومن ثم قال بعضهم أن الأسباط أبناء يعقوب إلا أنهم ليسوا بأنبياء، وقال آخرون أنهم أصبحوا أنبياء فيما بعد!

وأنا أعجب كيف قالوا أن الأسباط هم أبناء يعقوب! فالسبط في اللسان ولد الولد، سواء كان ولد الابن أو الابنة، وهناك من جعله في ولد الابنة فقط، إلا أن الأصح أنه يشمل ولد الابن والابنة، فكيف جعلوا الأسباط الأبناء المباشرين؟! العجيب أن هناك من جعل هذه حالة استثنائية، فقال أن الأسباط أولاد الأولاد إلا مع الأنبياء فيكونون الأبناء! وذلك ليصحح قول من جعل الأسباط أبناء يعقوب!!

ولا يعجب القارئ من هذا الاستثناء، فالناظر في الكتابات المتداولة بشأن الأسباط يجدها تجعلها استثناءً كذلك، ولكنها تظهر الاستثناء في شكل الأصل، فنجدها تقول أن السبط في بني إسرائيل كالقبيلة في العرب. ولست أدري هل اختصت العربية بني إسرائيل بأسماء خاصة؟! ومتى حدث هذا وكيف؟! إن المجموعات البشرية بغض النظر عن أصلها تأخذ نفس الأسماء، فالشعب شعب والقبيلة قبيلة ... الخ، فمن ميّز بني إسرائيل عن غيرهم؟! لم يكن لهم أي تمييز، ولكنه توجيه قاله بعض علماء اللغة فتلقفه من جاء بعدهم وأصبح هو التوجيه المعتمد. وبسبب هذا التوجيه اختلفت صورة الأسباط في الأذهان، فوجدنا بعض العلماء مثل ابن تيمية يتصرف بمنطقية مع الكلمة

وينفي أن يكون الأسباط أبناء يعقوب وينفي نبوتهم، ويقول أن المراد بالأسباط ذريته ونسله!

إلا أن هذا القول يتعارض كذلك مع القرآن الذي قال أنه أوحى وأنزل إليهم، ومن غير الممكن أن يوحي الله إلى قبائل بأكملها وينزل إليها. والسبب الذي جعل المفسرون يذهبون بأفهامهم هذا المذهب هو أنهم أخذوا معنى واحداً للسبط واعتمدوه تفسيراً للكلمة، ومن ثم أصبح لزاما الحديث عن جماعات وقبائل، بينما للكلمة معان أخرى أصيلة، ولو كان المعنى الأصلي للكلمة البنوة لكان من الممكن الإشارة لذلك، ولكن الله تحدث دوماً عن "الأسباط"، فهل يكون في هذا إشارة إلى أن سِمة الأسباط متعلقة بهم بالدرجة الأولى وليس بيعقوب؟! يحتمل ذلك، فإذا نظرنا في لسان العرب ألفينا ابن منظور يقول: "السَّبْطُ والسَّبَطُ والسَّبِطُ: نقيض الجَعْد، (...) والسَّبْطُ الشعر الذي لا جُعُودة فيه. (...) رجل سَبِطُ الجسمِ وسَبْطُه: طَويلُ الأَلواحِ مُسْتَوِيها بَيّنُ السَّباطةِ، ..[110]" اهـ

ومن ثم يمكن القول أن الأسباط جماعة من الأنبياء اشتهروا بالسمات الحسنة وبعظم الخلقة أرسلهم الله لقومهم. والله أعلم من نسل مَن كانوا، فالله تعالى يذكرهم دوما بعد إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، ولم يقل الله مرة "وأسباطه" ليؤكد أنهم من نسل يعقوب مثلا، ومن ثم فمن الممكن أن يكونوا من نسل إسماعيل أو إسحاق .. والله أعلى وأعلم.

شعيب عليه السلام

ذُكر سيدنا شعيب في القرآن عشر مرات في أربع سور، والملاحَظ أنه يُسبق دوما بسيدنا لوط في المواطن الأربعة، إلا أنه لم يُقل أن قومه جُعلوا خلفاء من بعد قوم

[110] جمال الدين بن منظور، لسان العرب، الجزء الثالث، ص. 1921-1922.

لوط! ومن ثم فهم لم يكونوا في نفس المكان ولا من نسل الناجين منهم، إلا إنها إشارة إلى قربهم الزماني أو المكاني منهم.

فإذا نظرنا في دعوة سيدنا شعيب وجدنا أنه يدعو قومه لعبادة الله وحده، مستنداً إلى أنه قد جاءتهم بينة من ربهم، ولم يصرح القرآن ما هي هذه البينة، فهل تكون هلاك قوم لوط القريبين منهم؟! الله أعلم! إلا أن ما يلفت الانتباه هو ارتباط اسم القوم والنبي بالعمران، فهم مدين .. تمدّن، وهو شُعيب .. تصغير شعب! وفي هذا إشارة لمن يتدبر ويتفكر!

والناظر في حال قوم سيدنا شعيب يجد تشابها بين فعلهم وفعل ثمود، فلقد كانت آفة ثمود الإفساد، وكانت آفتهم كذلك الإفساد يضاف إليه بخس الناس أشياءهم وعدم إيفاء الكيل: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۗ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٨٥﴾ [سورة الأعراف, ٨٥]، ولهذا عندما أُنزل بهم العذاب كان هو نفس العذاب، فالله قال في حق ثمود: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٧٨﴾ [سورة الأعراف, ٧٨]، وقال في حق مدين: "فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩١﴾ [سورة الأعراف, ٩١]، وكما قال في حق ثمود: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧﴾ [سورة هود, ٦٧]، قال في حق مدين: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩٤﴾ [سورة هود, ٩٤]، وربط مباشرة بينهما فقال: ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ٩٥﴾ [سورة هود, ٩٥]

والملاحظ أن قوم مدين لم يرموا شعيباً بالضلال ولا بالسفاهة، بل قالوا أنه حليم رشيد، إلا أنهم لم يستجيبوا لدعوته بحجة أن ما يأمرهم به سيؤدي إلى الفساد في

الأرض، وهكذا رموه بما هو فيهم، فرد عليهم: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُ[111] إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾ [سورة هود, ٨٨] فالله رزقه رزقا حسناً بدون الحاجة إلى طرقهم الملتوية، وهو لا يريد الإفساد وإنما يريد الإصلاح، فما يأمر به فيه الفلاح والنجاة.

وعلى الرغم من أنه بيّن لهم أن ما عند الله خير وأبقى وأنه ليس حفيظاً عليهم يمنع نزول العذاب عنهم، إلا أنهم لم يستجيبوا واستمروا على حالهم بل وهددوه بالإخراج هو ومن معه إن لم يعودوا لملتهم، فقال لهم أن هذا سيكون افتراء على الله لأنه يعني كذبه في دعوته السابقة. ولم ينزل العذاب بهم استجابة لمطلبهم وإنما عقاباً لهم على فعلهم وجحدهم لبينة شعيب.

والناظر في حديث الرب عن دعوة شعيب يجد أنه قد ذكرها مرة بقوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا ... ٨٤﴾ [سورة هود, ٨٤]، وقصّ مرة أصحاب الأيكة فقال: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧٦ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٧٧ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٧٨ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٧٩ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٨٠ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ١٨١ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ١٨٢ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ١٨٣﴾ [سورة الشعراء, ١٧٦-١٨٣]، ولهذا الاختلاف قال بعض المفسرين أنه أرسل إلى قومين اثنين، مرة إلى مدين ومرة إلى أصحاب الأيكة! ولقد أحسن الإمام ابن كثير الرد على هذا الرأي، فقال: "ومن زعم من المفسرين [كقتادة] وغيره: أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين، فقوله ضعيف. وإنما عمدتهم شيئان: أحدهما أنه قال: "كذب أصحاب الأيكة المرسلين إذ قال لهم شعيب" ولم يقل أخوهم كما قال: "وإلى مدين أخاهم شعيبا".

[111] ظن عامة المفسرين أن حديث سيدنا صالح هنا عن الشهوات أو الكفر، ولو كان كذلك لقال لهم: وما أريد أن أتبعكم فيما أنهاكم عنه! بينما هو في الرد على اتهامهم الضمني لدعوته بالإفساد، فقال لهم أنه لا يريد إلا الإصلاح ما استطاع.

والثاني: أنه ذكر عذابهم بيوم الظلة، وذكر في أولئك الرجفة أو الصيحة. والجواب عن الأول: أنه لم يذكر الإخوة بعد قوله: "كذب أصحاب الأيكة المرسلين" لأنه وصفهم بعبادة الأيكة، فلا يناسب ذكر الإخوة هاهنا. ولما نسبهم إلى القبيلة ساغ ذكر شعيب بأنه أخوهم. وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة. وأما احتجاجهم بيوم الظلة: فإن كان دليلا بمجرده على أن هؤلاء أمة أخرى، فليكن تعداد الانتقام بالرجفة والصيحة دليلا على أنهما أمتان أخريان، وهذا لا يقوله أحد يفهم شيئا من هذا الشأن. [فأما الحديث الذي أورده الحافظ ابن عساكر في ترجمة النبي شعيب عليه السلام، من طريق محمد بن عثمان بن أبى شيبة، عن أبيه، عن معاوية ابن هشام، عن هشام بن سعد، عن شفيق بن أبى هلال، عن ربيعة بن سيف، عن عبد الله بن عمرو مرفوعا: "إن قوم مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيباً النبي عليه السلام". فإنه حديث غريب، وفى رجاله من تُكلم فيه. والأشبه أنه من كلام عبد الله بن عمرو، مما أصابه يوم اليرموك من تلك الزاملتين من أخبار بنى إسرائيل. والله أعلم]. ثم قد ذكر الله عن أهل الأيكة من المذمة ما ذكره عن أهل مدين من التطفيف في المكيال والميزان، فدل على أنهم أمة واحدة، أهلكوا بأنواع من العذاب. وذكر في كل موضع ما يناسب من الخطاب. وقوله: "فأخذهم عذاب يوم الظلمة إنه كان عذاب يوم عظيم" ذكروا أنهم أصابهم حر شديد، وأسكن الله هبوب الهواء عنهم سبعة أيام، فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل، ولا دخولهم في الأسراب، فهربوا من محلتهم إلى البرية، فأظلتهم سحابة، فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها، فلما تكاملوا فيه أرسلها الله ترميهم بشرر وشهب، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة من السماء، فأزهقت الأرواح، وخربت الأشباح.[112]" اهـ

[112] إسماعيل بن كثير الدمشقي، قصص الأنبياء، الجزء الأول، ص.288-289.

الفصل الثاني: موسى عليه السلام

بسيدنا شعيب انتهت المرحلة الوسطى للأنبياء، وبعد فترة زمنية لا يعلمها إلا الله بدأت المرحلة الأخيرة للأنبياء بموسى عليه السلام: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ ... ﴿١٠٣﴾﴾ [سورة الأعراف, ١٠٣]، والذي يمثل هو والرسول الخاتم رؤوس هذه الفترة. وغني عن الذكر أن سيدنا موسى عليه السلام هو أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن، فلقد ذُكر إحدى وثلاثين ومائة مرة في القرآن الكريم.

وكما كان مع الخليل لوط، كان مع موسى أخوه هارون، والذي لم يُذكر له أي دعوة على الرغم من ذكره عشر مرات في القرآن، وإنما كانت نبوته تابعة لأخيه موسى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [سورة مريم, ٥٣]، بناءً على إعلان موسى حاجته إلى معين في تبليغ الرسالة: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة القصص, ٣٤]

والقصص عن سيدنا موسى لم يقتصر على الدعوة وإنما شمل جل جوانب حياته، فلقد قُص عن مولده وكيف نجاه الله العليم من كيد الظالمين: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [سورة القصص, ٧]

ونلاحظ أن الله تعالى اختار هذا "الإنسان" من قبل مولده ليكون رسوله، وأعد له العدة ليتحمل هذا التكليف: ﴿... وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة طه, ٣٩]، وهذا يعني أن النسل الذي جاء منه سيدنا موسى عليه السلام نسل طاهر مبارك، مميز عن الأصلاب الأخرى، ومن ثم اختار الرب رسوله منه قبل مولده، وقدّر "البرنامج" المؤهل، ومن ضمن هذا البرنامج أن موسى كان لا يرضع إلا من أمه: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ

وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾] سورة القصص ,١٢[، فلأن أخته كانت تعلم أنه لا يرضع إلا من أمه علمت أنهم سيحتاجون إلى من يرضعه، فلما طلبوا قالت لهم: هل أدلكم ..."

وحياة سيدنا موسى تعتبر قصة مثالية للمُخلِّص، الذي يُعد لتحرير أمته من الظلم والاستعباد الذي تخضع له، والذي ينشأ في بيت الطاغية الأكبر ويكون هو السبب في هلاكه! ومما آسف له أن الأحداث المذكورة بشأن موسى توارت خلف الكم الهائل من الإسرائيليات التي ذكرت وقائع ما أنزل الله بها من سلطان، ومن ثم ضاعت "القصة" الأصلية، والحِكم والنتائج التي تترتب عليها! ونبدأ بعرض "قصة" موسى كما جاءت في القرآن، وليس كما قالت الإسرائيليات، وأول ما نبدأ به هو الظروف التي وُلد فيها موسى عليه السلام والحال التي كان عليها قومه!

تقتيل الأبناء

وُلد سيدنا موسى في جماعة من المستضعفين، بلغت درجة من المهانة والضعف أن أبناءهم كانوا يُقتلون بلا جريرة، وبيّن القرآن لماذا كان الطاغية فرعون يفعل هذا، إلا أن ما قاله القرآن غُفل عنه، وتوارث المسلمون تصوراً منسوبا لابن عباس في رواية معروفة بحديث الفتون، ذكرها الإمام الطبري عند تناوله لقوله تعالى في سورة طه: ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾] سورة طه ,٤٠[، وهي رواية جد طويلة، نكتفي منها بما يتعلق بجزء مولد موسى، فقال: "قال ابن عباس: تذاكر فرعون وجلساؤه ما وعد الله إبراهيم أن يجعل في ذرّيته أنبياء وملوكا، فقال بعضهم: إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك وما يشكون، ولقد كانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب، فلما هلك قالوا: ليس هكذا كان الله وعد إبراهيم، فقال فرعون: فكيف ترون؟ قال: فأتمروا بينهم، وأجمعوا أمرهم على

أن يبعث رجالا معهم الشفار يطوفون في بني إسرائيل، فلا يجدون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه. فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم، وأن الصغار يذبحون، قالوا: يوشك أن تفنوا بني إسرائيل، فتصيرون إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي كانوا يكفونكم، فاقتلوا عاما كلّ مولود ذكر، فيقل أبناؤهم، ودعوا عاما لا تقتلوا منهم أحدا، فتشبّ الصغار مكان من يموت من الكبار، فإنهم لن يكثروا بمن تستحيون منهم، فتخافون مكاثرتهم إياكم، ولن يقلوا بمن تقتلون، فأجمعوا أمرهم على ذلك. فحملت أمّ موسى بهارون في العام المقبل الذي لا يذبح فيه الغلمان، فولدته علانية آمنة، حتى إذا كان العام المقبل حملت بموسى، فوقع في قلبها الهمّ والحزن ..[113]"اهـ

ولقد ذكر الإمام ابن كثير حديث الفتون هذا في تفسيره مطولاً، وعلق عليه قائلا: "وهو موقوف من كلام ابن عباس، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه، *وكأنه تلقاه ابن عباس مما أبيح له نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره*. وسمعتُ شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول ذلك[114]" اهـ

ونتساءل: هل ما قالته الرواية هو ما قصّته الآيات؟! الناظر في الآيات يجد أنها لم تقل أن فرعون كان يقتل الأطفال الذكور، وإنما قالت أنه كان يقتل أبناء بني إسرائيل، *والأبناء كلمة تطلق على الذكور والإناث وعلى الكبار والصغار*، ولا قرينة جازمة لجعلها في الذكور فقط والرضع منهم! كما أن الآيات لم تقل أنه كان يقتل: كل أبناء بني إسرائيل، وإنما قالت: أبناءكم، كما أن الآيات تحدثت عن استحياء: النساء، والنساء بداهة هن الإناث البالغات من البشر، ولسن البنات!

والعجيب أن الإمام الفخر الرازي ذكر رأيا قريباً من هذا ورده بدون بيّنة فقال: "قال بعضهم: أراد بقوله: (يُذَبّحُونَ أَبْنَاءكُمْ) الرجال دون الأطفال ليكون في مقابلة النساء

[113] محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، الجزء الثامن عشر، ص. 306-307.

[114] إسماعيل بن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، الجزء الأول، ص. 349.

إذ النساء هن البالغات، وكذا المراد من الأبناء هم الرجال البالغون، قالوا: إنه كان يأمر بقتل الرجال الذين يخاف منهم الخروج عليه والتجمع لإفساد أمره.[115]" اهـ

ونحن لا نقول أنه كان يقتل الرجال وإنما الأبناء، والأبناء تطلق على الصغار ما لم يتزوجوا أو ينجبوا! والآية الحاسمة التي تبطل تلك الخرافات التلمودية والتي تبين لماذا كان فرعون يقتل أبناء بني إسرائيل هي قول الرب العظيم: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [سورة القصص ,٤][116]، فالله لم يقل: إن فرعون رأى رؤية فقتّل، وإنما قال أنه علا في الأرض، فالقتل والذبح لم يكن مستندا إلى نبوءة أو ما شابه، وإنما كان نوعاً من العلو والتجبر، فلقد عمل على إحداث الفرقة بين طوائف الشعب، فجعلهم شيعا، حتى لا يتحدوا ضده ويثوروا عليه، –وهذا فعل كل الطغاة والجبابرة– كما عمل على استضعاف طائفة منهم، لكونهم من غير أهل البلد الأصليين، ومن ثم فلا معين لهم ولا نصير من باقي الطوائف، كما أنهم لا يلتزمون بالدين السائد في البلاد، حتى لا يكونوا عونا للبلاد المجاورة ضده، وحتى يكونوا عبرة للآخرين، فلا يفكر أحد في مخالفته أو عصيانه!

فعمل على التنكيل ببني إسرائيل، فكان يقتل أبناءهم، وفي هذا كسر لإرادة الإنسان، لأنه لو قتل الأب لشب الابن على الثأر، أما عندما يقتل الابن ينكسر الأب ويصبح ذليلا محطما! وكذلك فإنه كان يفعل بنسائهم ما تستحي منه أي امرأة، وأشد ما تستحي منه أي امرأة هو أن تُغتصب، حتى تختلط أنسابهم بالمصريين، فلا يظلون شعبا مستقلا عنهم! ولو كان المراد من الاستحياء ترك النساء أحياء لما كان في ذلك

---

[115] فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، الجزء الثالث، ص. 65.

[116] يضاف إلى هذا قول الله الحكيم: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ... ﴿١٢﴾﴾ [سورة القصص ,١٢]، فهو دليل على أن أمه لم ترمه مباشرة بعد الولادة، وإنما كان يعيش حياة طبيعية وأن أمه أتت له بالمراضع ليرضعنه إلا أنه كان يرفض! وهذا دليل على أن ولادته لم تكن سراً وأن من حولهم كانوا يعلمون بولادته!

عذاب ولكان فضل من فرعون، لأنه كان يمكنه قتل النساء ومن ثم القضاء على الإسرائيليين تماما، ولكنه لم يفعل!!

ولا يعني قوله تعالى أنه كان يقتل كل أبناءهم، وإنما كان يفعل القتل بأبنائهم والاستحياء بنسائهم، أي أنهم لم يكن لهم حقوق، فمن الممكن أن ينزل هذا البلاء بأي إنسان، وهذا يبرر وجود هارون وغيره من الإسرائيليين، لأن التقتيل والاستحياء ليس فعلا شاملاً لكل فرد! ولو كانت المسألة مسألة نبوءة وخوف على السلطان والحكم، لكان من غير المنطقي أن يترك الأطفال عاما ويذبحهم عاما، فربما أتى من يخشاه في عام العفو، أما إذا كان الغرض من التقتيل والاستحياء هو الاستضعاف وكسر الشوكة فيكون معقولا أن يوجد هارون وغيره، *ولو كان هناك قتل في عام وترك في آخر، لعمل الإسرائيليون على عدم الإنجاب في هذا العام*، والعزل مما تعرفه البشرية منذ قديم الزمان! فتنظيم الأسرة خير من الإنجاب الذي سيكون مصيره القتل حتما!

ولو كان هناك تقتيل عام لكل الأولاد لثار الإسرائيليون على فرعون أو لحاولوا الهروب من هذه البلدة! وأنا أتساءل: أين هو ذلك الشعب الذي يصدر بحقه حكم بإعدام كل أولاده (من الذكور) ويظل في مكانه؟! أما الشعوب التي يُعذب بعض أو كثير من أفرادها ولا يتحركون، فتملأ الكرة الأرضية ويركزون في بلادنا العربية والإفريقية!!

إذا ففعل فرعون لم يكن مستندا إلى نبوءة، وإنما كان يستضعف هذه الطائفة ويعاقبهم أشد العقاب على أقل الأفعال! ولهذا أراد فرعون أن يكرر هذا الفعل مع القلة التي آمنت بموسى حتى يكسر شوكتهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ٢٥﴾ [سورة غافر,٢٥]، وموسى وُلد في جماعة من المستضعفين وشاء الله أن ينشأ في بيت الطاغية، وكبر وآتاه الله العلم والحكمة.

موسى والشيخ

كبُر موسى وعرَف أنه من بني إسرائيل وأخذ يعمل على الإصلاح ويدعو إليه، إلا أنه بسبب واقعة الاقتتال الشهيرة والتي تدخل لنصرة الذي من شيعته، فقضى على الآخر بوكزه، خرج موسى هاربا من مصر وتوجه تلقاء مدين، وهناك التقى ابنتي شيخ كبير عند ماء مدين: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤﴾ [سورة القصص ,٢٣-٢٤]، وجاءت الروايات بخلاف الآيات، فقالت أن موسى لمّا ورد ماء مدين وجد أناسا يسقون، فلما أنهوا سقياهم غطوا البئر بصخرة عظيمة لا يستطيع حملها وزحزحتها إلا جماعة من الناس، فنزعها موسى وسقى لهما.

ولو نظرنا في الآيات لوجدناها تقول أن موسى لما ورد الماء ووجد عليه أمة تسقي وامرأتين لا تسقيان، فسألهما فعلم أن العلة هي أن أبوهما شيخ كبير لا يقدر على السقيا، وهما ضعيفتان لا يستطيعان المزاحمة، فزاحم موسى القوم وسقى لهما! (لاحظ أن الآية استعملت "الفاء" في قوله "فسقى" وهي تفيد التوالي والمتابعة ولم تستعمل "ثم") أما أن يغطي الناس البئر بعد أن يسقوا وهناك من لم يسق بعد، فأمر غير مقبول ولا معروف في أحوال الرعاة!

وفي هذا البلد الغريب الذي ليس لموسى فيه قريب، تكفل الله سريعاً لموسى بما يحتاجه أي إنسان، فأوجد له المأوى والعمل .. والزوج، فجعل ذلك الشيخ سبباً لتوفير هذه الاحتياجات لموسى، ولإقامته فيها سنينا: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٢٨﴾ [سورة القصص ,٢٧-٢٨]

ولم يفوت القصاصون هذه الفرصة، فجعلوا هذا الشيخ هو شعيب، فإذا كان موسى في مدين فلا بد أن يقابل شعيبا!! وبغض النظر عن ضعف الروايات سنداً، كما قال بذلك ابن كثير والطبري وغيرهما، فإنه من غير الممكن أن يكون هذا الشيخ هو شعيب، فلقد قص الله قول شعيب عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾﴾ [سورة هود ,٨٩]، فرتبت الآية الأنبياء ترتيبا زمنيا فبدأت بنوح ثم هود ثم صالح ثم لوط، وشعيب لم يذكر في القرآن إلا بعد لوط، ومن ثم فهو كان قريبا من قوم لوط.

ولو كان النبي شعيب لكان هؤلاء من نجوا معه من الصيحة فيستحيل أن يتعاملوا مع نبيهم وبناته بهذا الشكل. والدليل القاطع هو قول الرب العليم بعد قصه عن شعيب واستطراده بعدها: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ ... ﴿١٠٣﴾﴾]سورة الأعراف ,١٠٣[، ولو كان موسى في زمان شعيب لما كان من بعده!!

إذا فلقد التقى موسى شيخا صالحاً في مدين وزوّجه إحدى بناته، وظل هناك حتى قضى الأجل الذي اشترطه عليه الشيخ.

تحمل الرسالة

لما قضى موسى الأجل سار بأهله، والله أعلم إلى ما ولماذا كان موسى سائراً، فهل كان ذاهباً إلى الحج: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ ... ﴿٢٧﴾﴾ [سورة القصص ,٢٧]؟! أو أنه كان سائرا بأهله يرعون أغنامهم؟ الله أعلم، فلم يذكر هذا، إلا أننا نستبعد ما ذكره المفسرون من أن موسى استأذن الشيخ للرجوع إلى والدته أو أنه حنّ إلى الوطن! فأراد أن يعود إلى مصر، وذلك لأنه عندما أمره الله بالذهاب إلى فرعون قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ

﴿٣٣ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِىَ رِدۡءًا يُصَدِّقُنِىٓۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ٣٤﴾ [سورة القصص, ٣٣-٣٤]، فمن غير المعقول أن يكون عائداً إلى الوطن الذي يخاف أن يُقتل فيه، ثم يتحجج بهذه الحجة!

وفي هذا المسير كان النداء والتكليم: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٢٩ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِى ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٠﴾ [سورة القصص, ٢٩-٣٠]

والناظر في القرآن يجد أن سيدنا موسى هو الرسول الوحيد الذي ذكر الله موقف تكليفه وتحميله الرسالة، أما باقي الرسل فكان يقص أحوالهم مع أقوامهم، وذكر عن رسولنا مواقف بشأن الرسالة ولكن لم يذكر التحمل الأول. وفصّلت سورة طه مشهد تحمل الرسالة أكثر من غيرها، فقالت: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ٩ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ١٢ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٣ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِىٓ ١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ١٦ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ١٨ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ١٩ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ٢٠ قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ٢١ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ٢٢ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ٢٣ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٢٤ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِى صَدۡرِى ٢٥ وَيَسِّرۡ لِىٓ أَمۡرِى ٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِى ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِى ٢٨ وَٱجۡعَل لِّى وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِى ٢٩ هَٰرُونَ أَخِى ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِى ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِىٓ أَمۡرِى ٣٢ كَىۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣

وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسًا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴿٤١﴾ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾﴾ [سورة طه ,٩-٤٢]

فنجد أن تحميل الرسالة بدأ بتكليم الله موسى، وبدون أن يطلب موسى من الله أي شيء، يأمره الله بإلقاء العصا، فتتحول العصا إلى حية فيخاف موسى ويولى مدبرا، فيأمره الله ألا يخاف، ثم يأمره الله أن يُدخل يده في جيبه ويعلمه أنها ستخرج بيضاء من غير سوء. ثم يبين الله له برنامج الإعداد الذي ابتدأه منذ ولادته، وكيف أن كل هذا لم يحدث صدفة وإنما قدراً من أجل هذا الدور.

ولقد توقف المفسرون القائلون ب "المعجزة" مع هذا الموقف متسائلين لماذا حدثت المعجزة مع أنه لم يرها إلا موسى عليه السلام! والمعجزة –على قولهم– لا تحدث إلا أمام المعارضين لتأكيد صحة النبوة! ويبدو أنهم قد نسوا قول الله: ﴿لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ﴿٢٣﴾﴾ [سورة طه ,٢٣]، ونسوا أن سيدنا موسى كان لا يزيد عن كونه إنساناً مؤمنا بالله، فأن يكلمه الله ليس بالأمر اليسير، فأراه الله بعضا من آياته الكبرى ليقبل على تحمل الرسالة بثقة ويقين وليعلمه كيف سيتحرك في دعوته!! فعندما تكلف إنسانا بالذهاب إلى ملك ومطالبته بترك جزء من شعبه يخرج، فلا يعلم الإنسان ماذا سيفعل! ثم إنه من المحتمل أن يُقتل أو يناله الأذى، فما الذي يحميه من هذا، أن يُقتل أو يُعذب؟!

إذا فآيات موسى "اليد والعصا" لم تكن بناءً على طلب المصريين ولا اقتراحاً من موسى، وإنما كانتا برهانان من ربه لفرعون وقومه: ﴿... فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ

فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾] سورة القصص, ٣٢]، ولم يكن هذان البرهانان ليؤمن فرعون والمصريون بموسى، فلم تكن ثمة رسالة بعد، وإنما ليستجيبوا لطلبه، وهو: ﴿... قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾] سورة الأعراف, ١٠٥]، إذا فحال سيدنا موسى كان مختلفاً عن باقي الرسل لأنه لم يكن مرسلاً إلى فرعون ليدعوه إلى الإيمان بالله بالدرجة الأولى، وإنما ليرسل معه بني إسرائيل الذين كانوا على بقايا الإيمان، ولو كانت مهمته مخاطبته بالإيمان لما كان هناك أي حاجة إلى آية حسية ولذكره بالله! ولكن لمّا كان المطلب ظاهراً دنيويا وليس دينياً، أمد الله سيدنا موسى بهذه الآيات ليقتنع بتحمل الرسالة ولتكون حماية له من فرعون وقومه: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾] سورة القصص, ٣٥].

وبغض النظر عن رميهم لآيات موسى بالسحر فإن مقولتهم: ﴿... مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾] سورة القصص, ٣٦]، تدل على أن موسى هو أول من أوتي مثل هذه الآيات "الخارقة"، بينما كانت آيات الأنبياء السابقة –والذين كانوا على علم بهم– "طبيعية"! فهم لم يعترضوا على مبدأ الرسالة وإنما تعجبوا من هذه الآيات!

فإذا توقفنا مع الآيتين الأوُل: اليد والعصا، وجدنا أنه لا خلاف في أن العصا تحولت إلى ثعبان، –ولا قيمة لمن قال أن هذا كان تخييلاً للمشاهدين، لأن الرب القدير قال: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾] سورة طه, ٢١]، وهذا يعني أنها تحولت إلى شيء آخر!– بينما أتوقف مع الآيات التي تتحدث عن اليد، والتي تختلف عن العصا، فإذا نظرنا في هذه الآيات وجدنا الرب يقول: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾] سورة طه, ٢٢]، ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ... ﴿١٢﴾] سورة النمل, ١٢]، ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ

بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ... ﴿٣٢﴾] سورة القصص ,٣٢[، ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾] سورة الأعراف ,١٠٨[، فلماذا التركيز على "من غير سوء"، ولماذا "للناظرين"؟! فهل في هذا إشارة إلى أنها في الواقع غير ذلك، وهي فقط بيضاء للناظرين؟!

لقد قال المفسرون أنها كانت بيضاء منيرة! والله لم يقل أنها أضاءت أو أنارت، وإنما قال أنها بيضاء فقط فلا مجال للمزايدة! وقال المفسرون توجيها ل: "من غير سوء" أنها لم تكن برصاء، رداً على ما قالته التوراة! إلا أن الآية التي تحتاج إلى شرح أو توضيح ليست بآية، فإذا كان من المحتمل أن يظن الرائي أنها برصاء فليست بآية بحال!

ولقد وجهها بعض الباحثين المعاصرين فقال أنه أخرج يده بيضاء على العظم، أي أن الناظر إليه كان يرى يده عظما لا لحم عليها! وهو وإن كان قولاً محتملاً إلا أني أميل –والله أعلم– إلى أن المراد من اليد البيضاء أنها كانت شفافة، –وذلك لأن الأبيض يطلق في اللسان على الشفاف مثل الماء، وعلى الأبيض القاني مثل اللبن–، لأنه لو كان الحديث عن ظهور العظم لذكر هذا، بينما لم تذكر الآية إلا لون اليد، وأن هذا اللون كان للناظرين، ومن ثم يمكن القول أن يد موسى أصبحت شفافة يرون من خلالها! وليتصور القارئ يداً قريبة من الزجاج أو من الماء يرى الناظر حدودها ويرى من خلالها! كيف سيكون حاله عندما يرى مثل هذه اليد؟!

الإرسال بالآيات

لا يتوقف عامة المسلمين مع الآيات التي أرسل الله بها، فيرون أنها مجرد دليل على صدق المرسَل وأنه من عند الله! ومن ثم كان من الممكن أن يأتي صالح باليد والعصا وموسى بالناقة! وهي أقوال باطلة مبنية على التصور الباطل للآية كمعجزة! بينما الآية

التي يرسل الرب بها هي "آية"، ومن ثم فإن أفضل ما كان يُخاطب به فرعون وملأه هو اليد والعصا! ولقد فهموا الرسالة المبطنة فيهما بينما لم نفهمها نحن!

ولو تذكر القارئ ما قلناه بأن موسى لم يُرسل إلى فرعون ليؤمن به وإنما ليسمح له بإخراج بني إسرائيل: ﴿... فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾ [سورة الأعراف, ١٠٥]، وعندما ألقى موسى العصا ونزع اليد ما كان رد فرعون وملأه؟ كان ردهم: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [سورة الأعراف, ١٠٩-١١٠]، ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة الشعراء, ٣٤-٣٥]، لقد فهموا الرسالة في اليد والعصا وهي أنهم إن لم يرسلوا بني إسرائيل مع موسى فسيُخرجون من أرضهم! وهو ما كان: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾﴾ [سورة الشعراء, ٥٧]، ونلاحظ أنهم لم يقولوا إنه ساحر عليم فأتوا بسحرة يفعلون مثله! وإنما كانوا يتحدثون عن الإخراج من الأرض، وأنهم لا يدرون ما يفعلون تجاهه، وأخذوا يتساءلون: ماذا تأمرون؟! ثم استقروا على استدعاء السحرة لإبطال ما جاء به موسى حتى لا يُخرجوا! فلم يكن حشر السحرة من المدائن لمجرد إثبات أن موسى كاذب، وإنما لدفع ذلك الخطر الداهم الذي يتهددهم!

إذن فالله تعالى عندما أرسل موسى بالآيات لم يرسله هكذا اعتباطاً وإنما لحكمة، وبرسالة مبطنة فيها –وحماية لموسى– تقول لفرعون أن عليه أن يرسل بني إسرائيل، وإلا سيُخرج. ومشهد استدعاء السحرة يبطل ذلك التصور التوراتي الباطل عن مصر السحر .. والسحرة! فالناظر يجد أن فرعون والملأ ليس لديهم سحرة! وعندما احتاجوا إليهم أرسلوا إليهم يجمعونهم من المدائن: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ [سورة الأعراف, ١١١-١١٢]، وعندما جاء السحرة فرعون سألوه إذا كانوا سيُعطون أجرا إذا غلبوا، وهذا يعني أن السحر لم يكن مهنة معتبرة أو محترمة أو معترف بها في ذلك الزمان فأرادوا التثبت بشأن

حقوقهم: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [سورة الأعراف ,١١٣-١١٤]، وتأكيد فرعون لهم أنهم سيكونون من المقربين دليلٌ إضافي على أن السحرة كانت طائفة منبوذة مستبعدة، لم تكن من ضمن أدوات تجبر وطغيان فرعون، فلمّا جابه موقف فوق قدرته، رأى الاستعانة بهم كأداة من أدوات الطغيان، فربما يكونون له معيناً، في هذا الموقف وفي أمثاله في المستقبل!

فإذا تركنا هاتين الآيتين ونظرنا في باقي الآيات التسعة وجدنا أنها آيات طبيعية، وليست خارقة، والأقوال الخرافية التي ذكرها المفسرون فيها لا دليل عليها، فلا دليل على أن الدم الذي أُرسل عليهم كان الماء، والذي كان يتحول في يد الفرعوني إلى دم بينما يشربه الإسرائيلي عذبا فراتا! فهذا من التهويل والخرافات الممجوجة، وكذلك ما جاء في باقي الآيات من التهويل، فالضفادع كانت من الكثرة البالغة بحيث أنهم لم يستطيعوا العيش أو النوم مع ذلك النقيق المستمر الذي يزعج أي إنسان، وهي دليل على انتشار المستنقعات! وأما الدم فهناك من قال أنها نُزعت المهابة من قلوب الآخرين تجاههم لما نزل بهم من المصائب والأضرار، فأصبحوا يقتلونهم، ولكن هذا قول مستبعد، ومن الممكن القول أنهم أصابتهم الأمراض التي جعلتهم ينزفون الدماء، مثل انتشار قواقع البلهارسيا التي تجعل الإنسان يبول دما، أو غيرها من الأمراض التي تجعل الإنسان يتقيأ دما.

وعلى الرغم من اشتهار موسى بالآيات التسع إلا أن عامة المسلمين لا يعلمون تحديدا ما هي هذه الآيات التسع، وكذلك المفسرين، فلقد وجدنا اختلافاً بينهم في تحديدها، ولقد ذكر الأستاذ عبد الوهاب النجار الآيات التسع التي حددها المفسرون ثم بيّن عدم إصابتهم في تحديدها! فقال:

"1- (الجدب) بأن قل عنهم النيل وقصر عن إرواء أرضهم (...)

2- (النقص من الثمرات) بسبب ما يأتي عليها من الجوائح والعاهات.

3- (الطوفان) ولم يقطع المفسرون بأن هذا الطوفان كان على أي وجه؟ (...)
4- (الجراد) (...)

5- (القمل) الذي أقض مضاجعهم وأتعبهم أيما تعب. وفي التوراة "البعوض" بدل القمل. (...)

6- (الضفادع) قيل أنها كثرت عندهم حتى نغصت عليهم عيشتهم بسقوطها في طعامهم وفراشهم وبين ملابسهم.

7- (الدم) بأن استحال الماء لأهل مصر دما. وقيل سلط الله عليهم الرعاف.
8- (الطمس على أموالهم) وهو محقها وإهلاكها.

9- (اليد) إذ كان يضع يده في جيبه ثم يخرجها بيضاء من غير سوء.

وبعض المفسرين يعد الآيات على غير هذا الوجه، فيجعل "فلق البحر" من الآيات التسع. وآخرون يجعلون "انبجاس الحجر بالماء لبني إسرائيل" من الآيات التسع. ولا يخفى أن فلق البحر إنما كان بعد تمام الآيات. وانبجاس الحجر بالماء إنما كان بعد هلاك فرعون، فلا يصح أن يكون آية له ولقومه. وأنا أعد الآيات هكذا:

1-السنون 2- نقص الأموال 3- نقص الأنفس 4- نقص الثمرات 5- الطوفان 6- الجراد 7- القمل 8- الضفادع 9- الدم.[117]"اهـ

والأستاذ النجار مُحق في نقده لتلك الآيات ولكني لست أدري كيف استبعد اليد والعصا منها! فلقد نص الله صراحة أن اليد من الآيات التسع: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [سورة النمل, ١٢] وقال كذلك: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة طه, ٢٢]، ومن ثم فإن الشيء السابق لها كان كذلك آية وهو العصا. فتكون اليد والعصا آيتين، فإذا جعلنا النقوصات الثلاثة التي

[117] عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء، ص. 197.

اعتبرها الأستاذ النجار واحدة: "نقص الأموال والأنفس والثمرات"، لأنها في نهاية المطاف نقص! وأضفنا إليها السنون والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، كانت هي الآيات التسعة التي أرسل بها موسى إلى فرعون وقومه الفاسقين، أما ما حدث بعد ذلك فكان لبني إسرائيل، وهو لم يُفعل لهم ليؤمنوا، وإنما لينجوا ويواصلوا رحلتهم.

ونلاحظ أن الله تعالى قد "أرسل" هذه الآيات ولم يعدها عذابات وإنما آيات، فلما رفضوا التسليم على الرغم من يقينهم بأنها من عند الله: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ... ﴿١٤﴾﴾ [سورة النمل, ١٤]، هنالك "وقع" عليهم الرجز، والذي اعتُبر كعذاب وليس آية، فسلموا: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾]سورة الأعراف, ١٣٤[، إلا أنهم نكثوا العهد ولم يرسلوا معه بني إسرائيل: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [سورة الأعراف, ١٣٥] ويبين الله علة الانتقام منهم بأنهم كذبوا بالآيات وغفلوا عنها: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [سورة الأعراف, ١٣٦]، وهذا تأكيد لأن الآيات تخاطب العقل وليست لتأتي بما هو فوقه فتعجزه عن تبريره.

السنون المنسية

اللافت للانتباه أن بعض المسلمين يظنون أن "قصة" موسى مع فرعون استغرقت أياماً معدودة، فالله أرسله باليد والعصا ثم تحدى السحرة وبعد ذلك خرج وبنو إسرائيل من مصر! وهذا التصور القاصر راجع إلى العرض المختصر التي ذكرته سور مثل سورة طه، والشعراء والتي ذكرت الأمر بالخروج بعد جدال فرعون السحرة: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ

أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة الشعراء ,٤٩-٥٦]. فيظنون أن فرعون لمّا توعد السحرة بالتصليب في جذوع النخل خرج موسى ومن معه! وينسون أن الله تعالى قصّ بقاء موسى وقومه في مصر سنين، وعلى أقل تقدير ظلوا ما يزيد عن العام، ونجد ذلك جلياً في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [سورة الأعراف ,١٣٠-١٣١]

ويبدو والله أعلم أن فرعون لم ينفذ تهديده، -أو نفذه بشكل رمزي- وترك موسى وقومه لشأنهم، وهذا يعني أن حال بني إسرائيل قد تغير بعد مجيء موسى، فهم وإن لم يخرجوا إلا أن العذاب والإهانة قد رُفعت! وفي هذه الأثناء لم يكن موسى قد أوتي الرسالة بعد، وإنما أُمر هو وقومه بإقامة الصلاة وبتبشير المؤمنين .. وباتخاذ بيوت في مصر!: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [سورة يونس ,٨٧-٨٨] وأن تكون هذه البيوت مقابلة لبعضها ليستقووا ببعض[118]، وأخذ موسى وقومه في تنفيذ

[118] يرى عامة المفسرين أن المراد من جعل البيوت قبلة أي مساجد يستقبلونها لأجل الصلاة أو أنهم يصلون فيها، وأنا أميل إلى الرأي القائل بأن المراد أن تكون البيوت متقابلة، وذلك لكي يتجمع بنو إسرائيل في مكان واحد، فيصبحوا قوة تساند بعضها بعضاً، بدلاً من أن يكونوا مشتتين متفرقين فيسهل استضاعفهم والبطش بهم! كما يبتعدوا عن مواطن الشرك، ويباشروا حياتهم تحت رعاية موسى.

هذه الأوامر، إلا أن هذا الوضع لم يعجب الملأ، لذلك أخذوا يحرضون فرعون على ألا يتركهم: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [سورة الأعراف, ١٢٧]، ومن ثم فكّر مجددا أن يُعاد الأسلوب القديم مرة أخرى، فيقتلون الأبناء ويستحيون النساء!

وأخذ الله آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات ... الخ فلما يخضعوا ورفضوا إطلاق بني إسرائيل: ﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [سورة الأعراف, ١٣٢]، ولمّا وقع عليهم الرجز قبلوا بإطلاق بني إسرائيل: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾ [سورة الأعراف, ١٣٤]، وبعد الوعد بالخروج[119] –الذي نُكث عنه لاحقاً– أوحى الله إلى موسى أن يسر بعباده ليلاً، فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً فأُهلكوا!

العجـل

بعد أن أغرق الله فرعون وجنده وأورث القوم الذين كانوا يستضعفون، الجنات والعيون والمقام الكريم، خرج موسى بقومه، الذين سرعان ما طالبوه بما يبطل ما خرجوا من أجله: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [سورة

[119] نلاحظ أن الله تعالى لم يُخرج بني إسرائيل من مصر إلا بعد أن أعطى فرعون –وهو من هو في الفساد– موسى الوعد بأنه سيرسل معه بني إسرائيل، ومن ثم فإن كل من يتحجج بالاعتماد على "كلمة الله" أو الدين في الإخلال بالنظام فلا مبرر له، فالأوامر الدينية تُنفذ بالانسجام مع الدولة وليس بالتصادم معها! كما أنه يعني في عين الوقت أن لا طاعة للحاكم في الأمور التي يخالف فيها عهودها ومواثيقه بلا مبرر!

الأعراف ,١٣٨]، فذكّرهم موسى بحالهم وبما فعله الله من أجلهم، وواصلوا مسيرهم، وسبق موسى قومه للقاء ربه، وتأخر موسى، وهناك حدثت الانتكاسة الشهيرة وهي عبادة بني إسرائيل للعجل!

وتابع المسلمون اليهود في قولهم بأنه كان من الذهب! إلا أنهم خالفوهم في القول بصانعه، فلقد قالت التوراة أن هارون هو الذي صنعه لهم بناءً على طلبهم منه ذلك: "ولما رأى الشعب أن موسى أبطا في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له: قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا، لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه. فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بها. فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون. فأخذ ذلك من أيديهم وصوّره بالإزميل، وصنعه عجلا مسبوكا. فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر"(الخروج **32/1–4**).

فقال المفسرون: لم يكن هارون هو الصانع، وإنما كان السامري: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ

إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [سورة طه ,٨٦-٩٨]

وأتوا في تفسيرهم للآيات بأقوال ما أنزل الله بها من سلطان، ملخصها أن موسى عليه السلام لما ذهب للقاء ربه واستبطأه قومه أخذ السامري قبضة من التراب كان قد أخذها من أثر حافر فرس جبريل عليه السلام –الذي رآه وعرفه وحده دون باقي القوم، لأنه كان قد رباه في صغره!– عند عبوره البحر على شكل فارس لكي يعبره بني إسرائيل خلفه، ولا يخافوا من انطباق البحر عليهم، فأخذ السامري حفنة التراب وألقاها على الحلي التي كانت مع بني إسرائيل فتحولت إلى عجل من ذهب له خوار، بحيث إذا دخل الهواء من دبره وخرج من فيه يحدث هذا الصوت.

وهذا التفسير مستند إلى روايات لم يُرفع منها إلى النبي رواية واحدة، وإنما هي موقوفة على بعض الصحابة والتابعين، ويرجح أن تكون ممن تلقوه عن أهل الكتاب، لما فيها من التهويل والمبالغات!

وبغض النظر عن السند فإن متنها مخالف للقرآن تماماً، فأين تحدث القرآن عن صناعة العجل أو عن عجل مصنوع؟! إن الرب العليم الحكيم قال: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ... ﴿٨٨﴾﴾ [سورة طه ,٨٨]، والإخراج في القرآن كله هو الإخراج وليس الصناعة، والله لم يقل: فصنع لهم عجلاً ذهباً! كما أن الرب قص قول موسى عليه السلام للسامري: ﴿... وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾ [سورة طه ,٩٧]، فهذا يؤكد أن العجل كان عجلاً عاديا وليس عجلا ذهبيا، لأنه حُرق ثم نُسف أي طُير في الهواء وذُري، والذهب لا يحرق ولا ينسف لأنه يذوب عند الوضع في النار.

ولقد انتبه قتادة إلى هذه الإشكالية فحاول أن يزيلها فقال أن العجل استحال إلى لحم ودم! ونحن نقول أنه كان أصلا من دم ولحم، بدون أي استحالة! وسبب قول

المفسرين بهذا هو فهمهم لقول الرب العليم: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌ ... ﴿١٤٨﴾﴾ [سورة الأعراف, ١٤٨]، وعدم حملهم إياه على آية طه التي فصلتها، وكذلك إلى الفهم غير الدقيق لكلمة "اتخذ" وجعلها بمعنى صنع أو حوّل[120]، وكذلك عدم ظهور توجيه مناسب عندهم لقوله تعالى: ﴿قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ﴿٩٦﴾﴾]سورة طه, ٩٦[، أما نحن فنقول أن السامري بصر بشيء لم يبصروا به والبصر مترتب على الرؤية: ﴿... وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ [سورة الأعراف, ١٩٨]، فهو بصر بشيء لم يبصروا به، ومن ثم أخذ بعضا من أثر الرسول موسى –تعاليمه– فنبذها وكذلك سولت له نفسه أن يفعل بهم هذا![121]

أما الحديث عن جبريل الذي كان يربي السامري وحافر لفرس لا يوضع على شيء إلا دبت فيه الحياة وما شابه، فخرافات ليس للقرآن بها علاقة! فلقد تحدث القرآن عن عجل، ولم يذكر له أي مزية أو اختلاف .. ومن ثم فهو دابة!

[120] لو رجعنا إلى استعمال الكلمة في القرآن لوجدت أنها تأتي بمعنى "أكسب الشيء منزلة أو غاية"، فنجد مثلا قول الرب العليم: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗى ... ﴿١٢٥﴾﴾ [سورة البقرة, ١٢٥] فهل تعني هذه الآية أن علينا نحول مقام إبراهيم إلى مصلى أو نصنع منه مصلى؟ بداهة لا، فالمقام كما هو، وإنما علينا أن نجعل له هذه المنزلة! وكذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [سورة المائدة, ٥٧] فهل حول الذين أوتوا الكتاب الدين إلى هزو ولعب أم أنهم جعلوه مادة الاستهزاء؟! وهل سنحولهم إلى شيء اسمه "أولياء" أم أننا سنكسبهم منزلة؟!

[121] قد يستغرب القارئ هذه التوجيه للآيات، لألفته التفسير المشهور، إلا أن نقده يحتاج إلى بحث مفصل طويل يتناول مفردات وكلمات الآيات، وهذا ما قمنا به وقدمناه على صفحات موقعنا الخاص: www.amrallah.com/ar ويمكن للقارئ الإطلاع عليه هناك، واكتفينا هنا بنقد المحور الرئيس وتقديم النتيجة.

الأمر بقتل النفس

بعد أن اتخذ قوم موسى العجل أُمروا بقتل أنفسهم، كما قال الرب الحكيم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة البقرة ,٥٤]، فلمّا تابوا وأنابوا رفع الله عنهم الأمر بقتل النفس فلم يقتلوا أنفسهم!

والعجيب أننا وجدنا المفسرين يقولون أن بني إسرائيل قتلوا أنفسهم[122] على الرغم من توبتهم! لأنهم افترضوا في الآية ما لم يقله الله، ففهموها بزيادة كلمات كما قال الإمام الفخر الرازي: "أما قوله تعالى: (فَتَابَ عَلَيْكُمْ) ففيه محذوف، ثم فيه وجهان: أحدهما: أن يقدر من قول موسى عليه السلام كأنه قال: *فإن فعلتم* فقد تاب عليكم، والآخر: أن يكون خطاباً من الله لهم على طريقة الالتفات فيكون التقدير: ففعلتم ما أمركم به موسى فتاب عليكم بارئكم.[123]" اهـ

فافترض المفسرون زيادات في الآية ليقبلوا الروايات التي صورت مذابح فظيعة يُفترض حدوثها في بني إسرائيل! ونذكر للقارئ *بعضاً* من النماذج التي أوردها الإمام الفخر

[122] أتت الآية في معرض الحديث على نعم الله على بني إسرائيل، والتي بدأت بقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ ... وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ... ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ... وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ... ﴿٥٤﴾﴾ [سورة البقرة ,٤٧-٥٤]، والتي استمرت في آيات متتاليات، ومن ثم فمن المفترض أن يكون ما في الآية كذلك نعمة من الله عليهم، إلا أن المفسرين لم يجدوا مانعاً أن تكون الآية تتحدث عن قتل بني إسرائيل أنفسهم! ولقد حاول الإمام الفخر الرازي تجاوز هذه الإشكالية فقال في تفسيره مفاتيح الغيب، الجزء الثالث، ص.74.: "اعلم أن هذا الإنعام الخامس، قال بعض المفسرين: هذه الآية وما بعدها منقطعة عما تقدم من التذكير بالنعم وذلك لأنها أمر بالقتل والقتل لا يكون نعمة وهذا ضعيف من وجوه، أحدها: أن الله تعالى نبههم على عظم ذنبهم، ثم نبههم على ما به يتخلصون عن ذلك الذنب العظيم وذلك من أعظم النعم في الدين." اهـ

[123] فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، الجزء الثالث، ص. 77.

الرازي نقلاً عن المفسرين: "قال المفسرون: أولئك التائبون *برزوا صفين فضرب بعضهم بعضاً إلى الليل*. (...) ثم اختلفت الروايات، فالأول: أنه أمر من لم يعبد العجل من السبعين المختارين لحضور الميقات أن يقتل من عبد العجل منهم، *وكان المقتولون سبعين ألفاً* فما تحركوا حتى قتلوا على ثلاثة أيام، وهذا القول ذكره محمد بن إسحاق. الثاني: أنه لما أمرهم موسى عليه السلام بالقتل أجابوا فأخذ عليهم المواثيق ليصبروا على القتل، فأصبحوا مجتمعين كل قبيلة على حدة وأتاهم هارون بالاثني عشر ألفاً الذين لم يعبدوا العجل البتة وبأيديهم السيوف، فقال التائبون: إن هؤلاء إخوانكم قد أتوكم شاهرين السيوف فاتقوا الله واصبروا فلعن الله رجلاً قام من مجلسه أو مد طرفه إليهم أو اتقاهم بيد أو رجل يقولون أمين، فجعلوا يقتلونهم إلى المساء، وقام موسى وهارون عليهما السلام يدعوان الله ويقولان البقية البقية يا إلهنا. فأوحى الله تعالى إليهما: قد غفرت لمن قتل وتبت على من بقي. قال: وكان القتلى سبعين ألفاً، هذه رواية الكلبي. الثالث: أن بني إسرائيل كانوا قسمين: منهم من عبد العجل ومنهم من لم يعبده ولكن لم ينكر على من عبده، فأمر من لم يشتغل بالإنكار بقتل من اشتغل بالعبادة. (...) السؤال السادس: كيف استحقوا القتل وهم قد تابوا من الردة والتائب من الردة لا يقتل؟ الجواب: ذلك مما يختلف بالشرائع فلعل شرع موسى عليه السلام كان يقتضي قتل التائب عن الردة إما عاماً في حق الكل أو كان خاصاً بذلك القوم.[124]" اهـ

وكما رأينا فلقد افترض المفسرون زيادات وفهموا الآية تبعاً للزيادات! ولا حاجة إليها، فمن الممكن القول أن قوله تعالى "فتاب عليكم" ليس من قول موسى وإنما حكاية، أي أن كلام موسى انتهى بقوله: ﴿... ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ ... ۝﴾ [سورة البقرة, ٥٤]، ثم قصّ الله توبته عليهم فقال: "فتاب عليكم" ولم يتركهم يقتلون أنفسهم، ومن ثم فلا قتل، وبهذا تكون التوبة عليهم نعمة من نعم الله عليهم.

(124). المرجع السابق، ص.76-77.

موسى والبقرة

على العكس من العجل الذي لم يكن موسى حاضرا إخراجه وبداية عبادة بني إسرائيل له، فإن موسى عليه الصلاة كانت له حادثة شهيرة دارت حول .. بقرة! وهي التي قصّها الرب العليم في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ [سورة البقرة, ٦٧-٧١] والتي عندما تناولها المفسرون جعلوا الآيات اللاحقة تابعة لها: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ... ﴿٧٤﴾﴾ [سورة البقرة, ٧٢-٧٤] وبتعبيرٍ أدق جعلوا الآيات السابقة تابعة لها، فجعلوا "قصة" البقرة هي المترتبة على قتل النفس!

فإذا نظرنا في الطبري مثلاً وجدناه يذكر قصصا عديدة حول هذه الواقعة، منها: "كان سبب قيل موسى لهم: (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة)، ما:- حدثنا به محمد بن عبد الأعلى قال، حدثنا المعتمر بن سليمان قال، سمعت أيوب، عن محمد بن سيرين، عن عبيدة قال: كان في بني إسرائيل رجل عقيم -أو عاقر- قال: فقتله وليه، ثم احتمله فألقاه في سبط غير سبطه. قال: فوقع بينهم فيه الشر حتى أخذوا السلاح. قال: فقال أولو النهى: أتقتتلون وفيكم رسول الله؟ قال: فأتوا نبي الله، فقال: اذبحوا بقرة! فقالوا: أتتخذنا هزوا، قال: (أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي

قال إنه يقول إنها بقرة)، إلى قوله: (فذبحوها وما كادوا يفعلون) قال: فضُرب، فأخبرهم بقاتله. قال: ولم تؤخذ البقرة إلا بوزنها ذهبا[125]" اهـ

وهكذا نسبوا إلى سيدنا موسى أنه أحيى القتيل لكي يخبرهم بمن قتله! وعلى الرغم من أنه من المفترض أن تعد هذه الآية من أكبر الآيات التي أتى بها موسى، فلقد أحيى الموتى –بإذن الله–! إلا أنها لم تُذكر إلا في موطن واحد، ولم يعدها الله تعالى آية! وإنما اعتبرها "نعمة وهداية"! *والأهم من هذا وذاك هو أن الله تعالى لم يقل أن موسى أحيى ميّتا* !!

المشكلة الكبرى أن المفسرين لم يجدوا لمسألة الأمر بذبح بقرة توجيها معقولا! ثم وجدوا الآيات التالية تتحدث عن قتل نفس! ويؤمر فيها بضربه ببعضها، فقالوا أن المضروب هو القتيل والمضروب به هو بعض البقرة السابقة، ومن ثم فإن آيات البقرة تابعة لحادثة القتل! إلا أن السادة المفسرين غفلوا عن أن في هذا القول مخالفة للترتيب الذي جاءت عليه الآيات، كما أنهم جعلوا الحادثتين حادثة واحدة! بينما قص الله حادثة البقرة مبتدأً بقوله: "وإذ قال ..." وقص حادثة القتل مبتدأ بقوله: "وإذ قتلتم"!

والناظر في سورة البقرة يجد أن الله يبدأ القص عن الأحداث المختلفة بقوله "وإذ": ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ ... ۝٥٠﴾ [سورة البقرة, ٥٠]، ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ... ۝٥١﴾ [سورة البقرة, ٥١]، ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝٥٣﴾ [سورة البقرة, ٥٣]، ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ... ۝٥٤﴾ [سورة البقرة, ٥٤]، ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ... ۝٥٥﴾ [سورة البقرة, ٥٥] الخ، وكلها تذكر وقائع مختلفة عن الآيات السابقة لها، فلماذا ألغينا"وإذ" هنا، وخالفنا الترتيب وجعلنا الواقعتين واقعة واحدة؟! ناهيك عن أن الله تعالى نسب القتل إلى بني

[125] محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، الجزء الثاني، ص183.

إسرائيل وهذا يعني مشاركة عدد كبير منهم فيه، وليس أنه كان حادثة فردية حاول أصحابها دفعها عن أنفسهم -كما ادعت الروايات المختلفة-!

ولكن إذا كانوا قد قبلوا بلا حرج أن يعاد على الاسم الواحد بضميرين مختلفين، فلا عجب! فلقد قالوا أن الضمير في "فيها" عائد على "نفس" لأن النفس مؤنثة! ثم عادوا فقالوا أن الضمير في "اضربوه" عائد على النفس كذلك ولكن باعتبارها "القتيل"، ومن ثم يعاد عليها بضمير المذكر! وكما هو جليّ للقارئ فإنها أقوال مخالفة للترتيب وللتقسيم ولعود الضمائر!

ولقد حاول الأستاذ عبد الوهاب النجار أن يقدم توجيها معقولاً للآيات، لا يخالف الترتيب ولا يلغي التقسيم فقال أن حادثة البقرة كانت في واقعة قتل، ولكنها ليست الواقعة المذكورة بعدها، وأن ما جاء في هذه الآيات كان هو الحكم المتعلق بالقتيل الذي لا يُعلم قاتله، فقال: "أما ما جاء في التوراة متعلقا بأمر ذبح البقر فيلخص في أن بني إسرائيل فرض عليهم أنه إذا قتل قتيل في الحقل يؤتى بأهل أقرب البلاد من موضع القتيل ويأتون بعِجْلة من البقر لم يحرث عليها ولم تجر بالنير، ويأتي شيوخ القرية بها إلى واد دائم السيلان لم يحرث فيه ولم يزرع، ويكسرون عنق العِجلة في الوادي. ثم يتقدم الكهنة -بنو لاوي- ويباركون الله ويغسل جميع الشيوخ الذين من القرية القريبة من القتيل أيديهم على العِجلة. ويصرخون قائلين: "أيدينا لم تسفك هذا الدم وأعيننا لم تبصر. اغفر لشعبك إسرائيل الذي فديت يا رب ولا تجعل دم بريء في وسط شعبك إسرائيل. فيغفر لهم هذا الدم.[126]" اهـ

إلا أنه يؤخذ عليه أن الله تعالى لم يقل في الآيات أنها متعلقة بقتيل أو شيء من هذا القبيل وإنما الأمر أمر بذبح بقرة! ولقد ذكر الأخ السوداني الدكتور عماد بابكر حسن توجيها طيباً للأمر وهو أنه مجرد أمر بذبح بقرة لنزع القداسة من نفوس الإسرائيليين، الذين أشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم! فالعجل وإن كان حُرق ونسف، إلا أنه كانت

(126) عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء، ص 260.

له مكانة في قلوبهم، ومن ثم أمرهم الله بأن يذبحوا بقرة!! ويمكننا فهم الحكمة إذا أمرنا بعض الهندوس حديثي العهد بالإسلام بذبح بقرة، فقد يكونون دخلوا الإسلام إلا أن في نفوسهم بقايا تقديس لهذا الحيوان، ومن ثم يؤمرون بذبح واحد منه، ليزول أي أثر مهابة أو تقديس في نفوسهم تجاهه. ونحن وإن كنا لا نجزم بهذا التوجيه إلا أنه التوجيه الوحيد الذي وجدناه لا يفترض زيادات على الآيات ويأخذها كما هي.

فإذا تركنا حادثة البقرة وانتقلنا إلى حادثة القتيل، وجدنا أنها لم تقل أن نبي الله موسى أحيى القتيل، ولم تقل أصلاً أنه كان موجوداً، وإنما قالت أن بني إسرائيل أُمروا بأن يضربوه ببعضها ثم قال الله بعدها: ﴿... كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [سورة البقرة, ٧٣]، ولا يعني هذا أن القتيل قد أحيي! فلقد قال الرب العليم: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [سورة الأعراف, ٥٧] فمن هو المضروب وما هي التي سيضرب ببعضها؟!

حاول الأستاذ عبد الوهاب النجار أن يقدم توجيها معقولاً، فقال: "وأما القصة الثانية وهي قوله تعالى (وإذ قتلتم نفسا) الخ فهي في شأن قتيل وجد قتيلا في بيته أو محلة قومه أو سقط في معركة فيها جماعة. وقد دفع كل واحد القتل عن نفسه ولم يتعين قاتله تماما وكل واحد يتهم سواه بالقتل. وحينئذ يكون المتهمون محصورين والقاتل لا يخرج عنهم بدليل قوله تعالى (فادارأتم فيها) ولما كان الله تعالى مخرجا ما يكتمون من القتل، علّمهم طريقة يميز بها القاتل من البريء. أو هي على الأقل تضيق دائرة الاتهام وتوجه نظر القاضي إلى استنباط الأدلة على المتهم أو من له اتصال بالقتل. ذلك بأن يأتوا بالمتهم ثم يضربونه بجزء من تلك النفس أي من القتيل وهو متصل ببقية الجسم، بأن يأتي واحد ويضرب المتهم بيد القتيل أو رجله، فإذا كان المتهم بريئا لم يحدث له

شيء، وإذا كان قاتلا ظهر عليه انفعال نفسي ورعدة يعلم بسببها أن القاتل دون سواه، أو هو على اتصال به.[127]" اهـ

وهو توجيه جيد إلا أنه يؤخذ عليه أن الله قال: "اضربوه" وليس "اضربوهم" كما هو مفترض مع جماعة من القتلة المتهمين! ونحن نقر أن تصور الحادثة غير واضح لدينا، فهل يكون المضروب هو ما كانوا يكتمون، وبعضها أي بعض النفس! الله أعلم، ونحن نترك الحادثة لمن بعدنا لينظر من أو ما المضروب!

التيـــه

خرج بنو إسرائيل مع موسى بعد أن قصم الله فرعون المتجبر وقومه الفاسقين، وبعد أن حدث من بني إسرائيل ما حدث أصبحوا على مشارف الأرض المقدسة، التي من أجل دخولها خرجوا من مصر! وهنا أمرهم سيدنا موسى أن يدخلوها، بعد أن ذكّرهم بنعم الله عليهم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ[128] ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ۝ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ۝ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ

[127] المرجع السابق، ص. 262.

[128] نلاحظ أن الله العليم قال: "التي كتب الله لكم" ولم يقل: "التي كتبها الله لكم"، فالله كتب لبني إسرائيل أن يدخلوها، ولو قال أنه كتبها لهم لأصبحت ملكاً لهم!

أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾] سورة المائدة , ٢٠-٢٦]

إلا أن بني إسرائيل رفضوا الدخول وردوا بإساءة أدب، فأعلن موسى لربه عدم مقدرته على فعل شيء هو وأخوه بمفردهما، ودعاه أن يفرق بينهما وبين الفاسقين، فحرّمها الله عليهم أربعين سنة، يتيهون في الأرض! وهنا موطن الإشكال! فلقد جعل المفسرون التيه في الأرض بمعنى أنهم ظلوا في صحراء سيناء أربعين سنة "يلفون ويدورون" فلا يستطيعون الخروج من المكان الذي هم فيه ولا الوصول إلى الأرض المقدسة! وهكذا ناقضوا أنفسهم بألسنتهم! فإذا كان القوم قد أعلنوا رفضهم الدخول وأعلنوا أنهم باقون في مكانهم، فلماذا كانوا يحاولون الوصول إليها؟! ولماذا استمروا في اللف والدوران لمدة أربعين سنة، إذا كانوا قد عرفوا أنهم لن يصلوا إلى أي مكان؟! لماذا لم يبقوا في مكانهم؟ ناهيك عن كونه بديهي أنهم لو مشوا في طريق مستقيم ولا يحيدون عنه، فإنهم سيخرجون حتماً من المكان الذي هم فيه، إلا إذا كان الله يحرك الأرض من تحتهم؟!!

وكيف يعاقب الله نبييه موسى وهارون معهما، على الرغم من أن سيدنا موسى كان قد دعاه أن يفرق بينهما وبين القوم الفاسقين، وعلى الرغم من أنه جل وعلا قد قضى أنها محرمة عليهم –ولم يقل: عليكم، حتى لا يدخل في الوعيد موسى وهارون– أربعين سنة، فكيف أُدخل موسى وهارون في العقاب؟! ولقد أوجد هذا التصور إشكاليات عدة حاول المفسرون إزالتها، مثل ما ذكره الإمام الفخر الرازي في تفسيره: "اختلف الناس في أن موسى وهارون عليهما السلام هل بقيا في التيه أم لا؟ فقال قوم: إنهما ما كانا في التيه، قالوا: ويدل عليه وجوه: الأول: أنه عليه السلام دعا الله يفرق بينه وبين القوم الفاسقين، ودعوات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مجابة، وهذا يدل على أنه عليه السلام ما كان معهم في ذلك الموضع، والثاني: أن ذلك التيه كان عذاباً والأنبياء لا يعذبون، والثالث: أن القوم إنما عذبوا بسبب أنهم تمردوا وموسى وهارون ما كانا كذلك، فكيف يجوز أن يكونا مع أولئك الفاسقين في ذلك العذاب؟ وقال آخرون:

إنهما كانا مع القوم في ذلك التيه إلا أنه تعالى سهل عليهما ذلك العذاب كما سهل النار على إبراهيم فجعلها برداً وسلاماً، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا في أنهما هل ماتا في التيه أو خرجا منه؟ فقال قوم: إن هارون مات في التيه ثم مات موسى بعده بسنة، وبقي يوشع بن نون وكان ابن أخت موسى ووصيه بعد موته، وهو الذي فتح الأرض المقدسة. وقيل: إنه ملك الشام بعد ذلك. وقال آخرون: بل بقي موسى بعد ذلك وخرج من التيه وحارب الجبارين وقهرهم وأخذ الأرض المقدسة والله أعلم. (...) إذا فسرنا ذلك التحريم بتحريم التعبد فقد زال السؤال لاحتمال أن الله تعالى حرّم عليهم الرجوع إلى أوطانهم، بل أمرهم *بالمكث في تلك المفازة* أربعين سنة مع المشقة والمحنة جزاءً لهم على سوء صنيعهم، وعلى هذا التقدير فقد زال الإشكال.[129]" اهـ

وكما رأينا فلقد ذكر الإمام الفخر الرازي رأياً أكثر قبولاً وهو أنهم كُتب عليهم أن يمكثوا في المفازة عقاباً، إلا أنه لم يبين كيف يكون هذا تيها؟! الناظر في القرآن يجد أنه لم يتحدث قط عن قوم يدورون لمدة أربعين سنة، وإنما ذكر الرب العليم أن القوم كانوا بالقرب من المدينة! وطلب إليهم موسى أن يدخلوها، ولم يطلب إليهم أن يذهبوا أو يسافروا إليها! هم كانوا أمام المدينة، والمطلوب أن يدخلوا ولو دخلوا لغلبوا! وهم لم يقولوا: لن نذهب إليها أو لن نسافر وإنما قال: لن ندخلها أبداً، وهذا يعني أنهم بالقرب منها! ومن ثم عوقبوا بأن أصبحوا أربعين عاماً بلا هدف في الأرض، يتحركون على غير هدى وإلى غير هدف! فلا هم يرجعون إلى أهلهم ولا هم يدخلون الأرض المقدسة، وإنما في حيرة واضطراب، وهكذا حتى يهلك هذا الجيل الرافض تنفيذ أمر الله وحتى يخرج الجيل الجديد، الذي يُفتح على أيديه ويُمكن له!

ويدلل على هذا قول الرب العليم: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ... ﴿٦١﴾﴾

[129] فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، الجزء الحادي عشر، ص.160.

]سورة البقرة, ٦١[، فالنبي موسى يأمرهم أن يهبطوا أي بلد فهناك سيجدون ما يشاءون، وهذا يعني أنهم يعرفون الطرق جيدا ويستطيعون الوصول، وأن التيه ليس عدم معرفة الطريق، وإنما حالة أصبحوا عليها، عوقبوا بها جزاءً على معصيتهم! أما موسى وهارون فلم ينزل بهم هذا "التوهان" ودخلوا الأرض المقدسة، غير مقاتلين وإنما ... مُلَبّين!!

رفع الجبل

من التصورات الكونية العجيبة المرتبطة ببني إسرائيل ذلك التصور القائل أن الجبل رُفع فوقهم ليقبلوا بالشرائع التي استثقلوها وأبوا النزول عليها! فلما رُفع الجبل فوقهم وظنوا أنه سيلقى عليهم قبلوا! وبغض النظر عن أنهم كانوا مكرهين، ولا إكراه على الدين، فالله لا يكره عباده على قبول شرائعه، ولا يكلفهم إلا بما يطيقون، نتوقف لنتساءل: ما هو سبب القول بهذا التصور العجيب؟!

الناظر في القرآن يجد أنه سببه هو بعض الآيات مثل قول الرب العليم: ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ١٥٤﴾] سورة النساء, ١٥٤[، فقال المفسرون أن الجبل أصبح فوقهم، على الرغم من أن الله قد بيّن في آية أخرى، أن هذا الرفع كان نتقا!: ﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧١﴾] سورة الأعراف, ١٧١[، والنتق لا يعني الخلع والارتفاع في الهواء، وإنما هو كما جاء في لسان العرب: "النَّتْقُ: الزعزعة والهز والجَذْب والنَّفْض. ونَتَقَ الشيءَ يَنْتِقُه ويَنْتُقُه، بالضم، نَتْقاً: جذبه واقتلعه. وفي التنزيل: وإذ نَتقْنا الجبل فوقهم؛ أي زَعْزَعْناه ورفعناه، وجاء في الخبر: أَنه اقْتُلع من مكانه؛ (...) ونَتَقْتُ الشيء إذا حركته حتى يُسْفَكَ ما فيه، قال: وكان نَتْق الجبل أَنه قُطِع منه

شيء على قدر عسكر موسى فأَظَلَّ عليهم، قال لهم موسى: إما أَن تقبلوا التوراة، وإما أن يسقط عليكم[130]" اهـ

وكما قرأنا، فالنتق هو أصلاً بمعنى الزعزعة والتحريك –ونلاحظ الشبه بين نتق ونطق!– ولا يكون بمعنى الرفع، *وليس في كتب بني إسرائيل ولا في الأحاديث الصحيحة ما يدل على أن الله قلع الطور من موضعه ورفعه فوقهم*. وكل ما ورد كلام عن التحريك ليس أكثر!

والعجيب أنه وردت بعض الروايات، التي لا تصح وقالت أن الطور قُلع، فتُرك نص القرآن وأُخذ بما في هذه الآثار. والعجيب أن هذه الروايات مخالفة للتوراة كذلك! فالناظر في التوراة يجد أنها تقول أنهم استجابوا في هذا الموقف تمام الاستجابة: "19: 3 وأما موسى فصعد إلى الله فناداه الرب من الجبل قائلا: هكذا تقول لبيت يعقوب و تخبر بني إسرائيل 19: 4 أنتم رأيتم ما صنعت بالمصريين وأنا حملتكم على أجنحة النسور وجئت بكم إلي 19: 5 فالآن إن سمعتم لصوتي وحفظتم عهدي تكونون لي خاصة من بين جميع الشعوب فإن لي كل الأرض 19: 6 وأنتم تكونون لي مملكة كهنة وأمة مقدسة هذه هي الكلمات التي تكلم بها بني إسرائيل 19: 7 فجاء موسى ودعا شيوخ الشعب و وضع قدامهم كل هذه الكلمات التي أوصاه بها الرب 19: 8 فأجاب جميع الشعب معا وقالوا كل ما تكلم به الرب نفعل فرد موسى كلام الشعب إلى الرب 19: 9 فقال الرب لموسى ها أنا آت إليك في ظلام السحاب لكي يسمع الشعب حينما أتكلم معك فيؤمنوا بك أيضا إلى الأبد وأخبر موسى الرب بكلام الشعب 19: 10 فقال الرب لموسى: اذهب إلى الشعب وقدسهم اليوم وغدا وليغسلوا ثيابهم" اهـ

فكما رأينا ليس هناك أي إشارة في التوراة للاستثقال هذه، وربما قيل هذا القول كتبرير لنتق الجبل! والناظر في القرآن يجد أنه يذكر هذه الواقعة كنعمة على بني إسرائيل، لا

(130) جمال الدين بن منظور، لسان العرب، الجزء السادس، ص. 4337.

أنها كانت عنصر تهديد، وإنما تذكير بالميثاق الذي أخذ عليهم، وحث على التمسك به، وكان من بينه أن يؤمنوا بالرسول الخاتم إذا جاء!: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ٨٠﴾]سورة طه, ٨٠[، فلقد كانوا في جانب الطور الأيمن، والذي تزلزل وارتجف وأحيطت به السحب، حتى ظنوا أنه واقع بهم ومبيدهم، ولكن لم يحدث شيء من هذا! إذا فليس في القرآن إشارة إلى طيران الجبال ولا إلى رفعها، وإنما كل الحديث عن النتق .. فقط!

إيذاء موسى

كثيرة هي المواقف التي ذكرها القرآن عن سيدنا موسى، والتي حولتها الروايات إلى أساطير وخرافات، ورأينا كيف أن القرآن يقول بدرر أخرى غير الغث المذكور فيها، ولو تدبر القارئ في باقي القصص لبان له عظيم الفارق بين ما يقوله القرآن وبين ما تقدمه الروايات، ونختم حديثنا عن سيدنا موسى بالإيذاء الذي برأه الله العليم منه، والذي أبت العقلية الخرافية إلا أن تجعله كذلك .. أسطورة!

وعلى الرغم من أن الله لم يقل إلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ٦٩﴾] سورة الأحزاب, ٦٩[، ولا رائحة لآيات أو معجزات! إلا أنهم أبوا أن يجعلوا في الأمر آية له، فنجد الإمام ابن كثير يذكر في تفسيره لهذه الآيات أكثر من رأي .. ولا يرجح أي واحد منها لورودها منسوبة إلى النبي، ويعدها كلها أو غيرها تفسيرا للآية، فيقول: "عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن موسى، عليه السلام، كان رجلا حَيِيا سِتِّيرا، لا يُرَى من جلده شَيء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يتستر هذا التستر إلا من عيب بجلده، إما برص وإما أدْرَة وإما آفة، وإن الله، عز وجل، أراد أن يُبرئَه مما

قالوا لموسى عليه السلام، فخلا يوما وحده، فخلع ثيابه على حجر، ثم اغتسل، فلمَّا فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حَجَر، ثوبي حَجَر، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عُريانا أحسن ما خلق الله، عز وجل، وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبَه فلبسه، وطَفِقَ بالحجر ضربًا بعصاه، فوالله إن بالحجر لَنَدبًا من أثر ضربه ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا قال: فذلك قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً). (...) عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم، في قوله: (فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا) قال: صعد موسى وهارون الجبل، فمات هارون، عليه السلام، فقال بنو إسرائيل لموسى، عليه السلام: أنت قتلته، كان ألين لنا منك وأشد حياء. فآذوه من ذلك، فأمر الله الملائكة فحملته، فمروا به على مجالس بني إسرائيل، فتكلمت بموته، فما عرف موضع قبره إلا الرَّخَم، وإن الله جعله أصم أبكم. وهكذا رواه ابن جرير، عن علي بن موسى الطوسي، عن عباد بن العوام، به. ثم قال: وجائز أن يكون هذا هو المراد بالأذى، وجائز أن يكون الأول هو المراد، فلا قول أولى من قول الله، عز وجل. قلت: يحتمل أن يكون الكل مرادا، وأن يكون معه غيره، والله أعلم.[131]" اهـ

وهكذا أصبح إيذاء بني إسرائيل لموسى أنهم قالوا أنه آدر! ولست أدري ما المشكلة أن يكون النبي آدر، ولماذا يجب أن يظهر لهم خلاف ذلك؟! ولست أدري كيف كان بنو إسرائيل يستحمون عراة ينظر بعضهم إلى بعض! والقول بالظن لا يحتاج إلى أن يُرد عليه، والرواية من أولها لآخرها عجيبة، لذلك وجدنا كثيراً من المفسرين لا يعتمدونها بمفردها كتفسير للآية، وذلك لما فيها، وإنما يذكرونها مع غيرها، وغالباً ما يرجحون غيرها، إلا أن أنصار المذهب السلفي يعتمدونها كتفسير أول، لأنها أصح الروايات سنداً! بهذا الشأن!

[131] إسماعيل بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، الجزء السادس، ص. 486.

وهناك من أخذ بغيرها من الروايات لأنه رأى أنها أكثر اتفاقا مع الآيات، فنجد الأستاذ عبد الوهاب النجار مثلاً يقول: "والذي أميل إليه في مسألة إيذاء بني إسرائيل موسى ما ذكره البيضاوي في تفسيره والألوسي في تفسيره وابن الأثير في تاريخه وعبارة ابن الأثير أوسع، ذلك أن موسى طلب الزكاة من قارون، فشحت نفسه بالمال، وأراد أن يكيد موسى ليرجمه، فاتفق مع امرأة أن تقول عن موسى أنه زنى بها. ولما أصبح قال لموسى: أليس من الشريعة أن الزاني يرجم؟ قال: بلى؟ قال: فإنك قد زنيت بفلانة ويجب أن تسلم نفسك لنرجمك! فلما جاءت المرأة أخبرت أن قارون لقنها أن تدعي هذه الدعوى على موسى وهو بريء منها.[132]" اهـ

وأنا أرى عدم دقة هذه الرواية كذلك، وأرى أن الإيذاء المذكور هو ما قاله سيدنا موسى لقومه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ... ۝٥﴾ [سورة الـصّـف ,٥]، وقد عاب الله على المؤمنين في أول السورة نوعاً مخصوصاً من القول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢﴾ [سورة الـصّـف ,٢]، وعاب عليهم في سورة الأحزاب نوعاً آخر: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ۝٥٧﴾ [سورة الأحزاب ,٥٧]، ثم قال لهم بعد أن نهاهم عن أن يكونوا مثل الذين آذوا موسى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠﴾ [سورة الأحزاب ,٧٠]، فهؤلاء كانوا يتقولون على الله ورسوله أو يسبونهما أو ينسبون إليهما ما لا يليق بهما، فنهاهم الله أن يكونوا مثل الذين آذوا موسى ووصفه بأوصاف لا تمت له بصلة، على الرغم من معرفتهم أنه رسول الله! وأمرهم بتقوى الله وأن يقولوا قولا سديداً!

[132] عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء، ص. 291.

ومن ثم فإن الإيذاء كان بأمر يتعارض مع كونه رسولاً، وليس لكونه آدر أي علاقة بالأمر، وليست مكيدة قارون هي فعل قوم حتى تنسب إليهم[133]، وإنما هو أمر كان يصدر من كثير من بني إسرائيل وهو أنهم كانوا لا يراعون مقام الرسالة، على الرغم من أنه يجب أن تكون هناك معاملة مخصوصة مع الرسول، وهو ما أُمر به من يسيئون الأدب مع الرسول.

---

(133) **يضاف إلى هذا أن الحديث عن أن الرجم من الشريعة يكذبه القرآن، والذي يقول أن القتل ما كُتب على بني إسرائيل إلا في حالتين اثنتين فقط، هما: القتل والإفساد في الأرض:** ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾] سورة المائدة ,٣٢[

الفصل الثالث: من بعد موسى

داود عليه السلام

قلنا سابقا أن القرآن لم يفصل في ترتيب الأنبياء من بعد موسى، واختيارنا لذكر داود بعد موسى راجع إلى بداية الآيات التي قصت كيف أصبح داود عليه السلام خليفة، وهي قول الرب العليم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ... ﴿٢٤٦﴾﴾ [سورة البقرة, ٢٤٦]، ولا يعني هذا أنه لم يكن ثمة أنبياء بين موسى وداود، فلقد صرح القرآن بوجود واحد على الأقل، وهو الذي طلب إليه الملأ الطلب السابق، وأشار بطريقة الحديث عنه إلى وجود غيره، مما يعني وجود أنبياء بين موسى وداود، إلا أن القرآن لم يفصل بشأن هؤلاء الأنبياء ومن ثم نغض الطرف عنهم.

والمستنبط من القرآن أن داود أوتي الملك أو الخلافة أولاً ثم نُبِّأ بعد ذلك، فلقد كان قتل داود لجالوت هو الطريق لأن يؤتى الملك، ثم أصبح الحديث بعد ذلك عنه باعتباره الخليفة النبي: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ... ﴿٢٥١﴾﴾ [سورة البقرة, ٢٥١]

ولقد اشتهر سيدنا داود بأنه صاحب المزامير –كما قالت التوراة– ويرى كثيرٌ من المسلمين أن هذه المزامير هي الزبور الذي أوتيه داود عليه السلام: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ [سورة الإسراء, ٥٥]، ولقد بيّنا سابقا أن محتوى الزبور لا يتفق مع محتوى المزامير، وأن سيدنا داود ليس الوحيد الذي أوتي زبورا، وإنما كان واحداً من الذين أوتوا زبُراً!

وذُكر سيدنا داود مرتبطا بسيدنا سليمان في عدد من الآيات، ويتفهم القارئ هذا الربط باعتبار سليمان ابن داود، إلا أن القرآن لم يصرح بهذه البنوة في آية واحدة، نعم هذا ما يُفهم من الآيات، إلا أنه لا دليل مباشر على هذا، وأقوى الأدلة على هذه البنوة هي قول الرب العليم: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٣٠﴾ [سورة ص , ٣٠]، وقوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ... ۝١٦﴾ [سورة النمل , ١٦] ويتساءل المرء عن علة عدم ذكر هذا؟! أيكون في هذا إشارة إلى أن سليمان لم يكن ابن داود، وإنما كان الحاكم التالي له؟! الله أعلم، وقد يكون القرآن لم يذكرها لأنها من الأمور المشتهرة، ولكنها على أي حال من النقاط التي ينبغي التوقف معها، مثلها مثل عدم ذكر القرآن في آية واحدة أن موسى أوتي التوراة، وإنما تأكيده المستمر أنه أوتي "الكتاب"! فهل التوراة شيء أعم وأشمل من كتاب موسى أو لاحق له؟! الله أعلم.

والناظر فيما قصه القرآن عن سيدنا داود يجد أنه لم يذكر له دعوة، وإنما قال أنه أوتي الملك والحكمة، واللذان استخدمها لا محالة في الدعوة إلى الله، إلا أن الله لم يعرض لجانب الدعوة في حياة داود كنبي، وإنما تحدث عن جانب الملك. والنبي داود عليه السلام لم يكن نبياً إلى قوم مشركين وإنما كان نبياً في جماعة مسلمة، ومن ثم فلم يكن مع داود "آية" وإنما أوتي "زبورا". إلا أن هذا لا يعني أنه لم يدع غير الإسرائيليين إلى عبادة الله وترْك ما هم عليه من الضلال، فحتماً فعل هذا، إلا أن القرآن لم يسجل أي إشارة إلى تلك الدعوة الملكية!

ولقد ذكر الله الملك أنه أنعم على داود بنعم كثيرة، فلقد كانت الجبال تؤوب معه وألان الله له الحديد: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠﴾ [سورة سبإ , ١٠]، وكذلك الطير كانت محشورة له: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۝١٨ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٩ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ۝٢٠﴾ [سورة ص , ١٨-٢٠].

ونلاحظ أن الجبال سُخرت مع سيدنا داود، ولم تُسخر له، فالجبال، والتي هي رمز الصلابة والغلظة والتي هي أوتاد الأرض، والطير كن يسبحن مع سيدنا داود ويأوبن معه، والتأويب هو الرجوع، كما جاء في لسان العرب: "الأَوْبُ: الرُّجُوعُ. آبَ إِلى الشيءِ: رَجَعَ، (...) وفي حديث النبي، صلى اللّه عليه وسلم: أَنه كان إِذا أَقْبَلَ من سَفَر قال: آيِبُونَ تائِبُون، لربنا حامِدُونَ، وهو جمع سلامة لآيب. وفي التنزيل العزيز: "وإِنّ له عندنا لَزُلْفَى وحُسْنَ مآب" أَي حُسْنَ المَرجِعِ الذي يَصِيرُ إِليه في الآخرة. قال شمر: كُلُّ شيء رجَعَ إِلى مَكانِه فقد آبَ يَؤُوبُ إِياباً إِذا رَجَع. أَبو عُبَيْدةَ: هو سريع الأَوْبَةِ أَي الرُّجُوعِ.[134]" اهـ

فلقد كان سيدنا داود كثير الرجوع إلى الله عز وجل، وكثير الذكر له لتعلقه به، فكلما انشغل عنه بأي شغل، يقطع نفسه عنه ويهرع إلى العبادة. ولقد قال السادة المفسرون أن تأويب الجبال والطير كان بالتسبيح مع سيدنا داود الأواب، وكذلك كل جبل وطير كان أواب لسيدنا داود عليه السلام! فكيف يكون هذا التأويب؟! قد يتصور القارئ حدوث التأويب، أي الرجوع، من الطير، فهي تسبح في السماء ثم تأوب إليه، عندما يُأوب فتُحشر له، أما كيف تئوب الجبال وهي لا تتحرك؟ فنقول: الذي نعرفه أن الجبال ليست ثابتة وإنما راسية، والرسو هو ما نعرفه للسفن من ثبات على سائل، مع وجود حركة بسيطة!

وهذا ما كانت الجبال تفعله، فلقد كانت —والله أعلم– تتفاعل مع تسبيح سيدنا داود عليه السلام حتى أنها كانت تتحرك هذه الحركات البسيطة، وبذلك كانت الجبال مثل الطير أواب، ولكن في حدود ضيقة! *أما فائدة حشر الطير لسيدنا داود عليه السلام، فهي أنها بمثابة سلاح لم يتوفر لغيره أو لأحد قبله، وهو السلاح الجوي*، وتصور أن جيشا كاملا من الطيور يهجم مع جيش على آخر، فلقد كان هذا السلاح نقطة تفوق كبيرة لسيدنا داود عليه السلام، وسليمان من بعده، والذي أُمد بأسلحة أخرى!

[134] جمال الدين بن منظور، لسان العرب، الجزء الأول، ص.166.

داود والخصم المتسورون.

لقد قص القرآن عدداً من المواقف لداود عليه السلام، وأشهر هذه المواقف هي حاله مع الخصم الذين تسوروا المحراب. وهذه القصة أصبحت نموذجاً مشهوراً للإسرائيليات، فلا يكاد يخل حديث عن الإسرائيليات من الإشارة إلى هذه القصة، وكيف أنها شوهت المذكور من الرب. ونحن إذ نذكرها فإننا نذكرها كنموذج لقبول الإسرائيليات على الرغم من الاختلاف الشاسع بينها وبين النص، وكذلك كنموذج لفرار المتعامل من النص مما يقول وتجنبه والقول بما لم يقل!

وردت هذه القصة الشهيرة في آيتين في سورة ص، وهما قوله جل وعلا: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ۝٢١ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ۝٢٢ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ۝٢٣ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ۝٢٤﴾ [سورة ص, ٢١-٢٤]

والآيات صريحة في حديثها عن خصمٍ وتسورٍ وسؤال، إلا أن الروايات وجدت في المذكور تشابهاً مع ما جاء في التوراة بشأن أوريا وزوجه، فقالت بما جاء في التوراة، وقُدم كتفسير للنص، وملخص هذه التُرّهات أن سيدنا داود عليه السلام كان متزوجا بتسع وتسعين امرأة! ثم رأى امرأة وهي تستحم! فاشتهاها فزنى بها! وفي بعض الروايات أنه لم يزن بها ولكنه سأل عن زوجها فعلم أنه في الجيش فوضعه في مقدمة الجيش وكان يغلب على من يكون في المقدمة أن يقتل، أو أمر الجيش بأن يتأخر عنه ويترك وسط الأعداء ليقتل، وفعل هذا لكي يتزوجها، ومن هذه الزيجة/ الزنية جاء سليمان عليه السلام! فجاءه هذان الملاكان في صورة هذين الشخصين ليمتحناه وليبينا له قبح فعله. ولقد لاقت هذه الرواية انتشاراً كبيراً بين العوام، لما فيها من

تشويق وإثارة! ويبدو أن هذه القصة قد تسللت مبكراً إلى المسلمين، حتى أنه ورد الخبر عن سيدنا علي رضي الله عنه أنه قال: "من حدث بحديث داود كما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة".

فإذا نظرنا في الآيات وجدناها تسأل النبي(ص) –وكل المؤمنين– هل وصل إلى علمك نبأ "الخصم"؟ وكلمة "الخصم" أصل في وجود خصومة، إلا أن الرواية ألغتها، وقالت أنهما لم يكونا خصمين وإنما ملاكان! ولا يكتفي النص بالقول أنهما كانا خصمين، وإنما يوضح أنها كانت خصومة بين جماعتين وليس فردين: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾ [سورة ص, ٢١]، وقال: ﴿... خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ ... ﴿٢٢﴾﴾ [سورة ص, ٢٢]، ثم يبين بما لا يدع مجالا للشك أنهما كانا خصمين بشريين عاديين بقوله "إذ تسوروا المحراب"، فعندما جاء الخصم إلى محراب سيدنا داود ووجدوه مغلقا "تسوروا" أي صعدوا على السور لكي يدخلوا إلى سيدنا داود ويعرضوا مسألتهم عليه، فلو كان الخصم اثنين من الملائكة فلِما تسوروا المحراب وكان يمكنهما أن يظهرا أمامه مباشرة؟! ثم إنهم دخلوا على داود ولم يظهروا أمامه! ثم عرضوا مسألتهم والتي هي على أقوال القصاصين غير حقيقة ولم تقع أساسا وإنما هي افتراضات! أي أنهم لم يبغوا على بعض ولم يكن لأحدهما تسع وتسعون نعجة ولا لآخر نعجة واحدة! ولم يطلب هذا إلى ذاك ضم نعجته إلى نعاجه!!

إذا وكما رأينا فالآيات صريحة في حقيقة هذه الخصومة.

وعلى الرغم من كل هذه الأدلة المباشرة، إلا أن المفسرين لمّا وجدوا أن الله يقول أن سيدنا داود ظن أنما فتناه واستغفر، *استنتجوا* أنه فعل شيئاً، ومن ثم قبلوا الروايات الإسرائيلية! ولما كنت من الرافضين لهذه الإسرائيلية كنت أتساءل: لماذا استغفر داود ربه، ولماذا قيل له: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ... ﴿٢٦﴾﴾ [سورة ص, ٢٦]؟!

وكنت أحاول أن أوجد لها بعض التبريرات، مثل أن داود تسرع في الحكم، فلقد حكم داود عليه السلام دون أن يسمع من الآخر، وكان عليه أن يسمع من الطرفين قبل أن يصدر الحكم، أو لأنه احتجب منهم حتى اضطرهم للتسور! أو لأنه فزع منهم وهذا ما لا يليق بمقام النبوة. وكلها أقوال وتبريرات تبعد عن الافتراض المنطقي في مثل هذه الحالات، فعندما يُنهى إنسان عن إتباع الهوى، فهذا يعني أنه قد اتبعه! ومن ثم فلا مانع أبداً أن يكون الرب المطلع على ما في الصدور قد علم أن داود عليه السلام داخله الهوى في الحكم، والله أعلم لماذا خالطه الهوى ولكن داود كان الأدرى بحاله فاستغفر، والرب نهاه عن إتباع الهوى وأمره بالحكم بالحق، ومن ثم فقد خالطه الهوى حتما! والفارق بيننا وبينه أنه نبي وما أن شعر بهذا الهوى حتى استغفر ربه مباشرة وخر راكعا وأناب!

داود والصافنات

من القصص التي اشتهرت في حق سيدنا سليمان قصته مع الخيل والتي جاءت في قوله سبحانه: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٣٠ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ۝٣١ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ۝٣٢ رُدُّوهَا عَلَىَّۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ۝٣٣ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ۝٣٤﴾ [سورة ص ,٣٠-٣٤]

والتي قال المفسرون فيها أن سيدنا سليمان أجرى الخيل بالعشي، فلما شغلته متابعةُ الخيل عن صلاة العصر حتى توارت الشمس بالحجاب، أمر سيدنا سليمان بأن ترد عليه فأخذ يقطع سوقها وأعناقها أسفاً على فوت الفريضة. وعلى الرغم من أن هذا القول مخالف لظاهر الآيات، فليس فيه أي إشارة إلى ذبح إلا أن كثيراً من المفسرين

دافعوا عن هذا الرأي واعتبروه هو التفسير المعتمد، ورفضوا القول بأن المراد من المسح هو المسح!

ولست أدري لماذا لم يقولوا بهذا القول كذلك في آية الوضوء، فيكون الواجب على الإنسان أن يقطع رأسه كلما قام إلى الصلاة!! ولقد أجاد الإمام الرازي في الرد على هذه الأقوال العجيبة، فقال: "إن هذه القصص إنما ذكرها الله تعالى عقب قوله ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝١٦﴾] سورة ص ,١٦[وأن الكفار لما بلغوا من السفاهة إلى هذا الحد قال تعالى لسيدنا محمد: "اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود" ثم ذكر قصة داود ثم ذكر عقبها قصة سليمان، وهذا الكلام لا يكون لائقا إلا إذا كان سليمان قد أتى في هذه القصة بالأعمال الفاضلة والأخلاق الحميدة وصبر على طاعة الله وإعراض عن الشهوات فلو كان المقصود من القصة أنه أقدم على الكبائر العظيمة لم يكن ذكر القصة لائقا بهذا الموضع ويكون التفسير الموافق للسياق والله أعلم، أن نقول إن رباط الخيل كان مندوباً إليه في دينهم كما أنه كذلك في دين محمد صلى الله عليه وسلم، ثم إن سليمان عليه السلام احتاج إلى الغزو فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها وذكر أني لا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس، وإنما أحبها لأمر الله وطلب تقوية دينه وهو المراد من قوله عن ذكر ربي، ثم إنه عليه السلام أمر بإعدائها وتسييرها حتى توارت بالحجاب أي غابت عن بصره، ثم أمر الرائضين بأن يردوا تلك الخيل إليه، فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها، والغرض من ذلك المسح أمور، الأول: تشريفاً لها وإبانة لعزتها لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو. الثاني: أنه أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والملك يتضع إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه. الثالث: أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها، فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض، فهذا التفسير الذي ذكرناه ينطبق عليه لفظ القرآن انطباقاً مطابقاً موافقاً، ولا يلزمنا نسبة شيء من تلك المنكرات والمحذورات، وأقول: أنا شديد التعجب من

الناس كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة مع أن العقل والنقل يردها، وليس لهم في إثباتها شبهة فضلاً عن حجة.[135]" اهـ

وقول الإمام الفخر الرازي جيد مقبول، لأنه لا يخالف الآيات ولا يضيف عليها، فلا يفترض أن التي غابت هي الشمس وإنما المذكور وهي الصافنات، ولا أن المسح بمعنى القطع، إلا أنه يؤخذ عليه وعلى كل المفسرين أنهم جعلوا الآيات في سيدنا سليمان عليه السلام، بينما هي في داود عليه السلام، ولقد أجاد الإمام الفخر في إبانة اتصال الآيات بما قبلها، إلا أنه تحول بلا مبرر وجعلها في سليمان، وربطه الآيات ببعضها يُظهر ويؤكد أن تكون في داود وليس سليمان.

وسبب قولهم بهذا هو أن الرب العليم قال: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٣٠﴾ [سورة ص, ٣٠]، فقالوا أن المراد من العبد الأواب هو سليمان عليه السلام، ومن ثم فإن الحديث في الآيات التالية عنه! على الرغم من أن الله تعالى قد نعت داود في آية سابقة بأنه أواب، والأهم أن الله تعالى قال بعد أن قص هذه الحادثة: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ۝٣٤﴾ [سورة ص, ٣٤]، ولو كان الفاعل فيها هو سليمان لقال الله: "ولقد فتناه وألقينا .." ولكن لما كان الفاعل مختلفا ميّزه الله بالاسم، ولو كان سليمان هو الفاعل في الواقعة السابقة لعرّف الله به بما لا يدع مجالاً للشك، وبما أن الله لم يذكر اسما في الآيات السابقة فإنها تنسحب على المذكور السابق وهو داود!

سليمان عليه السلام

كما ذُكر سيدنا داود عليه السلام ست عشرة مرة ذكر كذلك *ابنه* سليمان عليه السلام، وكذلك كان آخر ذكر له مثل داود في سورة ص. وكما تحدث الرب عن النعم

[135] الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، الجزء السادس والعشرون، ص. 180.

التي أنعمها على داود تحدث كذلك عن النعم التي أنعمها على سليمان وعن إحكام ملكه، ولقد زاد الله في النعم التي أنعم بها على سليمان استجابة لدعاء دعاه: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة ص, ٣٤-٣٥]، فأعطاه الله عطاء واسعا: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة ص, ٣٦-٣٧]

ولأن الله ذكر ملكاً عجيباً لسليمان، ولأن المفسرين لم يحسنوا التعامل مع الآيات الواردة بشأن هذا الملك ظهرت العديد من الروايات التي صبغت هذا الملك بصبغة خرافية تامة، فجاءت بعض الراويات التي تقول أن سيدنا سليمان كان من الملوك الذين حكموا الأرض! على الرغم من أن القرآن قال أن سليمان لم يكن يعلم بأحوال مملكة سبأ وأخبره بها هدهد من أجناده!

ومن ثم فإن تمكينه في حدود ملكه وليس على كل العالم. ومن ذلك ما ذكره الله بحق تسخير الريح لسليمان، فلقد قال الرب في سورة سبأ: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ... ﴿١٢﴾﴾ [سورة سبإ, ١٢]، فكانت هذه الرياح تجري شهرا إلى الأرض التي بورك فيها شهرا وتعود شهرا، ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ [سورة الأنبياء, ٨١]

والعجيب أن المفسرين قالوا أن المراد من: ﴿... غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ... ﴿١٢﴾﴾ [سورة سبإ, ١٢] أنها تجري في الغداة مسيرة شهر وفي الروحة مسيرة شهر! وهكذا جعلوا الغُدُو بمعنى الغَدْو، والرواح بمعنى الروحة! بل وزاد بعضهم أنه كان لسيدنا سليمان بساطٌ كبير يجلس عليه وتحمله الريح حيث يشاء! ومن هذه الروايات ظهرت

خرافة بساط الريح! وبغض النظر عن هذه الخرافة التي لم يعول عليها كثيرٌ من المفسرين، فلست أدري كيف لم ينتبهوا إلى أن "الغُدُو" جمع وليس مصدرا!

وكذلك الرواح جمع! ومفردهما الغدوة والروحة كما جاء في حديث النبي الشهير: "..واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة!" ولقد وردت كلمة الغُدُو صريحة في بعض آيات في الكتاب الكريم، منها: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾ [سورة الأعراف, ٢٠٥]، ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ١٥﴾ [سورة الرّعد, ١٥]، فالمعنى أنها تجري شهرا ذاهبة وشهرا آيبة، لا أن جريها في الغدوة الواحدة مسيرة شهر –بمقياس الإنسان!–

ومن النعم التي أنعم الله بها على سيدنا سليمان كذلك –وإن لم تكن خاصة به– إسالة عين القطر! *ومن العجب كذلك أن المفسرين يقولون أن القطر هو النحاس!* ولست أدري كيف يكون النحاس عينا؟! إن النحاس لا يوجد بأي حال بشكل سائل في الطبيعة، والله عز وجل لا يقول أنه جعل له النحاس سائلا – حتى نقول أنها آية له– وإنما يتكلم عن إسالة عين القطر، وهذا يعني أنها كانت أصلا عينا والله تعالى أسالها لسيدنا سليمان! والذي أراه والله أعلم أن عين القطر هي إما "البترول" عامة أو القطران خاصة، فالبترول يوجد في الأرض على شكل سائل، ومن الممكن استعماله في صناعات عدة!

وفصّل الله في النعم التي أنعم بها على سيدنا سليمان في سورة سبأ، فقال: ﴿... وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ١٢ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣ فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ١٤﴾ [سورة سبإ, ١٢-١٤]

وليس الموطن موطن الحديث المستفيض عن المحاريب والتماثيل والجفان والقدور الراسيات، لأنه مما يحتاج إلى تفصيل طويل يخرجنا من السياق الذي نتحدث عنه[136]، لذا نكتفي بالتعليق على مكانة هذه الآية بالنسبة للدعوة والإيمان، فنقول أن الملاحظ أن هذه النعم كلها لم تكن آيات ليؤمن بنو إسرائيل، وإنما نِعم أنعم الله بها على سليمان تحقيقاً لطلبه، ومن ثم فإن سليمان عليه السلام لم يأت كذلك بآيات ليؤمن قومه أو غيرهم، فهو كذلك كان أولاً نبياً لجماعة المسلمين ويدعو غيرهم لعبادة الله.

خاتم سليمان

إذا كان القصاصون قد اختلقوا الخرافات فيما لا مظنة له، فمن غير المنطقي ألا تُختلق الخرافات بشأن هذا النبي الذي أمده الله بالكثير الفائق! ولن نعرض لهذه الخرافات كلها وإنما نكتفي بإبطال خرافة شهيرة وهي خرافة خاتم سليمان! وهي التي ذكرها المفسرون في تفسيرهم لقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ۝٣٤ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٣٥﴾ [سورة ص, ٣٤-٣٥]، حيث أوردوا روايات مفادها: أن سليمان عليه السلام تزوج امرأة مشركة اسمها "جرادة" وعلى الرغم من إسلامها فإنها ظلت تبكي أباها فأمر سليمان فمثل لها صورة أبيها –ورُوي أنها صنعت التمثال بدون علم سليمان– وكانت تسجد له هي والجواري، فلما علم سليمان كسر التمثال وعاقبها. وحدث ذات يوم أنه دخل الخلاء، فخلع الخاتم وأعطاه للجني المرافق له، فأخذه الجني ولبسه وتشكل بشكل سليمان، إلى آخر القصة المعروفة بين سليمان والجني والخاتم الذي وجده في السمكة.

[136] تحدثنا بالتفصيل عن هذه الآيات في كتابنا السابق: "الجن واختلاق الأرباب" –غير مطبوع–، وموجود على صفحات موقعنا الشخصي: www.amrallah.com/ar وبيّنا أن أقوال المفسرين بشأنها سطحية، وقدّمنا فيها توجيهات مغايرة.

وأصل هذه الروايات كتاب (عهد سليمان) الذي يعود للقرن الأول الميلادي، والذي يقول: "أن خادم سليمان في الهيكل يأتيه الشيطان أورنياس ويأكل أكله، وأن سليمان الملك أعطى هذا الخادم خاتمه، وطلب منه أن يضرب به الشياطين ويختمهم به ليسخرهم لخدمته" وهذه الروايات بمجموعها مستحيلة عقلا وتصلح كقصة عظيمة لفيلم أسطوري خرافي شائق، وبالفعل ظهرت بعض الأفلام تتناول هذه الأسطورة! إلا أنها كواقع غير مقبولة ولا معقولة، وفيها نكارة شديدة، ولقد علّق الإمام ابن كثير على هذه الروايات في البداية والنهاية، فقال: "ذكر ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما من المفسرين هنا أثارا كثيرة عن جماعة من السلف وأكثرها أو كلها متلقاة من الإسرائيليات وفي كثير منها نكارة شديدة وقد نبهنا على ذلك في كتابنا التفسير[137]"اهـ

وبغض النظر عن الاستحالة العقلية فيها فلقد وقع مبتدعوها في تناقض كبير، فلقد رووا أن الجني لما جلس على الكرسي اجتمع عليه الطير والإنس والجن، ونسى هؤلاء أن تسخير الطير والجن والريح كان بعد الفتنة لا قبلها فلم يكن الجن قد سُخر بعد فتأمل وتعجب! والكذاب يأتي دوما بما يكشف كذبه! والقول بأن سليمان صنع التمثال لزوجه مأخوذ من التوراة التي رمته بالكفر وإتباع آلهة غير الرب، وهو ما نفاه القرآن عن سيدنا سليمان: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ ... ﴿١٠٢﴾﴾ [سورة البقرة ,١٠٢]، وإذا كان الأمر قد حدث بدون علمه فلا ذنب عليه يعاقب من أجله هذا العقاب الشديد.

أمّا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة ص ,٣٤]، فنحن نتوقف فيه، على الرغم من وجود عدة أفهام مقبولة لها، مثل ما ذكره الإمام الرازي في تفسيره: "أن سليمان ابتلي بمرض شديد ضني منه جسده حتى صار لشدة المرض كأنه جسد بلا روح ثم أناب أي رجع إلى الصحة"، ومثل ما قيل أن أخاه كان قد استولى على كرسي الملك من سليمان لفترة من الزمان ثم عاد سليمان إلى

---

[137] إسماعيل بن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، الجزء الثاني، ص. 31.

الحكم مرة أخرى، فلذلك دعا ربه بالتمكين في الملك وأن لا ينبغي لأحد من بعده مثل هذا الملك. ولكني لا أشعر بتطابق أيٍ منها مع النص، لذا نتوقف في هذه الجملة حتى يظهر لنا أو لغيرنا فيها قول مطابق، والله أعلم.

سليمان والنمل

يقص القرآن أن سليمان في أثناء إحدى الغزوات وصلوا إلى وادي النمل، وهناك قالت نملة: ﴿... يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝١٨﴾ [سورة النمل ,١٨]، وكنا قد توقفنا في هذه الآية في الماضي، فلم نجزم بكون النمل المذكور في الآية الحشرات المعروفة أو بشر، لأسباب عدة أهمها أن الآية قالت: ﴿... يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمۡ ... ۝١٨﴾ [سورة النمل ,١٨]، فاستعملت الآية ضمائر جمع المذكر السالم، وهذه الضمائر لا تستعمل إلا مع العاقل، فلو كانت هذه الكائنات من الحشرات أو من غير العاقل لقالت الآية: "يا نمل ادخلن بيوتكن"، فغير العاقل لا يتخذ مسكنا ولكنه يتخذ بيتا: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ۝٦٨﴾ [سورة النحل ,٦٨] بالإضافة إلى أن القرآن لم يقل أن سيدنا سليمان عُلم منطق كل الكائنات، وإنما قال أنه عُلم منطق الطير فقط، وثمة من قال أن النملة هذه كانت زعيمة قبيلة موجودة بالقرب من اليمن، وهذه القبيلة موجودة في مكان يسمى وادي النمل. ونحن نسلم بوجود وادي النمل، ولكنه من البعيد جدا أن يكون المكان اسمه وادي النمل، والقبيلة تسمى النمل، والزعيمة أو المراقبة اسمها نملة، فتوقفنا في تحديد المراد من هذه الآية.

أما الآن فنقول أن النمل كان حشرات وليس بشراً، والله أعلم سليمان ماذا قالت النملة فتبسم ضاحكاً، أما الضمائر فلا إشكال فيها لأن الحديث ليس عنها وإنما

منها، وأما مسألة المسكن والبيت فليست كل الحشرات سواء، وليس النحل كالنمل! أما الحديث عن منطق الطير فليس له علاقة بالنطق واللغة وإنما كيفية تحريكها وإرسالها والسيطرة عليها! ويبدو أني كنت قد نسيت قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [سورة النمل ,١٦]، فلا مانع من أن يكون من بين كل شيء الذي أوتاه سليمان معرفة لغة الدواب –والذي بيّنا في كتابنا السابق "الجن واختلاق الأرباب" أنه أوتي من العلم كثير فائق، احتاج معه إلى عمال خارقين "الجن"، لكي يستطيعوا تنفيذ ما يبتكر، ويكون هذا إشارة إلى أننا سنفهم لغاتها في يوم من الأيام.[138]

ومعرفة سليمان لغة الدواب ليست من المعجزات! وهي مما ستصل إليه البشرية في يوم من الأيام، أما ما اختُص به سليمان ولن تصل إليه البشرية أبداً فهو أن يُسخر لإنسان الريح والجن، وذلك كما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾

(138) على الرغم من خلو التوراة عن أي إشارة إلى علاقة سليمان بالجن أو الطيور أو الحيوانات، إلا أننا نجد التلمود البابلي يذكر هذا صراحة فنجده يقول: " سليمان، كما يجب أن يُعرف، لم يحكم على الإنس فقط، بل وعلى وحوش البر وطيور الجو والشياطين والأرواح وأشباح الليل أيضا، لقد عرف لغاتهم كلهم وهم عرفوا لغته. (...)"، وذكر قصة له مع نملة، شبيهة بما جاء في القرآن، فنجده يقول: "تاهَ سليمان في أحد المرات في وادي النملِ أثناء رِحلاتِه، فسَمعَ نملةِ تأمر كُلّ النمل الآخر بالتَرَاجُع، لتفادي السْحَقَ بجيوشِ سليمان، تَوقّفَ الملك واستدعىَ النملةَ التي تَكلّمتْ، فأخبرتْه أنّها ملكةَ النملِ، وأنها أصدرت أوامرها بالانسحابِ. أرادَ سليمان تَوجيه سؤال إلى ملكةِ النملةَ، لكنَّها رَفضتْ الإجابة ما لم يرفعها الملك ويضعَها في يَدِّه. فرَضخَ، وبعد ذلك قدّم سؤالَه: "هَلْ هناك أحد أعظم مِنْي في كُلّ العالمِ؟ " فأجابت النملةَ "نعم". فسأل سليمان: "من ؟" فأجابت النملة" :أَنا" فقال سليمان: "كيف يكون هذا؟" فقالت النملة: لو لم أكن أعظمَ منك، لما كان الله سيَقُودُك نحوى لتضْعني على يَدِّك". كما ذكر قصة له مع هدهد قريبة من المذكور في سورة النمل، إلا أنها لم تخل من المبالغات والخرافة، فنجده يقول: "في إحدى المناسبات افتقد سليمان الهدهد من بين الطيور، ولم يستطع أحد أن يجده في أي مكان، فأمر الملك بغضب أن يؤتى به ويعاقب على تكاسله. فظهر الهدهد وقال: "مولاي، ملك العالم، أصغ بأذنيك وأنصت لكلامي. فقد مضت ثلاثة أشهر منذ أن بدأت بالتشاور مع نفسي لأحدد لنفسي خطة لعملي. *لم أتناول خلالها طعاما ولا شربت ماء* لأتمكن من الطيران حول أرجاء العالم لأرى أن كان هنالك بقعة في أي مكان من العالم لم تخضع لسلطان مولاي الملك. ولقد وجدت مدينة، وهي مدينة كيتور، في الشرق. *التراب الذي هناك أعلى قيمة من الذهب، والفضة كأوحال الطرق*، أشجارها نبتت منذ بداية العالم، وهي تمتص الماء الذي ينبع من جنة عدن. المدينة مملوءة بالرجال. وعلى رأسهم يوجد امرأة تسمى ملكة سبأ.".اهـ، ومن مثل هذه النصوص، نعلم من أين جاءت الخرافات التي تقول أن سليمان حكم العالم كله!!

]سورة ص ,٣٥-٣٨[، فهذا ما أعطاه الله إياه إجابة لدعائه، أما ما زاد على ذلك فهو من العلوم المكتسبة.

وسماع سليمان قول النملة ليس معجزة بحال ولا آية لقومه، لأنهم لم يسمعوا ولم يروا شيئاً، ناهيك عن أنهم كانوا مؤمنين أصلا! وما هي إلا نعمة من نعم الله حمد الله عليها، ويذكرها الله للتعريف بالفضل المبين الذي آتاه عبداً من عباده.

الإيمان بالصرح

كأبيه كان حديث القرآن عن سليمان مرتبطاً بالملك، إلا أن القرآن ذكر موقفاً دعوياً لسيدنا سليمان استخدم فيه سلطانه، وذلك عندما عرف بوجود مملكة لا تعبد الله، فأرسل إليهم يدعوهم إلى الدخول في الإسلام: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ۝٣١﴾ [سورة النمل ,٣٠-٣١[، فدعاهم إلى ألا يعلو ولا يتكبروا وأن تأتيه الملكة والملأ ليعرفهم بالله وبالدين، فظنت ملكة سبأ أن سليمان ملك طالب دنيا، فرأت أن ترسل إليه هدية لتنظر هل هو يريد المال أم أنه فعلاً داع إلى دين. فلما جاء الرسول بالهدية، التي كانوا بها فرحين وفخورين، لما فيها من العظمة والبهاء، رفضها سيدنا سليمان وأمر برجوع الرسول وتبليغه الملكة أنه سيأتيهم بجنود لا قِبل لهم بها إذا لم يأتوه.

ولمّا علم سيدنا سليمان أنهم قادمون إليه، أراد أن يريهم أن ما آتاه الله خير مما آتاهم، ويعد الآيات التي تجعلهم يؤمنون به ويصدقون أنه رسول من عند الله، فكان من ذلك أن: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ۝٣٨﴾]سورة النمل ,٣٨[، فأمر ملأه أن يعملوا له عرشها بشكل أعظم، وهذا المعنى من المعاني المشتهرة ل "أتى ب"، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ

بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾] سورة الأعراف, ١٠٦[، ومثل قولنا: "أتيت بالشيء على أمثل وجه" أي قمت به على أمثل وجه.

والمفسرون على أن "يأتيني" في "يأتيني بعرشها" أي "يحضر لي"، على الرغم من أن هذا قد يعد كسرقة أو تصرف في ملك الغير بدون إذنه، ولست أدري لماذا وكيف لم ينتبهوا إلى المعنى الذي قلنا به. ويدل على هذا قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾] سورة النمل, ٤٢[، فلو كان المراد إظهار قدرة سليمان على إحضار العرش، لما كان هناك داعي لتنكيره ولما قال لها: أهكذا عرشك؟ وإنما لقال لها: هذا عرشك أحضرته بقدرة الله! ناهيك عن أنه لو كان المراد منه الإيمان بالمعجزة لكان من الأولى والأوقع في النفس أن يجعل سليمان ملكة سبأ ترى العرش يأتيها طائرا! ولمّا لم يكن وجود عرش كعرشها وأعظم عند سليمان للإيمان، قيل لها ادخلي الصرح.

والمشكلة أن النقطة المحورية التي تقدم مثالاً لدعوة سيدنا سليمان غير المسلمين قد أصابها الكثير من التعمية، فبدلاً من أن يبين السادة المفسرون لماذا أسلمت ملكة سبأ بعد أن دخلت الصرح: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾] سورة النمل, ٤٤[، وجدنا بعضهم يقول أن سليمان بنى هذا الصرح ليرى ساقيها! وقال بعضهم أن الجن كرهوا أن يتزوجها فتفضي إليه بأسرارهم لأنها كانت بنت جنية! وقيل خافوا أن يولد له منها ولد فيجتمع له فطنة الجن والإنس فيخرجون من ملك سليمان إلى ملك هو أشد، فقالوا إن في عقلها نقصاناً وإنها شعراء الساقين ورجلها كحافر حمار فاختبر سليمان عقلها بتنكير العرش، واتخذ الصرح ليتعرف ساقها!

ولست أدري أي أسرار هذه التي يخافون أن تكشفها له، وهم مسخرون عنده بإذن الله!! وهل بلغ بنبي مرسل أن يبني صرحا ممرداً من أجل أن يرى ساقي امرأة؟! ولقد

انتبه بعضهم إلى هذه المسألة إلا أنه لم يقدم علّة لإسلامها، فقال: "فلما قيل لها هو صرح ممرد من قوارير استترت، وعجبت من ذلك واستدلت به على التوحيد والنبوة، فقالت: ﴿... رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ... ﴾ [سورة النمل , ٤٤] فيما تقدم بالثبات على الكفر، ثم قالت : ﴿... وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة النمل , ٤٤].

ولكن هل كون الصرح من قوارير كاف لكي يؤمن الإنسان؟ بداهة لا يؤمن الإنسان لوجود صرح عال ضخم مبني بطراز مختلف على مستوى عالٍ من التقدم، مهما كانت درجة التقدم! فلماذا أسلمت إذا، ما الرسالة التي أرسلها سليمان الحكيم بهذا الصرح؟ نقول: الغرض من إدخالها الصرح –والله أعلم– أن تمر بهذه التجربة، فلقد بني سليمان عليه السلام صرحا من الزجاج الشفاف تجري المياه من تحته، بحيث تعتقد أنها ستمر من فوق الماء، ونظرا لأن الزجاج كان شفافا لا يرى، كشفت عن ساقيها، فهنا قال لها سليمان عليه السلام أنه صرح ممرد من قوارير، ففهمت ملكة سبأ الدرس الذي أراد لها سليمان أن تفهمه، وهو أنه ليس كل ما لا يُرى ليس موجودا، فهي كانت تعبد الشمس لأنها تراها، فأعلمها أن هناك إله وراء الشمس لا نراه بأعيننا ولكنه موجود ونحس كلنا بوجوده وبفعله وبأثره في الكون وهو المستحق العبادة.

وكما رأينا فإن دعوة سيدنا سليمان كانت قائمة كذلك على الإقناع العقلي، نعم هو استخدم ما فتح الله به عليه في إقناع الملكة، ولكنه كان قائما على الإقناع وليس الإبهار، فلم يجعل الجن تظهر لها أو تفعل العجائب ليقول لها أنه مؤيد من رب السماء، وإنما أرسل لها رسالة مباشرة تخاطب العقل فما كانت إلا أن استجابت.

إلياس عليه السلام

ليس في القرآن –كما نرى والله أعلم– بعد داود وسليمان أي إشارة لترتيب باقي الأنبياء، لذا سنجتهد في عرض الأنبياء حسبما نستخرج من الإشارات!

الناظر في القرآن يجد أن إلياس ذكر مرتين اثنتين فقط، أولاهما بعد آخر ثلاثة أنبياء في بني إسرائيل، وذلك في قوله: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [سورة الأنعام, ٨٥]، والثانية في سورة الصافات، والتي ذكرت المحور الرئيس لدعوته، وهي مقاومة عبادة البعل: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [سورة الصّافّات, ١٢٠-١٣٠] وذُكر هنا بعد رأس أنبياء بني إسرائيل: موسى وهارون، فيكون قد ذكر بعد الأولَين والآخرين، فيكون في هذا إشارة وتأكيد إلى أنه من أنبياء بني إسرائيل. والدارسون للأديان يقولون أن إلياس هو النبي إيليا المذكور في التوراة وهو من كبار أنبياء التوراة، لأن كليهما حارب في دعوته البعل، الذي عُبد من دون الله.

ولم يذكر القرآن تفاصيل أكثر عن نبي الله إلياس، وإن كان يقال أنه هو النبي الذي أنزل الله النار من أجله، والذي عنيه اليهود بقولهم: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [سورة آل عمران, ١٨٣]، ولكن القرآن لم يصرح باسم هذا النبي الذي نزلت النار من أجله، ولم يذكر أنه كان لإلياس "آية"، ومن ثم لا نقول إلا بما قال به القرآن.

إدريس عليه السلام

ليس في التوراة أي ذكر لإدريس عليه السلام، بينما ذُكر في القرآن في موضعين اثنين، ولهذا احتار المفسرون والمؤرخون الإسلاميون في ترتيبه الزماني، فقال بعضهم –بلا بينة– أنه كان قبل نوح عليه السلام، وأنه أخنوخ المذكور في التوراة! ولست أدري ما العلاقة الصوتية بين "أخنوخ" و"إدريس" حتى يمكن أن يقال أن هذا هو ذاك؟! ليس ثمة علاقة صوتية، ولكن لأن الله تعالى قال في حق إدريس: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝﴾ [سورة مريم, ٥٧]، وقالت التوراة في حق أخنوخ: "وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه" (تك 5 : 21– 24)"، قالوا أنه هو.

وليس في هذا أي دليل على اتحاد الشخصيتين، ولقد بيّنا سابقاً كيف أن القرآن شدّد على أن نوح عليه السلام هو أول الأنبياء، ووجدنا من يقول أنه كان من أنبياء بني إسرائيل، فنجد ابن كثير يقول: "وقد زعم بعضهم أن إدريس لم يكن قبل نوح بل في زمان بنى إسرائيل. قال البخاري: ويذكر عن ابن مسعود وابن عباس أن إلياس هو إدريس، ...[139]" اهـ

ولقد مال بعض الكتاب المعاصرين إلى الأخذ بهذا الرأي مثل الأستاذ حسني يوسف الأطير ودافع عنه، إلا أن قول فلان لا يكفي لجعل شخصين مختلفين شخصاً واحداً، خاصة إذا اختلفت القرائن المحيطة بكل منهما، فالناظر في الموطنين الذين ذُكر فيهما إدريس يجد أن كليهما وردا بعد إسماعيل عليه السلام، فإذا نظرنا في سورة مريم وجدنا الرب يقول: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا[140] ۝ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ۝ وَٱذْكُرْ فِى

---

(139) إسماعيل بن كثير الدمشقي، قصص الأنبياء، الجزء الأول، ص. 73.

(140) هناك من يقول أن إسماعيل المذكور في الآية ليس إسماعيل بن إبراهيم، وإنما هو ذلك النبي المذكور في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا

ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٥٦ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ [سورة مريم , ٥٤-٥٧]، والموطن الثاني يُذكر في نفس الآية مع إسماعيل: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٨٥﴾ [سورة الأنبياء , ٨٥]. وهناك من قال أن إدريس هو أوزوريس، إلا أن هذا الرأي مرفوض عند كثير من الإسلاميين ... لأنه مخالف للتوراة! وليس للقرآن! فنجد الأستاذ رشدي البدراوي يقول: "رجح البعض أن إدريس هو أوزوريس، ولعل تقارب الاسمين هو الذي أوحى بهذه الفكرة، (...) ولا نرى من تشابه بينها وبين قصة إدريس عليه السلام، إلا في ما ينسبونه إلى أوزوريس من أنه هو أول من علم الناس الكتابة والطب وعلم النجوم. مثل ما فعل إدريس عليه السلام. أما ما عدا ذلك فليس هناك من تشابه إطلاقا، فإن الصراع بين الأخوين أوزوريس وست – وإن كان يشبه صراع ابني آدم –هابيل وقابيل– إلا أن سبب الصراع في الحالتين يختلف اختلافا كبيرا، في أحدها صراع على الأخت، وفي الأخرى صراع على العرش. كذلك فإن إدريس عليه السلام بشر رفع إلى السماء، أما أوزوريس فكان بشرا إلها في حياته وبعد قتله وإحيائه مرة ثانية صار إلها! ولكنه لم يرتفع إلى السماء، بل كان يُعني بالعالم السفلي، عالم الأموات! لذلك فإنه من غير المحتمل أن يكون أوزوريس هو نفسه النبي إدريس عليه السلام.[141]" اهـ

ولست أدري حقاً عن أي "لا تشابه" يتحدث! فهل علم قصة إدريس حتى يحكم بعدم التشابه؟! قديما قيل "ثبّت العرش ثم انقش"، فهل ثمة ذكر في التوراة أصلاً لنبي اسمه إدريس؟! وأنا أميل إلى أن إدريس كان نبياً من نسل إسماعيل عليه السلام وليس إسحاق، –استناداً إلى ذكره بعده– لذلك لم يرد له ذكر في التوراة.

مِّنْهُمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٤٦﴾ [سورة البقرة , ٢٤٦]، وذلك لأنه وردت بعض الروايات التي قالت أن اسمه كان سمويل، أو شمعون وقيل أن اسمه كان إسماعيل! ووجدنا في التراث الشيعي بعض الروايات عن أئمة أهل البيت تقول بهذا، إلا أنها روايات غير معقولة ومذهبية! وبغض النظر إذا كان ذلك النبي اسمه إسماعيل أما لا، فربما كان كذلك فعلاً، إلا أنه لا دليل مباشر في القرآن–من وجهة نظرنا– يحتم القول بأن إسماعيل المذكور ليس بابن إبراهيم!

[141] رشدي البدراوي، قصص الأنبياء والتاريخ، الجزء الأول، ص. 68–71.

ولا يعني قول الرب العليم: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ [سورة مريم ,٥٧] أن الله تعالى رفعه إلى السماء، كما ورد في الإسرائيليات: "سأل ابن عباس رضي الله عنهما كعباً عن قوله: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ [سورة مريم ,٥٧] قال: جاءه خليل له من الملائكة فسأله حتى يكلم ملك الموت حتى يؤخر قبض روحه، فحمله ذلك الملك بين جناحيه فصعد به إلى السماء، فلما كان في السماء الرابعة فإذا ملك الموت يقول: بُعثت وقيل لي اقبض روح إدريس في السماء الرابعة، وأنا أقول كيف ذلك وهو في الأرض. فالتفت إدريس فرآه ملك الموت فقبض روحه هناك[142]." اهـ

ولست أدري كيف يعرف كعب بهذا وليس في التوراة أي ذكر لإدريس! ناهيك عن أن الله تعالى قال: مكانا علياً، ولم يقل: فعرجنا به إلى السماء! ومن ثم فإن هذا الرفع رفع منزلة وليس عروجاً إلى السماء. ولم يزد القرآن عن تسمية إدريس بما سُمّي به جده الخليل من أنه كان صديقا نبيا، ولم يقص القرآن شيئاً عن دعوته، ولم يقل أنه أوتي أي آية! وحتى لو كان عُرج به إلى السماء –وهو ما لا تقول به الآيات– فهو أمر وقع له بشخصه وليس آية لقومه!

اليسع عليه السلام

إذا كان من الممكن أن يكون إدريس نبياً آخر فمن الممكن أن يكون اليسع وليس شخصا آخر، وذلك لأن الله تعالى قال في حق إدريس: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٨٥﴾ [سورة الأنبياء ,٨٥]، وقال في حق اليسع: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ۝٤٨﴾ [سورة ص ,٤٨]، وكذلك اليسع لم يُذكر إلا بعد إسماعيل عليه السلام: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى

[142] فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، الجزء الحادي والعشرون، ص. 199.

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [سورة الأنعام ,٨٦]، ولكننا لا نقول أن إدريس كان شخصا آخر غير نفسه، فلم يكن إلياساً ولا اليسع.

ولم يذكر القرآن أي تفاصيل بشأن دعوة اليسع، فلم يزد عن القول بأن كان من الأخيار وأنه ممن فُضلوا على العالمين. وهناك من يقول أن اليسع هو النبي اليشع، المذكور في التوراة، والذي كان خلفا لإيليا (إلياس)، والذي تحمل النبوة من بعده. وليس في القرآن ما يشير إلى هذا أو ينفيه، فلقد ذُكر مرة بعد إلياس في سورة الأنعام، بينما كان الذكر الثاني لإلياس في الصافات والثاني لليسع في سورة ص، بينما ذكر في كلا الموضعين بعد إسماعيل. فهل في هذا إشارة إلى أنه من نسل إسماعيل أو أنه ينتسب إلى إسماعيل من جهة الأم مثلاً؟! الله أعلم، ونكتفي بما قال القرآن من أن اليسع كان من الأنبياء، أما تفاصيل دعوته فلم يعرض القرآن لها، ولم يقل أنه أوتي آية!

ذو الكفل

اختلف المفسرون في ذي الكفل هذا، هل هو نبي أم غير نبي؟ وإذا كان نبياً فمن هو؟! والظاهر من المواطن التي ذكره القرآن فيها أنه كان نبيا، فلقد قال الرب في سورة الأنبياء: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [سورة الأنبياء ,٨٥-٨٦]. وقال تعالى في سورة ص: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ [سورة ص ,٤٥-٤٨].

وقال بعضهم أنه بِشر بن أيوب عليه السلام، وزعم آخرون أنه لم يكن نبيا، وإنما كان رجلا صالحا وحكما مقسطا، ولكن كل هذه الأقوال لا دليل عليها! ولهذا نجد أن

الإمام ابن جرير الطبري قد توقف في تحديد "طبيعة" ذي الكفل، هل كان نبياً أم رجلاً صالحا!

وكما رأينا فلا دليل يحتم إخراجه من زمرة الأنبياء بعد أن ذُكر بينهم! والسؤال المنطقي: من هو هذا النبي؟ لم يستطع أحد العلماء أن يقدم إجابة جازمة بشأنه، وذلك لأن التوراة لم تذكر ذا الكفل، ومن ثم أخذوا يجتهدون في تحديد ذي الكفل هذا، فقال بعضهم أنه نبي التوراة دانيال، وقال آخرون أنه النبي حزقيال –استناداً إلى التشابه بين الأسماء–، وقال بعض المحدثين أن ذا الكفل هو سيدنا يوسف لأنه تكفل لأهل مصر بالطعام في فترة المجاعة. وقيل فيه أقوال أخرى، والله أعلم من كان ذا الكفل، ولكن الذي نراه أن ذا الكفل كان من نسل إسماعيل عليه السلام، لأنه ذُكر في المرتين مسبوقاً بإسماعيل عليه السلام، وفي هذا إشارة إلى أنه من نسله، ولهذا لم يُذكر في التوراة. أما مسألة أن اسمه كان ذا الكفل أم أنه كان لُقب به لعملٍ عمله، فلا نشغل بالنا به ونكتفي بأنه كان نبياً من الصابرين والأخيار.

أيوب عليه السلام

ذكر سيدنا أيوب في القرآن في أربعة مواطن، مرتان في معرض ذكر عدد من الأنبياء، ومرتان تحدثتا عن نداء أيوب ربه لما مسه من الضر، فكانت الأولى في سورة الأنبياء في قوله: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [سورة الأنبياء, ٨٣-٨٤]، والثانية في سورة ص –والذي جاء الذكر الأخير له فيها كذلك–: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ

صَابِرًاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾] سورة ص, ٤١-٤٤[. ولم يذكر القرآن تفاصيل دعوة سيدنا أيوب، ولم يشر إلى أنه أوتي آية، وإنما تحدث عن صبره على ما نزل به من الضر في كلمات قلائل، لا تشير إلى حدث خارق، إلا أن العقلية الخرافية أبت إلا أن تجعل هذا الضر مأساة نزلت بالنبي الكريم، وأساءوا إليه من حيث لا يشعرون!

ولا نثير غثيان القارئ بعرض ما أتت به المخيلة المريضة لهؤلاء، وإنما نكتفي بذكر رد الإمام القرطبي على هذه الترّهات –بعد أن ذكرها–، حيث قال: "وذكروا كلاما طويلا في سبب بلائه ومراجعته لربه وتبرمه من البلاء الذي نزل به، وأن النفر الثلاثة الذين آمنوا به نهوه عن ذلك واعترضوا عليه، وقيل: استعان به مظلوم فلم ينصره فابتلي بسبب ذلك. وقيل: استضاف يوما الناس فمنع فقيرا الدخول فابتلي بذلك. وقيل: كان أيوب يغزو ملكا وكان له غنم في ولايته، فداهنه لأجلها بترك غزوه فابتلي. وقيل: كان الناس يتعدون امرأته ويقولون نخشى العدوى وكانوا يستقذرونها؛ فلهذا قال: "مسني الشيطان" وامرأته ليا بنت يعقوب. وكان أيوب في زمن يعقوب وكانت أمه ابنة لوط!! وقيل: كانت زوجة أيوب رحمة بنت إفرائيم بن يوسف بن يعقوب عليهم السلام. ذكر القولين الطبري رحمه الله. قال ابن العربي: ما ذكره المفسرون من أن إبليس كان له مكان في السماء السابعة يوما من العام فقول باطل؛ لأنه أهبط منها بلعنة وسخط إلى الأرض، فكيف يرقى إلى محل الرضا، ويجول في مقامات الأنبياء، ويخترق السموات العلى، ويعلو إلى السماء السابعة إلى منازل الأنبياء، فيقف موقف الخليل؟! إن هذا لخطب من الجهالة عظيم. وأما قولهم: إن الله تعالى قال له: هل قدرت من عبدي أيوب على شيء؟ فباطل قطعا؛ لأن الله عز وجل لا يكلم الكفار الذين هم من جند إبليس الملعون؛ فكيف يكلم من تولى إضلالهم؟! وأما قولهم: إن الله قال قد سلطتك على ماله وولده فذلك ممكن في القدرة، ولكنه بعيد في هذه القصة. وكذلك قولهم: إنه نفخ في جسده حين سلطه عليه فهو أبعد، والباري سبحانه قادر على أن يخلق ذلك كله من غير أن يكون للشيطان فيه كسب حتى تقر له –لعنة الله عليه– عين بالتمكن من الأنبياء في أموالهم وأهليهم وأنفسهم. وأما قولهم: إنه قال لزوجته أنا إله

الأرض، ولو تركت ذكر الله وسجدت أنت لي لعافيته. فاعلموا وإنكم لتعلمون أنه لو عرض لأحدكم وبه ألم وقال هذا الكلام ما جاز عنده أن يكون إلها في الأرض، وأنه يسجد له، وأنه يعافي من البلاء، فكيف أن تستريب زوجة نبي؟! ولو كانت زوجة سوادي أو فدم بربري ما ساغ ذلك عندها. وأما تصويره الأموال والأهل في واد للمرأة فذلك ما لا يقدر عليه إبليس بحال، ولا هو في طريق السحر فيقال إنه من جنسه. ولو تصور لعلمت المرأة أنه سحر كما نعلمه نحن وهي فوقنا في المعرفة بذلك؛ فإنه لم يخل زمان قط من السحر وحديثه وجريه بين الناس وتصويره. قال القاضي: والذي جرأهم على ذلك وتذرعوا به إلى ذكر هذا قوله تعالى: "إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب" فلما رأوه قد شكا مس الشيطان أضافوا إليه من رأيهم ما سبق من التفسير في هذه الأقوال. وليس الأمر كما زعموا والأفعال كلها خيرها وشرها، في إيمانها وكفرها، طاعتها وعصيانها، خالقها هو الله لا شريك له في خلقه، ولا في خلق شيء غيرها، ولكن الشر لا ينسب إليه ذكرا، وإن كان موجودا منه خلقا؛ أدبا أدبنا به، وتحميداً علمناه. (...) وأما قولهم انه استعان به مظلوم فلم ينصره، فمن لنا بصحة هذا القول. ولا يخلو أن يكون قادرا على نصره، فلا يحل لأحد تركه فيلام على أنه عصى وهو منزه عن ذلك، أو كان عاجزا فلا شيء عليه في ذلك، وكذلك قولهم إنه منع فقيرا من الدخول؛ إن كان علم به فهو باطل عليه وإن لم يعلم به فلا شيء عليه فيه. وأما قولهم إنه داهن على غنمه الملك الكافر، فلا تقل داهن ولكن قل دارى. ودفع الكافر والظالم عن النفس أو المال بالمال جائز؛ نعم وبحسن الكلام. قال ابن العربي القاضي أبو بكر رضي الله عنه: ولم يصح عن أيوب في أمره إلا ما أخبرنا الله عنه في كتابه في آيتين؛ الأولى قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ ... ﴿٨٣﴾﴾] سورة الأنبياء ,٨٣[والثانية في ص: ﴿... أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾] سورة ص ,٤١[. (...) والإسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البتات؛

فأعرض عن سطورها بصرك، وأصمم عن سماعها أذنيك، فإنها لا تعطي فكرك إلا خيالا، ولا تزيد فؤادك إلا خبالا[143]"اهـ

والآيات غاية في الوضوح، فسيدنا أيوب يشكو مس الشيطان له بنصب وعذاب بسبب عدم إيمان قومه –وغالب الأمراض العضوية أصلها نفسي–، فالنبي كان يتألم لإعراض قومه وأهله حتى مرض، فقال الله له اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب، ولما شفي وهب الله له أهله وآخرين، وليس معنى ذلك أن أهله كانوا قد ماتوا فأحياهم الله له، بل يعني أنهم آمنوا به مع غيرهم رحمة من الله، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [سورة مريم ,٥٣]، ولا يعني هذا أن هارون أحيي لموسى أو ما شابه. وكما رأينا فليس في الآيات حديث عن آية لأيوب، وإنما استجابة الرب لدعائه، وما ذكر من الخرافات المهولة فراجع إلى الإسرائيليات التوراتية ولا مستند لها في الكتاب.

يونس عليه السلام

مثل سيدنا أيوب ذكر سيدنا يونس أربع مرات باسمه في القرآن، وذكر بلقبه في غير هذه المواطن الأربعة. وفي ثلاثة من المواطن الأربعة لم يُذكر فعل لسيدنا يونس، فكان في مرتين منهما مذكورا وسط جماعة من الأنبياء، وفي الثالثة كان الحديث عن قومه: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [سورة يونس ,٩٨]

بينما أجملت آيات سورة الصافات وقائع بعثته، فقالت: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ

[143] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، الجزء الخامس، ص.208–210 .

مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [سورة الصّافّات, ١٣٩-١٤٨]، ولقد سماه القرآن صراحة بأنه صاحب الحوت: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة القلم, ٤٨-٤٩]

واستنبط علماء المسلمين أن ذا النون هو كذلك يونس عليه السلام، ووردت بعض الروايات –التي لا تخلو من ضعف في السند– تقول بهذا، وإن كان هناك من يرى أنه من الممكن أن يكون ذو النون هو موسى عليه السلام! فلقد قال الله في حق ذي النون في سورة الأنبياء: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [سورة الأنبياء, ٨٧-٨٨]، وسيدنا موسى ذهب مغاضبا لذلك الذي من شيعته، وهو قتل منهم نفساً، كما أن الله قال في حقه: ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ ... ﴿٤٠﴾﴾ [سورة طه, ٤٠]، كما كان له ارتباط بالحوت في رحلته مع فتاه خلف الحوت!

وبغض النظر عن كون ذي النون هو موسى أو يونس، فإنه من المتفق عليه أن يونس ألقي في البحر فالتقمه الحوت، ثم نُبذ بالعراء، ولم تحدد الآيات مكان مكثه أو مدته، فلم تقل أنه كان في بطن الحوت أو أنه ظل ثلاثة أيام أو ما شابه، وإنما قالت أن الحوت التقمه، وهذا يعني أنه ربما كان في *فم الحوت* لفترة الله أعلم بها، ثم لفظه الحوت بعد ذلك!

والناظر في قصص الرسل كلهم يجد أن سيدنا يونس هو الرسول الوحيد الذي أبق، وهو الذي ظن ظناً عجيبا: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، فهل هذا الظن كما فهمنا أما أنه بمعنى آخر؟! المتدبر يجد أننا نحن من أسأنا الفهم، فليس المراد من عدم القدر عليه هنا عدم الاستطاعة، وإنما المعنى الآخر لها وهو التضييق، كما جاء في آيات عديدة من سور القرآن، منها قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [سورة الفجر, ١٦]، ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ... ﴿٧﴾﴾ [سورة الطلاق, ٧]، ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ... ﴿١٢﴾﴾ [سورة الشورى, ١٢]، ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ... ﴿٥٢﴾﴾ [سورة الزمر, ٥٢]، وهذا ما كان من ذي النون، فلقد ظن أن الله تعالى لن يضيق عليه إذا ما ترك تبليغ الرسالة، فصار حاله إلى أن أصبح في فم حوت! ضيق ليس بعده ضيق، ظلمات بعضها فوق بعض، فسبح الله القدوس وناداه في الظلمات فاستجاب الله تعالى له ونجاه وكذلك ينجي الله المؤمنين! يدعونه فيجيبهم.

وقد يستغرب القارئ أن يستثقل نبيٌّ الرسالة، وهذا راجع إلى التصور المثالي الوهمي للأنبياء، والذي لم يقل به القرآن، وإنما تحدث عن بشرٍ هم بمثابة النموذج والقدوة، إلا أن هذا لا يمنع أن يصدر عنهم مخالفات راجعة إلى الطبيعة البشرية. وسيدنا موسى عليه السلام عندما أمره الله تعالى بالذهاب إلى فرعون وقومه، استثقل المهمة وسأل ربه أن يرسل معه أخاه هارون!

أما مسألة أن سيدنا يونس عليه السلام أبق من ربه فهذا ما لم يقله النص وإنما قال أنه أبق إلى الفلك المشحون، فيكون المعنى الأرجح أنه أبق من قومه! وتكون المغاضبة التي صدرت منه ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا ... ﴿٨٧﴾﴾ [سورة الأنبياء, ٨٧] –والتي لا تكون إلا بين طرفين– بينه وبين قومه لله عز وجل! إذا فالواضح من النص القرآني أن سيدنا يونس لم يصبر على قومه وإنما خرج لذلك قال الله تعالى للرسول الكريم:

﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ ... ﴿٤٨﴾﴾ [سورة القلم, ٤٨]، ونلاحظ أن هذه الآية وردت بعد قوله تعالى: ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة القلم, ٤٥] أي أن الله تعالى يؤخر الظالم فإذا أخذه لم يهمله. لذلك قال للرسول: اصبر ولا تتعجل نزول العذاب ولا تكن كصاحب الحوت الذي تعجل نزول العذاب على قومه.

والذي يظهر من الآيات أن يونس بُعث إلى قومين، قوم أبق منهم إلى الفلك المشحون، والله أعلم بما صدر منهم حتى أبق، وقوم آخرون أُرسل إليهم بعد أن أنبت عليه شجرة اليقطين، وكان هؤلاء مائة ألف أو يزيدون، فآمنوا.

زكريا عليه السلام

ذكر سيدنا زكريا في القرآن ست مرات، ولم يذكر الله تعالى تفاصيل دعوته، وإنما كان الذكر عاماً وسط غيره من الأنبياء، أو للحديث عن دعائه ربه أن يرزقه الولد، وكيف أن الله تعالى أجابه على الرغم من أنه بلغ من الكبر عتياً ومن كون امرأته عاقرا! ولم تكن هذه الإجابة آية لبني إسرائيل، تلعب دورا في إيمانهم أو عدمه، وإنما تحقيق لأمنية نبي الله زكريا وزوجه: ﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴿١٠﴾

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [سورة مريم , ١-١١]

فهو طلب طلباً "شخصيا" متعلقاً بخوفه على الدين فأجابه الله إليه، لأنه: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [سورة الأنبياء , ٩٠].

وإنجاب سيدنا زكريا في هذا العمر وإصلاح زوجه له كان كرامة له وتحقيقاً للرغبة الدفينة في داخل كل إنسان وهي الذرية. ونلاحظ أن سيدنا زكريا هو الذي احتاج إلى آية ليصدق بتحقق وقوع وعد الله، وذلك لما في الأمر من فيض للمشاعر والتي قد لا يتحملها في هذا السن، فأعلمه الله أن الآية ألا يكلم الناس ثلاث ليال سوياً.

ونلاحظ تداخل هذه المواطن مع الآيات التي قصت عن مريم وعيسى ويحيى، وذلك لتقاطع أحداث هؤلاء الأنبياء مع بعضهم بعضا، فما كان يحدث مع مريم هو السبب الدافع لسيدنا زكريا أن يدعو الله القدير أن يرزقه الذرية: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة آل عمران , ٣٧-٣٨]

إذا فالله العليم لم يقص عن دعوة زكريا، والذي كان نبياً في بني إسرائيل، وإنما خلّده في الكتاب بقصّه عن طلبه الذرية .. لتحمل مسؤولية الدين. وكانت هبة يحيى له نفسه وليس ليخاطب بها قومه أو يدعو بها غيرهم.

يحيى عليه السلام

ذكر يحيى في القرآن خمس مرات، مرة في معرض ذكره بين الأنبياء: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [سورة الأنعام, ٨٥]، وثلاث مرات في معرض تبشير أباه به: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة آل عمران, ٣٩]، ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾]سورة مريم, ٧[، ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ... ﴿٩٠﴾﴾ [سورة الأنبياء, ٩٠]، ومرة واحدة كان الخطاب له والحديث عنه: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [سورة مريم, ١٢-١٥]

ولم يقص القرآن عن دعوة سيدنا يحيى، وإنما بيّن أن أباه لم يسمه وإنما سُمي تسمية ربانية، وأن يسميه الرب العليم هذا الاسم ففيه إشارة أكيدة إلى تحقق هذا المعنى فيه! كما قال أنه أوتي الحكم صبياً! وهذه مزية كبيرة لم نرها في سابقيه من الأنبياء ولا لاحقيه إلا في عيسى، الذي كان معاصراً له!

والملاحظ أن سيدنا يحيى هو النبي الوحيد الذي قال الله في حقه أنه "سيد وحصور"، وعلى الرغم من أن السيد تعني من له السيادة، وأن هذا جاء في معرض طمأنة سيدنا زكريا تجاه خوفه من الموالي، فبشره الرب بأن ابنه سيكون سيداً، إلا أننا وجدنا المفسرين يبعدون بتفسيراتهم عن هذا المعنى، فمنهم من قال أن المراد بالسيد الحليم ومنهم من قال الكريم، ومنهم من قال حسن الخلق، ومنهم من قال التقي ... الخ الأقوال، وذلك لصورة يحيى الموجودة في كتب النصارى، والتي تقول أنه كان يلبس الخشن من الثياب ويأكل الخشن من الطعام، ومن ثم فإن هذه الصورة لا تتفق مع

السيادة، ومن ثم أوّلوا معنى السيد! كما قال بعضهم أن المراد من الحصور أنه الذي لا يستطيع قرب النساء! ووجدنا بعضهم يسيء إلى النبي السيد بالحديث عن حجم "عضو" سيدنا يحيى! وقال بعضهم أن الحصور هو القادر على الوصول إلى النساء إلا أنه لا يرغب فيهن! ولست أدري لم حصروا معنى الحصر في إتيان النساء، ولم يجعلوه بالمعنى العام وأنه الذي يحبس نفسه عن الشهوات! والذي لا يعني كذلك أنه لا يتزوج؟!

لقد كانت صورة يحيى الراهب في أذهان المفسرين وهم يفسرون، بينما يقدم القرآن صورة أخرى! إن الحديث في هذه الآية كان في معرض البشارة لأبيه زكريا، فهل من المعقول أن يبشر إنسان بابن ويقال له أنه سينقطع نسله، لأنه لن يقرب النساء! فحتى لو كان هذا سيحدث فلا حاجة لذكره في البشارة! بينما يختلف الحال كثيراً لو كانت البشارة بإنسان يبلغ درجة عالية من حبس النفس عن الشهوات، وفارق بين الامتناع عن الشهوات ورفض الحلال! وأنا أكيدٌ أن يحيى عليه السلام ذلك السيد ما كان راهباً! فالسيادة تعني أن لصاحبها نصيب كبيرٌ من الدنيا، وهو ما لا يتفق مع الرهبنة!

والناظر في كتب أهل الكتاب يجدها تقول أن يحيى قُتل! وذلك بسبب البغي سالومي، التي رقصت للملك هيردوس، والذي وعدها أن ينفذ لها أي طلب تطلبه، فكان أن طلبت رأس النبي يحيى! وحُورت المسألة في الروايات الإسلامية والتي قالت أنه أفتى بأنه لا يجوز زواج الملك من سالومي، ومن ثم طالبت بقتله! والشاهد على كل حال أن كتب أهل الكتاب تقول أنه قُتل! والرب العليم سماه قبل أن يولد ب "يحيى" ولم يجعل له من قبل سمياً! ثم قال أنه سلام عليه يوم ولد ويوم يموت! ولم يقل: يوم يُقتل! ومن غير الممكن أن يكون هناك سلام على الإنسان وهو يُقتل! لذا وعلى الرغم من أن القرآن لم يصرح بنهاية يحيى عليه السلام، إلا أن الإشارات الواردة فيه من تسميةٍ بالحياة وحديث عن السلام تجعلنا نجزم بأن هذه النهاية غير صحيحة، وأن يحيى عليه السلام مات في سلام، بعد أن دعا لله الرحيم!

وهذا ما نجده في كتب المندائيين أتباع يحيى عليه السلام، والذين يقولون أنه مات وهو يُعمد في الماء، ولم يمت مقطوع الرأس! ونحن لا نستدل بهذه الكتب فحسبنا كتاب ربنا، وإنما نود الإشارة إلى أن مسألة قطع رأس يحيى ليس من المجمع عليه، وأن أتباعه يقولون صراحة أنه مات في سلام .. ولم يُقتل.

عيسى عليه السلام

ذُكر سيدنا عيسى في القرآن خمس وعشرين مرة، وكما كانت ولادة يحيى غير طبيعية، من شيخ بلغه الكبر وامرأة عاقر، فإن ولادة سيدنا عيسى كانت أكثر غرابة، فلقد ولد عيسى من أم من دون أب. واختلف عيسى عليه السلام عن باقي الأنبياء بأنه عُبد من دون الله، فألّهه بعض أتباعه، فجعلوه إلها أو ابن إله.

ولقد فصّل القرآن في الحديث عن حياة عيسى عليه السلام رداً وإبطالاً للقول بإلوهيته، فنجد أنه قص ولادة عيسى عليه السلام، ولم يكتف بالحديث عن مشهد ولادته هو، وإنما قصّ كذلك ولادة أمه وعرّف بالنسل الطاهر الذي جاء منه: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٣٦ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٧﴾ [سورة آل عمران, ٣٥-٣٧]

فأمه عليه السلام كانت منذورة وهي في بطن أمها لله السميع، وتقبلها وأنبتها نباتا حسنا، وهيّئها لتتحمل هذا الدور الصعب على أي امرأة مؤمنة، وهو أن تحمل بدون زواج! وكما عرّف القرآن بأم عيسى، قصّ مشهد البشارة بالولد والحمل والولادة في

السورة المسماة باسمها، فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ۝١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ۝١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ۝١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ۝١٩ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ۝٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ۝٢١ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ۝٢٢ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ۝٢٣ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ۝٢٤ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ۝٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ۝٢٦﴾ [سورة مريم, ١٦-٢٦]

فحملت السيدة مريم بعيسى، وليس ثمة ما يدل على أن الحمل كان قصيرا جداً كما قالت بعض الروايات أنها حملت وولدت في نفس اليوم في تسع ساعات بدلاً من تسعة أشهر! لأن الله القادر لم يشر إلى ذلك وإنما أشار إلى أن حدوث الحمل فقط كان استثنائيا، بينما لم يشر إلى اختلاف هيئة الحمل، ويدل على هذا أنها جاءها المخاض، ولو كان حملاً استثنائيا حدث واكتمل في يوم لما كان ثمة حاجة إلى المخاض ولما كان ثمة حاجة إلى هز النخلة، ولأنزل الله الرطب عليها بدون سبب!!

وكذلك قصّ مشهد مقابلة قوم مريم لمريم العائدة بطفل: ﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ۝٢٧ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ[144] مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ

---

[144] ثمة شبهة مثارة بشأن هذه الجملة تقول أن محمد لجهله التاريخي جعل مريم أخت هارون –وموسى–، على الرغم من الفارق الزمني الكبير بينهما! فنقول: لم تخف هذه الإشكالية عن المسلمين منذ العصور الأولى للإسلام، وأدلى المتدبرون فيها بدلائهم، وقدموا الإمكانيات الأربعة الممكنة بخصوص هذه الكلمة، والتي سنرجح إحداها، فقالوا –كما ذكر الإمام الفخر الرازي في تفسيره الكبير مفاتيح الغيب، الجزء 21، ص. 177: "وأما هرون ففيه أربعة أقوال: الأول: أنه رجل صالح من بني إسرائيل ينسب إليه كل من عرف بالصلاح، والمراد أنك كنت في الزهد كهرون فكيف صرت هكذا، وهو قول قتادة وكعب وابن زيد، والمغيرة بن شعبة ذكر أن هرون الصالح تبع جنازته أربعون ألفاً كلهم يسمون هرون تبركاً به وباسمه. الثاني: أنه أخو موسى عليه السلام وعن النبي صلى الله عليه وسلم إنما عنوا هرون النبي وكانت من أعقابه وإنما قيل أخت هرون كما يقال يا أخا همدان أي يا واحداً منهم. والثالث: كان رجلاً معلناً بالفسق فنسبت إليه بمعنى التشبيه لا بمعنى النسبة.الرابع: كان لها أخ يسمى هرون من

أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ

صلحاء بني إسرائيل فعيرت به، وهذا هو الأقرب لوجهين: الأول: أن الأصل في الكلام الحقيقة وإنما يكون ظاهر الآية محمولاً على حقيقتها لو كان لها أخ مسمى بهرون. الثاني: أنها أضيفت إليه ووصف أبواها بالصلاح وحينئذ يصير التوبيخ أشد لأن من كان حال أبويه وأخيه هذه الحالة يكون صدور الذنب عنه أفحش." اهـ

وكما رأينا فلقد ذكروا الأقوال الأربعة المحتملة في المسألة، فهو إما رجل صالح ينسب إليه، أو فاسق وعيرت به! وهذان القولان مستبعدان لأنهما لا يشيران إلى شخص معين، ولا دليل على وجود هذا الشخص الصالح جدا المسمى هارون، أو على افتراض طالح بنفس الاسم، ويبقى الاحتمالان الآخران، وهما أنها كانت من نسل هارون، أو أنه كان لها أخ (من الأب) وكان صالحا فعيرت به، وهذا القول هو ما رجحه الإمام الفخر الرازي، لأنه هو الظاهر في رأيه ويكون الكلام محمولا على حقيقته! ونحن نخالف الإمام الفخر في ترجيحه ونرى أن المراد من هارون، هو سيدنا هارون عليه السلام، لأنه لو كان المراد من هارون هذا أخا مشتهرا معروفا بالصلاح، لما ناسب أي ذكر لأحد بعد ذلك، وتصور أني شيخ معروف مشهور بالصلاح وفعلت أختي الفاحشة، فهل سيكون من المناسب أن يقال لها: يا أخت عمرو، أبوك رجل صالح! إن هذا القول يلغي دور عمرو في المعايرة تماما على الرغم من أنه هو المحور، فإذا كنت مشتهرا معروفا فمن الأولى أن يقال: يا أخت عمرو كيف تفعلين هذا وأخوك كذا وكذا؟! ولو ذُكر أحد بعد الأخ لذكر منفصلا معطوفا عليه، فيقال مثلا: يا أخت عمرو لقد جئت شيئا فريا إن أخاك كذا وكذا و–ثم إن– أبواك كذا وكذا! أما أن أذكر المشتهر ثم انتقل مباشرة إلى ما لا معرفة له، فهذا بعيد! كما نلاحظ أنهم فصلوا فقالوا: أبوك كذا وأمك كذا! فلم لم يتحدثوا عن الأخ المشتهر المعروف، وهو الأولى بالذكر؟! كما أن الكتاب المقدس لم يذكر أن لمريم أخا يسمى هارون، وهذا وإن لم يكن دليلا قاطعا ولكنه مرجح من المرجحات، ولقد انتبه السابقون من المتدبرين في القرآن إلى قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة آل عمران, ٣٥]، فجعلوا هارون أخا لها من أبيها! ولكن لا دليل على وجود هذا الهارون! ونحن نقول أنها كانت من نسل سيدنا هارون عليه السلام، وهذا ما يقول به علماء مقارنة الأديان، فلقد أثبتوا وبينوا أن مريم كانت من نسل هارون عليه السلام –وراجع عزيزي القارئ ما كتبه الشيخ المرحوم أحمد حجازي السقا وغيره في هذا الصدد– ومعلومٌ الدور الذي أنيط بنسل هارون عليه السلام في بني إسرائيل، وهو القيام على الشعائر الدينية للقوم. ولذلك عيّرها قومها بهذا القول، فهم يلمحون ويشيرون إلى أنها من (*المشائخ*) الذين يفترض بهم القيام على أمور الدين، فكيف يصدر هذا الفعل من هذه الطبقة وتلك الفئة؟! وربطهم إياها بهارون وهو ربط "نسب" وليس تشبيها بالصلاح وإنما لكونه منحدرة من نسب هارون، فسيدنا هارون لم يكن مشتهرا أو معروفا بالصلاح عند بني إسرائيل إلى تلك الدرجة!!! التي يُجعل بها مثلا للصالحين! فبغض النظر عن جعلهم إياه من صنع العجل لبني إسرائيل!!، فهناك من اشتهر من أنبياء بني إسرائيل بالصلاح والتقوى أكثر من هارون عليه السلام، مثل إيليا (إلياس) وغيره، فيكون المراد هو رابطة النسب والدور (القيام بالشعائر)! وهذا القول ليس بغريب أو مجازي، فمن المشتهر قولهم: يا أخا العرب! يا أخا عبس! ولقد استعمل القرآن اللفظة بهذا المعنى –مما يجزم بصحة استعمال العرب لها على هذا الشكل!–، فقال: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ ... ﴿٢١﴾﴾ [سورة الأحقاف, ٢١]، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ... ﴿٧٣﴾﴾ [سورة الأعراف, ٧٣]، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ... ﴿٨٥﴾﴾ [سورة الأعراف, ٨٥] فبمثل هذا الاستعمال استعمل قومها اللفظة! قد يقول قائل: ولكن الأمر يبقى عرضة للالتباس، فلماذا لم يقل الله تعالى: "يا ابنت هارون ما كان أبوك امرأ سوء ..."، وبهذا يُزال اللبس الوارد في الآية! فنقول: أولا: هم قالوها هكذا، والله تعالى يحكي قولهم، فهل يحكي قولهم بغير ما قالوا؟ فهل سيُعد هذا صدقا؟! ثانيا: الله تعالى قال في غير هذه الآية: ومريم ابنة عمران، ولو قال هنا: ابنة هارون، لخرج المشككون وقالوا: هناك تناقض، فمرة يجعلها ابنة عمران ومرة ابنة هارون! ومريض القلب يتفنن في اختلاق التعارض! ثالثا: لو قال الله: " يا ابنة هارون ما كان أبوك امرأ سوء"، لظهر لبس جديد في الآية، ولاختلفنا في المراد من "أبوك" هل هو عمران أم هارون، ولكان السياق مرجحا لكونه هارون. ولكن مع هذا القول: يا أخت هارون ما كان أبوك ... لا خلاف على أن المراد من "أبوك" هو عمران عليه السلام!

ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ۝٣١ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ۝٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ۝٣٣﴾ [سورة مريم, ٢٧-٣٣]

وهناك من يقول أن عيسى عليه السلام تكلم في المهد وهو رضيع! ولا خلاف في أن عيسى تكلم في المهد، فلقد ذكر الله ذلك في كتابه في ثلاث مواطن، ولكن الخلاف ينحصر في: هل تكلم في المهد رضيعاً، أم تكلم في المهد صبياً؟! الروايات تقول أنه تكلم في المهد رضيعاً، والله يحكي استنكار قومه أن يكلموا صبياً، وفارق بين الرضيع والصبي. لذا فنحن نقول أن عيسى عليه السلام كلّم الناس (بالدين) صبياً –وكهلاً–، كما أوتي يحيى الكتاب صبياً، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا ... ۝١١٠﴾ [سورة المائدة, ١١٠]، فالتأييد بروح القدس يعني أنه كان يلقي الحق على لسانه، لا أنه يختلق الكلام اختلاقا، ولو كان الحديث عن الكلام العادي –وليس الكلام بالدين– لما كان هناك أي عجب في أن يتكلم كهل!

وقولنا أن عيسى تكلم وهو في المهد صبياً يعني أن مريم اختفت به فترة ثم أتت به قومها، وما أن رأوها بالطفل حتى رموها بالزنا، فالمرأة التي تختفي ثم تعود بطفل فإنه بالتأكيد سبب اختفائها! بينما من غير المقبول ألا يُعرف أن امرأة حامل، ثم عندما تظهر حاملة طفل تُرمى بأنها زنت فيه! فمن أدرى القوم أن هذا المولود ابنها أصلاً؟!

وبعد أن عرّف الله بأصل عيسى وكيف جاء بدون أب، رد على القائلين بإلوهيته بقوله:
﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ۝٣٤ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٣٥ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ۝٣٦ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ۝٣٧﴾ [سورة مريم, ٣٤-٣٧]

ولقد بيّن الله تعالى الحكمة من خلق عيسى عليه السلام، والدور الذي قام به في رسالته، فهو قُدّم كمثل لبني إسرائيل، وكان دوره أن يبين بعض الذي يختلفون فيه، فلم يأت بتشريع خاتم متكامل، وإنما يبين لهم ما يختلفون فيه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ۖ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾]سورة الزخرف, ٥٩-٦٣[، فهو جاء مصدقاً لما في التوراة: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾] سورة آل عمران, ٥٠[، فيُحل لهم بعض الذي حُرم عليهم عقوبة من الله، أو لم يحرمه الله الحكيم وإنما حرّمه الرهبان، فيحله لهم!

وكذلك جاء مبشرا بالنبي الخاتم، ومظهراً زيف النبوءات التي جعلته في نسل إسحاق: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾] سورة الصف, ٦[

آيات عيسى

رسالة عيسى عليه السلام هي الرسالة الأخيرة في بني إسرائيل، وكما بُدأت أول الرسالات إليهم بآيات حسية: "اليد والعصا" مع موسى، كذلك خُتمت بعيسى عليه السلام والذي جاء بالبينات! ونلاحظ هنا كذلك أن بني إسرائيل لم يكن لهم أي دخل في اختيار الآيات ولم يكن لهم أي علاقة بها، ونفّض يدك من القول الذي يقول أنهم

كانوا بارعين في الطب، فلا مستند له، وحتى لو كانوا بارعين فيه، فما علاقة النفخ في الطين وإحياء الموتى والإنباء بما يأكلون ويدخرون بالطب؟!

فالله تعالى هو الذي أرسله بالآيات: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٤٩﴾ [سورة آل عمران, ٤٩]

والملاحظ أن آيات عيسى عليه السلام التي جاء بها هي مثالٌ صغير لأفعال الرب في الدنيا، التي ذكرها الخليل إبراهيم في قوله: ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٧ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ٨١﴾ [سورة الشعراء, ٧٧-٨١] فسيدنا عيسى خلق من الطين طيرا، وشفى مرضى وأحيى موتى، ونبأهم بما يأكلون ويدخرون[145]، فلماذا كل هذه الآيات جملة واحدة؟!

أتوقف مع الآيات التي جاء بها عيسى متسائلاً: إن الله الحكيم الخبير قد أرسل يحيى قبله بسنوات قلائل، ولم يقل أنه أرسله بالآيات أو أمده بآية واحدة، وإنما آتاه الكتاب والحكمة!، بينما أُمد عيسى عليه السلام بوفرة من الآيات، على الرغم من أنه جاء بالحكمة، وعُلِّم الكتاب والتوراة والإنجيل، فلماذا هذا الاختلاف الكبير في منهجي الدعوة؟! هل لأن يحيى عليه السلام كان يُفترض فيه القيام بدور أقرب إلى الكهانة، فلذلك كان سيداً، بينما أتى عيسى مجدداً شاملاً، مبينا لكفر الكافر وضلال الضال؟! يُحتمل هذا، ولكن هذا لا يبين لماذا كانت هذه الآيات ضرورية لمخاطبة بني إسرائيل ولماذا لم يكتف الله بالكتاب المنزل والرسالة الموحى بها؟! على أي حال

[145] بداهة لن يرزق سيدنا عيسى الناس، وإنما كان ينبئهم –كما كان يفعل يوسف– أنهم سيأكلون كذا ويدخرون كذا، (وليس أنه كان يخبرهم بما في بيوتهم فعلا)، وليس المراد بالأكل مجرد أكل الطعام، وإنما الاستهلاك والإفناء، ويدل على هذا قرنه بالادخار، وهو مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ٤٨﴾ [سورة يوسف, ٤٨] وأن أُعلم إنسان بما سيأتيه من الرزق، دليل على تبعيتي للرازق.

يجب علينا ألا نغفل عن قوله: ﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾]سورة آل عمران, ٤٩[، فلقد علّق سيدنا عيسى على كون هذه الأفعال آية لهم إن كانوا مؤمنين، بينما لو كانوا رافضين للإيمان أو غير مؤمنين فلن يروا فيها آية! وهذا يعني أن القول بالمعجزة قول باطل! وهذا يعني أن هذه الأفعال ليست مطلوبة لعينها وإلا لكانت آية لكل إنسان، وإنما فيها إشارات إلى أمور بعينها.

فإذا قلنا أن النفخ في الطين وجعله طيراً بإذن الله إشارة إلى أن الله قادر على أن يخلق بغير الوسائل الطبيعية، وفيه رد على من يطعنون في نسب عيسى عليه السلام، ولكن ما الرسالة المبطنة في إبراء الأكمه والأبرص تحديدا؟ فهل يمكننا القول أن في إبراء الأكمه إشارة إلى أن الله قادر على جعل عمي القلوب يبصرون الحق، كما جعل من يولد فاقد البصر يرى، وفي إبراء الأبرص إشارة إلى أن الله كما أبرء الأبرص المستقذر من الناس قادر على أن يخرج الكافرين المستقذرين، والذين كان بنو إسرائيل يعدونهم كالكلاب، من كفرهم ويدخلهم في الدين؟! فإذا قلنا بذلك فلماذا أرسل الله بإحياء الموتى؟ إن الناظر يجد أن هذا كان طلب جل الأمم من رسلهم، أن يُقدم لهم دليل على إحياء الموتى، وكان الطلب يُقابل بالرفض، بينما جاء عيسى به هنا بإذن الله، بدون أي طلب من بني إسرائيل! لا أجد إجابات لهذه التساؤلات إلا ما قاله الله العظيم: ﴿... وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾] سورة الإسراء, ٥٩[

المائدة والحواريون

لم يرسل الله عيسى بالمائدة ولم ينزلها استجابة لطلب المشركين وإنما لطلب أتباع عيسى، والعجيب أن الله تعالى لم يتوعد من يكفر بالآيات العظيمة السابقة بالعذاب الشديد، لأنها كما قلنا ليست محور الإيمان، وإنما دلائل وإشارات على مضمون الدعوة، بينما توعد من يكفر بعد المائدة بعذاب لا مثيل له: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ

يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [سورة المائدة, ١١٢-١١٥]، وذلك لأن المائدة كانت شيئاً مطلوبا بعينه اختباراً لقدرة الله تعالى، كما أنها لم تكن ذات علاقة بالدعوة، فبغيرها الدعوة قائمة بالإنجيل وبالآيات التي أُرسل بها عيسى! كما أنها لم تكن مطلباً للكافرين حتى توصف بالمعجزة، وإنما طلب لوصفاء عيسى عليه السلام.

ولأن القرآن لم يفصل بشأن المائدة وجدنا اختلافا كبيراً بين المفسرين بشأنها، فقال بعضهم أن الله لم ينزلها! ولست أدري ماذا كان مستندهم في هذا القول! وقال آخرون أن الله أنزلها تتهادى بين سحابتين، وقال غيرهم أنها كانت تنزل يومياً لفترة، ثم رُفعت! وأخذوا يتفننون في ذكر الأصناف التي كانت في المائدة! وهناك من لم يقتنع بما ورد في الروايات واعتمد الأناجيل تفسيرا للآيات، على الرغم من أن حادثة المائدة هذه لم تُذكر في الأناجيل! ومن ثم اعتبروا حادثة تكثير السمك والخبز التي ذُكرت في الأناجيل هي المائدة المنزلة! فنجد مثلا الأستاذ عبد الوهاب النجار يقول: "وأنا أكرر القول أن مسألة المائدة هي مسألة الأرغفة الخمسة والسمكتين، والمراد بإنزالها إليهم أن يرزقهم الله الطعام الكثير من حيث لا يحتسبون[146]" اهـ

ولست أدري كيف تكون المائدة المنزلة من السماء هي تكثير الطعام، ويتوعد الكافرون بعدها بهذا الوعيد الشديد![147] إن الواضح أن الحديث عن مائدة نازلة من

[146] عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء، ص. 418.

[147] هناك من فسر المائدة النازلة من السماء –استنادا إلى الأناجيل أيضا– بأنها مائدة روحية! وأنها عيسى عليه السلام نفسه، ولو اعتمدنا الأناجيل تفسيرا للقرآن لكان هذا القول أبدى من المذكور: "إنّ أبي هو الذي يُعطيكم خُبز السماء الحقيقيّ، لأنّ خُبز الله هو الذي ينزل من السماء ويهب الحياة للعالم... أنا خُبز الحياة النّازل من السماء..." (يوحنا 6: 32–35). "أنا خبز الحياة. من يأتي إليّ لن يجوع أبداً، ومن يؤمن بي لن يعطش أبداً،... فأخذ اليهود يتذمرون عليه لأنه قال: أنا الخبز النازل من

السماء وليس أي طعام نازل، فلقد أُنزل على بني إسرائيل مع موسى المن والسلوى، ولم يقل الله أنه أنزلهما من السماء، بينما هنا الحديث عن مائدة منزلة من السماء، تكفي كل الموجودين مع عيسى عليه السلام وتكون لهم عيداً! وهكذا استمرت المعاملة المخصوصة لقوم عيسى –والتي لم تظهر لي حكمتها حتى الآن– فأنزل الله عليهم مائدة من السماء!

والناظر في القرآن يجد أن أتباع عيسى عليه السلام هم فقط الذين سُموا باسم مخصوص، وهو: الحواريون! بينما لم يذكر لأتباع الأنبياء اسماً مخصوصا بهم، إلا "الرِّبيون": ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ... ١٤٦﴾ [سورة آل عمران, ١٤٦]

ولقد أسقط هذا الاسم على "تلاميذ/أتباع" عيسى الإثني عشر المذكورين في الأناجيل، على الرغم من أنه ليس ثمة دليل قوي على أن المراد من الحواريين هم أولئك النفر، فالأقوال المطروحة بشأنهم مختلفة، إلا أنها ترتبط بالدرجة الأولى "باللون" وليس بعلاقة!

فنجد مثلا الإمام الفخر الرازي يقول بشأنهم: "ذكروا في لفظ "الحواري" وجوهاً، الأول: أن الحواري اسم موضوع لخاصة الرجل وخالصته، ومنه يقال للدقيق حواري لأنه هو الخالص منه، وقال صلى الله عليه وسلم للزبير: «إنه ابن عمتي، وحواري من أمتي» والحواريات من النساء النقيات الألوان والجلود، فعلى هذا الحواريون هم صفوة الأنبياء الذي خلصوا وأخلصوا في التصديق بهم وفي نصرتهم. القول الثاني: الحواري أصله من الحور، وهو شدة البياض، ومنه قيل للدقيق حواري، ومنه الأحور، والحور

السماء ... أنا خبز الحياة. آباؤكم أكلوا المنّ في البرية وماتوا، أما هذا الخبز فهو النازل من السماء لكي لا يموت كل من يأكل منه. أنا الخبز الحي الذي نزل من السماء. إن أكل أحد من هذا الخبز، يحيا إلى الأبد. والخبز الذي أنا أعطي هو جسدي الذي أبذله لأجل حياة العالم" . فخاصم اليهود بعضهم بعضاً قائلين: كيف يستطيع هذا أن يعطينا جسده لنأكله؟ فقال لهم يسوع: الحق، الحق أقول لكم، إن لم تأكلوا جسد ابن البشر (المسيح) وتشربوا دمه، فلا حياة لكم في نفوسكم. من يأكل جسدي ويشرب دمي، له الحياة الأبدية، وأنا أبعثه حيّاً في اليوم الأخير ... فقال كثيرون من تلاميذه من بعد ما سمعوه: هذا الكلام صعب. من يستطيع أن يسمعه؟" فقال لهم يسوع: "أكلامي هذا يُشكِّكُهُم؟ فما بالكم إذا رأيتم ابن البشر يصعد إلى حيث كان اولاً؟ إن الروح هو الذي يحيي، وأما الجسد فلا يفيد شيئاً. الكلام الذي قلته لكم، هو روح وحياة. ولكن منكم قوم لا يؤمنون ... منذ هذا الوقت، ارتدّ عنه كثيرون من تلاميذه ، ولم يتبعوه" (يوحنا 6:26–66).

نقاء بياض العين، وحورت الثياب: بيضتها، وعلى هذا القول اختلفوا في أن أولئك لم سموا بهذا الاسم؟ فقال سعيد بن جبير: لبياض ثيابهم، وقيل كانوا قصّارين، يبيضون الثياب، وقيل لأن قلوبهم كانت نقية طاهرة من كل نفاق وريبة فسموا بذلك مدحاً لهم، وإشارة إلى نقاء قلوبهم كالثوب الأبيض، وهذا كما يقال فلان نقي الجيب طاهر الذيل، إذا كان بعيداً عن الأفعال الذميمة، وفلان دنس الثياب: إذا كان مقدماً على ما لا ينبغي. القول الثالث: قال الضحاك: مرّ عيسى عليه السلام بقوم من الذين كانوا يغسلون الثياب، فدعاهم إلى الإيمان فآمنوا، والذي يغسل الثياب يسمى بلغة النبط هواري، وهو القصار فعربت هذه اللفظة فصارت حواري، وقال مقاتل بن سليمان: الحواريون: هم القصّارون، *وإذا عرفت أصل هذا اللفظ فقد صار بعرف الاستعمال دليلاً على خواص الرجل وبطانته*[148]" اهـ

وكما رأينا فإن أصل الكلمة من شدة البياض وبعرف الاستعمال المتأثر بالأناجيل أصبحت تستعمل كإشارة إلى خواص الرجل وبطانته، ولست أدري لماذا جُعل التلاميذ هم الحواريون، إذا كانت الأناجيل لم تسمهم بهذا؟! لماذا لا يكونون الحواريون هؤلاء طائفة من بني إسرائيل؟!: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾]سورة الصّف, ١٤[، ومن غير المعقول أن تؤمن طائفة من بني إسرائيل وتكفر أخرى لمجرد إيمان اثني عشر شخصا، ناهيك عن أن الراجح أن هذه الطائفة التي آمنت هم الحواريون أنفسهم، وهم الذين أيدهم الله على عدوهم فأصبحوا ظاهرين.

إذا فالله تعالى قص عن عيسى أنه أُرسل بالآيات ودعا قومه إلى عبادة الله وبشّر بالنبي الخاتم من نسل إسماعيل، –وربما لهذا لم يؤمن به بنو إسرائيل على الرغم مما رأوا من الآيات. وهكذا أصبح المؤمنون بعيسى هم الظاهرين الغالبين لغيرهم من الكافرين، إلا أن هؤلاء لم يعجبهم الحال فأخذوا يمكرون بعيسى ليقتلوه: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ

[148] فخر الدين محمد الرازي، مفاتيح الغيب، الجزء الثامن، ص.56 .

وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [سورة آل عمران , ٥٤-٥٥]

وحاولوا صلبه ليقولوا بأنه نبي كاذب ملعون لأنه عُلق على شجرة وقُتل، والنبي الذي يُقتل متقول على الله: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾]سورة النساء , ١٥٧-١٥٨[، فخيّب الله سعيهم ومكرهم، ورد كيدهم في نحورهم، فنجاه الله منهم وتوفاه ولم يدعهم يقتلوه، ثم رفعه الله إليه.

والمشهور بين المسلمين –تبعاً لعقائد المسيحيين– أن عيسى عليه السلام رُفع إلى السماء حياً وهو في الثالثة والثلاثين وأنه سينزل في آخر الزمان، –على الرغم من أنه لم يرد أي حديث بشأن رفعه حياً ولا السن الذي رُفع فيها! ولهذا وجدنا ابن حزم وغيره من الأئمة يقولون بموت عيسى عليه السلام– بينما قال الله أنه متوفيه قبل الرفع! ومن ثم فإن كان عيسى رُفع بالجسد فكان هذا بعد الموت، وإن كان الحديث عن رفعة المكانة فإن القرآن ذكرها كذلك بعد الموت[149]!

وختاما نقول: إذا كان القرآن قد قص ميلاد موسى عليه السلام، فإنه قد قص ميلاد عيسى وأمه، إلا إنه لم يقص وفاة أي نبي إلا عيسى عليه السلام، وذلك للتأكيد على بشريته وأنه مات مثل باقي البشر! –والعجيب أن المسلمين أبوا إلا أن يقولوا بحياته متابعين للمسيحيين!– ولا يسعنا بعد الحديث عن هذا النبي إلا الإقرار بأنه كان علامة فريدة في طريق الرسالات، وأنه كان آية في كل أموره، ميلاده وبعثته ووفاته، فسبحان الرب الحكيم الخبير!

[149] عرضنا في كتابنا "عقائد الإسلاميين بين وحدة المنهج وتباين الأحكام" إلى مسألة موت المسيح وعودته في آخر الزمان، وبيّنا بتفصيل كبير كيف أن القرآن يقول بموته، وكيف أن القول بعودته لكسر الصليب وقتل الخنزير ... الخ مخالف لأصول الدين ومبطل لأسس الشريعة! فمن أراد الاستزادة أو التوسع فليرجع إلى الكتاب!

الفصل الرابع: قصص عام

بعد أن عرضنا لقصص الرسل في القرآن، وأظهرنا البون الشاسع بين ما قصه القرآن وبين الخرافات والأساطير التي أضافها القصاصون من عند أنفسهم، وكيف أن طريق النبوات والرسالات ومنهج الرحمن في مخاطبة الرسل أقوامهم، مخالف تماماً للتصورات التي انتشرت بين المسلمين، ومن ثم يهدم الأبنية الفكرية التي بُنيت على الخرافات والتي أصبح المسلمون يفهمون عالمهم بها، وفعل الله فيه.

بعد هذا نعرض لقصص غير الرسل، الذي ذُكر في القرآن، فالقرآن لم يكتف بقص من أنباء الرسل، وإنما قصّ من أنباء أفراد وأقوام، ليستخرج منها كذلك العبرة والعظة، ولتُقدم كتصديق لما قال به القرآن.

وكما نال قصص الرسل من الخرافات والإضافات نالت هذه كذلك، فأصابها من التغيير الكثير، الذي يجعل المرء يقرأ قصصاً مغايراً تماماً له، ومن ثم يخرج بتصورات غير صحيحة، ومن ثم يخفق في التوفيق بين المقصوص وبين الآيات السابقة له. وكما قلنا سابقاً عند تناولنا لقصص الرسل أنه من العسير إظهار الاتصال بين القصص وبين موضوعات السور، لأن هذا يستلزم عدداً كبيراً من الصفحات لا يتحمله الكتاب، نقول هنا بشأن القصص العام كذلك، كما نبين أننا لن نتناول كل قصص غير الأنبياء الذي ذكره القرآن، لأن هذا مما لن يستوعبه حجم الكتاب، ومن ثم فإننا سنكتفي بأشهر القصص، الذي ناله ما ناله، مبطلين التفسيرات التي فُسر بها القصص مخالفة للكتاب، ومقدمين القصص الحقيق الذي قصّه القرآن وليس ما ابتدعته قرائح القصاصين!

ابني آدم

أول ما نبدأ به هو الحديث عن نبأ ابني آدم الذي أُمر النبي أن يتلوه على أهل الكتاب، فقيل له: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٩ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٣٠ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ۝٣١ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ۝٣٢﴾ [سورة المائدة, ٢٧-٣٢]

وكما رأينا فالنبأ المتلو بالحق لم يأخذ أكثر من سطور قلائل وقدّم "معلومات" معينة، فإذا نظرنا في أقوال المفسرين بشأن الآيات وجدناهم قد ذكروا فيها أقوالاً كثيرة وإضافات ما أنزل الله بها من سلطان، فنجد الإمام الفخر الرازي مثلاً يقول: "وفي قوله (ابني آدَمَ) قولان: الأول: أنهما ابنا آدم من صلبه، وهما هابيل وقابيل. وفي سبب وقوع المنازعة بينهما قولان: أحدهما: أن هابيل كان صاحب غنم، وقابيل كان صاحب زرع، فقرب كل واحد منهما قرباناً، فطلب هابيل أحسن شاة كانت في غنمه وجعلها قرباناً، وطلب قابيل شر حنطة في زرعه فجعلها قرباناً، ثم تقرب كل واحد بقربانه إلى الله فنزلت نار من السماء فاحتملت قربان هابيل ولم تحمل قربان قابيل، فعلم قابيل أن الله تعالى قبل قربان أخيه ولم يقبل قربانه فحسده وقصد قتله، وثانيهما: ما روي أن آدم عليه السلام كان يولد له في كل بطن غلام وجارية وكان يزوج البنت من بطن الغلام من بطن آخر، فولد له قابيل وتوأمته، وبعدهما هابيل وتوأمته، وكانت توأمة قابيل

أحسن الناس وجهاً، فأراد آدم أن يزوجها من هابيل، فأبى قابيل ذلك وقال أنه أحق بها، وهو أحق بأخته، وليس هذا من الله تعالى، وإنما هو رأيك، فقال آدم عليه السلام لهما: قربا قرباناً، فأيكما قبل قربانه زوجتها منه فقبل الله تعالى قربان هابيل بأن أنزل الله تعالى على قربانه ناراً، فقتله قابيل حسداً له. والقول الثاني: وهو قول الحسن والضحاك: أن ابني آدم اللذين قربا قرباناً ما كان ابني آدم لصلبه، وإنما كانا رجلين من بني إسرائيل. قالا: والدليل عليه قوله تعالى في آخر القصة ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ... ﴿٣٢﴾﴾] سورة المائدة ,٣٢[، إذ من الظاهر أن صدور هذا الذنب من أحد ابني آدم لا يصلح أن يكون سبباً لإيجاب القصاص على بني إسرائيل، أما لما أقدم رجل من بني إسرائيل على مثل هذه المعصية أمكن جعل ذلك سبباً لإيجاب القصاص عليهم زجراً لهم عن المعاودة إلى مثل هذا الذنب. ومما يدل على ذلك أيضاً أن المقصود من هذه القصة بيان إصرار اليهود أبداً من قديم الدهر على التمرد والحسد حتى بلغ بهم شدة الحسد إلى أن أحدهما لما قبل الله قربانه حسده الآخر وأقدم على قتله، ولا شك أنها رتبة عظيمة في الحسد، فإنه لما شاهد أن قربان صاحبه مقبول عند الله تعالى فذلك مما يدعوه إلى حسن الاعتقاد فيه والمبالغة في تعظيمه، فلما أقدم على قتله وقتله مع هذه الحالة دل ذلك على أنه كان قد بلغ في الحسد إلى أقصى الغايات، وإذا كان المراد من ذكر هذه القصة بيان أن الحسد دأب قديم في بني إسرائيل وجب أن يقال: هذان الرجلان كانا من بني إسرائيل. واعلم أن القول الأول هو الذي اختاره أكثر أصحاب الأخبار، وفي الآية أيضاً ما يدل عليه لأن الآية تدل على أن القاتل جهل ما يصنع بالمقتول حتى تعلم ذلك من عمل الغراب، ولو كان من بني إسرائيل لما خفي عليه هذا الأمر، وهو الحق والله أعلم. (...) تقدير الكلام وهو قوله (إِذْ قَرَّبَا قربانا) قرب كل واحد منهما قربانا إلا أنه جمعهما في الفعل وأفرد الاسم، لأنه يستدل بفعلهما على أن لكل واحد قربانا. وقيل: إن القربان اسم جنس فهو يصلح للواحد والعدد، وأيضاً فالقربان مصدر كالرجحان والعدوان والكفران والمصدر لا يثنى ولا يجمع. (...) بعث الله غرابين فاقتتلا، فقتل أحدهما الآخر، فحفر له بمنقاره ورجليه ثم

ألقاه في الحفرة، فتعلم قابيل ذلك من الغراب. الثاني: قال الأصم: لما قتله وتركه بعث الله غراباً يحثو التراب على المقتول، فلما رأى القاتل أن الله كيف يكرمه بعد موته ندم. وقال: يا ويلتى. الثالث: قال أبو مسلم: عادة الغراب دفن الأشياء فجاء غراب فدفن شيئاً فتعلم ذلك منه. (...) قوله (مِنْ أَجْلِ ذلك) أي من أجل ما مرّ من قصة قابيل وهابيل كتبنا على بني إسرائيل القصاص، وذاك مشكل فإنه لا مناسبة بين واقعة قابيل وهابيل وبين وجوب القصاص على بني إسرائيل. الثاني: أن وجوب القصاص حكم ثابت في جميع الأمم فما فائدة تخصيصه ببني إسرائيل؟ والجواب عن الأول من وجهين: أحدهما: قال الحسن: هذا القتل إنما وقع في بني إسرائيل لا بين ولدي آدم من صلبه، (...) فقوله: (مِنْ أَجل ذلك كَتَبْنَا على بَنِي إسرائيل) أي من أجل ذلك الذي ذكرنا في أثناء القصة من أنواع المفاسد المتولدة من القتل العمد العدوان شرعنا القصاص من حق القاتل، وهذا جواب حسن والله أعلم. (...) ولما كان الغرض من ذكر هذه القصص تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام في الواقعة التي ذكرنا أنهم عزموا على الفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم وبأكابر أصحابه، كان تخصيص بني إسرائيل في هذه القصة بهذه المبالغة العظيمة مناسباً للكلام ومؤكداً للمقصود..."[150]اهـ

فإذا غض المرء الطرف عن هذه الأقوال التي لا مستند لها في كتاب الله ولم ترد عن الرسول، ونظرنا في آيات الذكر الحكيم وجدنا أن الله تعالى قد بيّن كل التفاصيل المتعلقة بذلك النبأ، فأول ما بيّنه الرب العلي هو أنهما قربا قربانا، ولم يقل أنهما قربا قربانين! وهذا يعني أنهما اشتركا في تقديم قربان لله العليم، وقال الله أنه تقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، ولم يقل أنه أنزل ناراً فأخذت قربان أحدهما وتركت قربان الآخر، ولا أن هذا القربان هو الذي فُدي به الذبيح بن إبراهيم!

وكذلك بيّن السبب الذي من أجله قدما القربان، فلم يكن بسبب الزواج ولا لمجرد التقديم، وإنما لأنهما كانا قد ارتكبا إثماً وقربا القربان ليُغفر لهما، وهذا ما يظهر من قول المقبول قربانه: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ

[150] فخر الدين محمد الرازي، مفاتيح الغيب، الجزء الحادي عشر، ص. 162–168.

جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾] سورة المائدة, ٢٩[، ومن ثم فإنه كان ثمة إثم لهذا وإثم لذاك، وأراد المقبول قربانه أن يزيد نفسه تطهرا من هذا الإثم بأن يُقتل، فيحمل الآخر إثمهما معاً، وبهذا يكون الآخر قد تطهر من إثمه!

إذا فالقربان كان تطهرا من إثم ارتُكب، وحديثهما عن القتل وعن بسط اليد دليل على أن القتل أمر معروف وليس بالجديد وليس أن قابيل احتار في كيفية قتله! ولو احتار في الكيفية لم علم أن هناك شيء اسمه القتل أصلا!! ناهيك عن أن الحديث عن المتقين والظالمين وأصحاب النار، وعن كونه أصبح من الخاسرين والنادمين دليل على وجود بشر غيرهم كجماعات كان فيهم الخاسرون والنادمون، وهو بفعله أصبح منهم!

فإذا غضضنا الطرف عن القتل وسببه وجدنا أن الرب العليم قال أنه بعث غرابا يبحث في الأرض ولم يقل أنه أرسل غرابين قتل أحدهما الآخر ودفنه، ومن ثم فإن ابن آدم لم ير إلا غرابا يبحث في الأرض، فتندم أنه لم ينقب الأرض مثل هذا الغراب ليواري سوءة أخيه!

والنقطة التي احتار المفسرون فيها وهي الربط بين هذا القتل وبين بني إسرائيل هي اشتراك الفعل، فهو قتل أخاه من غير نفس ومن غير فساد وإنما غيرة لقبول عمله، ففكّر التفكير العقيم أنه بقتله يخل له وجه "الرب" ومن ثم يُقبل عمله، كما فكر إخوة يوسف، أنهم بقتلهم يوسف أو طرحه أرضاً يخل لهم وجه أبيهم ويكونوا من بعده قوما صالحين. لذلك كُتب على بني إسرائيل الذين ادعوا أنهم أبناء الله وفعلوا مثل فعله – أو قد يفعلوا– هذا التغليظ في العقوبة وليست على كل البشرية، لأنها لم تحمل أمانة التبليغ عن الله! حتى لا تدفعهم الغيرة والتفاخر بأنهم حاملو الرسالة إلى قتل الناس. وفي هذه الآية رد على أحكام القتل الكثيرة الموجودة في التوراة والتلمود وإبطالها وإظهار أنها من اختلاق اليهود، وأن الله ما كتب عليهم القتل إلا نفسا بنفس أو بإفساد في الأرض، وما عدا ذلك فلم يكتبه عليهم!

وهكذا فشتان بين ما قصه القرآن وبين ما جاءت به التوراة، إلا أن الروايات قربتهما، إن لم تكن جعلتهما واحداً، لهذا وجدنا من يقول أن القصة المذكورة في التوراة لا تخالف ما جاء في القرآن تقريبا!

عدد أصحاب الكهف

يُعد نبأ أصحاب الكهف الذي قصّه القرآن بالحق من الأنباء التي أبهرتنا وتركت فينا أثراً كبيراً ونحن صغار، أولئك النفر الذين ناموا ما يزيد عن الثلاثمائة عام. ومرت الأيام والسنون ثم نظرت فيما قصّه القرآن بشأنهم فوجدته يخالف كثيراً ما نعرفه عنهم. ولن نتناول نبأ أصحاب الكهف بالتفصيل وإنما سنكتفي بالحديث عن عددهم، ذلك العدد الذي اختلف المفسرون في تحديده، وقالوا أن القرآن لم يذكره وإن كان ذكر الفترة التي ناموها، وإن كان أكثرهم يرجح أنهم كانوا سبعة!

وقبل أن نعرض لهذه النقطة نُذكر بأن نبأهم لم يكن مما خفي على العرب أول أهل مكة، فلقد كان معروفا لهم وللرسول، والقرآن بقصه كان يُذكر النبي بها ويقصها عليه بالحق: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾ [سورة الكهف ,٩]

إذا نظرنا في أقوال المفسرين وجدنا أن كثيراً منهم قال أنهم كانوا سبعة، استناداً إلى أن الله تعالى لمّا ذكر الأقوال التي كانت مطروحة بشأنهم، قال أن هناك من سيقول –في المستقبل– أنهم ثلاثة رابعهم كلبهم، ولمّا قال أن هناك من يقول أنهم خمسة سادسهم كلبهم، قال: "رجما بالغيب"، ولما ذكر القول بأنهم سبعة وثامنهم كلبهم لم

ينف القول، وقال بعدها: ﴿... رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا[151] ٢٢﴾ [سورة الكهف, ٢٢]

وكان القول بأن القرآن حدد عدد السنين التي لبثوها بينما لم يحدد عددهم، وإن كان أشار إليه، من المسلّمات عندي، فلما تدبرت الآيات وجدت أنها قالت بعكس ما قال به المفسرون، فلقد ذكرت عددهم ولم تذكر عدد السنين التي لبثوها! وسيعجب القارئ من هذا القول لأنه اعتاد أن يقرأ الآيات بعيون المفسرين، التي جعلت النص القرآني ذكر الفترة الزمنية بينما هو في الواقع يتحدث عن عددهم! لذا ننظر في الآية المحورية، لنبصر هل كان يتحدث عن عدد أفراد أم سنين، والتي يقول الرب فيها: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ٢٥﴾ [سورة الكهف, ٢٥]

فإذا نظرنا فيما قاله *المفسرون* في تفسيراتهم!! للآية نجدهم قد فهموها وأفهموها غيرهم هكذا: "ولبثوا في كهفهم ثلاث مئةً *سنة* وازدادت تسعا"، وشتان بين ما قاله الله وبين فهم المفسرين، فلقد قال الله: "ثلاثمائة" بالتنوين، وهم جعلوها بدون تنوين! وقال: "سنين" وهم جعلوها: سنة، وقال: ازدادوا، وهم جعلوها: ازدادت! وحتى نظهر الفارق في المعنى للقارئ غير المتخصص نتوقف لنحلل أجزاء الآية، فنقول: لا خلاف أن واو جمع المذكر السالم في: "لبثوا" عائدة على أصحاب الكهف، إلا أن المفسرين لم يتحرجوا في أن يجعلوها في "وازدادوا" راجعة إلى السنين! وهذا من العجب، فمن المفترض أن جمع المذكر السالم لا يُستعمل إلا مع العاقل، ومن ثم فالمفترض أن يكون الذين لبثوا هم الذين ازدادوا، ولو كان الحديث عن السنين لقال الله: وازدادت تسعا!

فإذا انتقلنا إلى "ثلاث مئة" وجدنا أن الله تعالى ذكرها منونة، ونسألك عزيزي القارئ: هل يأتي تمييز الأعداد منونا؟! فهل من الممكن أن أقول: سأعطيك ألفاً جنيهاً! ناهيك

[151] وجود الاختلاف بشأن عددهم مؤكد لما قلنا بأن أهل مكة كانوا يعلمون بنبأ أصحاب الكهف، إلا أنه لوروده عن القصاصين حصل الاختلاف بشأن العدد، ولو كان نبأهم سراً لا يعلمه إلا أحبار اليهود لما كان معقولا وجود هذا الاختلاف!

عن أن المميَز بالعدد يأتي مفرداً بعد العشرة، فنقول: إحدى عشر رجلا، مائة رجل، ألف سنة، خمسمائة طفل، ولا يقال: ألف سنين، ولا خمسمائة أطفال!! ويكون في العشرة وما قبلها جمعاً، كما يقال: سأظل عشر سنين، وأتى تسعة أطفال، ومعي خمس جنيهات!

فإذا فهمنا الآية كما هي وجدنا أن الله تعالى يقول أن أصحاب الكهف لبثوا ثلاثمائة، ظلوا ثلاثمائة شخص سنين، وازدادوا لاحقا تسعاً، فأصبحوا ثلاثمائة وتسعة! وحتى نظهر للقارئ أن هذا هو الفهم المنطقي للآية نذكر مثالاً مشابها: كان هناك كتيبة من الشجعان، ظلوا خمسمائة سنين ثم ازدادوا عشرين! فهو سيفهم من المثال أن العشرين الذين زادوا هم أفراد وليس سنين! أي أنهم ظلوا خمسمائة لعدد من السنين، ونحن نستعمل التركيبة القرآنية حتى في العامية المصرية، فلو قلناه بها سيكون: "فضلنا خمسمية سنين وبعدين زدنا عشرين".

إذا فالله تعالى قال أنهم كانوا ثلاثمائة وانضم إليهم تسعة، والناظر في الآيات يجد أنها تؤيد أنهم كانوا فريقين، فإذا نظرنا في حوارهم عند استيقاظهم وجدنا الرب العليم يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ١٩ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ٢٠﴾ [سورة الكهف, ١٩-٢٠]، فنلاحظ أن أحدهم سأل سؤالا، فأجيب بردين استُعمل فيهما: "قالوا" مرتين، ولو كان القائل فريقاً واحداً لما كان هناك حاجة إلى تكرارها! ثم إن الردّ الأول يقول: لبثنا يوما، فالذين يردون يستعملون ضمير المتكلم "نا" أي أن السائل والمجيبون فريق واحد. والرد الآخر يستعمل ضمير الخطاب فيقول: "ربكم أعلم بما

لبثتم"، واستمر في استعماله إلى آخر الآيات، وهذا مشعر إلى أنهم ليس منهم، فالمتكلم يخشى على الآخرين من الرجم ولا يخشى على نفسه![152]

وليس هذا القول بالجديد فالإمام الزمخشري يرى أن الحزبين من أصحاب الكهف ومذكور كذلك في تفسير الجلالين. والناظر يجد أن الله العليم لم ينف أن يكون هناك من يعلم عددهم، إلا أنه نفى معرفة أحد بمدة لبثهم فقال: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ ... وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [سورة الكهف, ٢٢-٢٦]**، وكما بصرنا، فالله العليم قال أن هناك قليل يعلمون عددهم، بينما قال بعد: "ولبثوا في كهفهم ... قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السماوات والأرض"، فله وحده غيب السماوات والأرض، فكيف نقول أن مدة لبثهم قد ذُكرت؟! لقد قال الله تعالى:** ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾ [سورة الكهف, ١١]**، فالله يقول أنها سنين، ولم يحدد كم كانت، فهذا من الغيب!!**

---

[152] هذا القول ينهي إشكالية الذين يحصون سنين لبثهم، فالله تعالى يقول: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾ [سورة الكهف, ١٢]، فالمفترض أنه كان هناك حزبان يحصيان مدة لبث هؤلاء الفتية! على الرغم من أن الذين يبحثون عنهم لم يكونوا يعلمون مكانهم! فكيف كانوا يحصون مدة لبثهم؟! وعلى فرض معرفتهم بمكانهم، فلماذا يحصون مدة لبثهم، لماذا لم يقتلونهم أو يوقظونهم؟! وإذا قلنا أن هناك جماعة أخرى رأتهم، فهل يغير هذا من الأمر شيئا؟ فمن المفترض أنهم رأوا فتية نائمين، فكيف يعلمون أنهم حالة استثنائية، وأنهم بشكل من الأشكال سيستيقظون في يوم من الأيام، فأخذوا يحصون كم لبثوا!! وعلى فرض حدوث كل هذا، فلن يحدث أي اختلاف، فمن المفترض أن كل فريق سيسجل اليوم أو السنة التي وجدوهم فيها –أليست عجيبة من العجائب– وعندما يستيقظون يجروا عملية حسابية فيعرفوا بها كم لبثوا!! أما على قولنا فالحزبان هم من أصحاب الكهف أنفسهم، المجموعة الأولى الكبيرة، والمجموعة الثانية التي انضمت إليهم، فالله يقول أنه بعثهم ليعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا! ولهذا وجدنا أن الحزب الأول تسرع في إصدار الحكم فقال يوما أو بعض يوم، أما أفراد الحزب الآخر الذين رأوهم نائمين، ثم ناموا كذلك معهم فلم يجزموا بقول وقالوا: ربكم أعلم بما لبثتم! والقول بهذا العدد الكبير يتناسب مع قوله تعالى: ﴿... لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾ [سورة الكهف, ١٨]، فالإطلاع على عدد كبير من الراقدين الذين يقلبون أكثر إثارة للرعب من الإطلاع على عدد بسيط.

إذا فالله علام الغيوب ذكر عدد الفتية أصحاب الكهف وأنهم كانوا مجموعتين، لحقت الثانية الأولى بعد فترة، فقلب المفسرون الآية وجعلوا العدد في السنين!

أصحاب السبت .. والسمك!

نترك أصحاب الكهف لننتقل إلى أصحاب السبت، تلك القرية التي قص القرآن الكريم من نبأها، وكيف أنهم تعرضوا لعقاب شديد، وتوعدٍ أشد باستمرار العذاب! والناظر في القرآن يجد أن هؤلاء المجرمين قد ذُكروا في أكثر من موضع في القرآن، وأول ذكرٍ لهم جاء في سورة البقرة، حيث قال الرب العليم: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾ [سورة البقرة, ٦٥]

وهذا يدل على أن العقاب الذي نزل بهؤلاء كان معلوما لليهود في زمن الرسول الكريم. والذكر الثاني لهم في سورة النساء: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾ [سورة النساء, ٤٧]، والذكر الثالث والأخير المفصل في سورة الأعراف، وفيه يقول الرب العليم الشهيد: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ

مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾] سورة الأعراف, ١٦٣-١٧٠]

ونقدّم للقارئ الكريم تصور المفسرين حول هذه الآيات من خلال ما خطه الإمام الفخر الرازي عند تناوله لهذه الآيات، حيث قال: "الأكثرون على أن تلك القرية أيلة، وقيل مدين. وقيل طبرية، والعرب تسمى المدينة قرية، (...) وقوله: "إِذْ يَعْدُونَ فِي السبت" يعني يجاوزون حد الله فيه، وهو اصطيادهم يوم السبت وقد نهوا عنه، وقُرئ "يَعْدُونَ" بمعنى يعتدون أدغمت التاء في الدال ونقلت حركتها إلى العين و"يَعْدُونَ" من الأعداد وكانوا يعدون آلات الصيد يوم السبت وهم مأمورون بأن لا يشتغلوا فيه بغير العبادة و"السبت" مصدر سبتت اليهود إذا عظمت سبتها فقوله: "إِذْ يَعْدُونَ فِي السبت" معناه يعدون في تعظيم هذا اليوم، وكذلك قوله: "يَوْمَ سَبْتِهِمْ" معناه: يوم تعظيمهم أمر السبت، (...) وقوله: "يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا" أي ظاهرة على الماء (...) وعلى هذا فالحيتان كانت تدنو من القرية بحيث يمكنهم صيدها. (...) فإذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها في البحر. فإذا انقضى السبت ذهبت وما تعود إلا في السبت المقبل. *وذلك بلاء ابتلاهم الله به*، فذلك معنى قوله: "وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ"[153]" اهـ

فكما رأينا فالمفسرون يقولون أن عدوان اليهود كان باصطيادهم السمك في يوم السبت! ولكن لماذا كان الله الحكيم يرسل إليهم السمك في يوم السبت ولا يرسله في باقي الأيام –على قولهم–؟ يجيب التصور التقليدي *للقصة* بأنه ابتلاء من الله! فمن منظورهم هم كانوا قوما كغيرهم، فأراد الله اختبارهم، فأمر الله السمك (الحيتان) بعدم الاقتراب من سواحلهم في أيام العمل الستة، بينما يكثر في يوم السبت. فما كان

---

[153] فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، الجزء الخامس عشر، ص. 31–32.

من هؤلاء القوم إلا أنهم شرعوا يحتالون الحيل، ورُوي أنهم كانوا يقيمون حواجز للسمك ليلة السبت ثم يخرجونه يوم الأحد.

فكما رأينا فأصحاب هذا التوجه يرون أن إتيان السمك كان ابتلاءً من الله العليم ابتداءً، ولما لم ينجحوا فيه عوقبوا هذا العقاب الشديد! أما نحن فنقول أن هذا القول مخالف لما جاء في الآية، فالآية تقول أنهم لم يصطادوا السمك أصلا وهم عوقبوا لشيء آخر!!

وحتى لا يظل القارئ في حيرة نقدم له فهمنا للآية، فنقول: بيّن الرب الحكيم أنه أُخذ على بني إسرائيل الميثاق الغليظ وأُكدّ أيما تأكيد على الطاعة وأن يدخلوا الباب سجدا وألا يعدوا في السبت، كما جاء في قوله: ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ١٥٤﴾]سورة النساء, ١٥٤[، وبيّنت آيات الأعراف أنهم عدوا في السبت، وهذا يعني أنهم خالفوا ما أمروا به!

فإذا نظرنا في آيات القصة نجد أن الله يقول: ﴿...كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٣﴾ [سورة الأعراف, ١٦٣]، أي أن إتيان الحيتان يوم سبتهم وعدم إتيانها يوم لا يسبتون، ليس مجرد ابتلاء من الله بدون سبب وإنما كان بسبب فسقهم، فما هو الفسق الذي ارتكبوه؟!

الناظر في الآيات يجد أن الله يقول: ﴿... إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٣﴾ [سورة الأعراف, ١٦٣]، فهؤلاء كانوا يعدون في السبت، فلا يراعون حرمته، فيفعلون ما حرمه الله عليهم، ولا يعني هذا أنهم كانوا ينتهكون السبت في كل مرة، وإنما كانوا يلتزمون به مرات، ويعدون فيه مرات.

فابتلاهم الله العزيز لفسقهم بأن كان يرسل إليهم السمك في اليوم الذي كانوا يسبتون فيه، أي يلتزمون بالسبت فينقطعون عن العمل، وعندما ينتهكون حرمة السبت (يوم لا يسبتون) لا تأتيهم الأسماك! والعجيب أن المفسرين جعلوا العدوان هو اصطياد السمك! وجعلوا "يوم لا يسبتون" هو باقي الأيام! فنجد مثلا أن الإمام الطبري يقول في تفسيره:: "ويوم لا يسبتون"، يقول: ويوم لا يعظمونه تعظيمهم السَّبت، وذلك سائر الأيام غير يوم السبت[154]" اهـ

إن الله العليم قال أنهم كانوا يعدون في السبت، وهذا يعني أنهم يعتدون في هذا اليوم المسمى بالسبت، ولم يحدد شكل هذا العدوان، ثم قال أن حيتانهم كانت تأتيهم "يوم سبتهم" ولم يقل: إذ تأتيهم حيتانهم فيه، أو حتى: في السبت!

أي أن الحيتان كانت تأتي في اليوم الذي يسبتون هم فيه، أي في يوم السبت الذي يجعلونه سبتاً فعلا فلا يعتدون، ويوم لا يسبتون، أي وعندما ينتهكون حرمته فلا يتخذونه سبتا، لا تأتيهم الحيتان!

إذا فالمسألة أن اليهود أُخذ عليهم ميثاق غليظ على ألا يعدوا في السبت، فأصبح أهل هذه القرية يعدون في بعض السبوت، فكان الله العليم يرسل لهم الحيتان في الأيام التي لا يعدون فيها ابتلاءً لهم على فسقهم!

والمفسرون على أن أهل هذه القرية لم يكونوا مجمعين على الاعتداء في السبت، وإنما كانوا ثلاث فرق، فرقة كانت تعتدي، وفرقة كانت تعظهم وتنهاهم، وفرقة كانت رافضة ومستنكرة وإن كانت لم تفعل شيئا. فقالت الفرقة الصامتة للذين يعظون: لم تعظون ...؟ فقالت الأخرى: معذرة إلى ربكم ...، فلما نزل العذاب نجى الله الفرقة التي تنهى عن المنكر، واختلف المفسرون في الفرقة الصامتة، هل نجت أم لم تنجُ؟ أما نحن فنرفض هذا التقسيم والتفسير! فلقد انحرف المفسرون عن النص، فلقد قال الله تعالى "وإذ قالت أمة"، ففهموها هم على أنها "فريق"، والله تعالى استعمل "فريق"

[154] محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، الجزء الثالث عشر، ص.183.

في كتابه في غير هذا الموضع أكثر من مرة، واستعمل هنا "أمة"! ومن ثم فالواجب علينا أن لا نفهمها كفريق! فإذا نظرنا في الآيات السابقات، وجدنا الرب العليم يقول: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ... ﴿١٦٠﴾﴾ [سورة الأعراف, ١٦٠]

فالله يقول أنه قطعهم أمما، ولما ضرب موسى الحجر انبجست منه اثنتا عشرة عينا، وكان لكل "أناس" مشرب، وهذا يعني أنهم كانوا منقسمين، وفي الآية يقول أن أمة – من هذه الأمم– قالت لباقي الأمم: لم تعظون قوماً الله مهلكهم؟ فهذا يعني أن العصاة كانوا أمة من الأمم الاثنتي عشر! وهذا القول يلغي الإشكال في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [سورة البقرة, ٦٣-٦٦] فلقد احتار المفسرون في الضمير في قوله تعالى "فجعلناها"، لأنه من المفترض أن يقول الله: فجعلناهم نكالا لما بين أيديهم وما خلفهم!

إلا أن الله تعالى استعمل صيغة التأنيث، وليس هناك ذكر لقرية، وإنما الحديث عن الذين اعتدوا! فإذا قلنا أن هؤلاء المعتدين كانوا "أمة" عرفنا لماذا استعمل ضمير التأنيث، أي فجعلنا هذه الأمة نكالاً لما بين يديها وما خلفها! فلما نسى القوم ما ذكروا به أنجى الله الذين ينهون عن السوء وأخذ الذين ظلموا بعذاب بئيس فحلَّ بهم الفقر والضيق بسبب فسقهم! إلا أنهم لم ينقطعوا عن المخالفة، واستمروا على ما كانوا عليه من العدو في السبت وتركه أحيانا! فلما تجاوزوا الحد في الاعتداء واستكبروا عن الالتزام بعدم الاعتداء في السبت، فأصبح يوماً مستباحاً قلنا لهم كونوا قردة خاسئين! وهذا القول غير العذاب البئيس!

واختلف المفسرون في قوله "كونوا قردة خاسئين" فأكثر المفسرين على أنهم تحولوا إلى قردة فعلا، وورد عن مجاهد أنه قال: "مُسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة وخنازير، وإنما هو مثل ضربه الله لهم، كما ضرب المثل بقوله: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾، وتابعه الإمام محمد رشيد رضا في تفسير المنار، ورأى أنه مسخ معنوي. وقول مجاهد مردود من أكثر المفسرين ويرونه مخالفاً لظاهر الآية، إلا أن المدقق يرى أنه الأدق، فالناظر في الآية يجد أن الرب قال: "قردة خاسئين"، وجمع المذكر السالم لا يُستعمل إلا مع العاقل، ولو كانوا تحولوا إلى قردة –دواب– لقال: قردة خاسئة! فإذا نظرنا فيما ذكره ابن منظور في لسان العرب عند حديثه عن "قرد" وجدناه يقول: "أَقْرَدَ الرجلُ إذا سكت ذَلاًّ (...) وأَصله أَن يقع الغُرابُ على البعير فَيَلْتَقِطَ القِرْدانَ فَيَقِرَّ ويسكن لما يجده من الراحة. (...) وأَقْرَدَ الرجلُ وقَرِدَ: ذَلَّ وخَضَع، وقيل: سكت عن عِيٍّ. وأَقرَدَ أَي سَكَنَ وتمَاوَت؛ (...)[155]" اهـ

وكما رأينا فالإقراد يدل على السكون والتماوت والذل، والسؤال هنا: هل المراد من قوله: كونوا قردة خاسئين هو السكون والذل، ويكون هذا تفسيراً لقوله: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ١١٢﴾ [سورة آل عمران, ١١٢]، أم أنهم صاروا قردة فعلاً؟!

إذا قلنا أنهم صاروا قروداً فعلا، فلا معنى لنعتهم بخاسئين، فالقرد لا محالة مطرود ومستبعد، لا يتركه الإنسان يدنو منه! وهل هناك ذمٌ أكبر من أن يصير الإنسان حيوانا؟! وباقي الآيات تؤيد قول مجاهد فإذا نظرنا في الآية التالية وجدنا الرب العليم يقول: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ ... ١٦٧﴾ [سورة الأعراف, ١٦٧]، فالله يقول أنه أعلم وأعلن أنه سيبعث عليهم إلى يوم

[155] جمال الدين بن منظور، لسان العرب،الجزء الخامس، ص.3576 .

القيامة من يسومهم العذاب، وهذا يعني أنهم سيستمرون في الحياة! وأنهم سيتناسلون وينجبون ويحيون بين الناس! ولو كانوا تحولوا إلى قرود لما كان للآية معنى!

ولقد حاول القائلون بأنهم تحولوا إلى قرود تجاوز الإشكالية التي سببها لهم هذا الضمير، فبرروه بأقوال عدة، تخرج النص عن سياقه، فقالوا أن الضمير عائد على الآخرين وليس على المعذَبين! ولست أدري ما ذنب الباقين، فهل يُمسخ العاصون ويتوعد الصالحون؟! بل وصل الأمر إلى القول بأن المراد منهم اليهود في زمن الرسول! أي أن الله يتوعد يهود المدينة بأن يبعث عليهم من يسومهم العذاب إلى يوم القيامة، ولست أدري ما علاقتهم بهذه القصة، وأين الدليل الذي يجعلنا نخرج الضمير من هؤلاء المعذبين إلى آخرين؟!

لذا نقول بما قالت الآيات، أن الله أعلن وأعلم أنه سيبعث على هذه الأمة من اليهود من يسومهم سوء العذاب، فهذا الوعيد كان لأمة منهم وليس لكل اليهود، وهذا يتفق مع عدل الله! ثم يقول الله أنه قطعهم في الأرض أمما، فلم يظلوا في تلك القرية وإنما شُتتوا في أنحاء الأرض، منهم الصالحون ومنهم دون ذلك! وابتلاهم الله لعلهم يرجعون عن المعاصي ويعودون إلى ما تعهدوا به!

إذا وكما رأينا، فأهل القرية لم يصطادوا السمك والله لم يبتلهم هكذا بدون سبب وإنما بما كانوا يفسقون، فجزاء لهم على اعتداءهم في السبت كان السمك يُرسل إليهم في يوم التزامهم به، واليوم الذي لا يلتزمون به لا يأتيهم، والله أعلى وأعلم.

أصحاب الرس!

نترك أصحاب السبت وننتقل إلى أصحاب الرس، والذين لا يعلم بوجودهم في القرآن كثير من المسلمين! ناهيك عن أن يعرفوا من هم وماذا فعلوا وماذا حدث لهم!! وذلك لأنهم لم يُذكروا في القرآن إلا في موضعين اثنين، لم *يزدا* عن ذكرهما وسط

المكذبين، فجاءا في قوله: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾] سورة الفرقان ,٣٨[، ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾﴾]سورة ق ,١٢[فإذا نظر المرء في أقوال المفسرين بشأنهم لا يزداد إلا حيرة! فنجد الإمام الألوسي يذكر بشأنهم أقوالاً عديـدة، منها: "عن ابن عباس هم قوم ثمود. ويبعده العطف لأنه يقتضي التغاير، وقال قتادة: هم أهل قرية من اليمامة يقال لها الرس والفلج قيل قتلوا نبيهم فهلكوا *وهم بقية ثمود وقوم صالح*. وقال كعب ومقاتل والسدي: أهل بئر يقال له الرس بأنطاكية الشام قتلوا فيها صاحب يس وهو حبيب النجار. وقيل: هم قوم قتلوا نبيهم ورسوه في بئر أي دسوه فيه. وقال وهب والكلبي: أصحاب الرس وأصحاب الأيكة قومان أرسل إليهما شعيب، وكان أصحاب الرس قوماً من عبدة الأصنام وأصحاب آباء ومواش فدعاهم إلى الإسلام فتمادوا في طغيانهم وفي إيذائه عليه السلام، فبينما هم حول الرس وهي البئر غير المطوية، كما روى عن أبي عبيدة، انهارت بهم وبدارهم. وقال علي كرم الله تعالى وجهه، فيما نقله الثعلبي: هم قوم عبدوا شجرة يقال لها: شاه درخت، رسوا نبيهم في بئر حفروه له. في حديث طويل. وقيل: هم أصحاب النبي حنظلة بن صفوان *كانوا مبتلين بالعنقاء*(!!) (...) وقيل: هم قوم أرسل إليهم نبي فأكلوه، وقيل: قوم نساؤهم سواحق، وقيل: قوم بعث إليهم أنبياء فقتلوهم ورسوا عظامهم في بئر، وقيل: هم أصحاب الأخدود والرس هو الأخدود. وفي رواية عن ابن عباس أنه بئر أذربيجان. وقيل: الرس ما بين نجران إلى اليمن إلى حضرموت. وقيل: هو ماء ونخل لبني أسد. وقيل: نهر من بلاد المشرق بعث الله تعالى إلى أصحابه نبياً من أولاد يهوذا بن يعقوب فكذبوه، فلبث فيهم زماناً فشكا إلى الله تعالى منهم، فحفروا له بئراً وأرسلوه فيه وقالوا: نرجو أن ترضى عنا آلهتنا، فكانوا عليه يومهم يسمعون أنين نبيهم فدعا بتعجيل قبض روحه فمات وأظلتهم سحابة سوداء أذابتهم كما يذوب الرصاص. وروى عكرمة ومحمد بن كعب القرظي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن أصحاب الرس أخذوا نبيهم فرسوه في بئر وأطبقوا عليه صخرة، فكان عبد أسود قد آمن به يجيء بطعام إلى البئر فيعينه الله تعالى على تلك الصخرة فيرفعها فيعطيه ما يغذيه به ثم يرد الصخرة على فم البئر، إلى أن ضرب الله

على أذن ذلك الأسود فنام أربع عشرة سنة. وأخرج أهل القرية نبيهم فآمنوا به في حديث طويل ذكر فيه أن ذلك الأسود أول من يدخل الجنة. وهذا إذا صح كان القول الذي لا يمكن خلافه لكن يشكل عليه إيرادهم هنا. وأجاب عنه الطبري بأنه يمكن أنهم كفروا بعد ذلك فأهلكوا فذكرهم الله تعالى مع من ذكر من المهلكين، وملخص الأقوال أنهم قوم أهلكهم الله تعالى بتكذيب من أرسل إليهم[156]" اهـ

ولا يخرج المرء من هذه الأقوال إلا بحكم واحد جازم هو أن المتكلمين عنهم لم يكن لهم بهم علم وأنهم كانوا يخرصون! وأن قصة أصحاب الرس هي مما ضاع من التراث العربي الذي كان معروفاً في زمان النبي.

والمعلومة التي يمكننا استخراجها من القرآن أن هؤلاء القوم كانوا في مرحلة الأنبياء الأُول بعد ثمود، وذلك لأن الله تعالى قرنهم في الآيتين بثمود، وكان القوم الآخرون المذكورون في آية هم عاد وفي الأخرى هم قوم نوح، وفي هذا إشارة إلى القرب الزمني لأصحاب الرس من ثمود! ومن ثم فإن قول قتادة أنهم بقايا ثمود وقوم صالح يُعد قولاً مقبولاً أولى من غيره من الأقوال التي لا مستند لها!

وتميل النفس إلى أن أصحاب الرس هو القوم المذكورون في سورة المؤمنون بعد سيدنا نوح: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [سورة المؤمنون, ٣٣-٤١]، إلا أنه لا دليل جازم على ذلك، ومن ثم نكتفي بالقول بأنهم

(156) محمود الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، الجزء التاسع عشر، ص. 19–20.

كانوا قريبي عهد بثمود، وأنهم أصلاً كانوا مشهورين بأصحاب الرس قبل أن يأتيهم الرسول، وأنهم كذبوا رسولهم فأهلكهم الله كما أهلك سابقيهم.

أصحاب القرية!!

بعد أصحاب الرس ننتقل إلى أصحاب القرية، أولئك القوم الذين لم يُذكروا في القرآن إلا في موضع واحد في سورة يس، وذلك قوله: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ[157] إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة يس ,١٣-٢٩]

---

[157] الملاحظ أن القرآن يتحدث عن القرية باعتبارها المكان وقاطنوها، فيقول أن القرية عملت كذا وكذا، وأحيانا يتحدث عن أهل القرية، وأحيانا عن قوم في القرية، إلا في هذه الآية التي استعمل الرب فيها "أصحاب" مع القرية، فقال: "أصحاب القرية"، ومفهوم أن يُسمى مالك الشيء صاحبه، كما قال الله عن أصحاب الجنة: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾ [سورة القلم ,١٧]، فهل كان أصحاب القرية مالكين لها؟ وهل أرسل الله المرسلين إلى مالكي القرية باعتبار أن بإسلامهم سيسلم القوم، أم أن أصحاب القرية هم أهلها؟ وإذا كانوا كذلك، فما وجه الاختلاف فيهم، الذي سُموا من أجله "أصحاب القرية" ولم يُسم غيرهم بهذا الاسم في القرآن؟!

ومثل أصحاب القرية من خير الأمثلة على تغلغل الثقافة التوراتية وإزاحة الثقافة العربية، فالروايات الواردة بشأن هذه القرية، التي لم يحددها الرب العليم، والذي تحدث عن إرسال رسل إليها، جعلتها أنطاكية، وجعلت الرسل المذكورين هم رسل المسيح وليسوا رسل الرب العليم!

ونكتفي في الرد على هذه الروايات النقد الذي قدّمه الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسيره فأحسن، فقال: "وقد تقدم عن كثير من السلف أن هذه القرية هي أنطاكية، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلا من عند المسيح، عليه السلام، كما نص عليه قتادة وغيره، *وهو الذي لم يذكر عن واحد من متأخري المفسرين غيره*، وفي ذلك نظر من وجوه: أحدها: أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله عز وجل، لا من جهة المسيح، كما قال تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾] سورة يس ,١٤[إلى أن قالوا: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾] سورة يس ,١٦-١٧[. ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح، عليه السلام، والله أعلم. ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم: "مَا أَنْتُمْ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا". الثاني: أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم، وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح؛ ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربعة اللاتي فيهن بتَاركة، وهن القدس لأنها بلد المسيح، وأنطاكية لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها، والإسكندرية لأن فيها اصطلحوا على اتخاذ البتاركة والمطارنة والأساقفة والقساوسة والشمامسة والرهابين. ثم رومية لأنها مدينة الملك قسطنطين الذي نصر دينهم وأطَّدَه. ولما ابتنى القسطنطينية نقلوا البترك من رومية إليها، كما ذكره غير واحد ممن ذكر تواريخهم كسعيد بن بطريق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين، فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة آمنت، فأهل هذه القرية قد ذكر الله تعالى أنهم كذبوا رسله، وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخمدتهم، فالله أعلم. الثالث: أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة، وقد ذكر أبو سعيد الخدري وغير واحد من السلف: أن الله تعالى بعد إنزاله التوراة لم

يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين، ذكروه عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ ... ﴿٤٣﴾﴾ [سورة القصص ,٤٣]. فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة في القرآن العظيم قرية أخرى غير أنطاكية، كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضا. *أو تكون أنطاكية إن كان لفظها محفوظا في هذه القصة مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة*، فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك، والله، سبحانه وتعالى، أعلم.[158]" اهـ

والمتدبر يجد أن الله العظيم لم يذكر أي تفاصيل عن هذه القرية، ولولا أن الله تعالى قال في أول السورة: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾﴾ [سورة يس ,٦] لقلنا أن القرية هي مكة والحديث عن أنبياء سابقين جاءوا لأهلها! ويبدو والله أعلم أن أهل مكة كانوا يسمون بلدة من البلدان المجاورة القرية، والله أعلم أيها، وكانوا يعلمون من نبأهم ما قصه القرآن، فضرب لهم القرآن المثل بالقرية إذ جاءها المرسلون وكيف نزل بهم ما نزل جراء تكذيبهم برسلهم! ولا حاجة لمعرفة تفاصيل أكثر عن هذه القرية فلقد جاءت في معرض ضرب الأمثال، ومن ثم فما ذُكر فيها كفاية، وهي من الوضوح والبيان بمكان!

والملاحظ هنا أن الله ابتدأ إرساله باثنين وليس برسول واحد، وهذا يستدعي التساؤل: لماذا اثنين وليس واحداً؟ هل كانت القرية من الكبر بمكان حتى أنها تحتاج إلى اثنين؟ أم أنه كان من باب التعزيز ابتداءً حتى لا يمسه سوء مثلاً؟! أم أنه كان بناءً على طلب الرسول الأول؟! الله أعلم!

ونلاحظ كذلك أنه لمّا كذبهما قومهما لم يؤتهما الله "معجزة" وإنما عزز بثالث! ومن المحتمل أن القوم أصحاب القرية هم المذكورون في سورة إبراهيم: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ

[158] ابن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، الجزء السادس، ص. 573–574.

مُّسَمًّىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [سورة إبراهيم, ١٠-١٢]، **إلا أنه لا دليل إلا استعمال صيغة الجمع مع الرسل وهذا غير محتم.**

وهناك من قال أن الرسولان هما إلياس واليسع، والرسول الثالث المعزز به هو إشعياء، والرجل الذي جاء من أقصى المدينة هو عوبديا (الذي يرى بعضهم أنه ذو الكفل!) والله أعلم بحال هذا القول. والشاهد أن أهل هذه القرية أهلكوا بالصيحة لأنهم كذبوا رسلهم واستمروا على فسادهم!

هاروت وماروت

من الآيات التي أحيطت بسياج من الخرافات آية نفي كفر سليمان، والتي تحدثت عن هاروت وماروت وتعليم السحر، والتي مثلت إشكالية كبيرة للمفسرين بسبب بناءها، ومن ثم فهموها كلهم على غير ما ذكرها الله العليم! والآية هي قول العليم: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [سورة البقرة, ١٠٢]

إذا نظرنا في أقوال المفسرين بشأنها وجدنا إجماعاً على أن هاروت وماروت ملائكة، إلا أنهم اختلفوا في العلة التي أُنزلوا من أجلها!

والعجب أن المفسرين قدّموا مجموعة من الروايات المنقولة بالحرف من التلمود[159]، مع بعض الزيادات، التي أضافها الرواة من عند أنفسهم من أجل التشويق والإثارة، ولتأخذ الصبغة الإسلامية! وملخص هذه الروايات أنه لمّا كثر الفساد من بني آدم، وذلك في زمن إدريس عليه السلام، والذي ليس قبل نوح! قالت الملائكة لله أنهم قالوا مسبقاً عند بدء الخليقة أننا مفسدون. فقال لهم الله عز وجل: أما أنكم لو كنتم مكانهم وركبت فيكم ما ركبت فيهم لعملتم مثل أعمالهم. فقالوا: سبحانك ما كان ينبغي لنا ذلك. فقال الله: فاختاروا ملكين من خياركم! فاختاروا هاروت وماروت فأنزلهما إلى الأرض وركب فيهما الشهوة. فما مر عليهما شهر –وفي روايات أقل– حتى فُتنا بامرأة اسمها بالنبطية "بيدخت" وبالعربية "الزهرة"، كانت قد اختصمت إليهما، فراوداها عن نفسها، فأبت إلا أن يدخلا في دينها ويشربا الخمر ويقتلا النفس التي حرم الله، فرفضا أولاً ثم أجاباها وشربا الخمر ووقعا بها، فرآهما رجل فقتلاه. وسألتهما عن الاسم الذي يصعدان به إلى السماء، فأعلماها إياه، فتكلمت به فعرجت في السماء فمسخت كوكبا!! فهل قالت الآيات بتلك الخرافات؟!

حقيقةً لست أدري ما العلاقة بين الآية والروايات، فالآية –تبعاً لزعمهم– تقول أن الملكين أُنزلا ليعلما السحر، وهذه الرواية وأمثالها تقول أنهما أُنزلا ليثبتا أن الملائكة أفضل من البشر –وهو أمرٌ لا يحتاج إلى إثبات–!!، فأين تعليم الناس السحر، وأين تعليل ذلك النزول؟! ولقد انتبه بعض القاصّين لهذه الإشكالية فأضاف في آخرها أنهما

---

(159) يوجد في التلمود، فى مدراش شمهازي وعزازيل Azazel Midrash of Shemhazai and قصة عن هبوط ملاكين إلى الأرض أحدهما يدعى عزازيل والآخر شمهازي، وذلك ليثبتا للخالق تفوق الملائكة على الإنسان في الأخلاق وفي طاعة الله، وأن الإنسان غير جدير بالدور الذي رسمه الله له. ولكن شمهازي ما لبث أن وقع في حب امرأة تدعى الزُهرة وطلب وصالها، ولكنها تمنعت واشترطت عليه أن يطلعها على اسم الله الأعظم الخفي، ففعل ذلك. وما أن حازت على الاسم حتى استخدمت قوته في الصعود إلى السماء قبل أن تفي بوعدها لشمهازي، ولكن الله أوقفها بين أفلاك الأجرام السماوية السيارة، وحوّلها إلى الجرم المعروف بكوكب الزُهرة أو كوكب فينوس!

علقا في بابل، فأصبحا يعلمان الناس السحر!! وسواءٌ ذكرت الرواية تعليم السحر أم لم تذكر فإنه لا ارتباط بين الرواية والآية.

ولن نتوقف طويلا مع هذه الرواية، لأنها لم تعُد *التفسير*! المقبول عند أكثر المسلمين، وذلك لأنها ضعيفة سنداً! فلقد أصبح طرحٌ آخر هو التفسير المعتمد، وهو أن اليهود أو الشياطين، لما قالت أن سليمان لم يكن نبياً وإنما كان ساحراً، وبسحره وبتسخيره الشياطين استطاع التحصل على هذا الملك العظيم، أنزل الله الملكين هاروت وماروت ليعلما الناس السحر، حتى يظهر لهم الفرق بين السحر وبين ما كان مع سليمان، وكانا يعلمان الناس السحر ويقولان لهما: لا تكفروا!

وهكذا أصبح حالهم مثل الذي يُدخل رجلاً على امرأة ويقول: لا تزن! إلا أنه يعكر على هذا القول أنه لا حرج في تعليم الناس ما أُنزل على الملكين –تبعاً لزعمهم– بل إن هذا أمر مطلوب، فلقد أُنزلا ليعلما الناس الفرق بين السحر وآيات الأنبياء، فمن الأفضل أن يعرف الناس هذا. أمّا أن نقول أنهم كانوا يعلمون الناس السحر، فليس السحر هو ما أُنزل الملكين به ومن أجله، وإنما التفرقة بين السحر والآيات، فكيف نجعل هذا ذاك؟! ثم ما وجه الاختلاف، الذي من أجله عطف الله السحر عليه، فقال: "يعلمون الناس السحر وما أنزل"، ولو كان هذا سحراً لكان عطفا للشيء على نفسه!!

والسؤال المحوري هو: هل قالت الآية أنه أُنزل على الملكين ببابل السحر؟! الناظر في الآية يجدها لم تقل بهذا، وإنما قالت أن الشياطين يعلمون الناس السحر وما أُنزل على الملكين، وأنهما ما كانا يعلمان من أحدٍ حتى يقولا كذا، فما المانع أن يكون هذا الشيء المُتعلَم هو الخداع والحيل؟! وأنهما كان يعلمان اليهود هذا ليستخدموه ضد أعدائهم، الذين يعذبونهم ويضطهدونه –لاحظ أن هذا كان في مرحلة الأسر البابلي– وكانوا ينهونهم عن الكفر باستخدامه في غير موضعه؟! لذلك لم تقل الآية مثلاً: "فيتعلمون منهما ما يطيرون به أو يُمرضون به"، وإنما قالت: ﴿... فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ... ﴿١٠٢﴾﴾ [سورة البقرة, ١٠٢] وهذا لا يحتاج إلى أكثر

من الخداع بدهاء! وعلى الرغم من أن هذا القول أكثر منطقية من الآراء التي ذكروها، وأكثر توافقاً مع الآية من الأقوال التي ذكروها، إلا أننا لا نأخذ به، وذلك لأنه لا علاقة له بالآية ولا بسياقها، فالآية تقول شيئاً آخر.

الآية في سياقها

الناظر في هذه الآية يجد أنها وردت في سياق الحديث عن عدم إيمان اليهود بالرسول على الرغم من أنه مذكور في كتبهم، وعن عدم التزامهم بالعهود واختلاق المبررات لعدم الإيمان، وإتباعهم ما لم ينزله الله العليم بدلاً من أن يتبعوا كتبه، ونذكر السياق العام الذي وردت فيه الآية، الذي يبيّن وجهتها، والذي فيه إلغاء لجميع الإشكاليات، *التي أوجدها المفسرون بعدم التزامهم بمنطوق الآية!*

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ... ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [سورة البقرة, ٩٨-١٠٣]

فكما رأينا فالله العليم يقول للرسول أن من كان عدواً لجبريل وميكال –من بني إسرائيل– فإن الله عدوٌ له، وأن الله أنزل آيات بيّنات، وأن هناك في اليهود فريق ينبذ العهود دوما، وأن هذا ما حدث لمّا جاءهم الرسول، فلقد نبذوا كتاب الله، الذي يبشر بمحمد ويعرف به، نبذوه وراء ظهورهم، واتبعوا ما تقوّلته أحبارهم –كما فعلوا سابقاً

بإتباعهم أقوال شياطينهم على ملك سليمان– والذين نسبوا الكفر إليه، ولم يكفر سليمان، وإنما هم الذين كفروا وأخذوا يعلمون الناس السحر.

ولم يُنزل على الملكين جبريل وميكال، –الذين يعاديهم اليهود– في بابل "الكتب" المسماة هاروت وماروت، وما كانا يعلمان أحداً حتى يقولا كذا وكذا، ومن ثم فلم يتعلموا منهم أي شيء، وإنما هي افتراءات على الملكين جبريل وميكال، بنسبة هذه الكتب إليهما، وهم لا يضرون أحداً بهذه الكتب إلا بإذن الله، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم، –لأن الكتب المختلقة المفتراة على الله لا نفع فيها بل هي ضرٌ خالص– ولقد علموا أن من قبل وأخذ بغير ما أنزل الله ما له في الآخرة من خلاق، فلبئس ما باعوا به أنفسهم، ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير.

وليس هذا القول افتراضية عقلية في فهم الآيات لا أثر لها في التاريخ، فلقد جاء في تفسير الطبري: "فيكون معنيّا بالملكين: جبريل وميكائيل لأن سحرة اليهود فيما ذُكر كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود. فأكذبها الله بذلك وأخبر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر قط، وبرأ سليمان مما نحلوه من السحر، فأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين، وأنها تعلم الناس ببابل، وأن الذين يعلمونهم ذلك رجلان اسم أحدهما هاروت واسم الآخر ماروت فيكون هاروت وماروت على هذا التأويل ترجمة على الناس ورداً عليهم[160]" اهـ

وكما رأينا فلقد ذكر الإمام الطبري أن سحرة اليهود كانت تزعم أن السحر أنزل بواسطة جبريل وميكائيل! وهو دليل تاريخي يؤكد ما نقول به. وقد يستغرب القارئ هذا القول لتعوده على فهم الآيات تبعاً لما قاله المفسرون، لذا نتناول الجملة المحورية في الآية، وهي قول العليم الخبير: ﴿... وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ... ﴿١٠٢﴾﴾ [سورة البقرة ,١٠٢] لنبين له أين انحرف المفسرون عنها، فقالوا بأقوال ما أنزل

(160) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، الجزء الثاني، ص.420 .

الله بها من سلطان: تبدأ الجملة ب "ما" ولها الدور الحاسم في فهم هذه الآية، ويكاد يجمع المفسرون على أن "ما" هنا موصولة بمعنى "الذي"، ويكون المراد من الآية على قولهم: واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان والذي أنزل على الملكين هاروت وماروت ببابل. وتكون جملة (وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا) جملة اعتراضية.

ونحن نقول أن الجملة الاعتراضية هي التي إذا حُذفت لا تؤثر في المعنى، فهل يمكن حذف "وما كفر سليمان" هنا؟! إذا قلنا أنه يمكن، فهذا يعني أن الآية لم تذكر الغرض الأساسي وهو نفي السحر والكفر عن سليمان، وهذا ما لا يقول به أحد، فتكون "ما" نافية، ويكون المعنى كما روي عن ابن عباس، أنه لم ينزل الله السحر وكما روي عن الربيع ابن أنس: ما أنزل الله عليهما السحر. ولأنه مشكل أن تُنزل الملائكة من أجل السحر، قال بعض المفسرين أن المراد من "ملكين" بشريين، استناداً إلى قراءة قرأت بكسر اللام، فجعلتهما مِلكين!

والمشكلة أن كل المفسرين والمتناولين للآية[161] فهموا الجملة هكذا: "وما أنزل على الملكين هاروت وماروت في بابل"، على الرغم من أن الله العليم قال: "وما أُنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت"، فقالوا أن الملكين هما هاروت وماروت، و"ببابل" اعتراضية! أما نحن فنهم الآية كما هي، ونقول أن الله يقول: ما أنزل على الملكين ب–شأن– بابل هاروت وماروت. فإذا نظرنا في السورة بحثا عن ملكين وجدنا أنهما الملاكان سابقا الذكر – جبريل وميكال–، والله تعالى ينفي فريتهم على جبريل وميكال –كما نفى فرية بني إسرائيل على سليمان–، ويقول أنه لم يُنزل عليهم بشأن أو بسبب بابل ذلك الشيء المسمى بهاروت وماروت.

ونلاحظ أن كلمة "هاروت" أو"ماروت" مشابهة تماماً لكلمة تاروت، والتي هي أوراق اللعب الشهيرة، والتي يستخدمها السحرة والكهان، كما أن كلمة هاروت هي معكوس

---

[161] حتى الدكتور أحمد حجازي السقا، والذي أخذنا عنه القول بأن "ما" في "وما أنزل على الملكين" نافية، وقدّم على طبقٍ من ذهب في كتابه: "علم السحر بين المسلمين وأهل الكتاب" حلاً لهذه الإشكالية. ويمكن للقارئ الاستزادة حول الآية بقراءة ما خطه الدكتور حولها في كتابه المذكور، حيث عرض الشيخ الدكتور لأقوال المفسرين في الآية بتفصيل كبير ورد عليهم.

كلمة توراه! فيكون هذا مؤكداً أن هاروت وماروت كتب أو طرق لتعليم السحر، نُسبت إلى جبريل وميكال.

وقد يستغرب القارئ الفهم الطبيعي للآية، لأنه اعتاد أن يفهمها على غير ما قالها الله، لذا نسأله: هل هناك دليلٌ على أن هاروت وماروت أسماء ملائكة وليست أسماء كتب؟! ثم نسأله مجددا: أي التفسيرين للمثال القادم هو الأقرب للسياق: "ما أعطيت الزميلين في الفصل س و ص". فإذا كان "س و ص" شيء غير معروف، فهل ستميل إلى أن س وص هما الشيء المعطَى أم أنهما هما الزميلين؟! فإذا كان سيميل لا محالة إلى أنهما هما الشيء المعطَى، فلماذا يتمسك بالعكس مع الآية[162]؟!

إذا وكما رأينا فلا وجه للاستدلال بالآية في إثبات حقيقة للسحر، ولا دليل على وجود ملكين اسمهما هاروت وماروت، وإنما الآية في نفي كفر سليمان ونفي أن يكون السحر مأخوذ من الملائكة، ولبيان أنه مما اختلقه اليهود وأضلوا به الناس، وأنهم كما تركوا كتاب الله واتبعوا أقوال أحبارهم، فكذلك أعرضوا عن الرسول بتركهم كتاب الله وإتباعهم أقوال البشر.

[162] قد يرفض القارئ هذا الفهم، استناداً إلى الاعتراض الذي أضعف حجة القائلين بأن الجملة نافية، ويقول: إذا كان الله تعالى ينفي أن يكون أُنزل على الملكين ببابل شيء، فكيف كانا يعلمان البشر؟! نقول: لم يقل الله تعالى أنهما علما أحد، وإنما قال: "وما يعلمان من أحد" ولم يقل "وما علما من أحد" فعلى فهمنا يستقيم المعنى، أي أنه ما أنزل عليهم شيء وما يعلمان من أحد حتى يقولا "إنما نحن فتنة". أما على قولهم: فهو أنزل عليهم وهما لا يزالان يعلمان الناس السحر حتى الآن، وقبل أن يعلما أي أحدا السحر يقولان له: "إنما نحن فتنة فلا تكفر"! وحتى لا يقول قائل: أن هذا على سبيل استحضار الصورة، فاستعمل الله المضارع ليشير إلى تكرار وقوع ذلك في الماضي. نقول: لاحظ أن الله تعالى قال: "من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون ما يفرقون" ولم يقل: فيتعلم ما يفرق به، ولم يقل: فتعلموا به، وهذا يعني أن هذا الأمر لا يزال يحدث. أما على قولنا فلم ينزل عليهم، وما علما أحداً حتى يقولا وحتى يتعلمون منهم ما يفرقون به بين المرء وزوجه! وقد لا يفهم بعض القراء هذا التوجيه للآية، وقد يرفضه آخرون ويرون أنه بعيد ويظهر فيه التعسف، فنقول: لا تعسف في التأويل بل هو أسلوب معروف وغير معقد، ومستخدم في اللسان حتى الآن، و نستعمله في كلامنا، ولكن لما شُرح في التأويل ربما ظهر ذلك، وأضرب مثالاً يبين أن هذا التأويل هو الأقرب إلى الصواب: عندما أقول: ما أمارس الرياضة حتى أقول إني قوي البدن، فتطلب مني حمل المائدة. فهذا مثال واضح لما ذُكر في الآية، فنفي الأول مترتب عليه نفي ما بعده، فعندما أقول أني ما أمارس الرياضة، فلا يحق لي أن أقول أني قوي البدن، فكيف يُطلب مني الحمل؟! وكذلك في الآية: لم ينزل عليهما شيء ليقولا إنما نحن فتنة، وبالتالي فلم يتعلموا منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه!

قوم تبع!

من الأقوام الذين ذُكروا في القرآن، ولا يكاد يوجد أي تصور في ذهن القارئ المعاصر بشأنهم، قوم تبع، والذين ذُكروا في موضعين اثنين في القرآن، هما قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ۝٣٧﴾ [سورة الدخان, ٣٧]، ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤﴾ [سورة ق, ١٤]

والمشتهر بين المثقفين أن تُبع أو التابعة لقب لعامة ملوك اليمن، إلا أن الناظر في القرآن يجد أن حديثه عن تبع واحد معروف بين العرب، وليس عن عامة ملوك اليمن، لأن هذه التقسيمات التاريخية أو التعميمات، مثل إطلاق الفرعون على كل من حكم مصر لم يكن لها أي وجود في ذلك الزمان، ومن ثم فإن الحديث عن واحدٍ بعينه. ولقد ذكر المفسرون من هو تبع هذا، فنجد الطاهر بن عاشور يقول: "وتُبّع المراد هُنا المسمّى أسعد والمُكَنَّى أبا كَرِب، كان قد عظم سلطانه وغزا بلاد العرب ودخل مكة ويثرب وبلغ العراق. ويقال: إنه الذي بنى مدينة الحِيرة في العراق، وكانت دولة تُبّع في سنة ألف قبل البعثة المحمدية، وقيل كان في حدود السبعمائة قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم.[163]" اهـ

وبغض النظر عن كون أسعد هذا تبع من عدمه، فإن النقطة الرئيس هي صلاح هذه الشخصية من طلاحها! فهل كان نبياً أم كان حاكما جباراً؟! الناظر في أقوال المفسرين يجدها تميل إلى أنه كان حاكماً وأنه أسلم، فنجد ابن عاشور مثلاً يقول: "وتعليق الإهلاك بقوم تُبّع دونه يقتضي أن تبّعاً نجا من هذا الإهلاك وأن الإهلاك سلط على قومه، قالت عائشة: ألا ترى أن الله ذمّ قومه ولم يَذمه. والمروي عن النبي صلى الله عليه وسلم في مسند أحمد وغيره أنه قال: «لا تسبوا تُبعاً فإنه كان قد أسلم. وفي

---

[163] محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الجزء الخامس والعشرون، ص.309.

رواية: كان مؤمناً» وفسره بعض العلماء بأنه كان على دين إبراهيم عليه السلام وأنه اهتدى إلى ذلك بصحبة حبْرَين من أحبار اليهود لقيهما بيثرب حين غزاها وذلك يقتضي نجاته من الإهلاك. ولعل الله أهلك قومه بعد موته أو في مغيبه.[164]" اهـ

والناظر في الروايات عن النبي يجد بعضها ينسب إلى النبي عدم معرفته به، فنجد أبا داود يروي في سننه: "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا أَدْرِي أَتُبَّعٌ لَعِينٌ هُوَ أَمْ لَا وَمَا أَدْرِي أَعُزَيْرٌ نَبِيٌّ هُوَ أَمْ لَا[165]".

ولقد وفّق العلماء بين هذه الروايات التي تظهر عدم معرفة النبي بحال تبع والأخرى التي تنهى عن سبابه بالقول بأن هذه كانت قبل أن يوحى إلى النبي بشأنه! إلا أن المرء يجد نفسه مضطرا لرفض هذه الروايات، لأنه من غير المعقول أو المقبول أن يكون الله العظيم الذي سأل المعاندين للرسول إذا كانوا خيرا أم قوم تبع، يسأل أقواما لا يعرفون قصة قوم تبع وأحوالهم جيدا! إن الرب سأل قوماً يعرفون تبعاً وحاله ونهايته جيداً ولذلك سألهم إذا كانوا خيراً منهم! ومن ثم فمن غير المقبول أن يكون المعاندون عارفين بتبع، ويكون الرسول الذي نشأ بينهم وعنده نفسه معارفهم وثقافتهم وزيادة، لا يعرف حال تُبع، سواء كان قبل الوحي أم بعده! ومن ثم فإن حال قوم تبع من التراث العربي الذي ضاع ولم يبق له إلا أثر بارز، وُوري هو الآخر! وهذا الأثر هو أن تبع هذا كان جباراً وكانت العرب تكرهه حتى أن المسلمين كانوا يسبونه، فنُسبت بعض الروايات إلى النبي تقول أنه أسلم! ولست أدري كيف خفي حال إسلامه على العرب وعلى قومه!

إن الناظر في موطني الذكر في القرآن يجد أن أحدهما يتحدث عن إهلاكهم، وأنهم أهلكوا على الرغم مما وصلوا إليه من القوة، لأنهم كانوا قوماً مجرمين، والآخر يتحدث عن تكذيبهم الرسل، وهذا يعني أنهم أرسل إليهم على الأقل رسول! ومن ثم فإن الحديث عن إيمان تُبع على يد أحبار يهود لا وزن له! فهل من المعقول أن يُكذب هو

[164] المرجع السابق .

[165] سليمان بن الأشعث أبو داود، سنن أبي داود، الجزء الثاني، ص.630.

والقوم بالرسول ثم يؤمن على يد حبرين لم يُطالب بالإيمان بهما ولم يرسلا إليه! وهذا كله على افتراض أن تبع كان حياً عند إرسال الرسل أو الرسول إليهم، فربما كانت نسبتهم إليه مثل قولنا: قوم ثمود! ويكون حاكم قوم تبع شخص آخر أُرسل إليه رسول فكذب هو وقومه به فأُهلكوا جزاء إجرامهم!

الباب الثالث

نقض التبعية

الفصل الأول: اختلاف الشخصيات

تمهيد

بعد أن عرضنا نماذج لقصص عام في القرآن وقبل ذلك لقصص الرسل، بيّنا فيها وبها اختلاف ما قاله القرآن عما قاله المفسرون وعما جاءت به الروايات، والتي لها غالباً أصل توراتي، نعرض هنا بعض النماذج التي تبين الاختلاف التام للتصورات القرآنية عن التصورات التوراتية، وكيف أنه بسبب منهج التبعية الذي اعتمده المفسرون، بأن جعلوا القرآن محتاجاً للتوراة، طُمست ملامح التفرد القرآني، مما أدى إلى القول بأخذ القرآن من التوراة والإنجيل!

لذا نقوم اعتماداً على هيمنة القرآن على الكتب السابقة بتقديم نماذج منتقاة لبعض التصورات التوراتية التي أبطلها القرآن وجاء بخلافها، والتي إما جُعلت مصدقةً لها أو على الأقل ليس فيها مخالفة لها! على الرغم من مخالفته لها في الخطوط العامة العريضة لقصصه وكذلك في التفاصيل الصغيرة. وبهذا نضيف إلى الاختلافات السابقة اختلافات جديدة تؤكد تفرد القرآن عن التوراة –المحرفة– وتظهر أن القول بأخذ القرآن من التوراة مجرد دعوى لا مستند لها إلا الروايات الإسرائيلية وعدم النظر في النص القرآني.

ولا يعني إبطالنا تعلق القصص القرآني بالتوراتي أننا سنحوله إلى نص "نظري" لا علاقة له بالواقع أو التاريخ، لأنه من المفترض أن المقصوص كان في يوم من الأيام، وإنما سنقوم بتقديم بديل تابع غير مخالف للقرآن وهو التراث العربي، ذلك التراث الذي تم إهماله وتنحيته وتهميشه في مواجهة الانتشار السرطاني للتراث التوراتي، والذي اعتُمد كتفسير للقرآن، باعتباره مرجع تاريخي فاصل صادق!

ولا يعني تقديمنا التراث العربي بديلاً أننا نقدمه كتفسير للقرآن! وإنما كتدليل تاريخي على التصورات المقدَمة في القرآن والمستخرجة منه، والتي قد يضعف من قوتها وتأثيرها عدم وجود مقابل لها على أرض الواقع ولا أثر لها في التاريخ ولا التراث. ونعود فنقول أننا لا نلتمس بهذا تصديقاً للقرآن، فالقرآن هو الذي يصدق التراث التاريخي، وإنما نرد على السؤال المنطقي الذي يقول: كيف تدعي اختلاف المضمون القرآني عن التراث التوراتي ونحن لا نجد لهذا الاختلاف أثراً عند أصحاب الشأن أنفسهم "العرب"؟!

فنرد على هذا السؤال بتقديم نماذج من التراث العربي أُغفلت وأُهملت، ولم يعد يسمع بها إلا أبناء المناطق التي عايشتها، والذين يتوارثونها كابراً عن كابر. ولا يعني هذا إقرارنا بكل ما جاء فيها، فقد اعتراها من النواقص البشرية ما اعتراها من تبديل ونقصان وزيادة، إلا أنها تستمد قوتها من تبعيتها للتصور القرآني وسيرها في نفس الاتجاه وليس في *الاتجاه المعاكس*!

نوح القرآني

فارق شاسع بين نوح القرآني ونوح التوراتي، فنوح القرآني رسول أُرسل إلى قوم يدعوهم إلى عبادة الله ويحذرهم الطوفان فلم يسمعوا له، فصنع الفلك ونجى به ومن معه من المؤمنين وأخذ معه بعض الدواب، وهلك الكافرون. أما نوح التوراتي وطوفانه فأمر آخر تماماً، فربُّه حزن على صنع الإنسان لما ارتكب من الشرور وأراد أن يهلك الجنس البشري وما معه من الحيوانات والطيور، "6: 8 وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب"، لسبب من الأسباب، الله أعلم به، فأراد أن ينجيه ويبدأ به وبنسله الجنس البشري مجددا، وحدد الرب لنوح مواصفات السفينة التي سيصنعها، كما أمره أن يجمع فيها من كل أصناف الدواب زوجين، وكان الطوفان ونوح ابن ستمائة عام، ولم يجعل للرب علامة يعرف بها حدوث الطوفان وإنما أعلمه أنه بعد سبعة أيام يبدأ

المطر، وأعلمه المدة التي سيظلها الطوفان وأنها ستكون أربعين يوما وليلة، ثم مات كل من على الأرض من البشر وكذلك من الحيوانات!

ثم يعطي الرب نوحاً ميثاقه أنه لن يكرر مثل هذه الفعلة ثانية، وعلامة هذا الميثاق قوسه الذي يضعه في السحاب! ربما حتى لا ينسى!! ولم تذكر التوراة أي فعل لنوح قبل الطوفان، وذكرت أنه بنى محرقة للرب بعد الطوفان، ثم تذكر موقفاً وحيداً تؤسس عليه لمنزلة أصحابها الإسرائيليين ومكانتهم، وهو سكر نوح –بعد أن تُعرف بأبنائه وتقول أنهم أصل كل سكان الأرض– فتقول في سفر التكوين: "9: 18 وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك ساما وحاما ويافث. وحام هو أبو كنعان. 9: 19 هؤلاء الثلاثة هم بنو نوح *ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض*. 9: 20 وابتدأ نوح يكون فلاحا وغرس كرما. 9: 21 وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه. 9: 22 فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه واخبر أخويه خارجا. 9: 23 فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجههما إلى الوراء فلم يبصرا عورة أبيهما. 9: 24 فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير. 9: 25 فقال: ملعون كنعان عبد العبيد يكون لأخوته. 9: 26 وقال مبارك الرب إله سام و ليكن كنعان عبداً لهم. 9: 27 ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام وليكن كنعان عبدا لهم"

وهكذا أصبح هناك جنس ملعون محكوم عليه أن يكون عبيداً لغيره! واعتمد أتباع التوراة على هذه السطور القليلة غير المنطقية، –التي لم تكتف بلعن إنسان على جرم لا يستحق اللعن أصلاً، وإنما أدخلت فيه أبنائه كذلك– اعتمدوا عليها في تأسيس خرافة السامية، والمطالبة بحقوقٍ وتَميز وعلو على باقي الأجناس.

فإذا نظرنا في القرآن وجدنا أنه اكتفى بالحديث عن نوح، فلم يعرض لأبنائه ولم يحكم بتميز أي جنس على الآخر، فمعيار التفاضل القرآني معلوم وهو الأعمال الصالحة. والموقف الذي قصّه عن ابنه كان بشأن الابن الكافر، الذي لم يشفع له كونه ابن

رسول ليكون من الناجين، وشتان بين هذا المشهد وبين المشهد التوراتي الذي حكم بلعن جنس أبد الدهر لأن أباه رأى عورة! ويقارن المرء بين المحتويين *فلا يجد عاملاً مشتركاً إلا وجود شخص اسمه نوح ووجود طوفان وسفينة*، وما عداً ذلك فليس ثمة أي تقاطع أو توافق! ومن ثم فإن الحديث عن نقل محمد من التوراة، أو اعتمادها كتفسير للقرآن يُعد ضرباً من الخبل.

نوح اليمني

على الرغم من انعدام الاتفاق بين نوح القرآني ونوح التوراتي إلا في ثلاث كلمات "نوح، طوفان، سفينة"، وعلى الرغم من وجود قصص مشابهة في مختلف الحضارات الإنسانية من اليونانية وحتى الصينية! إلا أن المسلمين اعتمدوا قول التوراة وقبلوا بكون نوح عليه السلام في العراق، ليس لوجود قصة مشابهة في الأساطير السومرية وهي قصة زيوسودرا والإله إنليل الذي أراد أن ينقذ البشر، أو في الأساطير البابلية مثل ملحمة جلجامش والتي قُص فيها من نبأ طوفان.

إلا أن قول التوراة: "واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أراراط" كان له الدور الفصل في الحكم بأن نوحاً كان في العراق، وذلك على الرغم من وجود اختلاف بين التوراة العبرانية والسامرية في تحديد مكان الرسو، يجعل من الممكن القول أن نوحاً كان في سيلان! وفي هذا يقول الدكتور أحمد حجازي السقا: "(واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أراراط) وفي السامرية "على جبال سرنديب" وأراراط في إرمنية، وسرنديب في سيلان.[166]" اهـ

[166] أحمد حجازي السقا، من الفروق بين التوراة السامرية والعبرانية في الألفاظ والمعاني، ص.15.

فإذا نظرنا في القرآن وجدنا أنه لم يذكر أين كان نوح تحديداً، إلا أنه ذكر المكان الذي استوت عليه السفينة وهو "الجودي"[167]، ومن ثم فمن المفترض أن يكون نوح في مكان قريب من الجودي، والذي هو ليس أراراط ولا سرنديب. وليست هذه هي الإحداثية الوحيدة التي ذكرها الله بشأن قوم نوح وإنما ثمة إحداثيات أخرى غاية في الأهمية وهي أن أرضهم لم تكن ذات أنهار ولا جنات وكان اعتمادهم على الأمطار: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢﴾ [سورة نوح, ١٠-١٢]، يضاف إلى ذلك إلى أنها لم تكن أرض منبسطة وإنما كانت أرض جبلية، ذات جبال عالية، ظن معها ابن نوح أنها من الممكن أن تكون نجاته بالاعتصام بأحدها: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ... ۝٤٣﴾ [سورة هود, ٤٣]، وهذا يعني أنه ثمة جبال عالية كثيرة محيطة بواديهم، كان لها العامل الرئيس في سرعة ارتفاع مياه الطوفان. ومن ثم يجب استبعاد العراق تماماً كموطن لنوح، لأنها أرض منبسطة ذات جنات، تعتمد على مياه الأنهار، والبحث عن منطقة أخرى تتوفر فيها هذه المواصفات.

فإذا نظرنا في جزيرة العرب وجدنا أن اليمن –بالمعنى التراثي القديم وليس بالحدود الدولية الحديثة– هي المنطقة التي تنطبق عليها هذه المواصفات، ففيها الأحقاف التي كان فيها قوم عاد، والذين كانوا خلفاء من بعد قوم نوح، وفيها قبر هود عليه السلام، وهو مزار معروف مشهور، وفي هذا يقول الأستاذ عبد الوهاب النجار: "ويقول أهل حضرموت: إن هودا عليه الصلاة والسلام سكن بلاد حضرموت بعد هلاك عاد إلى أن مات ودفن في شرقي بلادهم على نحو مرحلتين من مدينة تريم قرب وادي برهوت! وقد أُثر عن علي كرم الله وجهه أنه مدفون في كثيب أحمر وعند رأسه سمرة في حضرموت. وأهل فلسطين يدعون أنه دفن عندهم وقد بنوا له قبر ويعملون له في كل

(167) هناك من يرى أن الجودي ليس جبلاً بعينه، وإنما هو اسم من أسماء الجبل مثل الطور والعلم .. الخ، إلا أنه يعكر على هذا القول أن الله تعالى ذكره معرفا، ولو كان المراد الحديث عن أي جبل بهذه المواصفات لقيل: واستوت على جودي!

سنة مولدا. وقول أهل حضرموت أقرب إلى المعقول لأنها متاخمة لبلاد عاد وهي الأحقاف دون فلسطين[168]!" اهـ

ومن ثم فالمنطقي أن يكون نوحاً في هذه الأنحاء، التي نجد فيها مناطق تحمل أسماءً ذات علاقة ببداية البشرية، مثل آدم والجنة ونوح .. وعدن! والنقطة المحورية الفاصلة في هذه المسألة هي وجود "الجودي"، فهل ثمة "الجودي" في اليمن؟ تأتي الإجابة بنعم، ثمة جبل اسمه الجودي في وادٍ يحمل نفس الاسم "وادي الجودي"، في منطقة ثومه مديرية نهم محافظة صنعاء شمال شرق العاصمة صنعاء بنحو ثلاثين كيلو متر[169].

إذا فنوح القرآني يمني وليس عراقياً، عاش في اليمن، والله أعلم هل مات بها أم مات في بلد آخر، فهذا لم يعرض له القرآن، إلا أن تراثنا العربي يقول أنه مات ودُفن بمكة، وفي هذا يقول ابن كثير: "وأما قبره عليه السلام: فروى ابن جرير والأزرقي عن عبد الرحمن ابن سابط أو غيره من التابعين مرسلا، أن قبر نوح عليه السلام بالمسجد الحرام. وهذا أقوى وأثبت من الذي يذكره كثير من المتأخرين، من أنه ببلدة بالبقاع تعرف اليوم بكرك نوح، وهناك جامع قد بنى بسبب ذلك فيما ذكر. والله أعلم.[170]" اهـ

إبراهيم القرآني

لا يقتصر الأمر على نوح عليه السلام وإنما يتعداه إلى الخليل إبراهيم، فالناظر في التوراة يشعر أن إبراهيم التوراتي ليس هو إبراهيم القرآني، فمواطن الاختلاف بينهما تكاد تلغي نقاط الالتقاء والتي تكاد تنحصر في الأبناء والذبح، ولولاها لقلنا أن هذا

---

[168] عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء، ص.53.

[169] يرجع الفضل في هذا الاكتشاف إلى اللواء: علي علي الإنسي، والمهندس: عارف صالح التوي، واللذان قدما على ذلك الأدلة الكثيرة، والتي تبطل كون السفينة المكتشفة على جبل أراراط سفينة نوح، وتؤكد وجودها في اليمن. ويمكن للقارئ الكريم زيارة موقع www.shipnoah.com للإطلاع على مزيد من التفاصيل حول قضية السفينة ... الآية!

[170] إسماعيل بن كثير الدمشقي، قصص الأنبياء، الجزء الأول، ص.119 .

غير ذاك لا محالة! فإبراهيم القرآني منذ كان فتى ينظر في الكون ويجادل قومه ويكسر الأصنام ويدعوهم إلى عبادة الله ويُلقى في الجحيم، أما إبراهيم التوراتي فأول مخاطبة للرب له كانت وهو في الخامسة والسبعين، ولم تبين التوراة لماذا خاطبه الله أصلا! ناهيك عن اسمه لم يكن إبراهيم أصلاً وإنما كان اسمه أبرام، ثم غيّر الرب اسمه إلى إبراهيم وهو في التاسعة والتسعين من عمره! بينما يصرح القرآن أن اسمه كان إبراهيم طيلة عمره، فلم يتغير: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠﴾]سورة الأنبياء, ٦٠[(171). وإبراهيم التوراتي شخص يتنقل بماله وأنعامه من مكان لآخر ولا نجد له أي أثر دعوة، بل إنه يدفع امرأته العجوز ذات الخمس وستين ربيعاً للكذب، خوفاً من أن يُفتن أهل مصر بها فيقتلونه!!

وبعد اعتزال لوط إبراهيم، يعطي الرب إبراهيم عهدا بمباركة نسله وأن يعطيه ملك كذا وكذا! وهكذا تستمر التوراة في نسبة تمليك الرب البلاد والعباد لأحد من خلقه بدون أي مزية مذكورة! ثم تتحدث عن ميلاد إسماعيل، ثم عن ظهور الرب لإبراهيم وهو ابن تسع وتسعين فيعطيه عهداً وتكون المحافظة عليه بأن يختتن إبراهيم ونسله!! ويبشره بإسحاق الذي سيكون العهد معه! ثم يظهر الرب مجدداً مع ملكين لإبراهيم في مجيئهم لإهلاك قوم لوط، فيعرفهم إبراهيم ويقدم لهم طعاماً فيأكلوا!! بينما قال القرآن أن من جاء كانوا من الملائكة وأنه لم يعرفهم، وأنهم لم يأكلوا! ثم يجادل إبراهيم الرب في إهلاك قرى قوم لوط. ثم يكرر إبراهيم نفس الفعلة المتعلقة بزوجته مع ملك آخر! ولست أدري أي امرأة هذه التي يشتهيها الناس وهي في الخامسة والستين ... ثم في التسعين؟! ثم تكلمت عن ميلاد إسحاق وطرد إسماعيل وأمه، وعن امتحان إبراهيم بذبح ابنه، وعن موت سارة ودفن إبراهيم إياها، وعن تزويج إسحاق ثم موت إبراهيم ودفن إسماعيل وإسحاق له.

(171) هذا يدفع المرء إلى التساؤل: هل السيرة التي ذكرتها التوراة لذلك المسمى بأبرام هي للنبي إبراهيم نفسه، أم أن كاتبي التوراة قاموا بعملية قص ولصق، فوضعوا جزءً من سيرة شخص آخر مكان سيرة الخليل؟!

وينظر المرء في معظم حياة إبراهيم فيجدها حياة راعٍ متنقل، يهبه الرب هبات، غير معللة في التوراة، بينما هو في القرآن الباحث الأكبر عن الحقيقة، والذي هداه الله إليه، والداعي إلى الله على كل حال. ويقلب المرء التوراة يمينا أو شِمالاً علّه يجد أي ذكر لمكة أو لبيت الله الحرام أو للحج! تلك الفريضة التي ارتبطت بالخليل إبراهيم، والتي تحدث القرآن عن تأسيس إبراهيم لها ونداءه الناس للحج: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة الحج, ٢٦-٣٠] فلا يجد إلا حديثاً عن بيت إيل، والذي أميل إلى أنه بيت الله "الكعبة"، إلا أن التوراة لا تعطي تفاصيل حول بيت إيل هذا، ولا تنسب لإبراهيم أي دور بشأنه، وإنما تذكر أنه أقام هناك وبنى مذبحاً للرب! وصمْت التوراة عن حدث بهذا الحجم في حياة الخليل استمر سنوات، في الأذان بالحج والقيام عليه بل وإقامة ذريته بعده عليه، وحديثها عن تنقل ببعض أنعام وصراعات على آبار مياه يجعل المرء يجزم بوجود عملية تدليس كبرى في سيرة الخليل إبراهيم عليه السلام.

وجاءت الروايات الإخبارية العربية تحكي عن وجود الخليل إبراهيم في مكة خاصة وفي الحجاز بشكل عام، إلا أن المستشرقين قابلوا هذه الروايات بالرفض بدون بينة، بحجة أنها مما اختُلق بعد الإسلام! ويعلق على هذا الدكتور محمد بيومي مهران فيقول: "انفردت المصادر الإسلامية بأخبار إبراهيم في الحجاز، وعلق بعض المؤرخين الغربيين على هذه الأخبار بشيء كثير من الدهشة والاستنكار، وكأن المصادر الإسلامية قد نسبت إلى إبراهيم خارقة من خوارق الفلك وأسندت إليه واقعة بيّنة البطلان بذاتها، وغير قابلة الوقوع! وواضح من أسلوب نقدهم أنهم يكتبون لإثبات

دين وإنكار دين، ولا يفتحون عقولهم للحجة حيث تكون، فضلاً عن الاجتهاد في طلب الحقيقة.[172]" اهـ

ومن ثم فإن الاعتماد على التوراة في فهم حركة الخليل إبراهيم في القرآن يُعد منطقاً عجيباً! فلا ملامح لتحرك الخليل إبراهيم في التوراة سوى التركيز على ارتحاله إلى الجنوب! ولا تعليل لهذه التحركات! وإنما هناك حديث عن تحركات وانتقالات! بينما القرآن يتحدث عن ذهاب إلى الله: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ [سورة الصّافّات, ٩٩]، وهجرة إلى الله: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة العنكبوت, ٢٦]، وإنجاء إلى الأرض المباركة للعالمين: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [سورة الأنبياء, ٧١]، واختلف المفسرون في الأرض المباركة بين مكة والشام، والسؤال البديهي: ما هي الأرض المباركة، التي بذهاب الإنسان إليها يكون مهاجراً إلى الله؟ الأرض التي كان سيُذبح فيها إسماعيل الذي بلغ فيها *السعي* مع أبيه؟ لن يختلف اثنان في كونها مكة! إلا أن المفسرين جعلوا الأرض المباركة هي أرض الشام! ولست أدري أين تحدث الرب في كتابه عن أرض الشؤم هذه؟!

إن حديث القرآن كان عن أول بيت وضع للناس مباركا، وعن البيت الحرام الذي هو قيام للناس، إلا أن الثقافة التوراتية كانت من الانتشار بمكان أنها قادرة على بسط سلطانها في فهم الكتاب ومحو الفهم الإسلامي الأصيل، وفي هذا يقول باحثو جمعية التجديد: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةًۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [سورة الأنبياء, ٦٩-٧٢] تؤكد هذه الآيات النورانية أن الخليل انتقل فعلاً من ديار آبائه بعد أن وضع في النار نتيجة مقارعته أئمة الضلال في عصره. فانتقل إلى موقع جغرافي آخر إلى أرض نعتها الله تعالى بالمباركة

[172] محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية من القرآن: في بلاد العرب، ص. 138–139.

عالميا. فما هي الأرض التي عرف أنها مباركة وتميزت بمعرفة العالم لها منذ أقدم العصور؟ بالبحث في التراث نجد أن مكة كانت مقصد إبراهيم (ع) بعد خروجه من موطن الآباء، بيد أن هذه الحقيقة خولطت بشبهات وعوالق أثرت حتى على تفسير المفسرين وأحاديث المتكلمين. ولو استعرضنا فهم المفسرين للآية: ﴿... ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾] سورة الأنبياء ,٧١[لوجدنا تبايناً عجيباً وترجيحات أعجب: "قال بن زيد في قوله: "ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين" قال: إلى الشام. وقال آخرون: بل يعني مكة وهي الأرض التي قال الله تعالى: التي باركنا فيها للعالمين. ذكر من قال ذلك حدثني محمد بن سعد قال ثني أبي قال ثني عمي قال ثني أبي عن أبيه عن بن عباس قوله: "ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين" يعني مكة ونزول إسماعيل البيت، ألا ترى أنه يقول إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركًا وهدى للعالمين. قال أبو جعفر: وإنما اخترنا ما اخترنا من القول في ذلك لأنه لا خلاف بين جميع أهل العلم أن هجرة إبراهيم من العراق كانت إلى الشام، وبها كان مقامه أيام حياته وإن كان قد كان قدم مكة وبنى بها البيت وأسكنها إسماعيل ابنه مع أمه هاجر غير أنه لم يقم بها ولم يتخذها وطنًا لنفسه ولا لوط. والله إنما أخبر عن إبراهيم ولوط أنهما أنجاهما إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين". هنا يتبين لنا أن ذاكرة العرب تحوي حقيقة أن مكة هي الأرض التي نجاه الله إليها إبراهيم، ولكن هناك شياع ثقافي مبهم مهيمن بينهم يهمّش هذه الحقيقة ويؤثر عليها غيرها من أقوال.[173]"

إذا وكما رأينا فالإمام أبو جعفر الطبري قد رجح أن الأرض المباركة هي الشام استناداً إلى أقوال أهل العلم، المأخوذ من التوراة! بينما الوارد في القرآن وعن ابن عباس وفي الأخبار العربية يقول بخلاف ذلك! ومن ثم نقول أن الأرض المباركة هي مكة، وأن مقام الخليل كان في جوار مكة لقيامه بأمور الحج وتعريف الناس بمناسكه، وظل على ذلك سنوات طوال. إلا أنه زياراته لم تكن تنقطع عنها، فالحج ثم الحج ثم الحج كان

---

(173) جمعية التجديد الثقافية، اختطاف جغرافية الأنبياء، ص.257-258.

المهمة الأكبر في حياة الخليل العظيم .. الذي استجاب له العرب ودخلوا في دين الله أفواجا وأصبحوا يحجون بيته، الذي قام عليه إبراهيم، وفي كبره أسند الأمر إلى ذريته! فهناك كان الخليل .. وهناك عاش الخليل وعلينا أن نبحث عن آثاره في هذه المنطقة المباركة[174] .. وليس في أرض الشام.

قرية قوم لوط

قالت التوراة أن قرى قوم لوط كانوا خمسة، أشهرها وأكبرها سدوم وعمورية! إلا أن الناظر في القرآن يجد أنه سماها في كل مرات ذكرها "قرية"، فلم يثن مرة أو يجمع! ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ... ﴿٧٤﴾﴾]سورة الأنبياء, ٧٤[، ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ... ﴿٤٠﴾﴾] سورة الفرقان, ٤٠[، ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ ... ﴿٣١﴾﴾] سورة العنكبوت, ٣١[.

ومن ثم نقول أن سيدنا لوط أُرسل إلى قرية وليس إلى قرى. والنقطة المحورية: هل قال القرآن أين تقع هذه القرية أم سكت عن ذلك وهل وافق التوراة في ذلك؟! فنقول: لم يقل القرآن مباشرة أن قرية سيدنا لوط تقع في المكان الفلاني، وإنما ذكر إشارة إلى ذلك. بينما ذكرت التوراة مكان سدوم وعمورية، واختُلف في تحديد مكانهما، فقيل أنهما جنوب البحر الميت أو شرقه (غرب الأردن)، وقيل بالقرب من الناصرة الفلسطينية، إلا أنه ليس ثمة دليل أكيد على وجودهما في هذه المناطق، على الرغم من الأبحاث والحفريات الكثيرة التي أُجريت هناك، وفي هذا يقول العميد جمال الدين شرقاوي: "علماء الآثار لم ولن يتوصلوا إلى الكثير من المواقع الجغرافية التوراتية التي

[174] أليس من العجيب أن يوجد في الطائف، حيث يعيش بنو مالك، – والملك الذي قابله إبراهيم في التوراة اسمه أبي مالك!– جبل يُسمى ب "جبل إبراهيم"! ويوجد في نفس الجبل كهف يُسمى "مصلى إبراهيم"، وفيه ما يسمى بالمذبح، ولا يشك كبار السن في هذه المنطقة في أنه مصلى إبراهيم الخليل.

يعود زمنها إلى عصر نبيّ الله إبراهيم. ومن أشهر هذه المواقع موقع قوم لوط، والمُعبَّر عنه توراتيا تحت مُسمى مُدن الدائرة في التوراة العبرية (تك 13: 12) ومُسمى مُدن أبرح في التوراة السامرية (تك 13: 12) ومن أهم هذه المدن مدينتا سدوم وعمورة. وقد ظهرت عدة نظريات افتراضية توضح اختفاء مكان كل من سدوم وعمورة، وهذه النظريات ظهرت أساسا بعد القول بأنَّ جميع مدن قوم لوط تقع في الجزء الجنوبي للبحر الميت. ورغم الأبحاث المضنية التي قام بها المستكشفون تحت مياه البحر الميت لم يجدوا شيئا. وقد اعترف مؤلفو الموسوعات العلمية الكتابية الحديثة بعدم معرفة موقع كل من سدوم وعمورة يقينا. وإنما كل الأمر وما فيه عبارة عن تخمين وافتراض غير مُدعَّم بأدلة مقنعة لهم. ومن أراد التأكد من صحة كلامي فعليه بمراجعة كل من موسوعة (BAKAR) الكتابية الحديثة (الجزء الثاني صفحة 1975) وأيضا موسوعة (The Zordervan Pictorial Encyclopedia of the Bible) الأمريكية الحديثة (الجزء الثاني صفحة 775). كما أنَّ هنالك على شبكة المعلومات الدولية . الانترنت . الكثير من المواقع التي حَوَت أبحاثا جَمَّة عن موقعي سدوم وعمورة دون طائل[175]" اهـ

إذا فالقول أن القرى تقع في جنوب البحر الميت ليس من المسلمات العلمية، فإذا نظرنا في كتاب الله عز وجل لنسترشد به في تحديد مكان هذه القرى نجد أنه يخبرنا أن هذه القرى تقع في مكان جد حار قريب من أهل مكة! وهذا ما لا ينطبق بأي حال على جنوب البحر الميت. والآيات الدالة على هذا هي قول الله تعالى في سورة ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝١٣٨﴾ [سورة الصّافّات, ١٣٧-١٣٨]. فلم يقل الله العليم "وإنكم لتمرون عليهم صباحا أو ليلا أو في الليل"، والخطاب في الآية خطاب لأهل مكة وليس لكل العالمين، لأنه لا معنى لأن يكون الناس كل الناس يمرون على مكان ما، فمن الممكن أن يمر الإنسان على أي مكان في أي وقت. ففي الآيات إشارة إلى كونهم في مكان حار لا يستطيع

(175) جمال الدين شرقاوي، نبي أرض الجنوب، ص. 36–37.

الإنسان أن يذهب إليه إلا في هذا الوقت، أي أنكم تمرون عليها حال دخولكم أنتم في الصباح، وليس المقصود حال دخول الصبح عليهم، كما أنكم تستغلون الليل في السفر لذلك قال "وبالليل" ولم يقل "في الليل" فهم يمرون عليهم مستغلين الليل "وبالليل" أو داخلين في الصباح.

وبذلك تكون الإشارة الواضحة إلى أن قرى لوط في مكان قريب من مكة، وهذا ما قال به العميد جمال الدين شرقاوي: "فحين يقول القرآن عن مكان مدن قوم لوط "وما هي من الظالمين ببعيد" نفهم بداهة أنها على مسافة ليست ببعيدة عن مكان مشركي مكة. وتلك معلومة قرآنية أولى عن الموقع. وإذا قال القرآن عنها [وإنها لبسبيل مقيم]نفهم بداهة أيضا أنها تقع على طريق مأهول يرتاده العابرون. وتلك معلومة قرآنية ثانية عن الموقع. وإذا قال القرآن عنه [وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون] نفهم أنَّ أهل مكة كانوا يمرون على موقع قوم لوط صباحا ومساءً أثناء رحلتهم التجارية الصيفية إلى الشام. وبجمع العلامات القرآنية الثلاث السابقة، نجد أنَّ مكان مدن قوم لوط ليس بعيدا عن مكة، وأنه يقع على الطريق التجاري المعروف لدى أهل مكة والذي يسيرون فيه أثناء رحلة الصيف التجارية.[176]" اهـ

وانطلاقا من مبدأ هيمنة القرآن على الكتب السابقة، ووجوب قراءتها تبعاً للقرآن وليس العكس، قرأ العميد شرقاوي التوراة انطلاقا من هذا التحديد القرآني، ومن ثم أسقط إحداثيتها المذكورة على مناطق مختلفة كلية، فقال: "وخير ما نفعله هنا بهذا الشأن هو مُراجعة خط سير القافلة الإبراهيمية أثناء خروجها من سيناء مصر مُتجهة جنوبا في سيرها. حيث تم الاستقرار الأول أو محطة الوصول الأولى لكل من إبراهيم ولوط عليهما السلام وأتباعهما فسكن لوط ومَن معه شرقا عند مدن الدائرة أو مدن أبرح حسب نسختي التوراة العبرية والسامرية. وسكن إبراهيم ومن معه غربا عند منطقة بلوط ممرا. وما علينا إلا أن نضع هاتين المنطقتين المتقابلتين على خريطة خط السير من سيناء مصر صوب الجنوب، ثم نبدأ دراستنا بدون افتراضات مزعومة مسبقة.

[176] المرجع السابق، ص. 38–39.

من الخريطة السابقة نجد أنَّ مكاني إقامة إبراهيم ولوط عليهما السلام في المنطقة الشمالية الغربية لشبه الجزيرة العربية قريبا من الشريط الساحلي المتاخم للبحر الأحمر. فأقام إبراهيم ومن معه في المنطقة الغربية القريبة من البحر الأحمر وأقام لوط ومن معه في المنطقة الواقعة شرقي مكان إقامة إبراهيم تبعا لنصّ التوراة (تك 13: 10 . 11).[177]" اهـ

ومن ثم فإنه على الباحثين التاريخيين أن ينقلوا نطاق بحثهم عن هذه القرى من جنوب البحر الميت إلى غرب البحر الأحمر قريبا من مكة وبلوط مرا، فهناك سيجدون القرية التي حدث بها ما حدث ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٣٥﴾ [سورة العنكبوت, ٣٥].

إسرائيل ليس يعقوب

دعوى عريضة تلك التي عمل بنو إسرائيل على نشرها وترويجها، بأن ادعوا أنهم من نسل يعقوب عليه السلام، وأن يعقوب هو إسرائيل، وأن الله تعالى –أو ملاكه– هو من سمّاه بهذا الاسم بعد أن تصارع معه، ومن ثم أصبح يعقوب يحمل اسم "إسرائيل"، وأصبحوا هم أبناءه بالتبعية، ومن ثم أصبحوا ينتسبون إلى خليل الرحمن إبراهيم. ويا له من نسب ونسل، أن يصبحوا من نسل "أبو الأنبياء"، فلم يقنعوا بأن يكونوا من نسل رجل صالح، لأنه في نهاية المطاف كغيره لم يتشرف بالوحي الإلهي.

ولما كانوا مشهورين ببني إسرائيل ولا يمكنهم أن ينكروا ذلك أو يغيروه، كان من الممكن أن يغيروا إسرائيل نفسه، فجعلوه يعقوب عليه السلام، وبهذا اكتسبوا شرفاً لا يزاحمهم فيه مزاحم. وكذب بنو إسرائيل الكذبة وعمموها ونشروها وتقبلها من حولهم،

[177] المرجع السابق، ص.37–38 .

إلا أن الله تعالى كشف زيفهم وبيّن كذبهم وكيف أنهم ليسوا من نسل الخليل وأن يعقوب ليس إسرائيل عليه السلام.

وقد يرفض القارئ قولنا هذا بدون أن يقرأ الأدلة التي استندنا إليها لذا نسأله هو: ما هي الأدلة القرآنية التي استند إليها في القول بأن يعقوب هو إسرائيل؟! سينظر القارئ فيما لديه فلا يجد دليلاً صريحا على أن هذا هو ذاك، لذا ندعوه إلى التدبر في المواطن التي فرّق الله فيها بينهما: أبرز المواطن التي كشف الله العليم فيها ذلك الزيف هو في السورة المسماة باسمهم "بنو إسرائيل"، فقال: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ [سورة الإسراء, ٢-٣]، فبيّن بجلاء لا لُبس فيه أن بني إسرائيل لا ينتمون إلى نوح وإنما إلى "من حملنا مع نوح"، ومن ثم فهم لا ينتمون إلى أي من أبنائه، ومن ثم فإن كل الحديث عن الجنس السامي والانتساب إلى سام بن نوح يصبح خرافة لا محل لها من الإعراب، فهم ليسوا من نسل نوح أصلا وإنما يرجعون إلى واحدٍ من الذين حُملوا معه في الفلك!

وبخلاف القضاء على خرافة السامية فإن عدم الانتساب إلى نوح يعني عدم الانتساب إلى إبراهيم الخليل، فلقد قال الله في حقهما: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٣٣ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٣٤﴾ [سورة آل عمران, ٣٣-٣٤]، فالمذكورين في الآية ذرية بعضها من بعض، ومن ثم فإن آل إبراهيم من ذرية نوح، وبنو إسرائيل ذرية من حُمل مع نوح، ومن ثم فمن غير الممكن أن يكون نسل إبراهيم ينتسب إلى نوح وإلى من حمل مع نوح في عين الوقت! بينما من المنطقي المقبول أن يكون هؤلاء نسل وأولئك آخر.

والآية التي يستند إليها القائلون بهذا القول هي دليل عليهم وليس لهم، فنجدهم يستندون إلى قول العليم: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ ... ۝٥٨﴾ [سورة مريم, ٥٨] فيقولون

أن إسرائيل هو يعقوب بدليل ذكره بعد الخليل، وهو قول مردود يرجح النص غيره، فذكره بعد الخليل مرجح لأنه ليس من ذريته وإنما هو شخص في زمانه أو سابق له، ولو كان من نسله لما كان ثمة حاجة لذكره منفصلاً بعده، لأن ذريته لا محالة هي جزء من ذرية إبراهيم! وانطلاقا من أن القرآن منزه عن اللغو والتكرار والحشو نقول أن هذه الذرية غير تلك.

والملاحظ أن إسرائيل لم يُذكر في القرآن إلا في سورتين اثنتين فقط ، هما: آل عمران ومريم، وذكر في كليهما يعقوب قبله، فنجد الرب يقول في آل عمران: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٨٤﴾]سورة آل عمران , ٨٤[، وذُكر يعقوب في مريم مرتين: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ٦﴾] سورة مريم , ٦[، ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ٤٩﴾] سورة مريم , ٤٩[، ولم يذكر في أي من السورتين ما يشير إلى أن يعقوب هو إسرائيل.

والفارق الرئيس هو أن الله تعالى ذكر يعقوب في مواطن ذكر الأنبياء وجعله وأباه كالخليل أئمة: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ٧٢ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ٧٣﴾] سورة الأنبياء , ٧٢-٧٣[، ولم يذكر الله إسرائيل في ضمن مجموعات الأنبياء، فلم يقل مثلا: وإبراهيم وإسحاق وإسرائيل!

والأهم أنه لم يقل مرة أنه هو يعقوب، ولم يذكره في موطن يشير إلى أنه يعقوب، مثل مشهد حضور الموت فلم يقل مثلا: "أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ إسرائيل الْمَوْتُ .." وإنما قال: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ

﴿١٣٣﴾] سورة البقرة ,١٣٣[، ونلاحظ أن الله تعالى استعمل ال "آل" مع الخليل وأبنائه فقال: آل إبراهيم وآل يعقوب، ولم يقل مرة: بني إبراهيم أو بني يعقوب، واستعمل ال "بنو" مع إسرائيل، فقال: "بني إسرائيل"، فلماذا لم يقل لهم مرة: يا بني يعقوب؟!

ناهيك عن أن الله فصَل بني إسرائيل عن آل إبراهيم فقال: ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾] سورة النساء ,٥٤[، فهنا استنكر الله حسدهم الناس وبيّن أنه آتى آل إبراهيم الكتاب والحكمة، ولو كان بنو إسرائيل من نسل يعقوب لما كان من المعقول أن يحسدوا نفسهم، ناهيك عن أنه من المفترض أن يحسدهم الناس لا العكس.

قد يرى بعض القارئين أن هذه اجتهادات في فهم النص القرآني، ولكنها لا تقابل السنة التي صرحت في بعض الروايات أن يعقوب هو إسرائيل، مثل ما جاء في مسند أحمد عن عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ: "حَضَرَتْ عِصَابَةٌ مِنْ الْيَهُودِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ حَدِّثْنَا عَنْ خِلَالٍ نَسْأَلُكَ عَنْهُنَّ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ فَكَانَ فِيمَا سَأَلُوهُ أَيُّ الطَّعَامِ حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ؟ قَالَ: فَأَنْشُدُكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ *إِسْرَائِيلَ يَعْقُوبَ* عَلَيْهِ السَّلَام مَرِضَ مَرَضًا شَدِيدًا فَطَالَ سَقَمُهُ فَنَذَرَ لِلَّهِ نَذْرًا لَئِنْ شَفَاهُ اللَّهُ مِنْ سَقَمِهِ لَيُحَرِّمَنَّ أَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ وَأَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ فَكَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لُحْمَانُ الْإِبِلِ وَأَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ أَلْبَانُهَا؟ فَقَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ[178]" اهـ

فنقول: إن هذه الرواية وأمثالها مُضعفة من علماء مصطلح الحديث سنداً، ناهيك عن الإشكاليات النحوية البلاغية في وضع إسرائيل قبل يعقوب، لأن هذه الجملة لا تعني بحال أنه إسرائيل هو يعقوب وإنما أن إسرائيل تابع ليعقوب!

---

[178] أحمد بن حنبل، المسند، الجزء الأول، ص.273.

بينما أتت الروايات الصحيحة في السنة لتفرق بينهما وتقول أن هذا غير ذاك، وفي هذا يقول سويد الأحمد معلقاً على رواية في البخاري: "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ أُهْدِيَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَاةٌ فِيهَا سَمٌّ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اجْمَعُوا لِي مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ الْيَهُودِ، فَجُمِعُوا لَهُ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنِّي سَائِلُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْهُ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ. فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ أَبُوكُمْ؟ قَالُوا: أَبُونَا فُلَانٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَذَبْتُمْ بَلْ أَبُوكُمْ فُلَانٌ. فَقَالُوا: صَدَقْتَ وَبَرِرْتَ. (...) وفي هذا الحديث قام الرسول(ص) بتكذيب ادعاء اليهود في أبيهم، فإن اليهود يدعون أن أبيهم هو يعقوب عليه السلام، أو أنهم يقولون إن أبيهم إسحاق أو إبراهيم عليه السلام، لكن، أيا كانت إجابتهم، فإنه(ص) قد كذّبهم. وعدم ذكر أبي هريرة أو أحد الرواة من بعده لاسم أبي اليهود هو ما ليس لنا به من حيلة. (...) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأُنَاسٍ مِنْ الْيَهُودِ قَدْ صَامُوا يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَقَالَ: مَا هَذَا مِنْ الصَّوْمِ؟ قَالُوا: هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي نَجَّى اللَّهُ مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ الْغَرَقِ وَغَرَّقَ فِيهِ فِرْعَوْنَ وَهَذَا يَوْمُ اسْتَوَتْ فِيهِ السَّفِينَةُ عَلَى الْجُودِيِّ فَصَامَهُ نُوحٌ وَمُوسَى شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى وَأَحَقُّ بِصَوْمِ هَذَا الْيَوْمِ فَأَمَرَ أَصْحَابَهُ بِالصَّوْمِ. وفي هذا الحديث يبين اليهود سبب صومهم يوم عاشوراء، وهو نجاة بني إسرائيل مع موسى عليه السلام، وأيضا فيه نجاة نوح ومن معه من المؤمنين، حيث استوت السفينة على الجودي، والسؤال هنا: لماذا لا يصوم اليهود اليوم الذي نجّى الله فيه إبراهيم من الغرق؟! ونحن نعرف علاقة اليهود ببني إسرائيل، لكن ما علاقتهم بنجاة نوح ومن معه؟! أليس لأن بني إسرائيل هم من ذرية من نجى مع نوح، حيث استوت على الجودي؟! وهذا ما قاله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾] سورة الإسراء ,٢-٣[[179]" اهـ

[179] سويد الأحمد، الخبر بالبرهان والدليل على أن النبي يعقوب غير إسرائيل، ص. 114–115.

وكما رأينا فقد كذّب النبيُ اليهودَ في أبيهم، ورأينا أنهم يحتفلون بنجاة نوح واستواء السفينة على الجودي، وهذا يؤكد ما قاله القرآن من أنهم ذرية من كان مع نوحٍ، وليسوا من نسل إبراهيم ولا يعقوب!

والعجب كل العجب أن المسلمين يرفضون المقطع المذكور في العهد القديم في سفر التكوين، والذي يتحدث عن مصارعة يعقوب الرب والذي يُفترض أنه بسببه سُمي يعقوب إسرائيل، والذي جاء فيه: "فبقى يعقوب وحده، وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر. ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حُق فخذه -أي فخذ يعقوب- فأنخلع حُق فخذ يعقوب في مصارعته معه. وقال الرب: أطلقني، لأنه قد طلع الفجر، فقال يعقوب: لا أطلقك إن لم تباركني، فقال له: ما اسمك؟ فقال: يعقوب. قال: لا يُدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس فقدرت .."

فيرفضون بل ويستهجنون أن يصارع يعقوب الرب أو حتى ملاك الرب -تبعاً لبعض التأويلات اليهودية/المسيحية التي استبعدت أن يصارع إنسان الرب! وعلى الرغم من ذلك فإنهم قبلوا التسمية، وقبلوا أن يكون يعقوب سُمي إسرائيل! على الرغم من أنه من المفترض أن ترُفض الحادثة كاملة وكل ما يُتعلق بها، لا أن تُرفض هي ويُقبل الغرض الذي من أجله اختُلقت وافتُريت!

ولقد بيّن القرآن أن يعقوب سُمي بهذا الاسم من قبل أن يولد: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾ [سورة هود, ٧١]، وحسبنا ما قاله ربنا، أما التسميات المختلقة في قصص خرافية فلا قبول لها عندنا، خاصة إذا كان من اختلقوها لم يستعملوها! فالناظر في سفر التكوين يجد أنه ظل يستعمل اسم يعقوب بعد ذلك ولم يستعمل "إسرائيل"، الذي اختُلقت من أجله هذه الرواية. ولا يقتصر الأمر على هذا وإنما يتعداه إلى تفريق التوراة السامرية، والمرفوضة من اليهود العبرانيين، بين يعقوب وإسرائيل في الفقرة الأولى من سفر الخروج، فنجدها تقول:

"1- وهذه أسماء بني إسرائيل الداخلين مصر مع يعقوب الرجل وآله دخلوا.

2- رأوبين وشمعون ولاوي ويهوذا.

3- ويششكر وزبوان وبنيمم.

4- ودن ونفتالي وجد وأشر.

5- وكانت كل النفوس الخارجة من ظهر يعقوب سبعين نفساً ويوسف كان بمصر.

6- ومات يوسف وكل إخوته وكل ذلك الجيل.

7- وبنو إسرائيل ثمروا وتبعوا وكثروا وعظموا جداً جداً وامتلأت الأرض بهم" اهـ

وكما رأينا فلقد فرقت الفقرة بين بني إسرائيل وبين يعقوب وآله، وقالت أن يوسف وإخوته ماتوا، بينما كثر بنو إسرائيل وثمروا، ومن ثم فهؤلاء ليسوا أولئك. وهو أيضا ما قاله القرآن مفرقا بين يعقوب النبي وإسرائيل .. العبد الصالح الشكور!

الذبيح .. إسماعيل

تعد مسألة ابن إبراهيم الذبيح الذي أُمر بذبحه من النقاط المحورية التي قامت عليها اليهودية، حيث بنت مزاعمها بالحقوق في الأراضي العربية استناداً على الوعود الربانية التي وعدها الرب إبراهيم جراء إقدامه على ذبح ابنه! والذي ذكرت التوراة صراحة في سفر التكوين أنه إسحاق عليه السلام، فقالت: "وَحَدَثَ بَعْدَ هذِهِ الأُمُورِ أَنَّ اللهَ امْتَحَنَ إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ لَهُ: يَا إِبْرَاهِيمُ!. فَقَالَ: هاأنذا. فَقَالَ: خُذِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ، الَّذِي تُحِبُّهُ، إِسْحَاقَ، وَاذْهَبْ إِلَى أَرْضِ الْمُرِيَّا، وَأَصْعِدْهُ هُنَاكَ مُحْرَقَةً عَلَى أَحَدِ الْجِبَالِ الَّذِي أَقُولُ لَكَ. فَبَكَّرَ إِبْرَاهِيمُ صَبَاحًا وَشَدَّ عَلَى حِمَارِهِ، وَأَخَذَ اثْنَيْنِ مِنْ غِلْمَانِهِ مَعَهُ، وَإِسْحَاقَ ابْنَهُ، وَشَقَّقَ حَطَبًا لِمُحْرَقَةٍ، وَقَامَ وَذَهَبَ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي قَالَ لَهُ اللهُ. وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ رَفَعَ إِبْرَاهِيمُ عَيْنَيْهِ وَأَبْصَرَ الْمَوْضِعَ مِنْ بَعِيدٍ، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِغُلاَمَيْهِ: اجْلِسَا أَنْتُمَا

ههُنَا مَعَ الْحِمَارِ، وَأَمَّا أَنَا وَالْغُلاَمُ فَنَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ وَنَسْجُدُ، ثُمَّ نَرْجعُ إِلَيْكُمَ. فَأَخَذَ إِبْرَاهِيمُ حَطَبَ الْمُحْرَقَةِ وَوَضَعَهُ عَلَى إِسْحَاقَ ابْنِهِ، وَأَخَذَ بِيَدِهِ النَّارَ وَالسِّكِّينَ. فَذَهَبَا كِلاَهُمَا مَعًا. وَكَلَّمَ إِسْحَاقُ إِبْرَاهِيمَ أَبَاهُ وَقَالَ: يَا أَبِي فَقَالَ: هاأنذا يَا ابْنِي. فَقَالَ: هُوَ ذَا النَّارُ وَالْحَطَبُ، وَلكِنْ أَيْنَ الْخَرُوفُ لِلْمُحْرَقَةِ؟ فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: اللهُ يَرَى لَهُ الْخَرُوفَ لِلْمُحْرَقَةِ يَا ابْنِي. فَذَهَبَا كِلاَهُمَا مَعًا. فَلَمَّا أَتَيَا إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي قَالَ لَهُ اللهُ، بَنَى هُنَاكَ إِبْرَاهِيمُ الْمَذْبَحَ وَرَتَّبَ الْحَطَبَ وَرَبَطَ إِسْحَاقَ ابْنَهُ وَوَضَعَهُ عَلَى الْمَذْبَحِ فَوْقَ الْحَطَبِ. ثُمَّ مَدَّ إِبْرَاهِيمُ يَدَهُ وَأَخَذَ السِّكِّينَ لِيَذْبَحَ ابْنَهُ. فَنَادَاهُ مَلاَكُ الرَّبِّ مِنَ السَّمَاءِ وَقَالَ: إِبْرَاهِيمُ! إِبْرَاهِيمُ!. فَقَالَ: هاأنذا. قَالَ: لاَ تَمُدَّ يَدَكَ إِلَى الْغُلاَمِ وَلاَ تَفْعَلْ بِهِ شَيْئًا، لأَنِّي الآنَ عَلِمْتُ أَنَّكَ خَائِفٌ اللهَ، فَلَمْ تُمْسِكِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ عَنِّي. رَفَعَ إِبْرَاهِيمُ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ وَإِذَا كَبْشٌ وَرَاءَهُ مُمْسَكًا فِي الْغَابَةِ بِقَرْنَيْهِ، فَذَهَبَ إِبْرَاهِيمُ وَأَخَذَ الْكَبْشَ وَأَصْعَدَهُ مُحْرَقَةً عِوَضًا عَنِ ابْنِهِ. فَدَعَا إِبْرَاهِيمُ اسْمَ ذلِكَ الْمَوْضِعِ: هْوَهْ يِرْاَهْ. حَتَّى إِنَّهُ يُقَالُ الْيَوْمَ: فِي جَبَلِ الرَّبِّ يُرَى. نَادَى مَلاَكُ الرَّبِّ إِبْرَاهِيمَ ثَانِيَةً مِنَ السَّمَاءِ وَقَالَ: بِذَاتِي أَقْسَمْتُ يَقُولُ الرَّبُّ، أَنِّي مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ فَعَلْتَ هذَا الأَمْرَ، وَلَمْ تُمْسِكِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ، أُبَارِكُكَ مُبَارَكَةً، وَأُكَثِّرُ نَسْلَكَ تَكْثِيرًا كَنُجُومِ السَّمَاءِ وَكَالرَّمْلِ الَّذِي عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ، وَيَرِثُ نَسْلُكَ بَابَ أَعْدَائِهِ، وَيَتَبَارَكُ فِي نَسْلِكَ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ، مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِي"

ولقد قص القرآن هذه الواقعة في سورة الصافات، إلا أنه قصّها بشكل مختلف ولم يذكر صراحة اسم الذبيح، وإنما قصّها بالشكل التالي: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ۝٩٨ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٩٩ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠٠ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۝١٠١ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٠٢ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۝١٠٣ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ ۝١٠٦ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۝١٠٧ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْـَٔاخِرِينَ ۝١٠٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١١٠ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ

﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾] سورة الصّافّات ,٩٨-١١٣ [

وأول ما يلحظه المقارن بين النصين هو اختلاف العرض بين الروايتين، فالرواية التوراتية جعلت الذبح أمراً مباشراً من الله على سبيل الامتحان ثم كُشف لإبراهيم لاحقاً أنه لم يكن على سبيل الجد! أما الرواية القرآنية فقالت أن الخليل كان يرى في المنام أنه يذبح ابنه، ولم يكن في المنام أي أمر بالذبح لذلك شاور ابنه ماذا يفعل، وفهم الابن أن في الرؤيا رسالة لذلك قال له: افعل ما تؤمر وأنه سيصبر عليه، وخرج الاثنان والابن يعلم أنه ذاهب للذبح وليس ظاناً أن هناك ذبيحة غيره، كما ادعت التوراة!

والناظر في الأدبيات الإسلامية يجد أنه ثمة خلاف حول تحديد الذبيح، إلا أن الرأي الذي عليه أكثر العلماء أنه إسماعيل، استناداً إلى النص القرآني وإلى ما جاء في التوراة نفسها، والدليل الأبرز الذي يستدلون به من التوراة هو نعتها للابن ب "وحيدك" ثلاث مرات، وطبقاً للتوراة فإن إسماعيل ظل الابن الوحيد لإبراهيم أربعة عشر عاماً، ثم رُزق الخليل بعد ذلك بإسحاق، ومن ثم فمن غير الممكن أن يكون إسحاق هو الابن الوحيد لإبراهيم، وعدم وجود ابن للشخص في المكان ليس مبرراً بحال لنعت الآخر بأنه الوحيد له!

والناظر في النص القرآني المذكور يجد أنه من البعيد جداً أن يكون الذبيح المقصود هو إسحاق، فالناظر يجد حديثاً عن بشارتين، بشارة بغلام حليم،[180] حدث معه كذا وكذا، وبشارة بإسحاق نبياً من الصالحين! والبشارة بالغلام الحليم كانت بعد ترك إبراهيم لقومه بعد محاولة حرقه، بينما كانت البشارة بإسحاق ويعقوب عند نزول الملائكة بالعذاب على قرية قوم لوط: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ

[180] وكذلك التوراة تحدثت عن بشارتين، إلا أنها جعلت البشارة الأولى لهاجر وليس لإبراهيم.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢﴾ [سورة هود ,٧٠-٧٢]، ومن ثم فإنه ثمة فاصل زمني كبير بين البشارتين، ومن غير المنطقي أن نجعلهما واحدة، وإنما كانت الأولى في الغلام الحليم، والذي لم يسمه الله وإنما سماه أبوه، أما إسحاق –ويعقوب– فقد سمّاهما الله من قبل أن يولدا!

وهذه البشارة من الأدلة على أن الذبيح لم يكن إسحاق، فهل سيختبر الله إبراهيم بذبح ابنه الذي قال له أنه سينجب يعقوب؟! إن هذه البشارة تعني أنه سيحيى حتى ينجب يعقوب! ومن ثم فإن هذا الاختبار معلوم النتائج مسبقاً بأنه لن يتم حتى تتحقق البشارة، بينما يكون ذا جدوى إذا كان مع ابن لم يُبشر بشأنه.

يضاف إلى هذا أنه من غير المنطقي أن أتكلم عن فردٍ غير مسمى "غلام حليم" ثم بعد ذلك عن معرف "إسحاق"، ثم يكون المعرَّف هو غير المسمى! إن المنطقي أن يكون هذا غير ذاك، بأن يأتي الترتيب بالعكس، فيذكر المعرَّف أولا ثم يعاد عليه بالضمير بعد ذلك، فيفهم أن هذا ذاك، أما أن يُعاد بالاسم الظاهر على غير المسمى فغير معهود ولا مفهوم!

يضاف إلى هذا المغايرة في النعت، ويعلق على هذا فتحي الزغبي فيقول: "الحجة الرابعة: وصف الذبيح بأنه غلام حليم ووصف إسحاق بأنه غلام عليم: استدل القائلون بأن الذبيح إسماعيل بما ورد في سورة الصافات، حيث وصف الله سبحانه الذبيح بأنه غلام حليم، وحينما ذكر البشارة بإسحاق وصف المبشر به بأنه غلام عليم في غير هذا الموضع .. وكذلك فإن إسماعيل قد وصف بالصبر في قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٨٥﴾ [سورة الأنبياء ,٨٥] وهذا أيضا وجه ثالث، فإنه قال في الذبيح: ﴿... قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٠٢﴾ [سورة الصّافّات ,١٠٢][181]" اهـ

---

[181] فتحي محمد الزغبي، قصة الذبيح عرض ونقد، ص.172–173!

والنقطة الأهم في هذا النعت هو أنه رد على كاتب التوراة الذي جعل إسماعيل إنساناً –أو "حماراً"– وحشياً!: "وَإِنَّهُ يَكُونُ إِنْسَاناً وَحْشِيّاً يَدُهُ عَلَى كُلٍّ وَاحِدٍ وَيَدُ كُلِّ وَاحِدٍ عَلَيْهِ وَأَمَامَ جَمِيعِ إِخْوَتِهِ يَسْكُنُ"، فبيّن الله أنه حليم وليس وحشياً.

يضاف إلى هذا إلى أن إسماعيل هو من كان يساعد أباه في رفع القواعد، فهو الذي ارتبط بمكة، وهنا الحديث عن بلوغ السعي، فيكون هذا مرجحاً لأنه هو الذي سيُذبح! والعجب أن بعض المفسرين جعلوا قوله "إني ذاهب إلى ربي سيهدين" دليلاً على أن الذبيح إسحاق، لأنهم جعلوه ذاهباً إلى الشام، مع أنه من الأولى أن يُفهم أنه ذاهب إلى مكة، تلك البلدة التي فيها "بيت" الله، وارتبطت بالله ودينه! وخاصة إذا وجد في النص التوراتي نفسه ما يشير إلى هذا، فإذا كان إبراهيم سيذبح ابنه في أرض المريا، والتي هي بالتأكيد "المروة"، فلماذا لا تكون البلدة هي ... مكة؟! والإشارات إلى أن الذبيح هو إسماعيل كثيرة نكتفي منها بالآية التي ذكرها الله بعد قوله: ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ١١٣﴾ [سورة الصّافّات, ١١٣]، وهي: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١١٤﴾ [سورة الصّافّات, ١١٤]، ففي هذا إشارة إلى أنه اكتمال منة الله على موسى وأخيه كما امتن على إسماعيل وأخيه.

وكما لم يسم القرآن الذبيح لم يسم الذِبح واكتفى بنعته بالعظيم، وقالت التوراة أنه كبش، واتخذه المسيحيون رمزا لإلههم! وتبعهم المسلمون في هذا فقالوا أن الذِبح كان كبشاً! بل وجعله بعضهم هو الكبش الذي قدمه هابيل! ولا مانع أن يكون الذِبح كبشاً ولكن هذا ليس حتماً، فمن المحتمل أن يكون ناقة أو حتى .. طيرا!

وبالقول أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام ينهار ركن جديد من أركان الخرافة التوراتية المختلقة، فلا بنو إسرائيل من نسل يعقوب، ولا الذبيح هو إسحاق، ومن ثم فلا حقوق ولا وعود ربانية لهؤلاء المتبعين لهم.

قصة إسماعيل في التراث الإسلامي

من أكبر أسباب رفض المسلمين كون الذبيح إسحاق هو ما جاء في الروايات وما جاء عن الإخباريين، والذين قالوا أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام! وأبرز هذه الروايات وأكثرها تفصيلاً رواية البخاري عن ابن عباس، والتي تعد المرجع الرئيس في تصور قصة إبراهيم مع إسماعيل وأمه هاجر من المنظور العربي .. الإسلامي!

وقبل أن نعرض الرواية للقارئ ننبهه إلى أن الرواية من قول ابن عباس وليس فيها مرفوعٌ إلى النبي إلا بعض الجمل اليسيرة! وبسبب هذا التداخل تعومل مع الرواية بأكملها كأنها من قول النبي، مع أنها من قول ابن عباس والذي أخذها لا محالة من غيره من الصحابة أو من الإخباريين! والرواية تقول: "قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطَقَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لَتُعَفِّيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ، عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: أَاللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَتْ: إِذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا. ثُمَّ رَجَعَتْ، فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُ اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: رَبِّ "إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ... حَتَّى بَلَغَ: يَشْكُرُونَ" وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى أَوْ قَالَ يَتَلَبَّطُ فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتْ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الْأَرْضِ يَلِيهَا فَقَامَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ الْوَادِيَ تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَهَبَطَتْ مِنْ الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْوَادِيَ رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الْإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزَتْ الْوَادِيَ ثُمَّ أَتَتْ الْمَرْوَةَ فَقَامَتْ عَلَيْهَا

وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا. فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا، فَقَالَتْ: صَهٍ! تُرِيدُ نَفْسَهَا ثُمَّ تَسَمَّعَتْ فَسَمِعَتْ أَيْضًا فَقَالَتْ: قَدْ أَسْمَعْتَ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غِوَاثٌ. فَإِذَا هِيَ بِالْمَلَكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ أَوْ قَالَ بِجَنَاحِهِ حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنْ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا تَغْرِفُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ أَوْ قَالَ لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنْ الْمَاءِ لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا. قَالَ: فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا. فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ: لَا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ فَإِنَّ هَا هُنَا بَيْتَ اللَّهِ يَبْنِي هَذَا الْغُلَامُ وَأَبُوهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَهْلَهُ. وَكَانَ الْبَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنْ الْأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ تَأْتِيهِ السُّيُولُ فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ. فَكَانَتْ كَذَلِكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ أَوْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ جُرْهُمَ مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ، فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَى مَاءٍ لَعَهْدُنَا بِهَذَا الْوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ. فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا أَوْ جَرِيَّيْنِ فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ فَرَجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ بِالْمَاءِ فَأَقْبَلُوا –قَالَ: وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ الْمَاءِ– فَقَالُوا: أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكِ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ وَلَكِنْ لَا حَقَّ لَكُمْ فِي الْمَاءِ. قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُحِبُّ الْإِنْسَ. فَنَزَلُوا وَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ فَنَزَلُوا مَعَهُمْ حَتَّى إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْهُمْ وَشَبَّ الْغُلَامُ وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ وَأَنْفَسَهُمْ وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوَّجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ..." اهـ

والناظر في الأدبيات الإسلامية يجد أنها تجعل سارة هي السبب في إخراج إسماعيل وأمه، بسبب غيرتها من هاجر لمّا ولدت إسماعيل، بينما لم تلد هي! إلا أنه من غير المنطقي أن تطلب المرأة إلى زوجها أن يطرد ابنه الوحيد الرضيع، الذي أنجبه هكذا على الكبر بدون سبب، بينما كانت التوراة أكثر منطقية في هذه النقطة، فجعلت الإخراج بعد أن كبر إسماعيل وصار أكبر من أربعة عشر عاماً وليس طفلاً رضيعاً! فجاء في سفر التكوين: "21: 8 فكبر الولد وفطم وصنع إبراهيم وليمة عظيمة يوم

فطام إسحق. 21: 9 ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم يمزح. 21: 10 فقالت لإبراهيم: اطرد هذه الجارية وابنها لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحق. 21: 11 فقبح الكلام جدا في عيني إبراهيم لسبب ابنه. 21: 12 فقال الله لإبراهيم: لا يقبح في عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك، *في كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها* لأنه بإسحق يدعى لك نسل. 21:13 وابن الجارية أيضا سأجعله أمة لأنه نسلك" اهـ

والملاحظ أن الرواية وافقت التوراة في القول بأن الله أمر إبراهيم بإخراج هاجر وولدها، وفي هذا يقول خضر شايب: "والحقيقة أننا إذا نظرنا في باقي النص تبين لنا واضحاً السبب الحقيق الذي يكمن وراء (الاستجابة) لرغبة سارة، إذ نجده يقرر أنه: أمر من الله عز وجل. وهو العنصر الذي لم ينتبه اليهود إلى الحكمة فيه، فحاولوا إبعاد إسماعيل من النبوة كلها، كما أبعده والده عنه كما تنقل كتاباتهم. فهناك إذن (طلب) من سارة –وهو أمر نتقبله إقراراً منا لدرجة تأثير العواطف الإنسانية على تصور البشر للأمور، ولكننا مع هذا لا نقرره– وهناك (رفض) من إبراهيم عليه السلام، بدا في (غضبه) الذي عبرت عنه التوراة بقولها "فقبح الكلام جدا في عين إبراهيم" وهناك أيضا (الأمر الإلهي) وهو السبب القاهر الذي خضع له أبو الأنبياء –كما خضع من قبل لأمر الذبح– رغم حبه الشديد لولده إسماعيل، طاعةً منه –كما هي عادته– لله عز وجل، وتحقيقا لمشيئته.

ويتبين من النص السابق أن (سن) إبعاد إسماعيل تنفيذاً من إبراهيم عليه السلام للأمر الرباني كان أربعة عشر عاما على أقل تقدير، وهو سنه عند ميلاد إسحاق، يدل على ذلك بيان سارة سبب طلبها، والذي يتمثل في رفضها أن (يرث) ابن الجارية مع ابنها، وهذا يعني أن إسحاق كان موجودا عند الطلب. ولما كان الفارق بين ميلاد الأخوين أربعة عشر عاماً، فإننا جعلنا ذلك هو سن إسماعيل عند تنفيذ إبراهيم للإبعاد. وهذا يعني أن سنه من الممكن جداً أن يكون أكبر بسنوات، بل هو فعلاً كذلك، كما هو

مستفاد من ذكر التوراة أن ما حرك نفس سارة لأن تطلب إبعاد إسماعيل هو أنها قد وجدته (يسخر) من ابنها.[182]" اهـ

وكما رأينا فالقول بأن إخراج هاجر وإسماعيل شاب أكثر منطقية من القول بأنه ذُهب به هناك وهو طفل رضيع! ناهيك عن أن هذا أو ذاك لا يمكن أن يكون بحال هو المقصود بما قصه الرب على لسان الخليل: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [سورة إبراهيم ,٣٧]

فالخليل قال أنه "أسكن"، وترْكُ امرأة ورضيع في مكان قفر ليس بإسكان بحال! ناهيك عن أن الخليل قال: "من ذريتي" ولم يقل: "من أهلي!" وهذا يعني أن الخليل يتحدث عن إسكان بعض ذريته في البلد الحرام! ولو كانت هاجر زوجه موجودة لقال: "من أهلي"! ثم إنه تركهم عن البيت الحرام وليس عند مكان البيت، وهذا يعني أن البيت موجود فعلاً، وهذا يعني أنه بعد بناء البيت، والذي شارك فيه إسماعيل! يضاف إلى هذا أن الخليل يدعو الله أن يقيموا الصلاة ومن ثم يجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم! أي أن إتيان الناس لهم مترتب على إقامتهم الصلاة –إقامتهم الشعائر والحفاظ على الدين– ويدعوا لهم بالرزق من الثمرات! فهل هذا حال من يترك ابنه الرضيع وحيدا؟! يدعوا أن يقيموا الصلاة! وأن تهوي إليهم الأفئدة! لو كان الدعاء عن هذا الموقف لكان من الأولى أن يقال: ربنا إني أسكنت من بَني رضيعا بواد غير ذي بشر ولا ماء! فاجعل لهم ماء ومن يسكن معهم! وتأمل السياق الذي جاءت فيه الآية: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٦ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [سورة

[182] خضر شايب، قصة الذبيح بين الروايات الكتابية والإسلامية، ص. 120–121.

إبراهيم ,٣٥-٣٧]، فالخليل يدعو للبلد، أي أنها موجودة وهو يدعوا لها بالأمن، ولا بلد بدون أهل!! وهو يخشى الانتكاسة إلى عبادة الأصنام، لذا يدعو الله أن يجنبه وبنيه أن يعبدوا الأصنام.

إذا فالراجح أن إسماعيل أُسكن مكة وهو كبير، وعاش فيها هو وبنوه قائمين على الكعبة، محافظين على الدين وإقامة شعائره، أما قصة الرضيع فبعيدة كل البعد ولا دليل عليها في القرآن.

هل كان يونس في نينوى؟

كما ارتبط سيدنا يونس بالحوت، اشتهر كذلك بين المسلمين بأنه بُعث إلى نينوى، وذلك لوجود رواية ضعيفة سنداً في سيرة ابن هشام قالت أن النبي لما كان في الطائف وبعد أن آذاه أهلها، سأل عدّاس، الذي قال له أنه من نينوى، إذا كان من بلد أخيه يونس بن متى. وما جاء في هذه الرواية التي ضعّفها الشيخ الألباني هو نفس ما جاء في التوراة، والتي قالت أن الله بعث يونس إلى أهل نينوى![183]

ولم يقل القرآن من أين كان يونس وإلى أي قوم أُرسل، إلا أنه قال أنه أُرسل إلى قومه: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ ... ﴿٩٨﴾﴾ [سورة يونس ,٩٨]، وقالت التوراة بخلاف ذلك، فقالت *أنه كان من قرية جت حافر بالجليل بفلسطين! وأمره الله بالذهاب إلى أهل نينوى بالعراق (بالقرب من الموصل)، فما كان من يونس إلا أن فكر في الهرب إلى أسبانيا* !!!

[183] ليس هذا المبحث من بنات أفكاري وإنما أصل فكرته العامة مأخوذة من مقال في منتدى الفتن، لكاتب يعرف نفسه ب shalmansar، إلا أنني وصلت لنتيجة مخالفة لما وصل إليها، وإن كانت مقاربة له.

فنجد سفر يونان يقول: "1-وصار قول الرب إلى يونان بن أمتّاي قائلا 2- قم اذهب إلى نينوى المدينة العظيمة وناد عليها لأنه قد صعد شرّهم أمامي 3- فقام يونان ليهرب إلى ترشيش من وجه الرب .."

ونتساءل: لماذا يبعث الله رسولا إلى قومٍ ليسوا قومه، بعيدين عنه هذا البعد، ناهيك عن أنهم يتكلمون بلسان غير لسانه؟! والله لا يرسل رسولاً إلا بلسان قومه؟! فلماذا لم يرسل إليهم رسولاً منهم أو من جوارهم، و"انتدب" يونس من هذه البلاد البعيدة ليرسله إليهم؟! ولماذا هرب يونس بمجرد التكليف بالرسالة؟!

إن القرآن قال أن سيدنا يونس أبق بعد مباشرة الرسالة وليس بمجرد التكليف، وهو ذهب مغاضبا أي أنه غضب من قومه وقومه غضبوا منه، ومن ثم أبق إلى الفلك المشحون. وليست هذه الاعتراضات مانعاً لأن يكون يونس أُرسل إلى قرية اسمها نينوى، فربما يكون أرسل إلى نينوى فعلاً، ولكن السؤال: هل نينوى الذي أُرسل إليها يونس عليه السلام هي نفسها نينوى العراق، أم من المحتمل أن تكون نينوى أخرى؟![184]

إن النقطة التي يجب علينا الانتباه إليها هي أن مدينة قوم يونس كانت مدينة ساحلية تقع على بحر أو محيط، ولذلك عندما فكّر يونس في الإباق، أبق إلى الفلك المشحون! وهذا الفلك كان في بحر به حيتان يمكنها أن تأكل إنسان! ومن ثم فإن هذا يعني أن مدينة يونس كانت إمّا على البحر الأحمر أو المحيط الهندي أو البحر المتوسط! ومواطن الأنبياء في القرآن كانت إما بالقرب من البحر الأحمر أو المحيط الهندي، ومن ثم فإن هذا مرجح لأحدهما. يضاف إلى هذا أن مضيق باب المندب كان وإلى فترة قريبة مشهور بمصائد الحيتان.

---

[184] ليس هذا بالغريب، ففي المجتمعات الإنسانية كلها ظاهرة التيمن، فبعض الجماعات البشرية عندما تنتقل إلى مكان تسميه بأسماء المناطق التي كانت فيها سابقاً، وهذا يبرر وجود عدد من المدن تحمل نفس الاسم في مختلف أنحاء العالم. وليس هذا الاحتمال بالجديد فلقد رأينا الإمام ابن كثير في حديثه عن أصحاب القرية، في معرض تفنيده أن تكون القرية هي أنطاكية، طرح احتمالية أن تكون هناك قرية أخرى بهذا الاسم وأرسل إليها المرسلون.

وربما كان يونس وقومه في جزيرة من الجزر، ولذلك أبق إلى الفلك المشحون ولم يلجأ لأي وسيلة أخرى، لأن هذه هي الوسيلة الوحيدة المتاحة للخروج منها. وهذه النقاط كفيلة برفض التصور التوراتي، الذي يسعى لإيجاد أقدام له في العراق لبسط سلطانه على منطقة الشام والعراق.

فإذا نظرنا في تراثنا العربي وجدنا أن هناك من قال أنه كان باليمن، فنجد ابن كثير يقول في تفسيره لقوله: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ١٤٥﴾ [سورة الصّافّات ,١٤٥] "ولهذا قال تعالى: (فَنَبَذْنَاهُ) أي: ألقيناه (بِالْعَرَاءِ) قال ابن عباس وغيره: وهي الأرض التي ليس بها نبت ولا بناء. قيل: على جانب دجلة. وقيل: بأرض اليمن. فالله أعلم.[185]" ا.هـ

والقول بأنه كان على جانب دجلة مأخوذ من التصور التوراتي، إلا أنه مرفوض لا محالة، لأنه من غير المعقول أن يدخل حوت قادر على حمل إنسان في فمه في أي نهر من الأنهار! ناهيك عن أن جانب دجلة لا يعد عراءً! أما القول بأنه كان في أرض اليمن فهو مأخوذ من التراث العربي المتواري، الذي كان المفسرون يذكرونه على استحياء مسبوقا بكلمة "قيل"! ولا مانع من قبوله، فكما قلنا، فالمنطقة منطقة حيتان، ناهيك عن أن البحر محيط يمكن أن يتواجد فيه الحيتان، ويونس نُبذ في منطقة عراء من شاطئه.

ونعود فنقول: نحن لا نجزم بهذا القول، إلا أنه مما يتفق مع القرآن ومن ثم يمكن قبوله، أما التصور التوراتي فهو مرفوض لا محالة لمخالفته القرآن! فلم يكن يونس يوماً في شمال العراق وإنما كان في بلدة ساحلية .. والله أعلم!

[185] إسماعيل بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، الجزء السابع، ص.40.

ذو القرنين .. وسدّه!

ذو القرنين شخصية قرآنية لفها الغموض، احتار المفسرون في تحديدها وقلّبوا صفحات التاريخ علّهم يجدون من يمكن أن يكون ذو القرنين، فقدّموا اقتراحات واحتمالات لملوك، يمكن أن يكونوا ذو القرنين، وأشهر الأقوال التي طُرحت بشأنه أنه الإسكندر المقدوني، وذلك لكون هذه الرأي من أقدم الأقوال التي دُونت بشأنه، فلقد ذكره ابن هشام في سيرته، التي اختصر فيها سيرة ابن إسحاق. إلا أن هذا القول –وإن كان قد انتصر له بعض العلماء!– رفضه أكثر العلماء لأن سيرة الإسكندر المقدوني الوثني لا تتفق بحال مع سيرة ذلك الملك الصالح، الذي تلا الله على العرب منه ذكرا، ومن ثم رضي أكثر الباحثين بعدم تحديد شخصية ذي القرنين، والاكتفاء بأنه ملك صالح تلا الله علينا منه ذكراً، وعلينا استخراج العبرة والعظة من هذا الذكر.

ولم يُذكر ذو القرنين في القرآن إلا في موضع واحد في سورة الكهف، هو قوله تعالى:

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا (٨٤) فَأَتۡبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا (٨٧) وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا (٨٨) ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا (٩٠) كَذَٰلِكَۖ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا (٩١) ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا (٩٣) قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا (٩٥) ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ

قِطۡرٗا ۝٩٦ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ۝٩٧ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ۝٩٨﴾ [سورة الكهف, ٨٣-٩٨]

ولن نعرض للتفسيرات الخرافية لمطلع الشمس ومغربها، لأن هناك الكثير قد نقدوها وفنّدوها، وكذلك لن نعرض للتفسيرات السطحية التي جعلت: ﴿... قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ۝٩٣﴾ [سورة الكهف, ٩٣] بمعنى أنهم قومٌ لا يعرفون غير لغتهم[186]، وإنما سنعرض للتفسير الحديث، والذي لاقى رواجاً كبيرا وقبولاً بين المسلمين، والذي أسقط شخصية ذي القرنين على الملك الفارسي: قورش، ذلك الفاتح العظيم الذي شرّق وغرّب، وبنى سداً عظيما!

أول من قال بهذا الرأي في عصرنا الحديث هو عالم الهند محيي الدين أحمد بن خير الدين، والمشهور بأبي الكلام آزاد، وتبعه في القول بهذا القول غيره، لذا ننظر في الأدلة المقدمة لهذا الرأي، هل تتفق مع القرآن، مما يعني إمكانية قبوله، أم أن علينا البحث عن غيره.

أول ما يستدل به القائلون بهذا الرأي هو أن اليهود سألوا النبي عن ذي القرنين لتعجيزه، لأنهم يعلمون أن رسول الله لا يعلم من هو ذي القرنين، ومن ثم فهو معروف لليهود. ولقد بيّنا سابقاً أن الرواية المتعلقة بأصحاب الكهف وذي القرنين مخالفة للقرآن الذي قال أن نبأ أصحاب الكهف كان من المعلوم للعرب! وكذلك فإن طريقة رد القرآن على سؤال العرب عن ذي القرنين تبين أنه مما لديهم به علم، وأن القرآن ما جاء إلا ليتلوا عليهم ذكرا، فهو يُذكِّر، لا يُعرف، فهو يتلو عليهم من نبأه ما يخدم

[186] تسبب القائلون بهذا القول في ظهور تناقض واختلاف في النص، فكيف يكون القوم لا يعرفون إلا لغتهم وهم يخاطبون ذا القرنين وهو يخاطبهم؟! ثم حاولوا إيجاد توفيق للإشكالية التي أوجدوها! على الرغم من أنه لو كان المقصود هو اللغة لقيل: لا يكادون يعرفون لسانا، أو: لا يعلمون غير لسانهم! إن الحديث هنا عن بلادة وغباء هؤلاء القوم، وأنهم لا يكادون يفقهون ما يخاطبون به! ولست أدري لماذا لم يفهموا الآية مثل قوله تعالى: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ۝٧٨﴾ [سورة النساء, ٧٨]، فالله يعيب عليهم بلادتهم، وكان القوم الذين وصل إليهم ذو القرنين كذلك، وليس أنهم لا يعرفون لساناً غير لسانهم!

أغراض السورة ويؤيد موضوعها. ومن ثم فلا علاقة لليهود بذي القرنين وإنما العرب هم من سألوا الرسول عنه!

ولا يعني أن العرب هم من سألوا عن ذي القرنين أنه يجب استبعاد الشخصية التوراتية، التي وردت في سفر دانيال، والتي أُسقط عليها رؤيا النبي دانيال: "فرفعت عيني ورأيت وإذا بكبش واقف عند النهر وله قرنان والقرنان عاليان والواحد أعلى من الأخر. والأعلى طالع أخيرا. رأيت الكبش ينطح غربا وشمالا وجنوبا فلم يقف حيوان قدامه ولا منقذ من يده (...) أما الكبش الذي رأيته ذا القرنين فهو ملوك مادي وفارس" اهـ

فإنه يبقى احتمالية قائمة، ومن ثم فعلينا النظر في النص القرآني لنبصر هل يمكن قبوله أم لا؟! الناظر في أقوال أصحاب القول بأنه قورش، نجدهم يقولون أن القرآن لم يقص على اليهود ما يعرفونه عنه، فهم يعرفونه لأنهم التقوا به عندما كانوا أسرى في بابل، وحررهم وأعادهم إلى القدس وساعدهم في بناء معبدهم، إلا أنهم لا يعرفون هذا الجزء المتعلق برحلاته إلى الشرق! وهذا القول يعني أنه لا فائدة في رد القرآن على اليهود – إذا كان يخاطبهم أصلا!– ناهيك عن هذا القول بعيد لأن الله قال أنه سيتلو منه ذكرا، وهذا يعني أنه تذكير وليس تعريف!

الناظر في النص القرآني يجد أن الله تعالى أشار إلى أنه أوحي إليه: ﴿... وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًاۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾ [سورة الكهف, ٨٦]، فهل قورش كان مسلماً؟! المستقرأ للتاريخ الفارسي يقول أنه من الممكن أن يكون زرادشت نبياً مسلماً، بينما لا يمكن أن يكون قورش كذلك! ومن ثم فإن أفضل ردِ على أصحاب هذا الرأي هو سؤالهم: ما هي نقاط التقاطع بين ذي القرنين القرآني وبين قورش؟! وتأتي الإجابة بأنه بغض النظر عن التوراة، لا نقاط التقاء إلا وجود سد حديدي، بناه قورش على ممر في سلسلة جبال القوقاز بين بحر الخزر "قزوين" وبين البحر الأسود، وهو الذي قال أبو الكلام آزاد ومن تبعه بأنه سد ذي القرنين، وما عدا ذلك فليس ثمة تقاطعات بين الشخصيتين.

قد يرى القارئ أن هذه النقطة كافية، فليس ثمة سد حديدي غيره، ومن ثم يمكننا القبول بأنه هو. فنرد بأن هذا ليس دليلاً كافياً بحال لإسقاط الشخصية القرآنية على قورش، وخير ردٍ نقدمه له هو ما قاله الشيخ رشيد رضا في رده على سؤال بهذا الشأن، حيث قال: "سئلَنا هذا السؤال غيرُ واحد من مصر وروسيا وغيرهما من الأقطار؛ ونقول قبل كل شيء: إن دعوى معرفة جميع بقاع الأرض باطلةٌ؛ فإن بقعة كل من القُطْبَيْنِ لا سِيَّمَا القطب الجنوبي لا تزال مجهولةً. وقد استدل بعض العلماء على أن السدّ بني في جهة أحد القطبين بذكر بلوغ ذي القرنين إلى موضعه بعد بلوغِ مغرب الشمس ومطلعها، وليس ذلك إلا جهة الشمال أو جهة الجنوب. (...) ثم إن ما بُني على هذه الدعوى باطلٌ، وإنْ فرضنا أنها هي مسلَّمة، وذلك أنه يوجد في الأرض موضعان معروفان يحتمل أن السدَّ كان فيهما: أحدهما: الموضع الذي يُسمّى الآن (دربند) بروسيا، ومعناه: السد، وفيه موضع يسمى (دمرقبو) أي: باب الحديد، وهو أثر سد قديم بين جَبَلَيْنِ يُقال إنه من صنع بعض ملوك الفرس، ويحتمل أن يكون موضع السد. (...) وبيان أن وراءه قبيلتين اسم إحداهما: (آقوق) واسم الثانية: (ماقوق) وتعريب هذين اللفظين بيأجوج ومأجوج ظاهِرٌ جَلِيٌّ. وأمّا الموضع الثاني، *فإننا نترجم ما جاء فيه عن بعض التواريخ الفارسية على غرابته* وهو: في الشمال الشرقي من مدينة صنعاء التي هي عاصمة اليمن بعشرين مرحلة (مائة وبضعة فراسخَ) مدينة قديمة تُسَمّى الطُّوَيْلة، وفي شرقي هذه المدينة وادٍ عميق جدًّا، يحيط به من ثلاث جهات جبال شامخة منتصبة، ليس فيها مسالك معبَّدة، فالمتوغل فيها على خطر السقوط والهويّ، وفي الجهة الرابعة منه سهوب فيحاء، يستطرق منها إلى الوادي ومنه إليها، وفجوة الوادي من هذه الجهة تبلغ خمسة آلاف ذراع فارسي (الذراع الفارسي متر وأربعة سنتيمترات) وفي هذه الفجوة سدّ صناعي يمتد من أحد صدفي الجبلين إلى الآخر، وهو من زُبر الحديد المتساوية المقدار، فطول هذا السد خمسة آلاف ذراع، فأما سمكه فخمسة عشَر شِبْرًا، وأما ارتفاعه فيختلف باختلاف انخفاض أساسه وارتفاعه؛ لأن أرضه غير مستوية. وفي القرن العاشر للهجرة لَمّا فتح سنان باشا القائد العثماني اليمن وصل إلى قلعة تسمى تسام، واقعة بجوار هذا السدّ، فأمر بعدَّ زبر الحديد المبني بها السد،

فقصارى ما تيسر لهم عده منها تسعة آلاف، وفي طرفي هذا السد قلعتان عظيمتان محكمتا البناء قديمتان، تسمى إحداهما قلعة العرصة والثانية قلعة الباحثة[187]" اهـ

وكما رأينا فلقد ذكر الشيخ رشيد رضا رداً رائعاً وهو أنه من الممكن وجوده في بقعة لمّا تكتشف بعد، أو تغيرت ملامحها الجغرافية، وهو احتمال قوي. والأهم من ذلك أنه ذكر وجود سد آخر في اليمن له مواصفات السد المذكور في القرآن، ومن ثم فلا مرجح لجعل سد قورش أولى في القبول من السد الموجود في اليمن، والذي لا تزال آثاره باقية حتى الآن، والذي رجح الشيخ محمد راغب الطناح في كتابه –الذي لم يتسن لنا الإطلاع عليه–: "ذو القرنين وسد الصين .. من هو وأين هو" أن يكون هو سد ذي القرنين. وبهذا يصبح أمام الباحث سدين: سد لقورش الفارسي، وسد في اليمن، فهل من مرجح لأحدهما؟!

نجد أن الاسم القرآني "ذو القرنين" مرجح قوي لكونه اليمني، فملوك اليمن هم الذين اشتهروا في التاريخ القديم بتلقيبهم ب "ذو" كذا، واشتهرت اليمن بالأذواء مثل ذو نواس وذو المنار وذو يزن وذو الإذعار وغيرهم. والنقطة الأهم أنه ثمة وجود ل "ذو القرنين" في التراث العربي القديم، وليس مجرد وجود "ذو" في ألقاب حكام اليمن! فنجد أنه ملكان يمنيان لُقبا بهذا اللقب، هما: الهميسع بن عمرو بن عريب بن زيد، والصعب بن ذي مرائد بن الحارث الرائش بن حمير بن سبأ. وفي هذا يقول الإمام الهمداني: "فأولد عريب عمراً، فأولد عمرو زيداً والهَمَيْسع *وهو ذو القرنين السّيار*، ويكنى بالصعب بقول أهل السجل وبني عريب بن زيد بن كهلان. (...) وأولد الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان ربيعة بن الخيار والحارث الأعلى، فأولد الحارث الأعلى مالكاً، فأولد مالك الصعب ذا القرنين السيّار، بقول همدان. والأزد وأنمار بن أراشة وآل عريب ومن نحا نحوهم يقولون: هو الهيمسع بن عمرو بن عريب بن زيد بن

[187] محمد رشيد رضا، مجلة المنار، المجلد الحادي عشر، عدد ربيع الآخر سنة 1326 هـ، ص.274.

كهلان.[188]" ا.هـ ولا يكتفي الهمداني بهذا وإنما يورد بعض أبيات شعر لحسا بن ثابت الأنصاري تؤكد هذا التوجه، تقول:

"فنحن بنو قحطان والملك والعلا ... ومنا نبي الله هُود الأخاير

وإدريس ما إن كان في الناس مثله ... ولا مثل ذي القرنين ابنا عابر

وصالح والمرحوم يونس بعدما ... ألات به حوتٌ بأخلب زاخر

شعيب وإلياس وذو الكفل كلهم ... يمانيون قد فازوا بطيب السرائر[189]"

ناهيك عن وجود قبر لذي القرنين في اليمن لا يزال موجودا حتى الآن (وإن كانت المنطقة أصبحت تبعاً للمملكة العربية السعودية)، وفي هذا يقول الهمداني: "وعسير يمانية تنزّرت، ودخلت في عنز فأوطان عسير إلى رأس تيّة وهي عقبة من أشراف تهامة، وهي أبها وبها قبر ذي القرنين فيما يقال عثر عليه على رأس ثلاثمئة من تاريخ الهجرة.[190]" اهـ

إذا فليس ثمة مانع من أن نفهم الآيات كما هي، من أن ذي القرنين كان حاكماً من حكام اليمن القدامى الملقبين ب "ذو"، وهذا مما يعرفه العرب لا محالة، وهو مرجح إضافي لعروبته. ونحن لا نجزم إذا كان نبياً، فربما كان عبداً صالحاً مثل العبد الذي قابله موسى، وربما كان نبياً، فليست مخاطبته ﴿... قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾ [سورة الكهف ,٨٦] دليلاً جازما على النبوة، وخاصة أن الله تحدث عن التمكين في الأرض ولم يذكر له رسالة، والله أعلم. إلا أننا نستبعد ما قاله بعضهم أن ذا القرنين هو سيدنا سليمان عليه السلام، لاختلاف سماتهما.

[188] الحسن بن أحمد الهمداني، الإكليل من أنساب اليمن وأخبار حمير، الجزء الأول، ص.78.

[189] المرجع السابق، ص. 96.

[190] الحسن بن أحمد الهمداني، صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، ص. 230.

إذاً فذو القرنين ملك عربي يمني صالح –وليس فارسيا–، تجول في الأرض، وذكر الله من نبأه أنه بلغ مغرب الشمس وبلغ مطلع الشمس فوجدها تطلع على قوم لم يجعل الله لهم من دونها ستراً، فكانوا في صحراء مستوية حيث لا جبال تقيهم الشمس ولا أشجار تظللهم، ثم وصل إلى قوم ذوي بلادة طلبوا منه بناء السد فبنى لهم سداً ردما، ليحميهم من هجمات يأجوج ومأجوج، فكان خير مثال للملك المؤمن الذي يسخر ما مكّنه الله فيه للدعوة إلى الله ولصالح عباد الله، وليس ليستولي على خيراتهم ويستعبدهم، فيدعو إلى الله بالعمل قبل القول.

وقد يرفض القارئ هذا القول لا لشيء إلا لأنه يهدم التصورات الخرافية الموجودة لديه عن يأجوج ومأجوج، لأنه يقول أن يأجوج ومأجوج قبائل بشرية مفسدة، ليس أكثر، وهو ينظر إليهم باعتبارهم جنس عجيب، ويرى أنهم سيستمرون على هذه الحالة من الهمجية حتى آخر الزمان، ثم ينهار السد ويخرجون فيفسدون في الأرض ويدمرون دماراً عريضا! ويَعُد خروجهم ونزول المسيح من أشراط الساعة!

إلا أن هذه التصورات لا مستند لها في القرآن، كما أنها تخالفه وتخالف أصول الدين مخالفة كبيرة، وقد بيّنا هذا في غير هذا الكتاب بتفصيل كبير مسهب[191]، أما ما قاله القرآن فلم يزد عن كونهم قبائل مفسدة، ويظهر أنهم من غير سكان المنطقة وإنما كانوا يغيرون عليها فيفسدون، ثم يعودون أدراجهم مرة أخرى إلى أوطانهم! ولو كانوا جيران هؤلاء القوم البُلداء لما تركوا ذا القرنين يبني السد، كما أن السدود لا تصلح كعائق بين جيران، لأنهم يمكنهم عبر الزمان أن يوفروا ما يمكنهم به تجاوز السد وارتقاءه، بينما يصلح لسد هجمات أقوام مغيرة ليسوا من أبناء البلاد، وأنا أميل –

[191] يمكن للقارئ مراجعة كتابنا "عقائد الإسلاميين بين وحدة المنهج وتباين الأحكام" والذي بيّنا فيه هذا بتفصيل كبير مسهب.

استناداً إلى اسمهم- أنهم ربما يكونون قبائل إفريقية بدائية![192] وربما يكونون غير ذلك، والله الخبير العليم وحده أعلم.

أصحاب الكهف .. ونُوام أفسس

عرضنا سابقا لأصحاب الكهف، وبيّنا أن التصورات المقدَّمة حولها لا تنبع من النص القرآني، ونعرض لهم مجدداً هنا لنناقش الرأي الذي يقول أن محمد أخذ قصة أصحاب الكهف من قصة نُوام أفسس، أو النيام السبعة، كما هي مشهورة في الأدبيات المسيحية. فما هي قصة نوام أفسس وأيهما أُخذ من الآخر؟!

الناظر في الأدبيات المسيحية يجد أكثر من قصة تقدم نفس المحتوى مع اختلاف في التفاصيل، فسمة رواية للقصة عند الأقباط ورواية عند الكلدان ورواية عند الروم الأرثوذكس ورواية عند السريانيين ... الخ.

وظهرت هذه القصة في الأدبيات المسيحية لأول مرة في القرن الخامس الميلادي على يد القس "جيمس الساروجي"-أسقف سوري-، فما هو ملخصها؟! ملخص هذه القصة أن الإمبراطور الروماني داكيوس كان يضطهد المسيحيين بشدة ويسومهم سوء العذاب، فهرب سبعة شبان من أبناء مدينة أفسس (التركية)، واختبئوا في كهف قريب من تلك المدينة، وسُد عليهم الكهف ليموتوا، فناموا قرابة مائتي عام، 249 و251م، ولم يخرجوا منه ثانية إلا في زمان الملك ثيودوسيوس الثاني. فلما استيقظوا وجدوا أن المسيحية قد انتشرت انتشاراً عظيماً، فعجبوا لذلك، لأنهم لما ناموا كان الناس

[192] الرأي المنتشر والسائد بشأنهم أنهم قبائل تركية أو آسيوية وأنهم من نسل يافث بن نوح، إلا أنه مأخوذ من التوراة، وقال به الإخباريون الإسلاميون، وهو قول لا دليل عليه! والناظر في اسمهم يجد أن له علاقة بالنار وذلك مثل قولنا: أجت النار أجيجاً إذا التهبت، أو من الأجاج وهو الماء الشديد الملوحة، ومن ثم فمن الأولى القول أنهم قبائل تنتمي إلى مناطق شديدة الحرارة، وليسوا في مناطق باردة.

يعتبرون الصليب علامة احتقار وعار، ولما استيقظوا رأوا أن جميع رعايا المملكة الرومانية قد دانوا بالمسيحية!

وللقصة تفاصيل أخرى يعرفها المسلمون والمسيحيون سواء، لأن السادة المفسرين قدّموا هذه القصة كتفسير للآيات! على الرغم من أنه من غير الممكن بأي حال من الأحوال أن يكون المعنيين في سورة الكهف هم نُوام أفسس أو أي مسيحيين آخرين على وجه الخصوص! وهذه هي آفة فهم القرآن كآيات متقطعات، والذي قد يؤدي في نهاية المطاف إلى جعل الآيات في عكس ما جاءت لأجله، وذكرهم القصة المسيحية خير مثال لهذا! فإذا نظرنا في أول سورة الكهف وجدنا الرب يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ① قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ② مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ③ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ④ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِـَٔابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ⑤ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ⑥ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ⑦ وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ⑧ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا ⑨﴾ [سورة الكهف, ١-٩]

فالسورة كما رأينا تبدأ بالقول أن الله أنزل الكتاب على عبده —أي أن محمد عبد وليس إله ولا ابن إله، وتُختم السورة بأمر النبي بالقول أنه بشر يوحى إليه— للإنذار والتبشير، فهو يبشر المؤمنين وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً (بجميع طوائفهم وأبرزهم المسيحيون)، وأنها ما أكبرها من كلمة وأنهم كاذبون في قولهم هذا، وتقول للنبي ألا يهلك نفسه أسفا إن لم يؤمنوا وأن الله يبلوهم.

فهل من المعقول والمقبول أن يذكر محمد (باعتباره مؤلف القرآن!) بعد ذلك *معجزة* حدثت لبعض المسيحيين، يتخذها المسيحيون دليلاً على إنجاء ربهم للمؤمنين بالمسيحية وتأييده لهم، فيذكرها كدليل على تأييد الله للمؤمنين؟!

إن المقبول والمنطقي أن يكون هؤلاء الفتية من الفريق الأول، فريق المؤمنين الذي جاء القرآن بالبشارة له وليس من فريق المسيحيين، الذي جاء القرآن معلناً كذبهم وعدم علمهم ومنذراً إياهم! ومن ثم فلا يمكن أن يكون أصحاب الكهف مسيحيين بأي حال. ولو تذكر القارئ ما قلناه مسبقاً من أن نبأ هؤلاء الفتية كان معلوماً للنبي وللعرب، والله يُذّكره به ويقول له أنه ليس عجباً من آيات الله، وليس أنه من الأسرار التي لا يعلمها إلا خاصة علماء أهل الكتاب!

ومن ثم فإن نبأ هؤلاء الفتية كان من المشهور في الثقافة العربية والله يقص عليه نبأهم بالحق، بعيداً عن التحوير أو الإنقاص أو الزيادة، فيقصه كما وقع فعلاً، ومن ثم فإن هذا يقضي على أي إمكانية للقول بأن محمد أخذ هذه القصة واستخدمها في كتابه، ويقلب الطاولة في وجه المسيحيين، لأنه يجعل المنطقي أن يكون ذلك القس جيمس هو من أخذ هذه القصة المشهورة في الثقافة العربية، وحوّرها لمصلحة دينه، ولا مانع يمنعه من ذلك، لأنه قدّمها كعظة لتأكيد المسيحية، ولا مانع في الفكر المسيحي من الكذب لتأكيد الإيمان، وفي هذا يقول الأستاذ أحمد علي المجدوب: "ومن يقرأ تاريخ الكنيسة المسيحية الكاثوليكية في الفترة التي أذاع فيها (جيمس الساروجي) هذه القصة، يلاحظ أنها كانت في حاجة ماسة إلى مدد جديد يدعم من مكانتها لدى الناس، وتواجه به الشك الذي بدأ يساورهم في صحة هذه العقيدة التي تكونت من خليط من الأساطير والحقائق التي استعارها مؤسسو الديانة من بلدان وثقافات مختلفة. فوجد (جيمس الساروجي) ومن بعده (جريجوري) أسقف مدينة "تور" في قصة النيام السبعة أو أصحاب الكهف، ضالتهما المنشودة، وبادرا: جيمس أولاً بصياغته للقصة صياغة تلائم الأفكار المسيحية، ثم جريجوري بترجمتها ونشرها وإضافتها إلى التراث المسيحي وترويجها. والواقع أن هذا ليس من قبيل الاستنتاج، وإنما هو تفسير للكيفية التي ظهرت بها القصة في التراث المسيحي، يتفق تماماً مع المنهج الذي انتهجه آباء الكنيسة منذ بولس، الذي وضع أسسها وصاغ مبادئها ورتب أفكارها. فقد انتقلت الطقوس اليونانية إلى طقوس القداس الخفية الرهيبة، وجاءت من مصر

الفرعونية آراء الثالوث المقدس وعبادة أم الطفل ونظام الأديرة. ومن فريجيا جاءت عبادة الأم العظمى، ومن سوريا أُخذت تمثيلية بعث أوتيس.[193]" اهـ

ومن ثم فعلينا أن ننظر في القصة المسيحية لنبصر هل ثمة دلائل على التزوير! أول ما يلحظه الناظر في القصة أن أسماء أهل الكهف يونانية "مكسملينا، يمليخا، ديمومدس، امبليكوس، مرطونس، بيرونس، كشطونس."، على الرغم من أنهم كانوا في تركيا، والتي لا يسكنها يونانيون! وهذا وإن كان دليلاً ظاهراً على تلاعب راوي القصة في بعض أجزائها، مما يعني احتمالية تلاعبه في أجزاء أخرى، فإن الدليل الأكبر على اقتباسها وتحريفها هو ترجمتها، وفي هذا يقول الأستاذ المجدوب: "كذلك يوجد دليل آخر على أن قصة النيام السبعة ليست صحيحة بل مزورة، وهو الدليل المستمد مما أجمع عليه المؤرخون والباحثون الذين كتبوا عنها، فقد أجمعوا على أنها كانت قد كُتبت بالسريانية لغة سكان الشام قديما، ثم تُرجمت إلى اللاتينية بفضل عناية جريجوري أسقف مدينة (تور) بفرنسا، وهو أمر غريب حقا، ذلك لأن الحادثة وقعت في مدينة رومانية كبيرة هي (أفسوس) وأبطالها من سكان هذه المدينة، أي من الروم الذين حضر الإمبراطور (ثيودوسيوس) بنفسه ومعه الوزراء وكبار رجال دولته إليهم في الكهف، وتكلم معهم وسمع قصتهم العجيبة، ولا شك أنه تكلم معهم باللاتينية أو اليونانية، فكيف لم تُكتب القصة بهذه اللغة أو بتلك، وكُتبت بالسريانية التي هي لغة شعب يستعمر اليونان بلاده؟! إن هذا الذي حدث يشبه أن تكون حادثة هامة وقعت في (يوركشاير) بإنجلترا في بداية هذا القرن، فقام بعض الإنجليز بكتابتها باللغة العربية، لا لشيء إلا لأن بلادهم تحتل مصر، فهل هذا معقول؟!![194]" اهـ

وكما رأينا، فهذه بعض الدلائل على اقتباس القصة من حضارة أخرى، وهي كما قلنا الحضارة العربية. والناظر في القصة يجد أنها لا علاقة لها بالمسيحيين، فهي تتكلم عن مؤمنين خالفوا قومهم، الذين اتخذوا آلهة من دون الله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن

---

[193] أحمد علي المجدوب، أهل الكهف في التوراة والإنجيل والقرآن، ص.107.

[194] المرجع السابق، ص. 115.

دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴿١٥﴾]سورة الكهف ,١٥[، وليس ثمة أي إشارة إلى ملك، وإنما هم خرجوا بسبب قومهم! ناهيك عن أن النص يشير إلى أنهم يعيشون في مجتمع عربي شرقي، يستعمل الرجم عقوبة للمخالف: ﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٢٠﴾] سورة الكهف ,٢٠[، ولم تستخدم الحضارة الرومانية الرجم كعقوبة في يوم من الأيام، فكل هذا إشارة إلى أن الوقائع في بلد عربية لا علاقة للرومان بها.

وكالعادة وجدنا في تراثنا العربي إشارات إلى مثل هذه القصة تذكر على استحياء، فوجدنا في تراثنا من يقول أن الكهف كان في اليمن: "وقيل في اليمن". وثمة قرية في اليمن اسمها قرية أهل الكهف بمحافظة تعز، وهو في أعلى جبل صبر، وفيه تطابق مع مسألة غروب وشروق الشمس، والكهف ممتد من أعلى الجبل إلى أسفله، وفتحة أعلى الكهف عليها مسجد اسمه مسجد أهل الكهف!

إلا أن أهل المنطقة لا يستطيعون دخول الكهف لانعدام الأكسجين. ولقد تحدث ابن المجاور الدمشقي عن هذه القرية في كتابه: "تاريخ المستبصر"، وحاول أن يسقط أحداث القصة المسيحية عليها، على الرغم من أنها في اليمن!! ونحن وإن كنا نميل إلى أنه هو، إلا أننا لا نجزم بذلك، إلا أنه ليس ثمة تعارض، فهو في بلد عربية مؤمنة، والأهم أن فوقه مسجدا!

تاريخ ميلاد المسيح

لم تذكر الأناجيل تاريخاً لميلاد المسيح، ولم يذكر القرآن كذلك متى وُلد المسيح تحديداً، إلا أن عامة المسيحيين في جميع أنحاء العالم يحتفلون به في فصل الشتاء، وتحديداً في الخامس والعشرين من شهر ديسمبر، وذلك استناداً إلى اجتهادات

علمائهم في تحديد يوم ميلاده، والذي حُدد بعد مئات السنين من وفاة المسيح في أحد مجمعاتهم الكنسية! وبكل عجب وافق يوم ميلاد المسيح يوم ميلاد كثير من الآلهة الوثنية، فكان نفس اليوم الذي وُلد فيه الإله ميثرا إله الفرس، والإله كريشنا الإله الأبرز بين آلهة الهند، والرب جانغ تي في الصين! وآلهة أخرى في آسيا الصغرى واليونان وروسيا وغيرها، ويبدو أنه من شروط الإله البشري أن يولد في مثل هذا اليوم!!

وبغض النظر عن المستندات التي اعتمدها المؤرخون والعلماء في تحديد هذا اليوم مثل تاريخ ميلاد يحيى ووفاة هيرودوس الكبير ونجمة الميلاد التي ظهرت في السماء وغيرها، فإننا نتساءل: هل من الممكن قبول هذا التاريخ إسلامياً؟!

الناظر في كتابات عامة المفسرين يجد أنهم لم يعترضوا على تاريخ ميلاد المسيح وعدّوه من المسكوت عنه في القرآن والذي يمكن قبوله، على الرغم من أن الله تعالى قال في كتابه الكريم: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ٢٥﴾ [سورة مريم, ٢٥]، وهذا يشير إشارة واضحة إلى أن المسيح وُلد في الصيف، فالرطب لا يكون إلا في الصيف في شهور يوليو وأغسطس وسبتمبر ولا يمكن وجوده في الشتاء بحال.

وفي إنجيل لوقا ما يشير إلى هذا الأمر فنجده يقول: "8:2 وكان في تلك الكورة رعاة متبدين يحرسون حراسات الليل على رعيتهم"، والرعي ليلاً لا يكون إلا في الصيف. وهناك من علماء الفلك –الفلكي الأسترالي: داف رينكي– من قال أن المسيح ولد في شهر يوليو، وتحديداً في السابع عشر منه في السنة الثانية قبل الميلاد، استناداً إلى أن نجمة الميلاد هي القران بين الزهرة والمشترى.

وتكفينا الإشارة القرآنية للقول بأن المسيح وُلد في الصيف ورفض الاجتهادات البشرية التي كانت ترمي إلى تأليف قلوب الوثنيين للدخول في المسيحية.

استدراك

قد يرى القارئ في تعاملنا مع النصوص التوراتية منهجاً إقصائياً، قائم على رفض عنصر بعينه (التوراة) وإحلال آخر مكانه (التراث العربي)، عن طريق إبراز الاختلافات والتناقضات بين النص القرآني والتوراتي، ومن ثم عدم قبول الاعتماد عليها بحال، وإبراز التطابق بينه وبين التراث العربي المهجور، ومن ثم تقديمه كبديل للتوراة، يُعتمد عليه في فهم القرآن و *تفسيره*! فنقول: ليست المسألة مسألة تقديم عنصر على آخر في التعامل مع النص القرآني، وليست تعصباً لعنصر ضد آخر، -فنحن نرى أن التوراة كذلك هي من التراث العربي القديم، إلا أنها تبرأت من عروبتها وانخلعت منها، فلم تعد تُعتبر تراثا عربيا وإنما عبرانيا!- وإنما المسألة مسألة منهج في التعامل مع كتاب الله، يرى الكاتب أنه مقلوب، منهج وجد أصحابه تراثاً وتصورات سابقة للقرآن وثمة تشابه بينهما، فأسقطوها عليه، بدون تحرٍ كاف لوجود تطابق تام بينهما.

بينما المنهج الصحيح يحتم على الباحث النظر في كتاب الله وتدبر آياته، واستخراج التصور الذي تقدمه الآيات، بغض النظر عن أي مؤثر أو تصور خارجي، فإن تطابقت هذه التصورات مع حقائق خارج النص، تاريخيةً كانت أو جغرافية أو في أي مجال كان، كانت هذه الحقائق هي تأويل للنص، فإن لم يكن ثمة تطابق تام لا يُجذب النص القرآني إلى أي عنصر خارجي لوجود بعض التشابهات والتقاطعات بينه وبين غيره! وإنما يُنتظر حتى يظهر ما يطابق القرآن فيما يقول، ولا نتعجل في تقديم تفسير يصير تعسيرا! فالقرآن كتاب قال ربه أنه يُؤول، وقال أن تأويله مرحلي، ومن ثم فلا مبرر للعجلة في تقديم تأويل للنص، فلزام أن يوجد في القرآن ما لا يستطيع أبناء العصر تأويله، ويأتي تأويله لمن بعدهم .. وهكذا إلى قيام الساعة.

وسنقدم للقارئ في الفصل القادم مثالاً كبيرا لنتيجة من نتائج المنهج المقلوب في التعامل مع كتاب الله العزيز، أوقعت المسلمين في إشكاليات كبيرة، والتي كان السبب فيها التوراة، فنطبق المنهج القويم، بأن نستخرج التصور القرآني للشيء، والذي يبين

أن ما قالته التوراة لا علاقة له بالمذكور في النص القرآني، ثم نقدم له من التوراة الأدلة الكثيرة الموافقة للقرآن فيما قال، والتي تبرز التناقض الكبير في النص التوراتي، والذي أوجده المحرفون بتحريفهم. وبهذا نبين أن المنهج ليس إقصائياً وإنما قائم على تقديم القرآن وجعل ما سواه تابعاً له، فإن وافق أُخذ، وإلا فلا، فإن لم يظهر تأويل .. يُنتظر!

الفصل الثاني: الإشكالية التاريخية الجغرافية

تمهيد

يشعر القارئ لقصص القرآن والناظر في حال شخصياته بحيرة شديدة، وذلك لأنه لا يجد لهذه الشخصيات العظيمة ذكراً في تاريخ البلدان التي ظهرت فيها، كما أنه لا يجد تطابقاً بين أحوال وأفعال وعادات أقوامهم وبين ما خطّه القوم بأيديهم على جدران معابدهم وفي مخطوطاتهم، ومن ثم يتساءل: هل وُجدت هذه الشخصيات حقاً في التاريخ القديم؟! ويجزم المسلم أنها ظهرت لا محالة، وأن المدونات التاريخية لم تغطِّ كل العصور الزمنية، وأن هناك ما لم يُكتشف بعد، وسيأتي اليوم الذي نرى ذكر هؤلاء العظماء في الآثار التاريخية، أو أن هناك خطأ في قراءة وترجمة هذه الآثار، ناهيك عن احتمالية المؤامرة.

وكلها احتمالات لا ترفع الإشكالية القائمة، لذلك وجدنا من يقول من المسلمين أن القصص القرآني مذكور للعبرة، ولا يُشترط حدوثه بهذا الشكل المذكور، أو وجود شخصياته أصلاً! إلا أن السؤال الذي يجب طرحه بهذا الشأن هو: هل ثمة تناقض بين الإحداثيات القرآنية وبين الإحداثيات التاريخية؟! وتأتي إجابة المعتمد على القرآن: أن ليس ثمة تناقض، فالقرآن ذكر وقائع عامة لم يحدد مكانها ولا زمانها، اعتماداً على معرفة المخاطبين بها! ثم اعتمدت الأجيال التالية على التحديدات التوراتية التلمودية لهذه الوقائع، ومن ثم ظهرت الإشكاليات التاريخية، والتي هي في الأساس إشكالية بين التوراة والتاريخ وليس القرآن والتاريخ، –والذي يجب تفتيش التراث العربي القديم البعيد عن التأثير التوراتي، للتوصل إلى التصورات التي كانت موجودة عند الأجيال التي كان القرآن يخاطبها– فإذا كان ثمة تطابق تام بين التوراة والقرآن كانت التناقض توراتي قرآني وتاريخي، أما أن يُحمّل القرآن زيادات التوراة فغير مقبول.

وقد رأينا سابقاً كيف تلاعبت التوراة بشخصيات الأنبياء، وكيف نسبت إليهم ما لا يليق من الأفعال، وكيف غفلت عن دعوة الأنبياء القدامى، وقدمتهم كآباء وليسوا أنبياء!! والأهم من ذلك كيف نقلتهم من بلادهم الأصلية ووضعتهم في بلاد أخرى، فجعلت نوحاً في العراق وهو اليمني الأصيل، وجعلت إبراهيم يتنقل بين أماكن كثيرة ولم تذكر مكثه الطويل في مكة ولا دعوته إلى الله والتي بدأت منذ فتوته، وكيف نقلت يونس من اليمن وجعلته في فلسطين ومرسلٌ إلى العراق! فإذا كان التلاعب في التوراة قد وصل إلى هذه الدرجة، فما المانع من أن يكون ثمة تلاعب في التواريخ والأزمنة، يضع الأنبياء –أو الآباء– في أزمنة غير الأزمنة التي وُجدوا فيها، كما وضعوهم في أماكن غير أماكنهم؟!

والأهم من ذلك، ما الذي يمنع من أن يكون كاتبوا التوراة قد نقلوا جغرافية الأحداث هي الأخرى، فأسقطوها على مناطق أخرى لوجود تشابه في الأسماء، حدث بسبب الهجرات وظاهرة التيمن[195] أو أعطوا البلدان أسماء جديدة، لا يعرفها أهلها، ومع مرور الزمان وشيوع الثقافة التوراتية، أصبحت هذه الأسماء هي الشائعة المنتشرة، ونُسيت الأسماء القديمة؟!!

هذه الاحتمالية الأخيرة تعني أن علماء التاريخ والآثار ربما يكونون قد أضاعوا أعمارهم في البحث عن آثار لأقوام في أراض ربما لم يكونوا وطئوها في يوم من الأيام، وأن عليهم التنقيب لاكتشاف المسرح الحقيق للأحداث المذكورة في القرآن –والتوراة–! وقد يستغرب القارئ هذه الاحتمالية ويستبعدها، إلا أن شبيهاتها قد حدثت في زماننا هذا، فلا نزال نسمي سكان الأمريكتين الأصليين بالهنود الحمر! على الرغم من أنهم

[195] بمعنى أن تكون الأحداث قد وقعت في بلدة اسمها س، ثم تظهر بعد مئات السنين بلدة أخرى بنفس الاسم في مكان آخر، بسبب هجرة جماعات من هذه البلدة إلى أرض جديدة فيسمونها باسم بلدهم القديم، وقد تمر القرون فتشتهر وتُعرف المدينة الجديدة وتُنسى وتتوارى المدينة الأصل، ثم يصبح البدهي أن تُنسب الأحداث إلى البلدة الجديدة المعروفة! وتُجعل مسرحاً للأحداث التي وقعت في القدم. ولا تقتصر ظاهرة التيمن على العصور القديمة، فلقد استمرت في عصورنا الحديثة مع وجود الهجرات، إلا أنه قد عُمل على تجنب اللبس، فأصبح يضاف إلى المدينة الجديدة –غالبا وليس دوما– كلمة "الجديدة"، كمدينة "نيو يورك" الأمريكية، والتي سُميت باسم مدينة يورك البريطانية، ومدينة نيو أورلانز وغيرها، إلا أنه أحياناً لا يضاف هذا المقطع، ومن ثم وجدنا مثلا ثمان عشرة مدينة في مختلف أنحاء العالم تحمل اسم: cairo

ما كانوا هنوداً في يوم من الأيام، وما عاد أحد –إلا المتخصصين– يعرف اسمهم الأصلي!

وتُعد احتمالية نقل جغرافية الأنبياء القدامى وأقوامهم احتمالية مخيفة، لأنها ستُعد أكبر عملية تزوير في التاريخ![196] وتعني وجوب إعادة النظر في تاريخ منطقة الشرق الأوسط بأكمله! وليس أمامنا في هذه الحيرة الكبيرة إلا النظر في كتاب الله العزيز، لنبصر هل تلاعب اليهود بالجغرافية كما تلاعبوا بالشخصيات في التاريخ.

ولأن القرآن لم يسمِ المناطق التي ظهر فيها الرسل، فليس أمامنا إلا تلك البلدة التي سمّاها القرآن، وأكثر الحديث عنها، وهي: مصر .. فننظر في خصائص مصر القرآنية، لنبصر هل هي مصر التوراة، والتي قالت أنها البلاد الواقعة في أقصى الشِمال الشرقي لقارة إفريقية أم أنها بلد آخر!

---

[196] أول من طرح هذه الاحتمالية هو المؤرخ اللبناني الدكتور كمال الصليبي في منتصف الثمانينيات في كتابه "التوراة جاءت من جزيرة العرب"، والذي أثار جدالاً كبيراً، ويعتمد هذا الطرح على أن فلسطين –المنطقة التي يُفترض وقوع الأحداث التوراتية فيها– قد مُشطت من قبل الباحثين ولم يصلوا إلى أي إثبات تاريخي يؤكد ما جاء في التوراة، ناهيك عن عدم التوافق بين الجغرافية التوراتية وجغرافيا فلسطين! فالمدن في التوراة ليست كما هي على الأرض ولا تتطابق لغويا، ولقد توصل الدكتور كمال الصليبي إلى هذا الاكتشاف بالصدفة، فيقول في كتابه المذكور بأعلى ص.27: "كنت أبحث عن أسماء الأمكنة ذات الأصول غير العربية في غرب شبه الجزيرة العربية عندما فوجئت بوجود أرض التوراة كلها هناك، وذلك في منطقة بطول يصل إلى حوالي 600 كيلو متر وبعرض يبلغ حوالي 200 كيلو متر، تشمل ما هو اليوم عسير والجزء الجنوبي من الحجاز، وكان أول ما انتبهت إليه أن في هذه المنطقة أسماء أمكنة كثيرة تشبه أسماء الأمكنة المذكورة في التوراة، وسرعان ما تبين لي أن جميع أسماء الأمكنة التوراتية العالقة في ذهني، أو جلها، ما زال موجوداً فيها، وقد تبين لي أيضاً أن الخريطة التي تستخلص من نصوص التوراة في أصلها العبري، سواء من ناحية أسماء الأمكنة أو من ناحية القرائن، أو من الإحداثيات، تتطابق تماماً مع خريطة هذه الأرض." اهـ
وتبعه بعد ذلك عدد من الباحثين مثل الأستاذ فاضل الربيعي، وزياد منى وأحمد عيد وباحثو جمعية التجديد الثقافية البحرينية، والذين اختلفوا في تحديد الأماكن بالضبط، إلا أنهم اتفقوا في أن جغرافية التوراة كاملة والتي تشمل مصر والأردن وسوريا ولبنان كانت تقع هناك في جنوب غرب الجزيرة العربية، وأن هذه الأسماء لم تكن لدول وإنما لمدن أو لإمارات صغيرة، ومع الهجرات سُميت مناطق أخرى أكبر بهذه الأسماء، وقام اليهود بعد السبي البابلي بإسقاط الأحداث على المناطق الجديدة، باعتبارها المكان الذي وقعت فيه سابقا!

مصر القرآنية

كثيرة هي السمات والمُعرِّفات التي ذكرها الله العلي العظيم لمصر في كتابه، إلا أنه لكونها ذُكرت منثورة في الكتاب العزيز لم تتكون لدى المسلمين صورة عن مصر مستخرجة من القرآن، واكتفوا بأن مصر هي بلاد القبط! لذا ننظر في القرآن لنستخرج منه تلك السمات المتعلقة بها، سواء كانت متعلقة بطبيعتها وجغرافيتها أو بأحوال أهلها.

من العلامات المميزة لمصر القرآنية وجود أنهار تجري بأرضها: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾]سورة الزخرف, ٥١[، إلا أن الناظر في موطن آخر يجد أنه يذكر أن مصر تعتمد على الغيث (المطر)، وأنها تعرضت لجفاف استمر سبع سنوات، ثم أتى عام أنقذ الغيث فيه الناس: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة يوسف, ٤٧-٤٩] وهذا يعني أنها أنهار موسمية، تجف وتفيض تبعاً للأمطار التي تسقط على المنطقة! وليست الأنهار هي مصدر المياه الوحيد فيها، وإنما كذلك العيون، ففيها كثير من العيون: ﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾] سورة الدخان, ٢٥-٢٦].

فإذا غضضنا الطرف عن التفاصيل الطبيعية لمصر ونظرنا في أحوالها التي قصها الله العليم، وجدنا أن الرب العليم قال أن أهل مصر يستخدمون الطين المحروق في البناء، وأنه كان لهم القدرة الكبيرة على البناء بالطين: ﴿... فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾] سورة القصص, ٣٨[، وقال أنهم عرفوا الجمال كوسائل للمواصلات والحمل: ﴿وَسْـَٔلِ

ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾] سورة يوسف, ٨٢]، كما أن الوزير أو رئيس الوزراء في مصر كان يُسمى بالعزيز: ﴿... قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾] سورة يوسف, ٥١]، كما أن المصريين يستعملون الصلب والرجم في معاقبة المذنبين: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾] سورة طه, ٧١]، ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾]سورة يوسف, ٤١]، ﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾] سورة الدخان, ٢٠].

يضاف إلى هذا أن فرعون وقومه على دراية تامة بكل التاريخ العربي، فنجد أن مؤمن آل فرعون عندما كان يعظ قومه كان يُذكّرهم بما حدث لقوم نوح وعاد وثمود، وهي قبائل عربية قحة، ويحذرهم من أن يصيبهم مثل ما أصاب هذه الأقوام: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾] سورة غافر, ٢٨-٣١]. وبالفعل نزل بهم ما كان يخشاه هذا المؤمن، فبالإضافة إلى غرق فرعون وجنوده فقد: ﴿... وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾] سورة الأعراف, ١٣٧]

والسؤال الذي يجب طرحه بعد التفكر في هذه السمات التي ذكرها الله عن مصر هو: هل تنطبق هذه المواصفات على مملكة القبط القديمة؟! لا يحتاج المرء إلى كثير تفكر للحكم بأنها لا تنطبق عليها، فمصر وإن كانت تعتمد على نهر النيل إلا أنه ليس أنهاراً موسمية تجف وتفيض حسب مياه الأمطار التي تسقط على مصر، فهي لا تعتمد على مياه الأمطار وإنما على المياه القادمة من أعالي النيل في إفريقية! كما إنه وإن كان يمكن القول بأنها أرض جنات، إلا أنها ليست أرض عيون! فليست العيون مورداً رئيساً للمياه في مصر، وإنما فيها أعداد محدود متناثرة هنا وهناك على امتدادها، كما أن المصريين لم يكونوا يبنون معابدهم بالطين وإنما بالحجارة والجرانيت، ناهيك عن أن النخيل ليس هو الشجرة المميزة في مصر ليصلب فرعون فيه المناوئين له، فهناك أشجار أخرى كثيرة أكثر مناسبة منها، يضاف إلى ذلك أن المصريين لم يستخدموا أسلوب الصلب أو الرجم في معاقبتهم المجرمين أو المخالفين، فلا يوجد رسم واحد في المعابد ولا البرديات المصرية يظهر فيه إنسان مصلوب، وكذلك لم نر الجمال في الرسوم المصرية القديمة، ولم يرد أي ذكر لقوم نوح أو عاد وثمود كذلك في المعابد أو البرديات المصرية، وحتى "فرعون" نفسه لم نجد له ذكراً فيها!!

وختاماً فإن كل الملوك الذين ذُكروا كاحتمالية لفرعون موسى لا تزال آثارهم باقية شامخة وخاصة رمسيس الثاني، وفرعون موسى لا يجب أن يبقى مما كان يصنع أو يبني شيئاً فقد دمّره الله تعالى! ومن ثم فإننا أمام احتماليتين: إما أن مؤلف القرآن لم يكن لديه معلومات عن مصر فأسقط عليها سمات المجتمعات العربية التي رآها وعايشها، أو أنه كان يتحدث عن مصر أخرى غير مملكة القبط؟!

سيعجب القارئ من الاحتمالية الأخيرة، وربما يسارع برفضها جازماً أن مصر هي مصر، وأنه لا يمكن أن تكون بلداً أو منطقة أخرى! وحتماً إن مصر هي مصر! ولكن السؤال الأدق: هل مصر هي مملكة القبط؟!

إن القطر المصري لم يُسم في التاريخ القديم كله بهذا الاسم في يوم من الأيام، وإنما كان له أسماء مختلفة[197]، لم يكن من بينها مصر، وكان آخرها: إقبط! إلا أن التوراة تحدثت عن بلد يسمى مصر، وادعت أن مصر هي مملكة القبط، ثم جاء القرآن فقصّ كذلك عن مصر، ولكنه لم يقل أين هي، وإنما ذكر سماتٍ عامة لها، لا تتفق مع مملكة القبط، فلماذا يجب على القرآن أن يكون تابعاً للتوراة في دعواها، التي يكذبها التاريخ القبطي؟! والتي يناقضها ويخالفها كثيرٌ وكثيرٌ من النصوص التوراتية الأخرى، التي تذكر سماتٍ لمصر وتتحدث عنها بشكلٍ يجعل المرء يجزم أنه من غير الممكن أن تكون مصر المقصودة هي مملكة القبط القديمة!! ومن ثم فعلينا التساؤل: هل نتبع ما قاله القرآن، أم نتمسك بلا بيّنة بالدعوى التي أطلقتها التوراة؟!

إن الناظر المحايد في القرآن يجد أن السمات التي ذكرها الله العليم لمصر تنطبق تمام الانطباق على طبيعة بعض المناطق في غرب شبه الجزيرة العربية، التي تعتمد على

[197] بداهة لم يُعرف لجمهورية مصر اسم قبل توحيدها على يد مينا نارمر، وظهر الاسم للملكة الموحدة بعد ذلك، وفي هذا يقول باحثو جمعية التجديد في كتاب اختطاف جغرافيا الأنبياء ص.86: "أما بالنسبة لاسم الوادي بعد قيام مملكة الأقباط، وهي الحقبة الأطول في عمر أقاليم وادي النيل والتي تُعرف بعهد الأسر الملكية وتمتد من **3020** إلى **343** ق.م، فالمتداول بين المتخصصين في علوم آثار وادي النيل أن أقدم اسم موحد كان شعب وادي النيل يسمون بلادهم به كان بتصويت (كيمي) (**Keme**) أو (كيمت) (**Kemet**) أو (كمت) (**Kmt**) * والذي يعني الأرض السوداء. ويعتقد أن هذا المسمى يرجع في معناه للتعبير عن خصوبة الأرض النيلية. وهناك من يصوّتها (كام) (**Kam**) أو (خام) (**Kham**) لأغراض تخدم مصالح الطرح اليهودي (أي لجعلها منسوبة إلى حام بن نوح، ومن ثم يكون المصريون حاميين وليسوا ساميين! –عمرو–) وهناك من يضيف على ذلك أيضاً اسم دشرت (**Dshrt**)" اهـ.

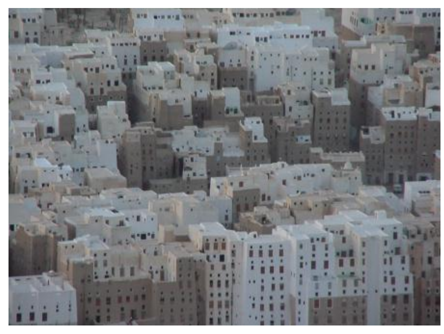
وكما رأينا فكلها أسماء لا علاقة لها بمصر، وهناك من حاول أن يوجد لاسم "مصر" مستنداً في تراثنا القديم، فنجد في نفس المرجع ص.89: "والطرح الوحيد الموجود اليوم هو ما طرحه العالم الإنجليزي باج (**Budge;E**) اقترح باج أن مسمى "مصر" قد يكون تحويراً للفظة مدجر (**Medjr**) والتي تعني بلغة شعب وادي النيل الحصن أو البرج أو القلعة ومنها اشتق تعبير "مصر المحروسة (...) ويضيف باج احتمالية أن اليهود والعرب حين وصلوا إلى الوادي حوروا الكلمة نطقاً إلى "مصر" و"مصريم" بسبب تغاير الألسن. ولكن هذا التحليل حتى لو صح بعد لَيه وحشره في ما لا طاقة له به، فهو لا يخدم مرادنا حيث ينسب هذا الاشتقاق لا لشعب وادي النيل أنفسهم بل إلى من فتح بلادهم من المسلمين. أما ذكر اليهود فليس ذو قيمة إذ لم يكن لليهود قط سلطة على بلاد وادي النيل كي يقحموا اسماً غير الذي اتفقت عليه ملايين الأنفس من أهل الديار الأصليين من الأقباط. هذا إلى جانب أن "مصر المحروسة" هو تعبير منقرض كان يطلق على القاهرة فقط، والقاهرة مدينة جديدة نشأت في العهد الإسلامي." اهـ.

وكما رأينا فإن هذا الطرح –على فرض صحته– يؤكد احتمالية أن اسم مصر أُسقط على مملكة القبط كاملة في عصور متأخرة بعد الفتح الإسلامي! فإذا كان الله لم يقل أن مصر هي مملكة القبط، ولم يسمها أبناء البلد أنفسهم، فهل علينا الاستماتة في الدفاع عن مزاعم التوراة، ونسبتها إلى القرآن؟!

مياه الأمطار، وبها جداول مياه وحيث الجنات والعيون، وحيث الاعتماد على الطين في البناء[198]، وحيث للسكان ميراث ثقافي واحد يبرز فيه نوح وقوم عاد وثمود، وحيث عقوبة الصلب والرجم معروفة ومألوفة، وحيث النخيل من أكثر الأشجار انتشاراً وعليه قوام الحياة، ، وحيث اسم فرعون معروف ولا يزال مستعملاً[199]! ومن ثم فإن القول بأن مصر المذكورة في القرآن بلدة في الجزيرة العربية هو الأكثر انسجاماً مع الآيات.

---

[198] بينما كانت حضارة وادي النيل القديمة حضارة "حجرية" فإن حضارة اليمن القديمة كانت حضارة طينية، ولذلك توصف الحضارة اليمنية بأنها حضارة الطين! وذلك لأن اليمنيين برعوا منذ قديم الزمان في استخدام الطين وأتوا بروائع معمارية هائلة مرتفعة، ولا تزال مباني مدينة شبام حضرموت، والتي تعتبر أقدم ناطحات سحاب في العالم، والمبنية من الطين، خير دليل على مكنة اليمنيين في استخدام الطين والبناء به! ولا تزال الأبنية الطينية الموغلة في القدم والباقية لزماننا –مثل الموجودة في الصورة القادمة– خير برهان على ذلك!



فهل يكون الحديث عن حضارة في جزيرة العرب، تستخدم الأسلوب الطيني أم عن حضارة وادي النيل؟!

[199] لم يعرف ساكنو وادي النيل اسم فرعون قديما ولا حديثاً، ولم يتسموا به، بينما كان ولا يزال معروفا مألوفا في شبه الجزيرة العربية، وهناك العديد من الأشخاص يحملون اسم: كذا فرعون، مثل وزير الصحة السعودي الأسبق: رشاد فرعون، وغيره، وثمة قبيلة من قبائل نجد معروفة ب "عشيرة الفراعنة" –من قبائل سبيع الغلباء–، ومنها شاعر مشهور، هو: ناصر الفراعنة، وهناك "آل فرعون" في العراق! والأهم من ذلك أن الاسم موغل في القديم وليس حديث الاستعمال بعد الإسلام، فنجد الدكتور جواد علي يذكر في كتابه "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام" الجزء الثاني، ص.535، اسماً لملك من ملوك اليمن، فيقول: "وورد اسم "ياسر يهنعم" وابنه "شمر يهرعش" في نص آخر مؤرخ كذلك، أرخ في شهر "مذران" "مذرن" سنة "316" من سني تقويم "نبط ال" "نبط ايل" دونه "فرعن يزل بن ذرنح" "فرعان يأزل بن ذرنح"، و"يعجف" رئيس قبيلتي "قشم" "قشمم" و"مضحيم" "مضحى"" اهـ، وعلى العكس من هذا الانتشار والاستخدام في الجزيرة العربية، فإن المصريين ما كانوا يعرفون الاسم أصلاً ولا سمعوا به، وفي هذا يقول باحثوا جمعية التجديد في كتاب "اختطاف جغرافيا الأنبياء" ص. 127: "أولاً ماذا تعني مفردة فراعنة؟ هذا السؤال حيّر ابن خلدون والمسعودي ومن كان في زمانهم، وذلك بعد أن ألزموا أنفسهم بنسبة هذا اللقب لملوك وادي النيل. فها هو صاحب النجوم الزاهرة ينقل عن المسعودي قوله " ... قال المسعودي: وسألت جماعة من أقباط مصر بالصعيد وغيره من أهل الخبرة عن تفسير اسم فرعون فلم يخبروني عن معنى ذلك ولا تحصل لي في لغتهم..." وهذا الكلام غاية في الغرابة. فما توصل إليه المسعودي من المسح التحقيقي الذي أجراه بنفسه في زمانه ومع من وصفهم "بأهل الخبرة" من الأقباط وفي بلاد وادي النيل، كشف لنا أن من ادعينا دوماً أنهم "شعب الفراعنة" لا يفقهون واقعاً هذا الاسم المشهور، بل لا وجود له في لغتهم كما أَ كد المسعودي نفسه. فماذا فعل المسعودي باكتشافه العجيب هذا والمنافي للشياع في أيام زمانه؟ هل قرع الناقوس بين المؤرخين وتتبع أصل الخبر وفصله وواصل مشوار التحقيق العلمي الموضوعي ليكشف عن عمق الوهم الثقافي الذي كان يسيطر

قد يرى القارئ أن ما ذكرناه من الأدلة ليس كافياً للحكم بأن مصر القرآنية ليست مملكة القبط، وأن هناك من أبطل هذه التناقضات المذكورة! فنقول: بغض النظر عن أن الآخرين لم يزيدوا عن لي الآيات لكي تتوافق مع أحوال مملكة القبط، فإن ما قلناه يظل احتمالية لا تقل قوة عن الاحتمالية الأخرى، ومن ثم فإننا سنعيد قراءة القصص القرآني المتعلق بمصر، وفقاً لهذه الاحتمالية، التي تقول أن مصر بلدة أو منطقة في غرب شبه الجزيرة العربية، وسيرى القارئ أن هذه القراءة قد قضت على كثير من الإشكاليات والنقاط غير المنطقية في أحداث القصص، تبعاً للتصور المألوف، والتي ربما لم يلتفت إليها في يومٍ من الأيام! وتمكّننا من فهم النص القرآني كما هو بدون أي حاجة إلى لي أعناق الآيات!

على زمانه؟ أم أطفأ بصيص النور الذي توهج أمامه في غمرة الظلام الحالك بوضع تبريرٍ عرضي يفسر به عدم التوافق بين ما انكشف له من حقائق مغايرة للثقافة السائدة في زمنه؟ يقول المسعودي، مبرراً الصدمة الثقافية التي اعترضته " ..فيمكن –والله أعلم– أن هذا الاسم كان سمة لملوك تلك الأعصار وأن تلك اللغة تغيرت كتغير الفهلوية وهي الفارسية الأولى إلى الفارسية الثانية وكاليونانية إلى الرومية وتغير الحميرية وغير ذلك من اللغات" ا.هـ. وقد يقول قائل: نعم، المصريون لم يعرفوا فرعون، وذلك لأن "فرعون" ليس اسماً لشخص، وإنما هو لقب كان يُلقبه الملوك القدامى لوادي النيل، وكان اسمه "بر–عا" أو "بر–عو" والتي تعني البيت الكبير، والذي كان يشار به إلى حاكم القطر، ثم ظهر في العربية باسم فرعون! فنقول: بغض النظر عن أن "فرعون" المذكور في القرآن هو –لقرائن لغوية عديدة– اسم علم لشخص، ولا يمكن أن يكون لقبا، وبغض النظر عن أن هناك من الباحثين من ينطق هذا الاسم : بي رع، فإن معجم الحضارة المصرية القديمة يبين أصل هذه الكلمة وزمن استعمالها، ص. 254–255، فيقول: "لم يُستعمل هذا اللقب، الذي يوحي إلينا بشخصية ذات عظمة ومجد من غابر الأزمنة، إلا في الألف سنة الأولى ق.م، كلقب للملك، (...) نقلنا كلمة "فرعون" عن لفظ حقيقي رسمي في التوراة، (...) *غير أن لقب "فرعون" لم يستعمل في أي وقت من التاريخ كلقب حقيقي رسمي للملك*" اهـ.

وكما رأينا، فحتى على فرض استعمال هذه الكلمة للملك، فهو استعمال يفصل بينه وبين موسى مئات السنين أو أكثر! وفي الختام نقول: تحدث الله عن "فرعون" حاكم لمصر، لم يحدد مكانها، وقال المؤرخون العرب أن فرعون أو الفراعنة كان لقباً لملوك قبائل العماليق العربية، التي سكنت في جنوب الجزيرة العربية! وسكت التاريخ المصري عن "فرعون" "ومصر"، بله أن يذكر "فراعنة"، وقالت التوراة أن حكام وادي النيل كانوا هم الفراعنة، فأي هؤلاء نصدق؟!

مصر .. يوسف

يعتبر إنباء يوسف بتأويل[200] رؤيا ملك مصر المحور الرئيس لقصة سيدنا يوسف، والعنصر الرئيس في تحويل مجرى حياته –بإذن الله–، فلقد خرج من السجن وأصبح عزيز مصر المتحكم في خزائن الأرض. ومرت سنون الرخاء السبعة الأولى، ثم أتت السنون السبع العجاف الشداد، التي ضرب الجفاف فيها أرض مصر، وبغض النظر عن أن التاريخ المصري القديم لم يذكر وقوع جفاف شامل لمدة سبع سنوات، فإننا نتساءل: لماذا يأتي إخوة يوسف إلى مصر في هذه المجاعة؟! فإذا كان نهر النيل قد جف لمدة سبع سنوات، فهل حدث وجفت أنهار الشام ونهر الأردن في نفس الوقت؟! إن هذا يعني حدوث تغير كوني في المناخ أدى إلى حدوث الجفاف في هذا النطاق العريض، وهو أمر جد مستبعد، لاختلاف الظروف المناخية لكلا المنطقتين! ومن ثم فلماذا لم يذهب أبناء يعقوب الذين يُفترض وجودهم في فلسطين إلى لبنان أو سوريا، واللذان هما أقرب بكثير من مصر، ويمكنهم أن يحصلوا من أي منهما على ما يكفيهما؟! بدلاً من السير المسافات الشاسعة ليأتوا إلى مصر؟!!

وإذا افترضنا حدوث جفاف شامل كامل ضرب المنطقة العربية بأكملها ودفع هؤلاء للمجيء إلى مصر البعيدة، لأن وحدها فيها الخير، –وبغض الطرف عن أن هذا يعني أن البلدان الأخرى قد ماتت جوعاً!– فإن التوراة تدفعنا للتساؤل: لماذا كلما يحدث الجفاف ينزل إبراهيم وأبناءه إلى مصر؟! فإبراهيم نفسه لمّا حدث الجفاف نزل مصر، وإسحاق لمّا حدث الجفاف نزل مصر، وكذلك أبناء يعقوب ينزلون مصر، فلماذا لم

[200] اشتهر سيدنا يوسف بأنه كان يؤول الرؤى أو الأحلام، وهو قول غير صحيح، فلا يمكن لأحد أن يؤول الرؤى إلا الله مصرف الأمور، فتأويل الرؤيا يعني تحقيق ما فيها، وهذا بيد الله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ... ١٠٠﴾ [سورة يوسف ,١٠٠]، بينما يمكن للبشري أن ينبأ به، والقرآن تحدث عن "الإنباء بالتأويل" ولم يتحدث مرة عن "تأويل الرؤى" فقال: "نبئنا بتأويله، نبأتكما بتأويله، أنبئكم بتأويله"، وهذا ما كان سيدنا يوسف يفعله، أما السادة الذين يظهرون في الإعلام في برامج تفسير الأحلام، فكل ما يفعلونه هو أنهم يحاولون تعبير الأحلام لا الإنباء بتأويلها وشتان ما بين الإثنين. ويمكن للقارئ الكريم التعرف على الفارق بين الإنباء بتأويل الرؤى وتعبير الأحلام بقراءته المبحث المفصل الذي كتبناه حول هذه المسألة على موقعنا الشخصي: www.amrallah.com/ar

يذهبوا مرة إلى سوريا ولبنان، الأقرب من مصر والأكثر منها ماءً؟! إن تكرار النزول هذا يعني أن "مصر" جد قريبة من مكان إقامة إبراهيم وأبناءه، بحيث أنه كلما حدث جفاف ينزلون إليها فيتزودون بما يعينهم! وتكرار الجفاف هذا يجعل المرء يتساءل: أي مناخ هذا الذي كانت تمر به المنطقة، وأي أنهار[201] هذه التي كانت تجف كل بضع سنين؟!

فإذا نظرنا في النعت القرآني ل "مصر" نظرة محايدة وجدنا أنه يتكلم عن "مدينة/قرية" وليس عن مملكة عظمى بأي حال! فنجد أن عزيز مصر هو الذي يباشر عملية توزيع المؤن بنفسه، ولما جاء إخوته دخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون، كما أن هذه العملية تدار من بيت الملك، فالوافدون يدخلون بيت الملك، ولما أراد يوسف أن يحتفظ بأخيه: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا

---

[201] الناظر في القرآن يجد أنه يتحدث عن صنفين من البحار، البحر العذب والبحر المالح، إلا أنه على الرغم من تفريقه بينهما يقول أنهما مرتبطان مع وجود برزخ بينهما: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾ [سورة الفرقان ,٥٣]، ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ... ﴿١٢﴾﴾ [سورة فاطر ,١٢]، والبحر العذب هو "النهر" في مصطلحاتنا الجغرافية المعاصرة، وهذا الاصطلاح يخالف القرآن، الذي فرّق بين الأنهار والبحر المالح والعذب في الذكر، فقال: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [سورة النمل ,٦١]، ومن مظاهر التفريق مثلاً أن الله يتحدث عن جريان الفلك في البحر، بينما لم يتحدث مرة عن جريانها في الأنهار: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة إبراهيم ,٣٢]، وبخلاف ذلك فإننا نجد أن الله العليم قد تحدّث في أكثر من موضع عن مصدر الأنهار وهو تفجير الأرض، فقال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ... ﴿٧٤﴾﴾ [سورة البقرة ,٧٤]، ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾ [سورة الإسراء ,٩١]، ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ [سورة الكهف ,٣٣]، فالأنهار تبعاً للتعريف القرآني تنشأ نتيجة لتفجير الأرض أو الحجارة، بينما لم يتحدث عن منابع الأبحر، وإنما عن مدد! ولا يقتصر التفجير في القرآن على الأنهار، وإنما يشمل كذلك العيون، فنجد الرب يقول: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة يس ,٣٤]، ومن ثم يمكن القول أن الأنهار –تبعاً للتعريف القرآني– هي العيون التي تفيض ماءً "العيون الجارية"! وهي الظاهرة المعروفة في غرب الجزيرة العربية. ومن ثم فلا يمكن أن يكون قول فرعون: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [سورة الزخرف ,٥١]، حديثاً عن نهر النيل ذلك البحر العذب العظيم، وإلا لقال: وهذا البحر/الأبحر تجري من تحتي! وإنما حديث عن تلك العيون الجارية وجداول المياه المنسابة، ومن ثم يمكننا فهم كيف كانت هذه الأنهار تجف من حين لآخر، الأمر الذي كان يدفع الخليل إبراهيم وأبناءه للنزول إلى مصر للتزود!.

ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ۝٧٠ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ۝٧١ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ۝٧٢﴾ [سورة يوسف, ٧٠-٧٢]، ولو كانت "مصر يوسف" هي مملكة القبط لكان هناك العديد من الموظفين الذين يمكنهم أن يباشروا هذه العملية بأنفسهم، ناهيك عن أنها ستكون بعيدة كل البعد عن دار الملك! ولا يمكن أن يباشرها رئيس الوزراء بنفسه، فبغض النظر عن المكانة فإن هذا يعني إشرافه على توزيع الطعام على مئات الألوف! وهذا ما لا يستطيعه فرد واحد، بخلاف الإشراف على إطعام مدينة وما يجاورها، ثم يأتي بعض الأفراد أو الجماعات من البدو المجاورين فيتزودون ويعودون!

وعندما أخذ إخوة يوسف أخاهم وأرادوا العودة إلى مصر نهاهم أبوهم عن الدخول من باب واحد وأمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة، وهذا يعني أن مصر هذه مدينة ذات سور وأبواب، وهو لا يريد ألا يستريب منهم أحد، ولو كانت مصر مملكة القبط لما كان هناك أي إشكال في دخول إحدى عشر شخصاً، ناهيك عن عدم وجود أسوار لها أصلاً! ولما عاد إخوة يوسف إلى أبيهم وأخبروه أن ابنه سرق أرادوا أن يثبتوا صدقهم فقالوا: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٨٢﴾ [سورة يوسف, ٨٢]، وهذا يعني أن الحادثة شاهدها أهل القرية أو علموا بها، وهذا يعني أن بيت الملك أو مكان التوزيع غير معزول عن أهل القرية، ولا يمكن أن يكون هذا الحال في مملكة القبط بينما يمكن في مدينة محدودة!

والنقطة الفاصلة التي نختم بها هي رحلات إخوة يوسف! فالناظر يجد أن إخوة يوسف ذهبوا إليه وعادوا إلى أبيهم أربع مرات، مرة جاءوا ليكتالوا، ثم عادوا ليأخذوا أخاهم، ثم عادوا به فأخذه يوسف، فعادوا إلى أبيهم، فأمرهم بالعودة ليتحسسوا من يوسف وأخيه، فدخلوا عليه فعرفهم بنفسه، ثم أمرهم بالعودة ليأتوا بأبيهم، فعادوا إلى أبيهم وجاءوا به ودخلوا عليه وخروا له سجدا! فهل من المعقول أن يقطع إخوة يوسف مئات الكيلومترات ذهابا وإيابا بين فلسطين وجمهورية مصر، أكثر من عشرة أيام ذهاباً

ومثلهم إياباً في كل مرة، يضربون أكباد الإبل، من أجل ماذا؟ من أجل حمل حمار – تبعاً للتوراة، التي قالت أنهم كانوا يأتون على حمير– أو حمل بعير، كما قال القرآن؟! إن هذا العطاء الذي كان يعطيه يوسف لا يستحق كل هذه المعاناة!

فهل يضيع الإنسان قرابة الشهرينً سفراً من أجل حملي جمل؟! إن هذا غير معقول ولا مقبول. بينما يصبح الأمر أكثر منطقية إذا قلنا أن إخوة يوسف كانوا يأتون من مكان قريب منه ليكتالوا، فلمّا يحدث كذا يعودون، ثم يرجعون إليه مرة أخرى، وهكذا ذهاباً وإياباً! وإذا كان إبراهيم الخليل –كما قلنا سابقاً– قد استقر وسكن بجوار مكة، فمن المنتظر أن يكون أبناءه بالقرب من نفس المنطقة، وتكون مصر يوسف كذلك في هذه الأنحاء في غرب شبه الجزيرة العربية، والله أعلم.

مصر .. الموروثة!

الناظر في القرآن يجدد أنه قد كرر في أكثر من موضع أن مصر ورثها بنو إسرائيل بعد إهلاك فرعون، فنجد الرب العليم يقول: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ... ١٣٧﴾ [سورة الأعراف, ١٣٧]، ويقول: ﴿كَذَٰلِكَۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ٢٨﴾ [سورة الدخان, ٢٨]، فتمت كلمته التي أرادها: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ٥﴾ [سورة القصص, ٥]، والسؤال البديهي الذي يخطر ببال القارئ لهذه الآيات: هل أُورث بنو إسرائيل مصر؟!

الناظر في كتابات المفسرين بهذا الشأن يرى عجباً، فيجد أن كثيراً منهم يكتفي بالقول بأن الأرض التي بورك فيها هي الشام، ولا يشغل باله بإيضاح كيف أورث بنو إسرائيل مصر على الرغم من أنهم تركوها؟! إلا أن هناك من حاول تقديم حلولاً لهذه الإشكالية، فنجد الإمام الألوسي يقول: "ومعنى توريثهم إياها على القول بأنهم لم

يدخلوها بعد أن خرجوا منها مع موسى عليه السلام إدخالها تحت ملكهم وعدم وجود مانع لهم عن التصرف فيها، أو تمكين أولادهم فيها وذلك في زمن داود وسليمان عليهما السلام، *ولا يخفى أنه خلاف المتبادر كما مرت الإشارة إليه*. على أن أرض مصر بعد أن فتحت في زمن داود عليه السلام لم يكن لبني إسرائيل تمكن فيها واستقرار، وإنما كان ملك وتصرف وكان التمكن في الأرض المقدسة والسوق على ما قيل يقتضي ذكر ما تمكنوا فيه لا ما ملكوه. وأقول قد يقال: المراد بالأرض هنا وفيما تقدم من قوله سبحانه: ﴿... عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ... ١٢٩﴾ [سورة الأعراف, ١٢٩] الأرض المقدسة التي طلب موسى عليه السلام من فرعون بني إسرائيل ليذهب بهم إليها فإنها موطن آبائهم، فيكون موسى عليه السلام قد وعدهم هلاك عدوهم المانع لهم من الذهاب إليها وجعل الله تعالى إياهم خلفاء فيها بعد آبائهم وأسلافهم أو بعد من هي في يده إذ ذاك من العمالقة[202]" اهـ

وكما رأينا فالإمام الألوسي يحاول إيجاد حلول لهذه المعضلة، فأورد أقوالاً واستبعدها! ثم أورد حلاً إضافيا وهو أنه قد يكون المقصود بالأرض الموروثة ليس مصر وإنما الأرض المقدسة، وهذا القول يخالف الآيات التي بيّنت أن الأرض التي ورثها بنو إسرائيل هي التي أُخرج منها فرعون وجنوده، وهي مصر لا محالة، كما جاء في قول الرب العليم: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٥٩﴾ [سورة الشعراء, ٥٧-٥٩]، ولقد أورد الإمام الألوسي أقوالاً أخرى للقضاء على هذه الإشكالية، وذكر فيها أصل المشكلة، فقال: "وما ذُكر عن الواحدي من أن الله رد بني إسرائيل إلى مصر بعدما أغرق فرعون وقومه ظاهره وقوع ذلك بعد الغرق من غير تطاول مدة. وأظهر منه في هذا ما روى عن الحسن قال: كما عبروا البحر ورجعوا وورثوا ديارهم وأموالهم؛ ورأيت في بعض الكتب أنهم رجعوا مع موسى عليه السلام وبقوا معه في مصر عشر سنين، وقيل: *إنه رجع بعضهم بعد إغراق فرعون* وهم الذين أورثوا أموال القبط *وذهب الباقون مع موسى عليه السلام*

[202] محمود الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الجزء التاسع، ص. 37.

إلى أرض الشام. وقيل: إنهم بعد أن جاوزوا البحر ذهبوا إلى الشام ولم يدخلوا مصر في حياة موسى عليه السلام وملكوها زمن سليمان عليه السلام، *والمذكور في التوراة التي بأيدي اليهود اليوم صريح في أنهم بعد أن جاوزوا البحر توجهوا إلى أرض الشام،* وقد فصلت قصة ذهابهم إليها وأكثر التواريخ على هذا، *وظواهر كثير من الآيات تقتضي ما ذكره الواحدي*، والله تعالى أعلم[203]" اهـ

وكما رأينا فقد لخّص الإمام الألوسي القضية، فقال أن ظاهر الآيات أن بنو إسرائيل أورثوا، ولكن التوراة تقول أنهم توجهوا إلى أرض الشام، وبقولها قالت كتب التواريخ، ومن ثم فهناك إشكالية! ولست أدري إذا أي الكتابين مهيمن على الآخر!

إن احتمالية الرجوع التي ذكرها الإمام الألوسي لا مستند لها في النص، فالقرآن قال أن بنو إسرائيل خرجوا مع موسى وقال في عين الوقت أنهم أورثوا الأرض، ولو كانوا سيعودون فيظلون في مصر سنوات، لما كان هناك حاجة لإرسال موسى إلى فرعون في هذا الوقت أصلاً!

والخلاص من هذه الإشكالية المختلقة في كتاب الله العظيم، الذي قال: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٨٣﴾ [سورة يونس ,٨٣] فالذين آمنوا هم ذرية من قومه، وهم عباد الله الذين خرجوا مع موسى وليس كل بني إسرائيل: ﴿فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ٢٣﴾ [سورة الدخان ,٢٣]، ومن ثم فإن الفعل كان على جبهتين: فطائفة مؤمنة خرجت مع موسى للذهاب إلى الأرض المقدسة، والأكثرية ظلت في مصر وهي التي أُورثتها بعد هلاك فرعون وجنوده.

ونعود فنسأل السؤال مرة أخرى: هل أُورث بنو إسرائيل جمهورية مصر؟! الناظر في التاريخ القبطي القديم لا يجد أي إشارة إلى وجودهم في أرض وادي النيل، ناهيك عن

[203] المرجع السابق، الجزء التاسع عشر، ص. 83–84.

وصولهم إلى السلطة، ومن غير المعقول أن يصبح قوم هو أسياد القطر ولا يوجد لذلك ذكر في التاريخ!! ومن ثم نتساءل: متى ورث بنو إسرائيل مصر؟ وهل مصر التي ورثوها هي جمهورية مصر؟! يخرجنا القرآن من هذه الحيرة، فيبين لنا أن الأرض التي أورثها بنو إسرائيل كانت مشارق الأرض التي بورك فيها ومغاربها: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا ... ١٣٧﴾ [سورة الأعراف, ١٣٧]، ومن ثم فإنهم كانوا في مشارق مكة ومغاربها، وليس لهم أي علاقة بوادي النيل!

وعلى فرض أنها الشام، فإن هذا يعني أن أرض مصر كانت تصل إلى شرق الشام، وهذا يعني أن العراق كانت تابعة لمصر![204] وهو ما لا دليل تاريخي مصري ولا عراقي عليه، فهل سكت تاريخ البلدين عن هذا؟!

وليس هذا بشيء فالأرض المباركة هي أرض مكة بنص القرآن، والقول بأنها الشام تابع للتوراة، التي لا تعترف بمكة ولا تذكرها! ومن ثم فإن بنو إسرائيل أورثوا مشارق ومغارب مكة! وهذا يعني أن مصر كانت مملكة/ إمارة في غرب الجزيرة العربية، الله أعلم بحجمها أو امتدادها، إلا أنها لم تكن قد بسطت سلطانها على مكة، لذا كانت حدودها حول مكة قريبة من شكل حرف u اللاتيني، -وهذا مرجح لكونها في الجنوب من مكة- ولذلك كان لها السيطرة على شرق وغرب مكة، ولكنها لم يكن لها سلطان على مكة! تلك الأرض المقدسة التي أمر الله موسى ومن معه بدخولها! إذا فليست مصر الموروثة هي مصر المحروسة، وإنما هي هناك في أرض الحجاز بجوار مكة .. الأرض المباركة .. أرض الأنبياء!

---

[204] يجب على الحكومات المصرية -تبعاً للمنهج الإسرائيلي- المطالبة بحقها في أرض العراق، التي كانت تابعة لها!!

مصر في التوراة

كما اعتمدنا على قراءة جغرافية وطبيعة مصر في القرآن لتحديد مكانها، نقوم هنا كذلك بقراءة بعضاً من جغرافيتها في التوراة، لنبصر بأعيننا هل تتفق مع طبيعة مملكة القبط وجغرافيتها، أم أنها تتفق مع طبيعة بلاد أخرى!

أول ما يلحظه الناظر في حديث سفر الخروج التوراتي عن خروج بني إسرائيل من مصر أنه يقول أن فلسطين قريبة منهم: "13: 17 وكان لما أطلق فرعون الشعب أن الله لم يهدهم في طريق أرض الفلسطينيين مع أنها قريبة لأن الله قال لئلا يندم الشعب إذا رأوا حربا ويرجعوا إلى مصر"، فحتى على فرض أن بني إسرائيل كانوا في محافظة الشرقية –وليسوا في جنوب مصر– فلا يمكن اعتبار فلسطين قريبة منها بالنسبة لجماعة من المشاة، لدرجة أنهم إذا رأوا حرباً قد يرجعون إلى مصر!

ناهيك عن أن التوراة قد بيّنت المكان الذي كان يعيش فيه بنو إسرائيل وهو "جاسان"، فيقول سفر الخروج: "8: 22 ولكن أميز في ذلك اليوم أرض جاسان حيث *شعبي مقيم* حتى لا يكون هناك ذبان لكي تعلم أني أنا الرب في الأرض"، فهل جاسان أرض مصرية، أم أنه ذلك الوادي الموجود في بلاد الحجاز، وباسمه سُميت منطقة جازان بأكملها؟!

وحتى لا يقال أن مجرد تشابه الأسماء لا يعني اتحاد المسميات، نذكر للقارئ بعض التعليمات التي تلقاها موسى بعد خروجه وبنو إسرائيل من مصر، وبعض المواطن الأخرى في التوراة، والتي تظهر ارتباط بنو إسرائيل باليمن –والتي تُذكر في التوراة باسم: مملكة التيمن–، فنجد مثلاً أن الرب يقول لموسى في سفر الخروج: "26: 18 وتصنع الألواح للمسكن عشرين لوحاً إلى جهة الجنوب *نحو التيمن*. (...) 26: 35 وتضع المائدة خارج الحجاب والمنارة مقابل المائدة على جانب المسكن نحو التيمن. (...) 27: 9 وتصنع دار المسكن إلى جهة الجنوب نحو التيمن (...) 36: 23

وصنع الألواح للمسكن عشرين لوحاً إلى جهة الجنوب نحو التيمن. (...) 38: 9 وصنع الدار إلى جهة الجنوب نحو التيمن." اهـ

ونجده يقول في سفر يشوع: "12: 3 والعربة إلى بحر كنّروت نحو الشروق وإلى بحر العربة بحر الملح نحو الشروق طريق بيت يشيموت ومن التيمن تحت سفوح الفسجة. (...) 13: 4 من التيمن كل أرض الكنعانيين ومغارة التي للصيدونيين الى أفيق إلى تخم الأموريين. (...) 15: 1 وكانت القرعة لسبط بني يهوذا حسب عشائرهم إلى تخم أدوم برية صين نحو الجنوب أقصى التيمن." اهـ

وغير هذه المواضع مواضع أخرى تربط إقامة بني إسرائيل بالتيمن؟! وما العلاقة بين اليمن وأرض الكنعانيين والصيدونيين والأموريين، والذين يُفترض أنهم في فلسطين، ... ما الذي جعل حدودهم تتداخل مع حدود مع مملكة التيمن[205]؟!

إن الإصرار على نسبة الجهات إلى اليمن، يعني أنها المملكة المجاورة لهم مباشرة، ومن ثم تُنسب الجهات إليها! فإذا كانت ديار بني إسرائيل بجوار اليمن، فإن القول بأن جاسان التوراتية هي وادي جازان الحجازي هو قول منطقي!

فإذا غضضنا الطرف عن مسألة المكان، وجدنا أن التوراة تقول أن البحر الذي عبره بنو إسرائيل كان جد صغير، حتى أن الواقف في ناحية يرى مَن في الناحية الأخرى، فيقول سفر الخروج: "14: 2 كلّم بني إسرائيل أن يرجعوا وينزلوا أمام فم الحيروث بين مجدل و البحر أمام بعل صفون مقابله تنزلون عند البحر (...) 14: 30 فخلص الرب في ذلك اليوم إسرائيل من يد المصريين *ونظر إسرائيل المصريين أمواتا على شاطئ البحر*"

[205] لم يقل القرآن أين كان ملك سليمان صراحة، إلا أنه أشار إلى أنه كان بالقرب من اليمن، وذلك في قول الرب عن الهدهد الذي أرسله سيدنا سليمان: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة النمل ,٢٢]، ومن غير المقبول أن يكون الهدهد الذي سافر من جمهورية فلسطين إلى اليمن قد مكث "غير بعيد"، بينما يُقبل هذا مع من ينتقل من منطقة في جنوب غرب مكة إلى اليمن!

والنظريات المطروحة بشأن عبور بني إسرائيل تقول أنهم عبروا خليج السويس –أو حتى البحيرات المرة– وهي كلها مسطحات مائية لا يمكن للناظر في أي ناحية منها أن يرى الموجود في الناحية الأخرى! ومن ثم فإن البحر الذي عبره بنو إسرائيل مسطح مائي صغير لا يزيد عرضه على أقصى تقدير عن مئات الأمتار! ومن ثم لا يمكن أن يكون للبحر المعبور علاقة بالبحر الأحمر بأي حال! يضاف إلى ذلك أن الوثن الموجود في الناحية الأخرى "بعل صفوان" والذي كان بنو إسرائيل يستطيعون رؤيته قبل عبورهم، لا يمكن إلا أن يكون عربياً! فالعرب هم من عرفوا عبادة البعل! واسم "صفوان" عربي لا محالة!

وسنغض الطرف عن ادعاء التوراة أن سيدنا داود وصل إلى الفرات وحارب هناك، (كما جاء في سفر صموئيل الثاني 8: 3 "وضرب داود هدد عزر بن رحوب ملك صوبة حين ذهب ليرد سلطته عند نهر الفرات")، ونكتفي بالتساؤل: هل حدث أن احتل نبوخذناصر مملكة القبط، كما ادعت التوراة في سفر الملوك الثاني 24: 7 "ولم يعد أيضا ملك مصر يخرج من أرضه لأن ملك بابل *أخذ من نهر مصر إلى نهر الفرات كل ما كان لملك مصر*"، فهل مصر التي احتلها نبوخذناصر هي مملكة القبط أم مصر أخرى؟! وهل حدث أن وصل فرعون مصري اسمه نخو إلى نهر الفرات وقُتل هناك؟! كما ادعت التوراة في سفر الملوك 23: 29 "في أيامه صعد فرعون نخو ملك مصر على ملك آشور إلى نهر الفرات فصعد الملك يوشيا للقائه فقتله في مجدو حين رآه"؟! إن هذه الدعاوي تطرح احتمالين: إما أن كانوا يؤلفون تاريخاً من رؤوسهم أو أنهم كانوا يتحدثون عن بلد غير مملكة القبط!

ولا يقتصر الأمر على الخلل التاريخي وإنما يتعداه إلى الجغرافي، فنجد مثلاً أن التوراة تتحدث عن "سعير"، والذي يمثل مسرحاً لسفريات وحروب وتنقلات بني إسرائيل، وقبلهم الخليل إبراهيم وإسحاق ويعقوب وعيسو، فإذا قارنه المرء بالمنطقة المسماة باسمها في فلسطين، والتي لا تزيد عن ثلاثة كيلو متر، فإن المرء يجزم أن هذه المنطقة الصغيرة لا يمكن أن تكون مسرحاً لهذه الأحداث كلها، وأنها لم تحدث فيها

أصلاً واختُلقت اختلاقا! أو أنها وقعت في مكان مشابه آخر أكبر مساحة بكثير يُسمى "عسير" ... في غرب الجزيرة العربية؟!

وختاماً فلقد فات المزورون موضعاً هاماً يبين حقيقة مصر التوراتية، وأنها ليست مملكة القبط العظيمة، ف "التوراة ذكرت سهواً في أحد مقاطعها مفردة مصريم بسياق العشيرة أو القبيلة، وهذا ما نقرؤه في المقطع التوراتي التالي: "14: 17 ويكون أن كل من لا يصعد من قبائل الأرض إلى أورشليم ليسجد للملك رب الجنود لا يكون عليهم مطر. 14: 18 وأن لا تصعد ولا تأت قبيلة مصر ولا مطر عليها تكن عليها الضربة التي يضرب بها الرب الأمم الذين لا يصعدون ليعيدوا عيد المظال[206]" اهـ

انكشاف التزوير

من الممكن أن تخدع كل الناس بعض الوقت، ومن الممكن أن تخدع بعض الناس كل الوقت، ولكن من غير الممكن أن تخدع كل الناس كل الوقت! ولأن الله هو الحق ولأنه أرسل رسوله بالحق، كان لزاما أن تُكشف وتُفضح عملية التزوير الكبرى، التي قام –ويقوم[207]– أتباع *الكتاب المقدس* بها، وقد كان! وبدأت تعلو الأصوات التي تثبت

[206] جمعية التجديد، اختطاف جغرافيا الأنبياء، ص. 472.

[207] ليس حكمنا على قيام كتبة التوراة بعملية تزوير متعمدة لجغرافية الأحداث دعوى بلا بينة، فهناك نماذج كثيرة لعمليات التحريف هذه، نذكر منها نموذجين، أولهما ما ذكره الدكتور أحمد حجازي السقا في كتابه: "من الفروق بين التوراة العبرانية والسامرية في الألفاظ والمعاني"، حيث يقول في ص.33. ""في الآية الثامنة عشر "بحر سوف" وفي السامرية "بحر القلزم" ا.هـ، وكما رأينا فقد غُير اسم بحر سوف إلى بحر القلزم، وهو الاسم القديم للبحر الأحمر، لتصبح الأحداث في مملكة القبط وليس غيرها. والنموذج الثاني نموذج حديث، وهو اسم النهر الذي كان موجوداً في مصر، فمن يبحث في نسخة الملك جيمس –أول ترجمة إلى الإنجليزية– عن كلمة "النيل" لن يجد لها أي ذكر، بينما يُذكر "نهر مصر"، وفي الترجمات اللاحقة أصبحت الكلمة تترجم ب "نهر النيل"! وهكذا عُدلت الجغرافيا ولا تزال تُعدل لتتفق مع الواقع ... ولكن الزيف لزام ساقط!

من خلال كتابهم –قبل القرآن والواقع– أن إبراهيم وموسى ومن معه ما كانوا في مصر ولا الشام[208]!

وكان من المفترض أن تُكتشف عملية التزوير هذه بعد نزول القرآن ومع التأصيل لحضارة إسلامية قائمة على هيمنة القرآن على الكتب السابقة، خاصة أن التزوير لم يكن متقناً بالقدر الكافي لأن يخفى على أعين الخبراء[209]! إلا أن جعل علماء المسلمين القرآن تابعاً للتوراة! وبحثهم عن تبريرات للأخطاء الموجودة في التوراة –كأنها كتابهم– كتب لها البقاء والهيمنة!

فنجد مثلاً أنهم قبلوا وجود أسماء مدن لم تكن قد أُنشأت في زمن موسى، وينسبون هذا إلى الكتبة المتأخرين، الذين سموا المدينة بالاسم الجديد المتأخر، ولست أدري لماذا الإصرار على أنه "تزوير" قائم على مجرد تسمية الأمكنة بالأسماء المتأخرة، وليس نقلاً للأحداث من مكان قديم لآخر حديث؟! ولسيطرة الثقافة التوراتية على عامة العقول كان علينا أن ننتظر إلى بدايات القرن العشرين الميلادي، حتى يظهر من يطرح احتمالية التحريف، وهو الناقد توماس كيلي شاين، في كتابه: حجاب التاريخ

[208] كنتُ من المتمسكين بالتصور التقليدي والرافض لهذا الرأي، وظللت على تمسكي هذا لما يزيد عن الأربع سنوات مستنداً لنفس الحجة: التاريخ ظني وسيأتي اليوم الذي يثبت فيه صدق القرآن. إلى أن وقعت على مقالات المهندس محمد حافظ في منتدى الواحة المصرية، والذي يكتب فيها باسم "egypt8"، والذي يتبنى الرأي القائل بأن مصر في جزيرة العرب، وتميزت كتاباته بتركيزها على طبيعة وجغرافية المنطقة، والتي لا تتفق بحال مع طبيعة جمهوريتنا المصرية، والجغرافيا لا يمكن الجدال فيها، فما كان مني إلا أن اقتنعت بالرأي. ويمكن القول أن هذا الفصل عمل مشترك بيني وبينه، فجزء كبير من عناصره هو من بنات أفكار المهندس حافظ، وأنا أدعو القارئ لقراءة مقالاته حول هذا الشأن في منتدى الواحة المصرية، ففيها تفصيل وتطويل وتدعيم بالصور، لا يمكن توفيره في هذا الكتاب!

[209] من ذلك ما ذكره باحثو جمعية التجديد في المرجع السابق، ص.249: "ذكرنا سابقاً أن موسى عليه السلام خرج ببني إسرائيل من منطقة تدعى مصر، وهي غير جمهورية مصر العربية، وذلك قرابة سنة 1300 ق.م كما أكد اليهود في مؤرخاتهم، مما حدا بهم لاتهام ملك القبط رعميس الذي حكم القبط في ذلك الزمن بأنه هو فرعون موسى(ع). لذا لا بد أن يكون عهد إبراهيم (ع) متقدماً كثيراً عن سنة 1300 ق.م طالما أن إبراهيم (ع) هو الأب السادس لكليم الله موسى. ويرجع اليهود عهد إبراهيم (ع) إلى 1991–1816 ق . م والأصح أنه كان حوالي سنة 1700 ق . م فما علاقة الحقبة التي كان فيها الخليل إبراهيم (ع) بمدينة أور في زمن الحقبة الكلدانية؟ لقد أنسى الله المزورين أن العهد الكلداني بدأ في حوالي سنة 626 ق. م وأنتهى في حوالي سنة 539 ق . م أي أن الدولة الكلدانية نشأت وانتهت بعد عهد نبي الله إبراهيم بما يقارب 1400 سنة فمن أين عرفت التوراة "الحقبة الكلدانية" إذا كان المُفترض أنها نزلت في عهد موسى (ع) أي في حوالي سنة 1300 ق. م ؟" اهـ

العبري، والذي صدر في عام 1913، وفي هذا يقول الدكتور أحمد عيسى الأحمد: "وهناك احتمال –أورده ويلز– بأن البلاد التي دخلها بنو إسرائيل وتعرضوا فيها –فيما بعد– للاضطهاد، لم تكن مصر (وهي بالعبرية مصرايم) وإنما (متسريم) وتقع في شمال الجزيرة العربية على الضفة الأخرى للبحر الأحمر. ويؤكد هذا القول (شاين) الذي يقول –كما مر معنا– إن بني إسرائيل وأسباطهم كانوا في شمال الجزيرة العربية، وإن النصوص الواردة في العهد القديم والمذكور فيها كلمة (متسريم) بالعبرية على أنها تشير إلى مصر، تلك النصوص حصل بها تحريف، إذ أن المقصود بها (متسريم) الواقعة شمالي جزيرة العرب.[210]" اهـ

وبعد فك علماء الآثار لشفرة قلم المسند، الذي كان مستعملاً في اليمن في العصور القديمة، بدأت الآثار العربية اليمنية تنطق وتعلن وجود "مصر" في جزيرة العرب، وأنها لم تعد مجرد افتراضية فكرية، وفي هذا يقول زياد منى: "فإن ما يهمنا من آثار معن هو النقش المعطى اسم "11155ج" نسبة إلى عالم الآثار النمساوي إدوارد غلازر، الذي عثر عليه في اليمن في مطلع القرن الحالي. وفي هذا النقش الطويل نسبياً نقرأ أن عمصدق ... كبرى مصرن ومعن مصرن، أي أن "عم صدق (كان) حاكماً، (أو والياً) لمصر ومعن المصرية[211]" اهـ

وليست الشواهد التاريخية مجرد نقش هنا أو بردية هناك! وإنما ذلك المتحف المفتوح المسمى باليمن خير شاهد، حيث لا تزال قراه ومدنه تحمل أسماء المدن والقرى المذكورة في التوراة، مثل حبرون (والتي جعلوها مدينة الخليل)، وصحراء سناء (والتي أسقطوها على سيناء) وعشرات الأسماء غيرها والتي لا وجود لها في فلسطين، والتي من بينها الاسم المحوري مصر، وفي هذا يقول زياد منى: "البرهان هو وجود العديد من المواقع التي ما تزال تحمل اسم مصر إلى يومنا هذا، ومنها "مصر" في منطقة بيشة "المصرمة" في منطقة أبها، و "آل مصري/ ذوي مصري" في منطقة الطائف. ويضاف

---

[210] أحمد عيسى الأحمد، داود وسليمان في العهد القديم والقرآن الكريم، ص.410.

[211] زياد منى، جغرافية التوراة: مصر وبنو إسرائيل في عسير، ص.55.

إلى ذلك قبيلة "مضر" الشهيرة، والتي تعود تسميتها ل"مصر". كما أُبلغت أنه يوجد في اليمن العديد من المواقع والمستوطنات التي تحمل اسم مصر، على الرغم من عدم تمكني من العثور عليها لعدم توفر المراجع ذات العلاقة. لكن معجم البلدان والقبائل اليمنية لإبراهيم أحمد المقحفي يذكر أن بني المُصري هم من قبائل يريم في خبان.[212]" اهـ

ولا يقتصر الأمر على اليمن وإنما يتعداه إلى كل الجزيرة العربية شرقاً وغرباً، فالشواهد والآثار التاريخية لا تزال تنتظر من يأتي فيكتشفها، لتصبح شاهداً جديدا على زيف الدعاوي التوراتية![213]

فهل سنظل بعد هذا كله متمسكين بالمزاعم التوراتية، التي تناقض نفسها، قبل تاريخ وجغرافية المنطقة، أم نعيد النظر في المسألة ونبدأ البحث والتقصي عن هذه الاحتمالية، التي تقول أن جغرافية التوراة "مصر وفلسطين والأردن ولبنان" كانت هناك في مقاطعة الباحة ومقاطعة نجران ومقاطعة جازان وفي جبال عسير السعودية وبعض المناطق اليمنية؟!

أعلم أن كثيراً سيرفضون التفكر في هذا الأمر لأسباب كثيرة[214] تجعله عندهم من المسلمات البديهية، وسيعدون من نقوم به تشكيكاً في ثوابت التاريخ! إلا أننا نحن من ندعوه لقراءة التاريخ، لينظر أي ثوابت هذه التي يستند عليها!

---

[212] المرجع السابق، ص.58.

[213] من ذلك قبر النبي "اليسع"، والذي قالت التوراة أنه كان مرسلاً في الشام، فنجد قبره في قرية الأوجام، إحدى قرى القطيف –في المنطقة الشرقية في السعودية–، ويقال أنه مدفون معه نبي آخر! فهل من المعقول أن يرسل في الشام ويدفن في شرق الجزيرة العربية؟!

[214] أسئلة كثيرة واعتراضات أكثر ستجول بخاطر من لم يسمع بهذه الاحتمالية من قبل، تدفعه لرفضها، من أهمها: لماذا أقدم اليهود على هذا التزوير أصلاً؟! ومتى قاموا به، وكيف أفلح اليهود في إسقاط أسماء بلدانهم الصغيرة على الممالك العظيمة بدون اعتراض من أهلها الأصليين ... الخ! فنحيله إلى كتاب: اختطاف جغرافيا الأنبياء، من إصدارات جمعية التجديد الثقافية، والذي عُني بالرد على هذه الأسئلة الجانبية، والتي قد تدفع الإنسان لرفض الموضوع الأصلي بدون أي براهين لرفضه نفسه! ونكتفي

فرعون .. العربي!

قصَّ القرآن من نبأ موسى وفرعون، ولم يقل القرآن أن فرعون لقبُ، وإنما قالت التوراة ذلك، وقالت بوجود فراعنة قبله وبعده، عاشوا جميعا في وادي النيل! إلا أن الناظر في التراث العربي يجد عجباً، فهو يجده يقول أن فراعنة مصر كانوا عرباً من العماليق ... أي أنهم كانوا من اليمن! وعندما قرأت هذه الروايات في صغري سخرت منها، وعددتها من قصر نظر الرواة العرب، الذين أعطوا لفرعون المصري اسماً عربياً! فمن ذلك ما ذكره ابن الأثير: "وكان فرعون مصر في أيامه قابوس بن مصعب بن معاوية صاحب يوسف الثاني، وكانت امرأته آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريّان بن الوليد فرعون يوسف الأول، وقيل: كانت من بني إسرائيل، (...) قال ابن عبّاس وغيره، دخل حديث بعضهم في بعض: إنّ الله تعالى لما قبض يوسف وهلك الملك الذي كان معه وتوارثت الفراعنة ملك مصر ونشر الله بني إسرائيل لم يزل بنو إسرائيل تحت يد الفراعنة وهم على بقايا من دينهم مما كان يوسف ويعقوب وإسحاق وإبراهيم شرعوا فيهم من الإسلام حتى كان فرعون موسى، وكان أعتاهم علي الله وأعظمهم قولاً وأطولهم عمراً، واسمه فيما ذكر الوليد بن مصعب.[215]" اهـ

ولا يقتصر الأمر على أسماء الحكام، وإنما يتعداه إلى الشخصيات المذكورة في الروايات، فنجدها كذلك أسماءً عربية! وعلى الرغم من أن كثيراً يقرءون هذه الروايات ويتقبلونها ويقدمونها على التاريخ المدون في البرديات، إلا أنهم لا يقفزون إلى النقطة

بالسؤال الأول: لماذا؟! فنقول: كان هذا التزوير لكي يصبح لليهود وطناً يقيمون فيه، ويدعون أنه حقٌ لهم! فلمّا دمّر نبوخذنصر مملكتي يهوذا وإسرائيل اليهوديتين، -واللذان كانا في جنوب جزيرة العرب وليس في فلسطين- وسبى أهلهما إلى بابل، حيث ظلوا هناك قرابة السبعين عاما! وهناك تعرض الجيل الأول من اليهود لصدمة حضارية، عندما شاهد مظاهر الحضارة الأشورية المبهرة، بينما أصبحت أمراً مألوفاً للجيل الثاني، وعندما أرجعهم كورش الأكبر للجنوب مرة أخرى حيث الصحراء وقلة المياه والتخلف البدوي، لم تكن عودتهم *للأرض الموعودة* شيئاً جيداً في نظرهم، ناهيك عن أنهم كانوا قد أصبحوا غرباء، بعدما استولى أحفاد إسماعيل وعيسو عليها، لذا رأى كثيرٌ منهم أن الانتقال ل*فلسطين* ذات الطبيعة الأنعم، والتي تخطو خطواتها الأولى في طريق الحضارة، أفضل من الدخول في صراعات مع "*ولاد العم*"! وتدريجيا أصبح لهم وجود نسبي في فلسطين، ورضوا بهذا الوضع، ومن ثم عملوا على محو تاريخهم القديم، وابتداع تاريخ يجعل البلد بلدهم منذ الآباء الأول!

[215] الكامل في التاريخ، على بن أبي الكرم الشيباني، تحقيق: عبد الله القاضي، الجزء الأول، ص. 130-131.

المنطقية التالية، وهي أنه إذا كانت أسماء كل الشخصيات عربية، فمن البديهي أن تكون الشعوب عربية! وأن يكون فرعون في بلاد جزيرة العرب!

وذلك لأنهم تقبلوا بدون أي ربط منطقي، التصور العجيب الذي قدّمه الرواة، فنجدهم يقبلون ما ذكره الإمام الطبري: "عن ابن إسحاق، قال: قبض الله يوسفَ، وهلَك الملك الذي كان معه الريان بن الوليد، *وتوارثت الفراعنة من العماليق* ملْك مصر[216]" اهـ

ولست أدري كيف يتوارث العماليق اليمنيون ملك مصر! بدون أي تبرير من الرواة لكيفية حدوث هذا! الذين لم يقولوا مثلاً أن اليمنيين احتلوا مصر، وإنما ذكروا هذا كأن هذا شيء مفهوم .. أن تُحكم مصر من إنسان يمني!!

وعلى الرغم من اختلاف الرواة في نسب فرعون، إلا أننا نجدهم يتفقون في أن اسمه الوليد بن مصعب، فنجد مثلا ابن الجوزي يقول في نسبه: "وكان الكهان قد قالوا لفرعون واسمه الوليد بن مصعب بن معاوية بن أبي نمير بن الهلوالش بن ليث بن *هاران* بن عمرو *بن عملاق*[217]" اهـ

كما أن الرأي الراجح عندهم أنه كان يمني، ثم مع انتشار الثقافة التوراتية القائلة بأنه كان قبطياً، ظهر رأي يقول أنه قبطي، فوجدنا اليعقوبي يقول في تاريخه:"ثم ملك فرعون موسى، وهو الوليد بن مصعب، فاختلفت الرواة في نسبه، فقالوا: هو رجل من لخم، وقالوا من غيرها من قبائل اليمن، وقالوا من العمالقة، وقالوا من قبط مصر[218]"اهـ

وبعد أن كان الخلاف في كونه من لخم أو غيرها من قبائل اليمن، أصبح هناك من يقول أنه قبطي، ثم أصبح الرأي المعتمد هو القائل بأنه قبطي، وأصبح من يقول أنه عربي يمني هو القائل بشاذ الأقوال، لمجرد مخالفته التوراة.

---

[216] محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري، الجزء الأول، ص.231-232.

[217] عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، الجزء الأول، .ص.332.

[218] أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، الجزء الأول، ص.186.

وحتى لا يقول القارئ: كيف تقول أن فرعون اسم علم، بينما تتقبل أن يكون هناك "فراعنة"؟! نقول: ثمة قبيلة عربية اسمها الفراعنة فعلاً، ولا يعني كون ذلك الشخص اسمه فرعون، أنه لم توجد قبيلة اسمها الفراعنة قبله! كما لا يعني ذكرنا إجماع الرواة العرب على أن اسمه كان الوليد بن مصعب، أننا نتقبل هذا الاسم، فنحن نقول أن اسمه كان فرعون، ونكتفي بالجزم بأنه كان عربياً يمنياً!

بيت الله

على الرغم من أن المسلمين يقرون أن بيت الله لكل الناس هو الكعبة، إلا أنها لا ترتبط في أذهانهم إلا بإبراهيم الخليل والرسول محمد، وذلك لاعتمادهم التاريخ التوراتي الذي جعل الشام أرض الأنبياء! ولست أدري كيف سيكون تصورنا لها لو لم يبرز القرآن علاقة الخليل بالكعبة!

والسؤال الذي نطرحه على القارئ المسلم المصدق بأن الأنبياء كانوا في الشام: ماذا كانت علاقتهم بمكة؟! هل كانت الكعبة –بيت أبيهم إبراهيم– هي بيتهم المقدس، البيت الذي يحجونه، أم أنهم كانوا يحجون بيتاً آخر؟! سيجيب المسلم أنها لا محالة بيتهم المقدس الذي كانوا يحجون! والذي حجّه كل الأنبياء، كما جاء في صحيح مسلم: "عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِوَادِي الْأَزْرَقِ فَقَالَ: أَيُّ وَادٍ هَذَا؟ فَقَالُوا: هَذَا وَادِي الْأَزْرَقِ. قَالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام هَابِطًا مِنْ الثَّنِيَّةِ وَلَهُ جُؤَارٌ إِلَى اللَّهِ بِالتَّلْبِيَةِ. ثُمَّ أَتَى عَلَى ثَنِيَّةِ هَرْشَى فَقَالَ: أَيُّ ثَنِيَّةٍ هَذِهِ؟ قَالُوا: ثَنِيَّةُ هَرْشَى. قَالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى عَلَيْهِ السَّلَام عَلَى نَاقَةٍ حَمْرَاءَ جَعْدَةٍ

عَلَيْهِ جُبَّةٌ مِنْ صُوفٍ خِطَامُ نَاقَتِهِ خُلْبَةٌ وَهُوَ يُلَبِّي." اهـ وكذلك حَجَّتْهُ كل شعوب العالم[219].

إلا أن المسلم ينسى أنه لا ذكْر –صريح– للكعبة ولا لمكة في كتب أهل الكتاب! إلا موضع واحد –نجى قدراً من آلة الحذف– في مزامير داود، يقول: "84: 2 *تشتاق بل تتوق نفسي إلى ديار الرب* قلبي ولحمي يهتفان بالإله الحي. 84: 3 العصفور أيضا وجد بيتا والسنونة عشا لنفسها حيث تضع أفراخها، مذابحك يا رب الجنود ملكي وإلهي. 84: 4 طوبى للساكنين في بيتك أبدا يسبحونك سلاه. 84: 5 طوبى لأناس عزهم بك طرق بيتك في قلوبهم. 84: 6 عابرين في وادي البكاء[220] يصيرونه ينبوعا أيضا ببركات يغطون مورة" اهـ

فإذا كان الأنبياء وأتباعهم يحجون الكعبة، وتعمدت التوراة إغفال ذكر هذا الركن الديني الكبير والرحلة *المكرورة* سنوياً، وقامت بإبراز بيت آخر كمُقدس لليهود، فإن هذا يدفعنا إلى التساؤل: لماذا حرص كاتبو التوراة على إخفاء أي صلة بينهم وبين الجزيرة العربية؟! ومن ثم لم يذكروا مكة ولا الكعبة، كما جعلوا مواطن أنبيائهم في العراق وفي الشام، وجعلوا مقدساتهم فيها! ألا يكون في هذا إشارة إلى رغبتهم في التبرؤ من ماضيهم الذي يقول أنهم كانوا من وفي جزيرة العرب، قبيلة من القبائل العربية، التي قُدر لها أن تورث الكتاب؟!

---

[219] يذكر الأستاذ علي حسني الخربوطلي مظاهر تقديس الأمم المختلفة للكعبة فيقول في كتابه: الكعبة على مر العصور، ص. 25: "وقد كان الهنود يعتقد أن روح شبوه أحد آلهتهم ، قد تقمصت "الحجر الأسود"، حين زار هو وزوجته "بلاد الحجاز"، ويسمون (مكة) (مكشيشا) أو (موكشيشا) أو (موكشيشانا)، أي "بيت شيشا" أو (شيشانا)، وهما من آلهتهم. وكان الفرس أيضا يقدسون الكعبة ويعتقدون أن روح (هرمز) حلت فيها، ولذا كانوا يحجون إلى الكعبة. ويذكر المؤرخ (المسعودي) أن (الفرس) كانت تعتقد أنها من ولد (إبراهيم الخليل) عليه السلام، وقد كانت أسلافهم تقصد "البيت الحرام" وتطوف به تعظيماً لجدهم (إبراهيم)، وكان آخر من حج منهم، حسب المسعودي، (ساسان بن بابك)، ويذكر (ياقوت الحموي) أن "بئر زمزم" سميت بهذا الاسم لأن الفرس كانت تحج إليها في الزمن الأول، فزمزمت عليها، والزمزمة صوت تخرجه الفرس من خياشيمها عند شرب الماء، (...) وكانت (الصابئة) –وهم عُباد الكواكب، من الفرس و(الكلدانيين)– يعدونها أحد البيوت السبعة المعظمة" اهـ

[220] تظهر كلمة "البكاء" في نسخة الملك جيمس –وهي من أدق الترجمات الإنجليزية وأقدمها– هكذا: "**Baca**"، ولو كان المقصود البكاء لقيل: **weeping** أو حتى **crying**، وهذا يعني أن المترجم فهم أن بكة اسم الوادي فوضعه كما هو، بينما جعله المترجم العربي "بكاء"! وغني أن الذكر أن أول بيت وضع للناس للذي ببكة!

ولقد أشار القرآن إلى معرفة موسى وقومه بالكعبة والحج، وأنه لم يكن بالشيء الغائب عنهم، فنجد ذلك في قوله: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٢٧﴾ [سورة القصص, ٢٧]، والحجج كما قال المفسرون ثمان سنوات، إلا أنها مأخوذة من "حج"، وهذا يشير إلى أن المقيمين في تلك المنطقة كانوا يؤقتون مرور العام بموسم الحج، فإذا عاد موسم الحج فقد انقضى عام، وهكذا! ونلاحظ أن سيدنا موسى لم يسأله: ما هي الحجج، وإنما أجابه مباشرة! وهذا يعني أن شعيرة الحج من الشعائر المعروفة المألوفة.

ولا يقتصر الأمر على القرآن وإنما نجد في تراثنا العربي الروايات التي تقول أن بني إسرائيل كانوا يحجون الكعبة "فينقل لنا الفاكهي هذا الخبر: "حدثنا حسين بن حسن المروزي قال ثنا مروان بن معاوية قال ثنا حاتم بن أبي مغيرة عن ابن أبي مليكة قال: قال ابن الزبير رضي الله عنهما: إن هذا البيت كان يحجه من بني إسرائيل سبعمائة ألف *يضعون نعالهم بالتنعيم* ثم يدخلون حفاة تعظيما له."

كما وينقل الأصبهاني هذا الخبر: "حدثنا أحمد بن إسحاق ثنا عبد الله بن سليمان ثنا محمود بن خالد ثنا عمرو بن عبد الواحد عن الأوزاعي ثنا عبده بن أبي لبابة عن مجاهد قال: كان يحج من بني إسرائيل مائة ألف فإذا بلغوا أنصاب الحرم *قلعوا نعالهم* ثم دخلوا الحرم حفاة"، ويضيف الفاكهي مزيدا من التفصيل في هذا المقتبس: "حدثنا محمد بن أبي عمر قال ثنا سفيان عن مسعر عن مصعب بن شيبة عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهم قال: كانت الأمم من بني إسرائيل إذا جاءوا ذا طوى خلعوا نعالهم تعظيما للحرم[221]" اهـ

فكما قيل لموسى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢﴾ [سورة طه, ١٢]، كان اليهود يخلعون نعالهم في وادي ذي طوى ويدخلون الحرم حفاة!

---

[221] جمعية التجديد الثقافية، اختطاف جغرافيا الأنبياء، ص.324.

فالكعبة هي بيت الله في الأرض المقدسة: مكة! البلد الطيب، وفي جوارها وبالقرب منها عاش الأنبياء وماتوا، فإلى متى نظل نبحث عن الأنبياء في الشام؟!

لماذا الأنبياء عرب؟!

نعود مرة أخرى لهذا السؤال: لماذا الأنبياء عرب؟! ولماذا قص الله الأحداث التي جرت فقط في جزيرة العرب؟! سؤال طرحه ويطرحه كثيرٌ على أنفسهم ... والآخرين؟! هل في العرب مزية معينة، جعلت الأنبياء منهم؟! هل هم شعب الله المختار؟! لماذا يرسل الله أنبياءً من أمة "متخلفة" في هذه المجتمعات البسيطة، ويقص أحوالهم في كتابه الخاتم ولا يقص قصص أنبياء الأمم العظيمة مثل أنبياء القبط وفارس والهند والصين، إذا كان قد أُرسل إليهم؟! سؤال حيّرني كثيراً ثم فتح الله العلي لي فيه، فليست المسألة مسألة شعب وإنما مسألة ذرية مصطفاة .. محبة .. راغبة .. طالبة!!

ولقد بين الله العليم آلية الاصطفاء، سواءً للأنبياء أو لغيرهم في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٣ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٣٤﴾ [سورة آل عمران, ٣٣-٣٤]

ومسألة أن الأنبياء كلهم من ذرية واحدة "ذرية نوح وإبراهيم" مسألة معروفة عند عامة المسلمين، إلا أنها غير معللة تعليلاً مقبولا! وذلك لأنهم لم يضعوا آخر الآية: "والله سميع عليم"، في سياقها السليم! فالله العليم يختم حديثه عن الاصطفاء بقوله أنه سميع .. عليم! أي أن الاصطفاء قائم على سمع وعلم، ومن ثم فهناك من نادى وسمع الله نداءه، وهو وحده أعلم بمن يستحق الاصطفاء!

إذا فآلية الاصطفاء قائمة على أنه ثمة ذرية معينة من البشر، بعضها من بعض، توارثت سمات معينة، أحبت الله حباً جما، وتعلقت به تعلقاً شديداً، وأحبت أن تكون من

السائرين في طريقه! فنادوا الله وناجوه! فسمع الله دعائهم وعلم بحالهم، فاصطفى من هؤلاء المحبين المتعلقين، كلاً على حسب حاله، فاصطفى من يصلح للنبوة لها، ومن يصلح لمرتبة أقل لها .. وكل يُصطفى لدورٍ حسب حاله ومكنته! فليست المسألة مسألة حب فقط، وإنما حب وقدرة ورغبة! ولأن أصول الأنبياء تعلقت بالله تعلقاً شديداً ورغبت في أن تُكمل ذريتها بعدها المسيرة، أورثت ذريتها هذه المحبة والرغبة، فجاءت الأنبياء كلهم من نسل آدم ونوح وإبراهيم!

ولا يعني قولنا هذا أن الأنبياء دعوا الله قبل بعثتهم أن يكونوا أنبياء، وإنما نعني أن رؤوسهم كانوا محبين الله مشتاقين الله، فأنعم الله عليهم بالنبوة والرسالة، ثم دعا هؤلاء الأنبياء بعدما رأوا الفتوحات الربانية في النبوة أن يجعل الله النبوة في ذريتهم، فاستجاب الله العليم لهم.

وبغض النظر عن الخليل الذي دعا الله أن يجعل الإمامة في ذريته، فإن من يقرأ الآيات التالية يجد قولنا مستخرجاً منها، فهي نماذج لتوارث النبوة أو إيجادها بناءً على دعاء الآباء الصالحين: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (...) وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ (...) إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة آل عمران, ٣٥-٤٥]

فنجد الآيات تذكر امرأة عمران التي نذرت ما في بطنها لله، وبعد ولادتها لم تكتف بإعاذة ابنتها وإنما كذلك ذريتها، وعندما رأى زكريا ما يحدث مع مريم نادى ربه نداءً خفيا أن يهب له ذرية طيبة يرث آل يعقوب والنبوة، فبشرته الملائكة بنبي ... قبل أن يولد! واستجابة لدعاء امرأة عمران اصطفى الله مريم، وجعل من نسلها عيسى عليه السلام، وبشرتها الملائكة بنبوته من قبل أن يولد كذلك!

وبالإضافة إلى مسألة حب الله المتوارث فهناك مسألة العلم به! فهؤلاء توارثوا معرفة الله بأسماءه الحسنى، معرفة سليمة بعيدة عن الغلو والشطط والتجسيد منذ الأجيال الأولى للبشرية حيث كانت الحضارة الأولى .. العربية، وهذه نقطة لم تكن متوفرة لدى كثير من المجتمعات البشرية، التي شاب تصور الإله عندها تصورات وثنية تجسيدية! فهؤلاء أعرف الخلق بالله.

لذا علينا أن نصحح نظرنا للأنبياء ولظروف بعثتهم، فلا ننظر إليهم كأفراد في أمة متخلفة، حولها الحضارات العظيمة، وإنما ننظر إليهم باعتبارهم مبعوثين في أمة كانت مهد الحضارات، فأنشأت حضارة قبل كل الحضارات ثم انهارت في الوقت الذي كان الآخرون ينشئون حضاراتهم، وكان أتباعها يعيشون مرحلة الانهيار، والأنبياء أبناء بيئتهم!

ويجب أن نتذكر أن هذا كان حال المتأخرين منهم وليس حال كل الأنبياء، فلقد بُعث الأنبياء الأوائل في الحضارات الأولى، فمع الحضارة الأولى كان هود ثم صالح. وبعدها أخذ العرب في الانتقال والانتشار في أنحاء العالم، ونشأت حضارات في أماكن أخرى مثل وادي النيل وفارس ... الخ!

إلا أنها كانت بمثابة الفروع، بينما كان الأصل هناك في جزيرة العرب، ومن الأصل الأصح معرفة بالله كان الله يبعث الرسل! ثم يحمل أبناء الجزيرة *العقيدة* إلى الأمم المجاورة! ومن جزيرة العرب أخذت كل الحضارات معتقداتها ثم أصابها ما أصابها من التحريف والإضافة!

الفصل الثالث: الأسماء في القرآن

قص القرآن العزيز من أنباء الرسل ما يُثبت به الفؤاد، ومما قصّه أسماء الرسل الذين بلغوا رسالات ربهم إلى أقوامهم، مثل إبراهيم وإسحاق ويعقوب وغيرهم من السابقين واللاحقين! ولأن ثقافة التزوير التوراتي كانت هي المهيمنة والمسيطرة، والتي تقول بأن الأنبياء كانوا في أرض الشام، وأنهم كان لهم لسان غير اللسان العربي وهو اللسان العبراني، قيل بأن أسمائهم كانت عبرانية، ومن ثم ظهرت إشكالية الأسماء الأعجمية في القرآن![222]

فكيف يكون القرآن العربي مشتملاً أسماء أعجمية؟! ولقد بيّنا كيف أن الأنبياء قبل الأسر البابلي لليهود كانوا كلهم في جزيرة العرب، ومن ثم فألسنتهم وألسنة أقوامهم عربية .. وحتما أسمائهم كذلك! ولقد بيّن القرآن أن الكتب القديمة كانت باللسان العربي كذلك، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ١٩٥ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ١٩٦ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ١٩٧ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ١٩٨ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ١٩٩﴾ [سورة الشعراء ,١٩٢-١٩٩]، فالقرآن يبيّن أنه بلسان عربي مبين وأنه في زبر الأولين، ووجوده في كتب السابقين يعني أنها كانت بلسانه! ويؤكد هذا بأنه لو نُزل على بعض الأعجمين ما كان ليؤمن به علماء بني إسرائيل! فالعلماء منهم هم من يعلمون الكتب السابقة لهم ولسانها، ومن ثم فهم ينتظرون كتاباً عربياً مع نبي عربي، ولو جاء الكتاب العربي مع نبي أعجمي لما قبلوه، لأن الأنبياء عرب .. والكتب عربية!

[222] الناظر في الكتب التي عرضت لمسألة الأعجمي في القرآن يجد أنها لم تقصره على أسماء الأنبياء، ولا على اللغة العبرية وإنما جعلت في القرآن من الهندية والفارسية والرومية والبهلوية والحبشية والنبطية واليونانية!!! والفينقية والسريانية والآرامية والقبطية ولسان أهل المغرب! وأتساءل: أي لغة قديمة لم يأخذ القرآن منها؟! وأعجب: هل ضاق اللسان العربي بالمفردات، فلم يجد الرب العليم إلا أن يأخذ من اللغات الأخرى كلماتٍ تؤدي المعنى؟!

ولأن السابقين لم تتوفر لديهم هذه المعرفة نشأ الخلاف حول وجود أسماء أعجمية في القرآن، –ولا يزال مستمراً– فقبل بعضهم بوجود أسماء ذات أصول أعجمية، –ويُنسب إلى ابن عباس أنه أول من قال بهذا!–، بشرط سريانها على قواعد اللسان العربي، أي أنّها عُرِّبت، وطالما أنها خضعت لقواعد العربية صوتا وصرفا فيمكن اعتبارها عربية. ورفض آخرون وجود كلمة أعجمية واحدة في القرآن، مثل الإمام الطبري والباقلاني والأشعري وابن فارس، واستندوا إلى آيات كثيرة أكد الرب فيها عربية الكتاب، مثل قوله الرب العليم: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢﴾ [سورة يوسف, ٢]، وقالوا أن من قال بالعجمة فقد أكبر! وعدّوا الكلمات التي قيل بعجمتها من المتشابه بين اللغات، التي اتفقت فيه. إلا أن القول بالتشابه بين اللغات لم يعد مقبولاً عند علماء اللغويات، إلا إذا قيل أن أحدها أصل والآخر فرع، فأخذ الفرع – أو الفروع– عن الأصل!

والقول بالأعجمي في القرآن دعوى أطلقها بعض السلف، الذين لم يكونوا علماء لسانيات، ثم أتى مِن بعدهم من يجعل لأقوالهم اعتباراً مخصوصا، فاعتُبرت رأياً معتبرا، على الرغم من أن قول أولئك السلف لم يكن قائماً على البحث أو الدراسة العلمية المتخصصة، وإنما على الرأي الشخصي، والذي يرى التشابه بين الكلمة وأخرى في لغة أخرى فينسبها إليها! ومن ثم وجدنا بعض الأقوال تنسب نفس الكلمة إلى السريانية وأخرى إلى الفارسية وثالثة إلى الرومية!!

والمستند الأكبر للقول بأعجمية الأسماء عند كثيرين هو عدم صرفها، أي أنها لا تُنوَّن! وهي حجة لم تطرد مع كل الأسماء ولم تسلم من مخالفة، فنوح ولوط مصرفان، ولا يعني عدم سريان الأسماء على قاعدة من قواعد اللغة أنها أعجمية، وإنما يعني هذا أن اللغويون لم يوفقوا إلى استخراج القاعدة السليمة لها! ونعود فنقول: إن النقطة التي يغفل عنها أكثر المتعرضين لهذه المسألة هي أن القرآن نزل بلسان عربي مبين، بينما كان لسان الأنبياء السابقين *لسانٌ عربيٌ قديم*! واللسان العربي –قبل القرآن– تطور وتغير مثل كل اللغات، ومن ثم فمن المنطقي أن يندر استعمال بعض الأوزان مع مرور

الزمان، وتنشأ أوزان أخرى وهكذا، ومن الأوزان التي ندر استعمالها "إفعيل"، والذي جاء على وزنه "إبليس" و"إنجيل"، فلا يزال مستعملاً مع كلمات قليلة، مثل إحليل وإبريق، وكذلك "فعلوت" والذي جاء على وزنه طالوت وجالوت وهاروت وماروت وملكوت، ووزن "فاعول" مثل طاغوت وكافور، ومن استعمالاتنا المعاصرة له: "قاموس". وهذه الكلمات ذات الأوزان التي لم تعد العربية المُبينة، التي نزل بها القرآن، تميل إلى استعمالها، كان لها حتماً قواعد في الاستعمال تتفق مع العربية الحديثة في بعضها وتخالفها في أخرى، ومن أوجه المخالفة أن هذه الكلمات لم تكن تنون لطبيعة أوزانها، وكذلك استثقل اللسان كسرها فكانت مفتوحة أو مرفوعة!

وختاماً نقول: اللسان العربي هو أصل كل اللغات، وهو الذي كان موجوداً في كامل الجزيرة العربية، وكونه لساناً واحداً لا يعني عدم وجود فروق بين لهجاته المختلفة، وفي هذا يقول العلّامة اللغوي الدكتور علي فهمي خشيم: "في الدراسات اللغوية الحديثة والمعاصرة ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن ما يُسمى مجموعة "اللغات السامية" (التي نفضل أن ندعوها: اللغات العروبية) كانت لغة واحدة في الأصل، أو ذات أصل واحد، وأن هذه التقسيمات من شمالية وجنوبية وغربية وشرقية، ومن أكادية، كنعانية، سبئية، مصرية ... الخ، ليست إلا "لهجات" (لاحظ أن الجذرين "لغا" و "لهج" يفيدان معنى واحدا. لغة: لهجة). وبذا فإن ما يُسمى: عبرية، سريانية، حبشية، نبطية، كلها تصدر عن منبع واحد. (...) والمؤكد أن هذه التقسيمات اللغوية فكرة برزت في القرن الثامن عشر على يد "شلوتزر" الذي استوحاها من التوراة، ولا أساس لها من العلم. والذي يتفق عليه الباحثون أن العربية (نسبة إلى جزيرة العرب) تمثل هذه اللغة الأم (أو مجموعة اللغات) خير تمثيل من جانبين، باحتوائها على الأصول الأولى لهذه اللغة من جهة في معجمها، وبالتطور البديع الذي ظهر فيها فكانت قادرة بهذا على التعبير عن كل المسائل صغيرها وكبيرها.[223]" اهـ

[223] علي فهمي خشيم، هل في القرآن أعجمي، نظرة جديدة إلى موضوع قديم، ص.10-11.

ويترتب على القول بعربية الأسماء الحكم بأن الأسماء المذكورة في القرآن هي الأسماء الأصلية للأنبياء وللشخصيات المذكورة، وليس أنها كانت بشكلٍ آخر، وكان العرب ينطقونها بهيئة معينة، فنزل القرآن بالشكل المألوف عند العرب! فالأسماء المذكورة هي التي سُمي بها الأنبياء وخوطبوا! ومن ثم فإن النطق الأصلي للأسماء هو النطق القرآني العربي، وليس النطق العبري![224]

وكذلك فإن اسم الإله الذي دعا إليه كل الأنبياء، هو "الله" وليس أي اسم آخر! فلم يكن اسماً آخر ثم تطور إلى "الله"، ولا اشتُق من كلمة "إله"، والدليل على ذلك أن سيدنا نوح دعا قومه إلى عبادة "الله"، فقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩﴾ [سورة الأعراف, ٥٩][225]، وهو الاسم الذي بدأت تفصح عنه مخطوطات الكتاب المقدس، الذي عمل اليهود على محوه منه!

ولا يعني كون اسم "الله" هو اسم الإله الحق منذ أول البشرية، أنه لم يكن له "أسماء حسنى"، أو اسم آخر مثل الرحمن مثلاً. وهناك من يجعل الاسم "إيل" والذي نجده

---

[224] لا يعني هذا أننا نناقض قولنا أن أسماء الأنبياء كانت بلسان قديم أو بلهجة من اللهجات العربية المختلفة، وإنما لأن اللسان العربي –لسان القرآن– هو الذي كُتب له البقاء، بينما اندثرت اللهجات الأخرى أو كادت، وخاصة اللهجة المسماة بالعبرية، لأنها لم يبق من يتحدث بها وكانت مجرد لغة على أوراق وليست لغة متداولة! وأُجريت لها عملية إحياء في القرن التاسع في أوروبا، على يد علماء اللغة الألمان، والذين لم يكونوا يستطيعون نطق بعض الحروف، مثل الحاء والعين والقاف، فجعلوا الحاء خاء، والعين همزة، والقاف كاف، ناهيك عن أنهم كانوا ينطقون حرق الباء مثل حرف v الإنجليزي، ناهيك عن اعتمادها على التصويت المسوري لها، (والذي أضاف متحركات إلى اللغة العبرية، حسب اجتهاد القائمين عليه، الذين ما كانوا يعرفون كيف تُنطق الكلمات أصلاً)، ومن ثم أصبحت اللغة العبرية بعيدة عن الأصل العربي، لدرجة يمكن اعتبارها لغة مستقلة، على الرغم من أنها كانت إحدى لهجاتها، ولهذا نجد تنافراً لفظيا في مفردات هذه اللغة. ولا يمكن لمنصف بحال أن يقدم نطق لغة ماتت وأعيد إحيائها على أيد أناس ليسوا من أبنائها، على نطق اللسان العربي المبين، الذي توارثته أجيال من أجيال كابراً عن كابر!

[225] حتى لا يقال أنه من المحتمل أن اسم الإله عند قوم نوح كان اسماً آخر، وذكر القرآن الاسم المشتهر والمستعمل عند العرب نقول: سمّى الله نفسه في القرآن "الرحمن"، وهو اسم لا تعرفه العرب –كما جاء في الروايات– وكما جاء في قول الرب العليم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۝٦٠﴾ [سورة الفرقان, ٦٠]، ولو كانت العبرة بالمعرفة وعدمها لما ذُكر هذا الاسم!

في بعض أسماء الأنبياء، مثل إسماعيل وبعض الملائكة مثل "جبريل" [226]من أسماء الله الحسنى في اللسان القديم. مثل "الرحمن" في اللسان العربي الحديث، وبهذا يكون جبريل مثلاً يعني: "جبار الرحمن"!

وليس سعينا لإثبات أن الأسماء عربية لمجرد القول أن الأسماء التي قصّها القرآن هي الأسماء التي كان هؤلاء الأنبياء يُدعون بها، وإنما لمسألة أهم وهي النظر في معاني أسماء الأنبياء وأقوامهم، وربطها بدعوتهم وبالآفات التي استشرت في الأقوام وبمنهج الأنبياء في الدعوة، ولقد قدّمنا للقارئ نموذجاً لهذا في أثناء حديثنا عن ثمود وصالح، وكيف أن صالح أتى ليعالج الثمد! ولو تدبر القارئ في باقي أسماء الأنبياء وربطها بأسماء الأقوام، فسيجد فيها إشارات تزيد من فهمه للقصة! كما سيجد في اسم النبي إشارة إلى سمة مميزة فيه وفي حاله، فليست الأسماء مجرد دوال على أشخاص، فالله الذي يختار أنبيائه من قبل ميلادهم، لا يوجد ما يمنع أن يجعل أسمائهم مناسبة للمهمة التي سيقومون بها، وللدور الذي سيؤدون!

عيسى

على الرغم من اختلاف أسماء الأنبياء المذكورة في القرآن عن تلك المذكورة في الكتاب المقدس، إلا أن أكثر المسلمين لا يهتمون لهذا الاختلاف، بل وقد يتقبلونه، إلا أنهم يتوقفون مع اسم عيسى (وكذلك يحيى)، ويصرون أن هذين الاسمين هم الاسمان الأصليان لهما، ويرفضون الاسمين: يوحنا ويسوع، ويعدونهما من باب التحريف أو الخطأ (ولست أدري لماذا لم يقولوا بهذا مع باقي الأسماء!).

[226] يسوي أصحاب هذا الرأي بين المقطع "إيل" الذي نجده في كلمة مثل "إسرائيل" و"يل" الذي نجده في إسماعيل وجبريل وإنجيل! ومن ثم يجعلون "جبريل" مثل "جبرائيل"، وهو ما لم يقله القرآن! بل والأنكى يجعلون "ميكال" "ميكائيل"! على الرغم من أن الله لم يقل ذلك! وأنا أميل إلى أنه لا علاقة للمقطع "يل" الموجود في آخر هذه الأسماء ب "إيل"، وأنه علامة من علامات التفخيم أو التعريف!

والسؤال هنا: هل يسري على يحيى وعيسى ما يسري على من قبلهما من الأنبياء الذين ذكرهم القرآن؟! فلقد قلنا أن كل الأنبياء قبل الأسر البابلي لليهود كانوا في جزيرة العرب، ويحيى وعيسى بُعثا بعد الأسر البابلي، بعدما عاد اليهود من العراق إلى أصلهم في جنوب الجزيرة، ثم هاجروا إلى فلسطين واستقروا هناك، فهل بُعث يحيى وعيسى في فلسطين أم أنهم كانوا كذلك في جزيرة العرب؟ وهل أسمائهم عربية أم عبرية؟ فنقول: أولاً: العبرية لهجة عربية تختلف تماماً عن العبرية الحديثة المختلقة، فما العبرية القديمة إلا اللغة الكنعانية، لغة قبيلة حمير!! ثانياً: الشائع والمشتهر أن المسيح وُلد في فلسطين، وفي بيت لحم تحديدا[227]، وهو أمر معروف، إلا أننا نجد ابن كثير يقول في كتابه قصص الأنبياء: "قد تقدم أنه ولد ببيت لحم قريبا من بيت المقدس. وزعم وهب بن منبه أنه *ولد بمصر* وأن مريم سافرت هي ويوسف ابن يعقوب النجار وهي راكبة على حمار ليس بينهما وبين الإكاف شيء. وهذا لا يصح.[228]" اهـ

وصدور هذه الكلمة عن وهب بن منبه الإخباري القصاص يدعو المرء إلى التفكر كثيرا، فهل كانت مجرد كلمة صدرت خطأ أم أن ما لديه من العلم كان يقول أن عيسى عليه السلام كان في مصر الجزيرة العربية؟! والأعجب ما ذكره الإمام ابن قيم الجوزية في كتابه إغاثة اللهفان (ناقلاً عن السموءل المغربي الذي كان يهوديا وأسلم): "قوله في التوراة جاء الله تعالى من طور سيناء وأشرق نوره من سيعير واستعلن من جبال فاران ومعه ربوات المقدسين، وهم يعلمون أن جبل سيعير هو جبل السراة الذي يسكنه بنو العيص الذين آمنوا بعيسى ويعلمون أن في هذا الجبل كان مقام المسيح ويعلمون أن سيناء هو جبل الطور، وأما جبال فاران فهم يحملونها على جبال الشأم وهذا من بهتهم وتحريف التأويل، فإن جبال فاران هي جبال مكة و فاران اسم من أسماء مكة[229]" اهـ

[227] المشهور أن "بيت لحم" هي مدينة في دولة فلسطين، إلا أن العميد جمال الدين شرقاوي أثبت في كتابه: "قضايا مثيرة في المسيحية والإسلام" أن المقصود ب "بيت لحم" في الكتاب المقدس عشيرة إسرائيلية صغيرة وليس مدينة!!

[228] إسماعيل بن كثير الدمشقي، قصص الأنبياء، الجزء الثاني، ص. 411.

[229] ابن قيم الجوزية، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان. الجزء الثاني، ص. 466.

وجبال السراة هي سلسلة الجبال الموجودة في غرب الجزيرة العربية على البحر الأحمر، وبنو العيص يسكنون في جنوب الجزيرة العربية! فهل كان ابن القيم يقول أن عيسى بن مريم لم يكن في فلسطين؟! فهل كان عيسى في جنوب الجزيرة ثم انتقل إلى فلسطين؟!

وسواء كان في الجزيرة ثم انتقل إلى فلسطين أو كان في فلسطين ابتداءً، فاسمه كما جاء في القرآن، وليس "يسوع" كما ورد في الكتب المسماة بالأناجيل المعربة! وكذلك يحيى عليه السلام، فاسمه يحيى وليس يوحنا! وليس هذا القول تعصباً للقرآن، وإنما اعتماداً على كون القرآن النص الأصلي ووثوقية نقله، والتي لم تتحقق بحال في تلك الكتب، التي عُربت من لغة مترجَم إليها! فهي نصوص معربة من نصوص يونانية، لا يُعلم أين النصوص الأصلية لها!

يضاف إلى ذلك كون اللغة التي كان المسيح يتكلم بها من لغات اللسان العربي، ومن ثم فالمنطقي أن يكون النطق العربي هو الأصح لأسمائها! والنقطة الفاصلة هي وجود أصل واشتقاق لهذه الكلمة في اللسان العربي، بينما لا توجد في غيره، يضاف إلى هذا أن المعنى الذي يقدمه اللسان العربي هو الدور الذي قام به المسيح، وفي هذا يقول العميد جمال الدين شرقاوي: "فإن كان الاسم المبارك عيسى أعجميا كما يقولون. فمن أى لسان، وأي لغة يوجد بها ..؟! وفى أى منطقة أعجمية نشأ هذا الاسم..؟! (...) ولم يُعْرَف هذا الاسم خارج موطن العرب فلا اليونان ولا الرومان ولا الفرس كان بينهم ذلك الاسم. بل نجد أنَّ هناك كثيرا من رجالات عرب الجاهلية قد تسموا بهذا الاسم أيضا قبل وبعد ظهور الإسلام. (...) وإذا ذهبنا نبحث عن المادة اللغوية (ع و س) أو عن (ع ى س) في المعاجم اللغوية العربية لوجدنا لها أثرا لا ينكره أحد. فالعيس هى كرائم الإبل وأحسن أنواعها. يميل لونها إلى اللون الأبيض الضارب للصفرة. ولك أن تقول بأنَّ اللون أشقر بلغة العصر ..!! جاء فى المعجم الوسيط (ج 2 ص 639) ما يأتي: "تعيست الإبل: صار لونها أبيض تخالطه شقرة. الأعيس من الإبل: الذي يخالط بياضه شقرة والكريم منها. والجمع عِيس. العيساء:

مؤنث الأعيس" انتهى. وقال الزبيدي فى تاج العروس (ج 4 ص200): "(...) ويقال اشتقاقه من شيئين أحدهما العيس والآخر العوس وهو السياسة ، فانقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها (...) قلت جمال: ونخرج من هذه الأقوال بأنَّ الاسم عيسى عربي اللسان له اشتقاق في اللغة العربية، فهو إمَّا أن يكون مشتقا من العيس وإمَّا أن يكون مشتقا من العوس بمعنى السياسة. وأنَّ مفرده عِيسَى وعِيسِى بفتح السين أو إمالتها. والجمع منه عِيسٌ وعيسون والمثنى منه عيسين ومؤنسه عيساء. وكلمة عيسى فيها إشعار باللون الأبيض الذي تخالطه شقرة. وفيها أيضا معنى الإنذار بقرب نهاية الزرع إذا خلا من الرطوبة وأصْفرَّ لونه ويَبُسَ. والمسيح عيسى بن مريم عليه السلام نجد فيه هاتين الصفتين: فالمسيح عليه السلام كان لونه أشقر (أبيض مشرب بصفرة). كما أنه عليه السلام كان آخر أنبياء بنى إسرائيل. وقد أعلم عليه السلام قومه بانتقال الملكوت والرسالة منهم إلى أمَّة أخرى، هي الأمَّة العربية وذلك من خلال ضربه لمثل الكرم والكرامين وصاحبه والمستأجرين (...) فكان لاسمه عيسى عليه السلام مَعْنَى مباشرا وإنذار إلى يهود بنى إسرائيل بانتهاء زرعهم وانتقاله إلى زراع آخرين فى أرض أخرى أكبر وأعم من منطقة فلسطين المحدودة. وبمجيء عيسى عليه السلام أعيست أنبياء بنو إسرائيل فكان عليه السلام آخرهم.[230]" اهـ

إذا فالاسم عربي الأصل ويشير إلى دور عيسى الذي سيقوم به، يضاف إلى هذا اكتشاف مخطوطات في كشمير الهندية تسميه "Issa"، وتذكر اجتماعه بملك من ملوك الهند![231]

[230] جمال الدين شرقاوي، معالم أساسية ضاعت من المسيحية، ص.164-166.

[231] ثمة رأي يقول أن المسيح بعد نجاته من حادثة الصلب ذهب إلى الهند، وتحديداً إلى كشمير، ليدعو باقي قبائل بني إسرائيل الذين لم يعودوا إلى بلادهم بعد الأسر البابلي، وانتقلوا إلى الهند وغيرها من البلاد! وثمة قبر في كشمير يقال أنه قبر المسيح!

يحيى

كما يؤمن المسلمون بأن المسيح كان اسمه عيسى، يؤمنون كذلك أن يحيى كان اسمه "يحيى" وليس يوحنا، فالله تعالى هو من سمّاه بهذا: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيًّا ۝٧﴾ [سورة مريم, ٧]، وقال أن هذا الاسم لم يُسم به أحد من قبله! ومن ثم فمن غير المعقول ألا يذكر الله الاسم الذي سماه به!

وبالإضافة إلى الأسباب السابقة التي تجعلنا نقدم القرآن على الكتاب المقدس، فإننا نضيف شهادة أتباع النبي يحيى، الذين لا يعرف كثيرٌ من القراء أنهم لا يزال لهم وجود حتى زماننا هذا! وهي طائفة الصابئة المندائية (أو الصابغة المنداعية)، وهي طائفة موجودة في جنوب العراق، والذين يقولون أن اسمه كان "يحيى يوحنا"! ومن ثم يمكننا معرفة من أين أتت الأناجيل بكلمة "يوحنا"، فلقد أخذت النعت المشتهر، وأهملت الاسم نفسه! وسمات النبي يحيى عند هؤلاء الطائفة أقرب بكثير للقرآن مما جاء في الأناجيل، فهو عندهم نبي ذو كتاب[232]، وكان يلبس وأتباعه الثياب البيض ويصبغ أتباعه في الماء، ومن هنا أتى اسم "الصابئة/الصابغة"!

كما يرون أنه لم يمت مقتولاً، تحقيقاً لرغبة فاجرة ماجنة، وإنما أتاه جبريل يسأله إذا كان يرغب في التحرر من الجسد الفاني وفي الذهاب إلى عالم النور، فوافق! وعلى الرغم من عدم جزمنا بهذه الرواية، إلا أنها تنسجم مع ما قاله الرب في كتابه: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيًّا ۝١٥﴾ [سورة مريم, ١٥]. وقد يكون النعت الذي لازمه عند أتباعه "يوحنا" هو تجليات الهبة التي وهبه الله إياها وهي الحنان: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣﴾ [سورة مريم, ١٣]، فربما يكون المقصود أنه يحيى ذو الحنان!

[232] هناك تشابه كبيرة بين تعاليم النبي يحيى في كتابه المسمى "كنز ربا" وبين تعاليم الدين الإسلامي في كثير من الطقوس مثل الصلاة والصوم والوضوء ... الخ، ويمكن للقارئ الكريم التعرف على أوجه التشابه وعلى الصابئة بشكل عام بإجراء بحث على الشبكة المعلوماتية عن "الصابئة المندائيين"، والإطلاع على معتقداتهم وشعائرهم!

وعلى الرغم من أن الله قال أن يحيى سيدٌ وحصور، إلا أن الصورة الإنجيلية ليوحنا الزاهد الذي يلبس الجلد ويأكل الجراد! هي التي اشتهرت بين المسلمين![233] فأثرت على تصورهم ليحيى .. السيد الذي لا يعيش في البرية!

والقرآن وإن كان لم يذكر تفاصيل حياة يحيى! إلا أن اسمه يعني أنه عاش كما ينبغي وحتى أدّى مهمته، فكان سيدا في قومه، وبإرادته لم يقرب النساء ونبياً إلى قومه من الصالحين، وتعهد أمور النبوة منذ صغره، وعاش محافظاً على الدين الذي كان أبوه يخشى أن يصيبه الضر!

قراءة الأسماء

قد يرى القارئ أن مسألة الأسماء ليست بالمسألة الحتمية، فاختلاف النطق بين جماعة وأخرى أمر وارد، ولا يقدم أو يؤخر طالما اتحدت الشخصيات نفسها. فنقول: ليست المسألة بالهينة، فالخطوة الأولى لقراءة الشخصية، لإجراء مقارنة بين المذكور حولها في كتاب وآخر هو تحديد الاسم في كل كتاب! فإذا اتفق الاسمان أمكن الحديث بيقين عن مقارنة السمات الشخصية، أما إذا حدث الاختلاف في الأسماء، فإن التعامل مع السمات يكون للجزم باتحاد الشخصيتين أو اختلافهما! والمسيح عليه السلام خير مثال لذلك، فالمسلمون يصرون أن اسمه "عيسى"، والمسيحيون يصرون أنه "يسوع" أو "يشوع"، بينما لا يمكن للقارئ في الكتابين الجزم بكون عيسى هو يسوع![234]

[233] تقول الأناجيل أن يحيى التقى عيسى وعمده في نهر الأردن، والسؤال هنا: إذا كان يحيى في العراق فكيف عمّد عيسى في فلسطين؟! فهل ذهب يحيى إلى فلسطين؟ أم كان عيسى في العراق؟! إن القرآن يقول أن أبا يحيى وأم عيسى كانا في نفس البلدة، ومن المنتظر أن يكون الأبناء كذلك! فأين كان الاثنان، في فلسطين أم العراق؟!

[234] على الرغم من وجود أوجه تشابه كثيرة بين عيسى القرآني ويسوع الإنجيلي، إلا أنه ثمة نقاط كثيرة تجعل من الصعب أو المستحيل اتفاقهما، منها أن أخت أم يسوع كان اسمها مريم، وأم عيسى كان اسمها مريم، ومن غير المعقول وجود أختين باسم واحد! ناهيك عن أن أم عيسى كانت بنت عمران وليست أم يسوع كذلك! كما أن الآيات التي ذكرها الله لعيسى غير الآيات التي

وليس ثمة أي إشكالية في قراءة الأسماء القرآنية وإنما الإشكالية كلها في قراءة الأسماء الموجودة في المصادر الأخرى سواء كانت كتب أهل الكتاب أو المخطوطات أو الحفريات! فالمشكلة العويصة أننا لسنا من نقرأ تاريخنا، وإنما يقرأه غيرنا من الغربيين، والذين ينطقون أسماءنا وأسماء سابقينا بلسانهم المعوج الذي تنقصه حروف كثيرة وتنطق أخرى بشكل مختلف، فتتوارث أسماء ما عرفتها المنطقة ولا استعملتها!

ثم يبدأ الباحثون العرب في التعامل معها تبعاً للنطق الغربي لها، وتظهر تحليلات وترجيحات لا قيمة لها ولا نفع، لأنها مبنية على أساس باطل! أما إذا قرءنا نحن تاريخنا بعيداً عن النظريات الغربية والتصورات التوراتية فكلي ثقة أننا سنكتشف عجباً وسنرى كثيراً مما طمسه علماء الغرب بقراءتهم الموجهة .. أو المعوجة! والتي عملت على إقامة حاجز كبيرٍ بيننا وبين تراثنا وتاريخنا وأجدادنا، والتي قدمتهم لنا كحضارات كافرة! ونضرب للقارئ مثالاً على ما يمكن ألا نراه وهو أمام أعيننا بسبب القراءة المعوجة!

تتحدث كتب التاريخ عن طائفة يهودية اسمها "الأسينية" **Essenes**، وهي طائفة ظهرت في فلسطين في القرن الثاني قبل الميلاد، عُرفت بالزهد والطهارة والمحافظة على تعاليم الشريعة وحاربوا الانحرافات التي كانت قد نزلت بالطائفة اليهودية، وكانوا يرتدون الثياب البيضاء (مثل أتباع يحيى!)، وكان لهم قائد يُعرف باسم "معلم الحق"، وهذا المعلم عُلق حياً على خشبة "صُلب"! وللتشابه الكبير بين تعاليم هذه الطائفة وبين تعاليم المسيحية قال بعض الباحثين الغربيين أن عيسى (ويحيى) كان أحد أتباع هذه الطائفة!!

ولأن اسم الطائفة غامض، ولا يعرف الباحثون أصل اشتقاقه قال بعضهم أن كلمة "أسينيون" كلمة يونانية تعني الصامتون أو الورعون! وهذا من العجب، فلماذا تسمي الطائفة اليهودية الملتزمة نفسها باسم يوناني؟! إن اسم الطائفة من اللسان العربي لا

أتى بها يسوع! والآيات المذكورة في القرآن هي حصرا آيات عيسى فلم يأت بغيرها، ومنها أن الله تحدث عن إنجيل أُنزل إلى عيسى، بينما لا ذكر للإنجيل مع يسوع!

محالة ومن ثم فعلينا البحث عن معناه فيه! فإذا نظرنا في العربية بحثاً عن اسم يمكن نسبة هذه الطائفة إليه، وجدنا أن أقرب اسم لها هو "عيسين"!

فهل تكون الطائفة الأسينية هم أتباع عيسى الأوائل الذين نُسبوا إليه، ويكون معلم الحق هو عيسى؟! هذه الاحتمالية –التي نرجو أن تنال حظها من البحث– تعطي مثالاً مخيفا يقول أنه من الممكن أن نظل نبحث عن أمة أو عن نبي في كتب التاريخ ومخطوطاته لسنين عديدة، ولا نصل إلى شيء .. لمجرد قراءة خاطئة لحرف .. أتبعها بناء جبل من التصورات الخاطئة وارت الأمة .. أو أضاعت النبي!!

الخاتمة

"لم نقل إلا القليل .. ولا يزال هناك الكثير والكثير ليقال"

هذا ما يمكننا قوله بعد هذا التناول الطويل للقصص القرآني، الذي لا يمكن أن يسعه أي كتاب مهما كبر حجمه وعظمت مساحته! ولكن يكفينا أننا مهّدنا الطريق لتناول سليم لقصص القرآن، وصححنا النظرة التي كان يُنظر بها إليه، وأبطلنا منهج "التبعية" الذي أسس له السابقون واعتمدوه في تفسيرهم للقرآن! وقدّمنا تأصيلاً جديداً – مستخرج من القرآن– في التعامل مع قصص القرآن والنظر إليه، فلا يعود يُنظر إليه كمجموعة قِصص أو نصوص ذي بلاغة عالية، وإنما كتعريف بمنهج الرحمن في هداية الإنسان، وبراهين وحجج على صدق دعاوى القرآن، ومن ثم فلا يحتاج إلى تفسير أو إلى إكمال، ويحتاجه كل ما عداه من التراث التاريخي والديني للحكم بصوابه أو بعدمه.

ولأن الخلل في التعامل مع قصص القرآن كان –ولا يزال– كبيراً وعلى كافة المستويات، لم نستطع إلا أن نقدم نماذج قليلة، تبين الغاية التي من أجلها قُص في كل سورة من سور القرآن وتربط القصص بسوره، لأن هذا كان سيحتاج إلى كتب فوق الكتاب! وإلى سنوات وسنوات[235]! ولهذا كان النصيب الأكبر في التناول هو لتقديم أكبر قدرٍ من قصص القرآن كما قدّمه القرآن، لأن هذه هي الخطوة الأولى لتشكيل تصور إسلامي، خالٍ من الخرافات والأساطير، حول المنهج الرباني في إرسال الرسل ومخاطبة البشر وإقامة الحجة عليهم، وكيف أنه شتان بين المنهج الرباني في مخاطبة الإنسان، والذي عرضه الله في قصصه، والقائم على مخاطبة العقل بالدرجة الأولى، والذي يدعو للنظر في الأحداث والوقائع وربطها ببعضها، ومن ثم الخروج بنتيجة

[235] إذا يسّر الله العليم لنا وفتح علينا، سنواصل بإذنه وعونه تقديم تناولنا لسور القرآن وإبراز وحدتها الموضوعية، ومن ثم علاقة القصص الموجود فيها بها، إذا كان في العمر بقية على صفحات موقعنا الشخصي: www.amrallah.com

واحدة، يصبح الإيمان هو الاحتمالية الوحيدة المقبولة، منهج يعتبر كل ما حول الإنسان آيات، يخاطبه بها!

شتان بينه وبين ذلك المنهج المختَلق القائل بالإيمان استناداً إلى عجز العقل عن تفسير ظاهرة حدثت أمامه واعتبار عجزه حجة كافية للإيمان، (على الرغم من انعدام الحجية على من لم ير المعجزة)، والذي أخرج أجيالاً كثيرة من المسلمين، تظن أن التدين والإيمان يعني أن تتقبل كل ما أتى به الدين، بغض النظر عن موافقته للعقل والواقع أو مخالفته! مع أن القرآن عاب على غير المؤمنين عدم نظرهم فيما حولهم وعدم تفكرهم فيه، وربط استحقاق العذاب بإصرارهم على ما هم عليه بلا بينة! وفارق عظيم بين من يقول: الغ عقلك واتبعني! وبين من يدعوك للنظر فيما حولك للتأكد من صدقه!

واستناداً لقولنا بهيمنة القرآن على كل ما سواه، قدّمنا تناولاً غير مألوف لبعض آيات قصص القرآن، تناولٌ لا يعتمد على سرد أحداث أو وقائع، وإنما يعتمد على استخراج الصورة المنثورة في القرآن لقضية ما، ثم الحكم من خلال هذا التصور المستخرج على ما لدينا من "المعلومات"، واستطعنا بهذا التناول كشف زيف كثير من المزاعم التاريخية، المأخوذة من التوراة، والتي تعتبر عند كثيرٍ من المسلمين من المسلّمات البديهية! ووجهنا ضربة قاصمة لمن يقول بأخذ القرآن من التوراة والإنجيل! فبالإضافة إلى إظهارنا الاختلاف الشاسع بين المنهجين في القص، أظهرنا أن الاتفاق بين القرآن والتوراة في الأحداث والشخصيات لا يكاد يزيد في كثير من الأحيان عن الاتفاق في الأسماء —إن اتفقت!— وفي مواقف لا تصل إلى أصابع اليد الواحد!

وبتناولنا هذا لقصص القرآن بيّنا للقارئ عظم الفارق بين ما قصّه القرآن وبين ما قدّمه المفسرون، وأن الظن أن كليهما واحد لا يعني إلا عدم تدبر القرآن! وأظهرنا له كيف أن الفارق بينهما كبير وأن البون شاسع وأنه لا يعرف عن قصص القرآن إلا أقل القليل! وكيف أن جل ما يسمعه أو يشاهده أو يقرأه حول قصص القرآن ليس من القرآن في

شيء وإنما هو من كلام الناس واختلاقاتهم، التي لا تكتفي بالزيادة على كتاب الله، وإنما تخالفه مخالفة جليّة، لا يتحرج كثيرون من لي أعناق النصوص القرآنية من أجلها! ومن ثم فنسبته إلى القرآن نسبة غير صحيحة، والأصح أن يُسمى "قصص التوراة" أو "خرافات القصاصين"!

ونحن نعرف أن القارئ سيُصدم من كثير من الحقائق المذكورة في الكتاب، وربما تدفعه ألفة المشهور إلى رفضها، لذا ندعوه إلى النظر مراراً فيما قلنا، والتساؤل: هل زدنا عمّا قاله القرآن؟! إن الزيادات التي قلنا بها لم تكن إكمالاً للنص، وإنما استنتاجات مترتبة على فهم النص كما هو، واكتفينا في تقديمنا الاستنتاجات على الاستنتاجات المباشرة المترتبة على كل نقطة، ولم نحاول أن نقدم التصورات العامة التي خرجنا بها حول الدين والرسالة ودوره في حياة الإنسان، حتى لا يظن القارئ أن الكتب وُضع لهذا فيرفض ما فيه!

وختاما نقول: لا يعني قولنا أن قصص القرآن قصّ موجه، لا يعني هذا أننا نمنع تناول قَصص القرآن كقِصص، فهذا مما نحتاجه لنعرف أطفالنا منذ صغرهم بأنبياء الله وبالدين، إلا أنه ينبغي ألا يُزاد على النص القرآني إلا في حدود أقل القليل وما يكون ضرورياً لإعطاء صورة ما، ولا يكون مخالفاً للقرآن! ونعود فنقول: تناول قصص القرآن كقِصص هو للأطفال فقط ... وليس للراشدين!

جعلنا الله وإياكم ممن يؤمنون بآياته ومن الذين يتبعون سبيل الرشد، وجنبنا وإياكم التكبر عن الحق واتخاذ الغي سبيلا! وندعو الله الحليم الكريم أن يجعل هذا الكتاب في ميزان حسناتنا، إنه ولي ذلك والقادر عليه!

كان الفراغ من هذا الكتاب في يوم الأحد الموافق الثاني عشر من شهر صفر، من عام اثنين وثلاثين وأربعمائة وألف، بعد الهجرة المشرفة، الموافق السادس عشر من شهر يناير من عام إحدى عشر وألفين، بالتقويم الميلادي!

سرد لأهم المراجع

* القرآن الكريم

* الكتاب المقدس

* إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1999.

* فخر الدين محمد بن عمر الرازي، تفسير مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 2000.

* محمد بن أحمد القرطبي، تفسير الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، 2003.

* محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1997.

* محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى،2000.

* سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، المعجم الكبير، تحقيق : حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم – الموصل، الطبعة الثانية ، 1983.

* محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع المسند الصحيح، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، 1422.

* محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1990.

* أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، 1999، دار الجيل، بيروت.

* جمال الدين بن منظور، معجم لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة.

* أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني، الكامل في التاريخ، تحقيق: عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415.

* أحمد حجازي السقا، من الفروق بين التوراة السامرية والعبرانية في الألفاظ والمعاني، دار الأنصار بالقاهرة، الطبعة الأولى، 1978.

* أحمد علي المجدوب، أهل الكهف في التوراة والإنجيل والقرآن، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الثالثة، 1998.

* أحمد عيسى الأحمد، داود وسليمان في العهد القديم والقرآن الكريم، حقوق الطبع للمؤلف، 1990.

* إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، 1988.

* إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، قصص الأنبياء، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار الكتب الحديثة، الطبعة الأولى 1968.

* الحسن بن أحمد الهمداني، صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوع الحوالي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، الطبعة الأولى، 1990.

* جمال الدين شرقاوي، نبي أرض الجنوب في الأسفار اليهودية والمسيحية، دار هادف للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى.

* جمال الدين شرقاوي، معالم أساسية ضاعت من المسيحية، دار هادف، الطبعة الأولى، بدون تاريخ نشر.

* جمعية التجديد الثقافية، طوفان نوح بين الحقيقة والأوهام، مملكة البحرين، الطبعة الأولى، 2005.

* جمعية التجديد الثقافية، اختطاف جغرافيا الأنبياء، مملكة البحرين، الطبعة الأولى، 2005.

* حسني يوسف الأطير، ابن عباس وتحريف منهج القرآن في مبتدأ الدعوات الإلهية، مكتبة النافذة، الطبعة الأولى، 2009.

* خالد علي نبهان، قوم عاد وإرم ذات العماد، مكتبة النافذة، الطبعة الأولى، 2006.

* خضر شايب، قصة الذبيح بين الروايات الكتابية والإسلامية، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 2001.

* رشدي البدراوي، قصص الأنبياء والتاريخ، الجزء الأول، 1996.

* زياد منى، جغرافية التوراة، مصر وبنو إسرائيل في عسير، رياض الريس للكتب والنشر، الطبعة الأولى، 1994.

* سويد الأحمد، الخبر بالبرهان والدليل على أن النبي يعقوب غير إسرائيل، دار الأوائل، الطبعة الأولى، 2006.

* عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة.

* علي فهمي خشيم، هل في القرآن أعجمي: نظرة جديدة إلى موضوع قديم، دار الشرق الأوسط، بيروت، الطبعة الأولى، 1997.

* عمرو الشاعر، عائشة أم المؤمنين العبقرية المفترى عليها، مكتبة النافذة، الطبعة الأولى، 2010.

* فتحي محمد الزغبي، قصة الذبيح عند أهل الكتاب والمسلمين، دار البشير للثقافة والعلوم، طنطا، الطبعة الأولى، 1994.

* كارم محمود عزيز، أساطير العالم القديم، الطبعة الأولى 2007، مكتبة النافذة.

* كمال الصليبي، التوراة جاءت من جزيرة العرب، ترجمة: عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، الطبعة العربية السادسة، 1997.

* محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، تحقيق: محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الثانية، 1988.

* محمد أحمد خلف الله، الفن القصصي في القرآن، سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربي، الطبعة الرابعة، 1999.

* محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية من القرآن، في بلاد العرب، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، 1988.

* محمد حسين الذهبي، الإسرائيليات في التفسير والحديث، مكتبة وهبة، الطبعة الرابعة، 1990.

* مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مكتبة وهبة، الطبعة الحادية عشر، 2000.

* نضال دويكات، قصة موسى مع فرعون بين القرآن والتوراة، دراسة مقارنة (رسالة ماجستير) بكلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2006.

* همام حسن يوسف، سليمان في القرآن (رسالة ماجستير) بكلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2006.

مؤلفات عمرو الشاعر

* لماذا فسروا القرآن؟ القرآن بين التقييد والهجران

* عقائد الإسلاميين بين وحدة المنهج وتباين الأحكام

* القرآنيون مصلحوم أم هادمون؟

* السوبرمان بين نيتشه والقرآن

* نشأة الإنسان بين القرآن والتوراة ونظرية دارون

* قراءة لسور الطعن

* السيدة عائشة والتاريخ المشوه

* قصص القرآن القرآني

* الجن .. الأرباب المختلَقة

* القرآن سورة واحدة جزء عمّ نموذجاً

* السلفية .. منهج إسلامي؟

* فقه الإنسان محاولة تأصيلية تأسيسة

* رواية خواطرٌ شواذ

* القنطرة I في قواعد اللغة الألمانية

* القنطرة II تكلم العامية الألمانية

الفهرست